

مذكرات لورد غراي

ونتيجة الحرب العالمية الكبرى

بقلم وزير خارجية بريطانيا سابقا من سنة ١٨٩٢ الى سنة ١٩١٦

تعريب

جمادى الاولى سنة ١٣٤٨ — نوفمبر سنة ١٩٢٩

المطبعة الرحمانية بمصر

لصاحبها [illegible]

مذكرات لورد غراي

ونبعة الحرب العالمية الكبرى

بقلم وزير خارجية بريطانيا سابقا من سنة ١٨٩٢ الى سنة ١٩١٦

تعريب

علي احمد شكري

جمادى الاولى سنة ١٣٤٨   نوفمبر سنة ١٩٢٩

المطبعة الرحمانية بمصر

لصاحبها [illegible]

مراجع الكتاب

Isvolsky and the World War.

New Universal Review. by Bainvillé

Memoirs of a Turkish Statesman.

Let France Explain by Dr Bausman.

Count Vitte's Memoirs.

My Dairy by Colonel Repington

Truth and the War by Mr Morel.

How Diplomats make Wars by Mr Nelson M. P.

Ten Years of Secret Diplomacy by Mr Morel.

Before the War by Lord Haldane.

"1914". by Lord French of Ypres.

The first World War by Col. Repington,

How the War came ? by Lord Loreburn.

The Supreme War Council by Capt. Wright.

The Balkan from Within by Reginald Wgon.

The German Empire between Two Wars by Fife.

The Balkan Peninsula by Mr. Fox.

Peaceless Europe by Sig. Nitti.

British White Book.

The Diplomatic History of the War by Philips Price.

My Memoirs by Ex-Kaiser Wilhelm.

Bismark. by Ludwig

Genesis of the War by Mr Asquith.

Causes of My Resignation by Lord Morley

These Eventful Years.

"Times" History of The War.

Out of My Life by Hindenburg

Ludendorff's Memoirs.

My Memoirs. by Admiral von Tirpitz

Lord Lansdowne's Memoirs.

Lord Beaconsfield's Letters.

Origins of the world War by Professor Fay

The Policy of the Entente by the Hon. Bertrand Russell — 1904 1914

Belgium and the Scrap of Paper. by Brailsford.

Common Sense and the War by George Bernard Shaw.

What is Diplomacy ? by Charles Hayward.

Life of Gladstone by Lord Morley.

Etc. Etc. Etc.

فهرست الكتاب

صحيفة

صحيفة

صحيفة

نهاية الحرب وتنازل الإمبراطور عن العرش ١٦١

بقلم غليوم الثانى

صحيفة

صحيفة

الفصل السادس — الأزمة الأولى

أزمة الجزيرة والمحادثات العسكرية

فهرست الصور

صحيفة

صحيفة

صحيفة

مذكرات لورد غراي

وزير خارجية بريطانيا العظمى سابقاً

تعريب

علي احمد شكري



المعرب

مقدمة المعرب

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وصلى الله على سيدنا محمد رسوله الأمين من بعث بالحق وفصل الخطاب. وبعد فهذه مذكرات لورد غراى وزير خارجية بريطانيا العظمى سابقا. وإذا قلنا لورد غراى فقد قلنا الرجل الذى كان يشرف على تقديرات الأمبراطورية البريطانية بأسرها لا بل هو الذى لبث يتحكم فى مصير الشعوب على بكرة أبيها زهاء خمس وعشرين سنة. فلا غرو ان جاءت مذكراته جامعة لشتات حوادث الشرق والغرب والشمال والجنوب فلم تترك شاردة ولا واردة إلا أحصتها. ومن عسى أن يكون أكثر من لورد غراى الماما بمختلف الشؤون العالمية وهو الذى سرد علينا فى سياق مذكراته ماتتبعه وزارة الخارجية البريطانية من نظام عجيب يستطيع بمقتضاه الوزير المختص أن يضع أصبعه عند أول اشارة على المستندات الخاصة بأية مسألة عويصة قد يثور حولها الجدل فى مجلس العموم؟

أهمية مصر فى نظر السياسة البريطانية

لسنا نحاول فى مقدمتنا هذه تعقب صاحب المذكرات ولا تفنيد نظرياته الواحدة بعد الأخرى وهو عمل قد يحتاج إلى مجلد ضخم ولكننا نكتفى بذكر بعض مسائل مهمة لانبالغ إذا قلنا انها ربما كانت غيرت وجه التاريخ لو كان لصاحب المذكرات موقف غير موقفه حيالها.

فلا يكاد القارئ يتصفح المذكرات حتى تستلفت المسألة المصرية نظره

ولعلها كانت أول مسألة أوجدت أول سحابة من سحب سوء التفاهم بين انجلترا وألمانيا . وهل نغالى إذا قلنا أن المسالة المصرية كانت المحور الذى دارت ولا تزال تدور عليه سياسة بريطانيا العظمى منذ افتتاح قناة السويس إلى يومنا هذا ؟



صاحب المذكرات اللورد غراى

فبينما ترى صاحب المذكرات يشيد بنهج السياسة البريطانية السلمى حيال المانيا إذا به يعترف ضمنا فى الفصل الاول انه برغم أن التحالف الثلاثى كان لايزال أقوى عامل فى السياسة الاوربية فان بريطانيا العظمى لم تحاول فى خلال الفترة المذكورة (يقصد إلى ما قبل سنة ١٩٠٤) أن توجد توازنا

آخر ضد تلك الكتلة القوية (أى التحالف الثلاثى) . وقد لايرى القارىء شيئا فى هذه العبارة البريئة ولكنك سترى ان انجلترا لم تقدم وقتئذ على تلك المحاولة إلا لاقتناعها بأنها غير مجدية . وقد بين لنا صاحب المذكرات نفسه السبب . فقال فى مكان آخر من مذكراته « أن الامبراطورية البريطانية كانت فى تشاد متواصل مع فرنسا وروسيا » فهل تدرى علام كان التشاد مع فرنسا ؟ كان على مصر . أما مع روسيا فان التشاد كان حول فارس من ناحية والاستانة والبواغيز أو تراث « الرجل المريض » كما اصطلحت السياسة الاوربية على تسمية تركيا ، من ناحية أخرى .

ولقد حدثنا صاحب الترجمة بان بريطانيا كانت تعتمد بادىء ذى بدء على المانيا فى تنفيذ السياسة الانجليزية فى مصر وقد بين لنا كيف كان ذلك التأييد فى مقابل ثمن باهظ لأن السياسة البريطانية كانت مضطرة في كثير من المواقف إلى مداراة المانيا ومصانعتها فى مختلف نواحى العالم . ولكن السياسة المذكورة ما كادت تسنح لها فرصة الاستغناء عن التأييد الألمانى واستبداله بتأييد فرنسا وروسيا حتى انتهزتها وقلبت ظهر المجن لألمانيا وأخذت تتورط فى مشاكستها وتضييق الخناق عليها فى مختلف أقطار المعمور .

بريطانيا « والرجل المريض »

فمن أجل الانفراد بالسيطرة على مصر عقدت بريطانيا « الاتفاق الودى » فى ٧ ابريل سنة ١٩٠٤ وهو الذى استغلته فرنسا لتنفيذ سياسة « الانتقام » وغسل عار هزيمتها فى الحرب السبعينية .

ولما كانت روسيا حليفة فرنسا كان بديهيا ان يؤدى اتفاق انجلترا مع هذه الى اتفاقها مع تلك على ممر الايام . وهو عين ما حدث فى سنة ١٩٠٧ عند ما أدى الحاح فرنسا إلى عقد المعاهدة الانجليزية الروسية التي قسمت البلاد الفارسية إلى منطقتى نفوذ الاولى ـ وهى المنطقة الشمالية ـ وكانت خاضعة للنفوذ

الروسى والاخرى ـ الجنوبية ـ وكانت تحت النفوذ الأنجليزى

ولقد تبادر الى بعض الأذهان وقتذاك أن المعاهدة المذ كورة لم يكن يراد بها غير البلاد الفارسية ولكن حوادث السنين التى تلت عقدها بينت على أن مراميها كانت أبعد من ذلك . فلقد كانت أكبر معول لهدم الامبراطورية العثمانية ليخلو لانجلترا الجو فى سبيل الاستيلاء على مصر من جهة، ومن جهة أخرى ليتم تحقيق أمنية المستر جلادستون وهى طرد الاتراك بقضهم وقضيضهم من القارة الاوربية واعادتهم الى البلاد الاناضولية كما أشار الى ذلك مستر دزرائيلى (لورد بيكونزفيلد) فى أحد الخطابات التى نشرتها جريدة الديلى تلغراف (٧ سبتمبر سنة ١٩٢٩)

تركيا والسياسة الانجليزية

ولا بد لنا من الوقوف هنيهة لنلقى بنظرة عاجله على سياسة بريطانيا قبل معاهدة سنة ١٩٠٧ ولنبين للقارىء كيف قلب لورد غراى هذه السياسة حتى



لورد بيكونزفيلد

أدت الى وقوف تركيا الى جانب ألمانيا فى خلال الحرب العالمية .

فلقد كانت سياسة بريطانيا كما رسمها أقطاب المحافظين وبخاصة لورد بيكونزفيلد تنحصر فى إبعاد روسيا عن حدود الهند بسد طريق البحر أمامها من ناحية

وتقوية الدول الشرقية الواقعة بين روسيا وبين تلك الحدود من ناحية أخرى. لهذا خاضت انجلترا حرب القرم الى جانب الأتراك لكي لا تستولى روسيا على البواغيز والاستانة . ثم أن التاريخ لا يزال يذكر أن انجلترا أرغمت روسيا على سحب معاهدة سان استفانو المشهورة .

ولكن معاهدة سنة ١٩٠٧ بدلت كل هذا . فهى لم تقرب روسيا من حدود الهند على حساب فارس فقط بل فتحت الباب لتمزيق الامبراطورية العثمانية وزعزعت سيطرة الاتراك على البواغيز .

سياسة تمزيق الأمبراطورية العثمانية

فى سنة ١٩٠٨ وعلى أثر إعلان الدستور العثمانى أعلنت النمسا ضم البوسنة والهرسك ونادت بلغاريا باستقلالها مع ضم الروملى الشرقى إلى أملاكها وهو أمر ارتاحت له روسيا — وانجلترا أيضا — كل الارتياح . وفى سنتي ١٩٠٩ و١٩١٠ انتشرت الثورات الداخلية فى اليمن وفى أنحاء مختلفة من الأمبراطورية العثمانية وظهر شبح الخلافة العربية .

وفى خريف سنة ١٩١١ هاجمت إيطاليا الأيالة الطرابلسية وأعلنت الحرب على تركيا مع أن ولى العهد العثمانى كان قبل ذلك بأسبوعين يعانق ملك إيطاليا فى محطة روما ويسمع منه « أن الصداقة بين البلدين لم تكن يوما ما أمتن منها وقتذاك » ! !

ومن غرائب الصدف أن تعلن الحرب الطرابلسية بعد ثلاثة أيام من وصول لورد كتشنر إلى القاهرة كمعتمد لبلاده ! فكانت باكورة أعماله أن « ينصح » الحكومة المصرية بالوقوف على الحياد فى الحرب المذكورة فكان هذا الحياد مناقضا لأحكام معاهدة لندن فى سنة ١٨٤٠ التى نصت على إمكان انتفاع تركيا بالقوات المصرية فى حالة الحرب ! !

وبين كانت حكومة الاتحاد والترقى بعد أن سدت فى وجهها الأبواب

قد عجزت عن مد الطرابلسيين بعدات القتال إلا أنها استطاعت على كل حال أن تحتفظ بالسكينة على حدودها فى شبه جزيرة البلقان . فقدكفى حشدالجيش التركى على تلك الحدود لصد مطامع الذئاب البلقانية .

وفى وسط هذا كله نشبت الثورة الألبانية بزعامة عيسى بولاطين فتخلى الاتحاديون عن الوزارة وتركوها لكامل باشا صديق بريطانيا الحميم .

فهل تعرف ماذا كانت أول نصيحة أسداها لورد غراى إلى هذا الصديق المسكين ؟ لقد نصح إليه بتسريح الجيش التركى رفقا بالخزانة العثمانية التى لا تسمح بابقائه محشوداً ! ! فلما تردد كامل باشا فى قبول « النصيحة » وأشار إلى تحفز الدول البلقانية أكد له صاحب المذكرات أنها لن تجرد الحسام فى وجه تركيا خيفة غضب أوربا ! !

فانخدع كامل باشا وهو الذى طالما وصفته الصحف الانجليزية بانه أمهر سياسى فى الشرق ! وما هو أن سرح الجيش وأمر بترحيله إلى بلاده فى الأناضول حتى دوت المدافع واندلعت ألسنة الحرب فى البلقان وانقضت على تركيا دويلاته وساعدتها روسيا بجيش كبير من المتطوعين انخرطوا فى صفوف صنائعها البلقانيين.

حياد انجلترا المزعوم فى الحروب البلقانية

وكان كثير من الناس — وفى طليعتهم رجال العسكرية الانجليز — يعتقدون إلى ذلك الحين أن بقايا الجيوش التركية التى لم يتم تسريحها بعد قادرة على سحق التحالف البلقانى . وقد ظهر صدى هذا الاعتقاد في خطبة ضافية ألقاها لورد غراى فى أوائل تلك الحرب المشؤومة أكد فيها استحالة حدوث تغيير فى خريطة البلقان بقطع النظر عن الغالب والمغلوب . ولكنه ما كاد يطمئن إلى رجحان كفة الحلفاء البلقانيين بعد أن وصلت جيوشهم إلى خطوط شطلجة — بينما كان صديقه كامل باشا يستغيث ويستنجد بصدقائه فلا يستمع له أحد — حتى أعلن فى غير ما تردد « أن من الظلم الصارخ أن يحرم الظافر أن يجنى ثمار ظفره !

ثم تلاه المستر لويد جورج فخطب بدوره «بأن الحرية لابد من توسيع حدودها» ! وعلى حساب تركيا طبعا .

وإذا ذكرنا أدرنة ذكرنا ما يفهمه ساسة أحرار الانجليز من لفظة «الحياد» .
فقد أرغم الحلفاء البلقانيون وزارة كامل باشا على طلب الصلح وكان الجنرال شكرى باشا لايزال يستبسل فى الدفاع عن أدرنة . فعقد مؤتمر لهذه الغاية فى لندن برئاسة صاحب المذكرات ولكن انفرط عقده بعد بضع جلسات بسبب تعسف الوفد البلغارى وفداحة مطالبه .

وما كادت وفود الصلح تعود إلى بلادها حتى الفت الخلاف قد استحكمت حلقاته بين الحلفاء البلقانيين وسرعان ما تحول التراشق بالاقوال إلى تحكيم الحسام لتقسيم الغنيمة التركية .

وفى أبان هذا سقطت وزارة كامل باشا بعد مقتل كاظم باشا وزير الحربية وكان سقوطها نتيجة السخط الذى أخذ يشتد فى تركيا على الوزارة على أثر ما أشيع عن اعتزامها تسليم أدرنة للبلغار قبل سقوط حاميتها . على ان عودة الاتحاديين إلى منصة الحكم تلاها سقوط أدرنة فى أيدى البلغار بعد دفاع خمسة أشهر .

وبينما كان الاتحاديون يفكرون فى سبيل استعادتها كانت الصرب واليونان قد زحفت جيوشهما على صوفيا فسبقتهم إليها جيوش رومانيا التى عسكرت على بعد ٢٠ ميل من العاصمة البلغارية وحالت بذلك دون تمزيق شمل بلغاريا على أيدى حلفائها السابقين .

ورأى ساسة الاتحاديين فى اختلاف بلغاريا مع حلفائها فرصة نادرة لاستعادة بعض أراضيهم فكر جيشهم بقيادة أنور باشا على الجيش البلغارى معسكر حول شطلجة وتعقبه إلى أسوار أدرنة التى سقطت فى أيدى الاتراك بعد أيام قلائل وجعل يطارده إلى ما وراء نهر المريج .

إلى هنا كان الحكم الفصل للحسام مع أن انجلترا كانت قد تعهدت لتركيا،



أنور باشا وجمال باشا

عند الاستيلاء على جزيرة قبرص وقبلها فى مؤتمر برلين بأن ندفع عنها كل أذى وأن تسهر على صيانة أملاكها. ولكن ما كادت تركيا تستولى على أدرنة حتى وقف المستر اسكويث خطيباً فى برمنجهام ينذر الأتراك بأسوأ العواقب إن هم أصروا على الاحتفاظ بتلك المدينة المقدسة. ثم هددهم أولاً بأن يحبس عنهم المستشارين الانجليز الذين كانت تركيا قد التمست فى طلبهم لاصلاح بلاد الأناضول. ولما لم يصغوا إلى تهديده هذا صرح بتسليم الدول الأوربية إلى

عمل مظاهرة بحرية ضدها . ولكن هذا الاقتراح لم يكلل بالنجاح بسبب رفض المانيا والنمسا و إيطاليا الاشتراك فى المظاهرة .

ولما كان الشعب البريطانى عرف بحب العدل والانصاف فقد تذمر لهذا « الحياد » الذى لايتفق وما يعرفه من قواعد النزاهة . ثم لم تكن إلا أيام قلائل حتى وقف المستر بونارلو زعيم المحافظين فى مجلس العموم وندد بخطبة المستر اسكويث فى برمنجهام وقال « ما دامت بريطانيا قد أعلنت حيادها فى هـذه الحرب فان شرفها يقضى بعدم التدخل فى مسالة أدرنة بعد أن استردها الأتراك من أعدائهم ! » ومن الغريب أن الحكومة التركية بينما كانت تحتج على أقوال المستر اسكويث كان الشعب التركى يهتف فى طرق الاستانة للعدل البريطانى و يحمل صورة المستر بونارلو وقد كتب تحتها « ليحيا الشرف البريطانى ! »

وبقى الاتحاديون محتفظين بادرنة الى أن عقدت معاهدة بوخارست فخرجوا منها بتراقيا الشرقية التى كانت استولت عليها بلغاريا وتنازلت هذه عن اقليم دوبريجه لرومانيا كتعويض لها عن صد الصرب واليونان اللتين تنازلت لهما بلغاريا عن كافة مطامعها فى مقدونيا .

ونستسمح القارىء ان كنا قد فصلنا بعض التفصيل فى شرح هذه الحوادث ولكنا تعمدنا هذا لأنه يبين لنا أن امعان الاحرار الانجليز فى تطبيق سياسة زعيمهم المستر جلادستون بالنسبة لتركيا كانت نتيجته فى النهاية القاء الاتراك فى أحضان المانيا عند نشوب الحرب العالمية كما سنبينه فيما يلى .

وقد سلك زعماء الأحرار مسلك زعيمهم جلادستون فى العداء لتركيا . فقد نصح هذا بطرد الأتراك من أوروبا بقضهم وقضيضهم كما خطب مرة فى ابان الحرب التركية اليونانية وقد كانت الجيوش التركية على أبواب أثينا فقال « بأن ما أخذه الصليب من الهلال لن يعود الى الهلال » . ثم ها نحن قد رأينا موقف المستر اسكويث فى خطبة برمنجهام التى سبقت الاشارة اليها . كذلك وقف المستر لويد جورج يخطب فى مانشستر فى سنة ١٩٢٢ وهو

رئيس الوزارة الائتلافية ويهيب بالمستعمرات أن ترسل جنودها لصد الخطر الكمالى عن قلعة جناق وينذر المدنية الغربية بسوء العقبى ان هى لم تتضافر على الوقوف فى وجه الغزاة الأتراك !! ولعلك تذكر تعنت لورد كيرزوز فى مؤتمر لوزان الأول لأنه كان يستمد الوحى من رئيسه المستر لويد جورج .
على أن خطبة مانشستر هذه بينما هى أوقعت المستعمرات فى حيرة وأثارت حفيظتها على هذا الرجل الذى يريد — مراعاة لصديقيه فنزيلوس وزخاروف — أن يزج بالامبراطورية البريطانية فى حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل ، فانها عجلت بانسحاب المحافظين من وزارة الائتلاف . وسرعان ما الفى المستر لويد جورج نفسه منبوذا من كافة أحزاب بلاده فسقطت وزارته غير مأسوف عليها وشكل المستر بونارلو وزارة من المحافظين كانت باكورة أعمالها ارسال لورد كيرزون الى لوزان لاصلاح ما أفسده فى المؤتمر على عهد وزارة المستر لويد جورج .

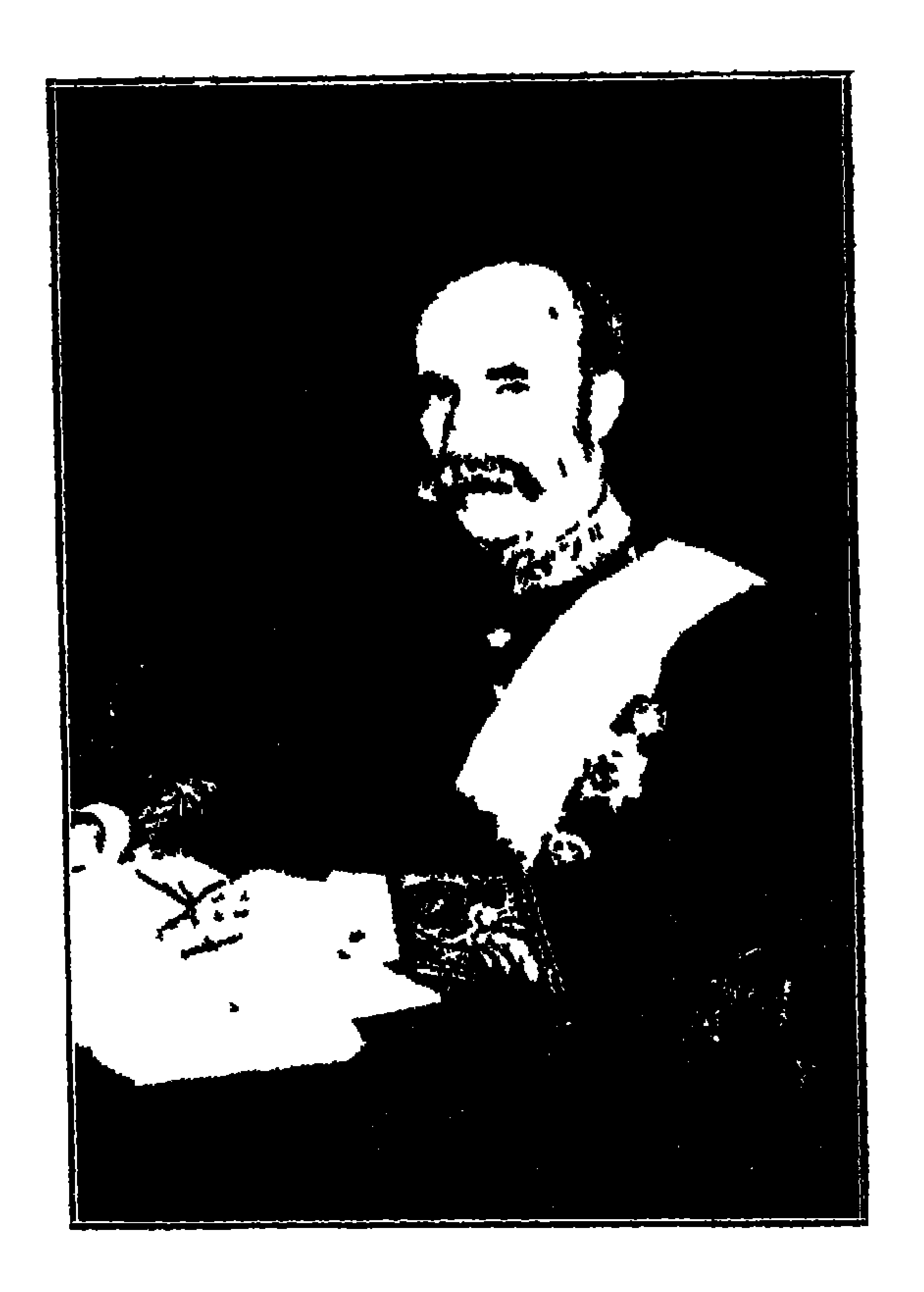
ونعود الآن الى معاهدة بوخارست فنقول انها وان كانت سوت المشكلة البلقانية الكبرى إلا أنها تركت عدة نقط أخرى معلقة كمشكلة جزر الدوديكانيز التى كانت قد احتلتها ايطاليا فى ابان الحرب الطرابلسية . فقد رفضت اعادتها الى الأتراك خشية أن تستولى عليها اليونان بسبب تفوقها البحرى . هنا شرعت الحكومة التركية فى شراء بارجتين حربيتين من انجلترا ودفعت معاجمته من تبرعات العالم الاسلامى نصف ثمنهما وعولت على استخدامهما ضد اليونان . ولكن ما كادت تشتعل نار الحرب الاوربية حتى وضعت الحكومة البريطانية — فى عهد وزارة المستر اسكويث — يدها عليهما تاركة تركيا تحت رحمة اليونان . وفى استطاعة القارىء أن يدرك مبلغ شكر الاتراك لالمانيا التى عوضتهم فى ساعة الشدة هذه عن بارجتيهم بأخريين لا تقلان عنهما متانة وجودة وهما البارجتان جوبن وبرسلاو

ونحسب أن منصفا لا يسعه أن يلوم تركيا على ميلها الى جانب المانيا فى



البارجة برسلاو

ظروف كهذه وخاصة بعد أن حبطت كل مساعيها فى سبيل التقرب من دول الاتفاق الودى على نحو ما فصله جمال باشا فى مذكراته التى نقلناها إلى العربية . وإذا أراد المؤرخ أن يعلل عداء ساسة الأحرار لتركيا فانه يجد التعليل فى شدة حرصهم على التمسك بمصر وهو حرص لم يقتصر ضرره مع الأسف على تركيا بل كان من أهم الأسباب التى أدت الى نشوب الحرب العالمية . ألم يكن من أجل مصر أن عقد الاتفاق الودى فى سنة ١٩٠٤ كما مر بك وهو الذى قوى عند الحزب العسكرى الفرنسى شهوة الانتقام ودفعه فى تيار سياسة المغامرة التى كانت نتيجتها مأساة سنة ١٩١٤ ؟ وقد يقول قائل أن الاتفاق الودى المذكور عقد لتسوية المسائل المعلقة بين انجلترا وفرنسا بصفة عامة ولم يكن يراد به المسألة المصرية بالذات . ولكن ما قوله وهذا هو لورد لانسدون وزير خارجية بريطانيا سابقا والذى كان عقد الاتفاق الودى على يديه يعلن فى مذكراته التى نشرتها جريدة الديلى تلغراف فى شهر يولية ١٩٢٩ « أن المسيو ديلكاسيه — وزير خارجية فرنسا وقتئذ — أراد أن يراوغ فى ادماج المسألة المصرية ضمن المسائل التى يشملها الاتفاق الودى واقترح تأجيلها الى مفاوضات أخرى ولكن وزارة المحافظين ما كانت لتهتم ببحث أى اتفاق مع فرنسا لا ينظم مركز بريطانيا فى مصر » ؟



لورد لانسدون

ولماذا يذهب الانسان بعيداً في التدليل على حرص انجلترا على التمسك بمصر وها هى الأدلة تترى أمامنا كل يوم على صحة مانقول ؟ ألم تحتفظ انجلترا عند موافقتها على ميثاق كيلوج باخراج مصر من دائرة الميثاق ! ثم أين الوعود المقدسة التى قطعتها انجلترا أمام العالم بالجلاء عن مصر ؟ ألم تصبح كلها مجرد قصاصة ورق وأصبح الساسة الانجليز يعدون الجلاء عن الأراضى المصرية ضربا من المستحيلات لأن قناة السويس تمر فى خلالها مع أن المنطق والمصلحة يحتمان على انجلترا الوفاء بوعودها ؟

ولسنا نقول ذلك جزافا . فلقد حادثنا فى لندن قبل الحرب وفي إبانها وفيما

بعدها عدداً من الساسة الانجليز وبعضا من كبار رجال الصحف وأقنعناهم بأن لاخطر على مصر ولا على القناة طالما احتفظت انجلترا بسيادتها البحرية فى حوض البحر المتوسط . وعلى أن فقد هذه السيادة يعرض أية حامية انجليزية فى منطقة القناة إلى خطر عظيم لأنها تصبح معزولة تماما عن القواعد الانجليزية بل وقد تصبح بين نارين إذا عجزت السياسه البريطانية عن أن تكتسب صداقة المصريين وتتخذ منهم عدة لها فى وقت الشدة . وفى شهر يوليه سنة ١٩٢٩ حادثنا المستر بروكواى وهو أحد أقطاب أعضاء البرلمان العمال والمستر ايوار محرر الديلى هيرالد بل ومحرر النيرايست وغيرها بنفس هذا المعنى واقتنعوا جميعا بهذا الرأى ووعد بعضهم ببذل مساعدتهم فى شرح هذه النظرية لوزارة العمال وطلب البعض الآخر وقتا لترويض الرأى العام البريطانى على فكرة الجلاء التام عن الأراضى المصرية .

اتفاق سنة ١٩٠٤

لقد بينا لك شدة حرص بريطانيا على الاحتفاظ بمصر . بقى أن نبين لك كيف أدى هذا الحرص إلى اغراق العالم فى بحر من الدماء بسبب الحرب العالمية المشؤومة . ففى سبيل ذلك الحرص عقد الاتفاق الودى فى سنة ١٩٠٤ وهو الفصل الأول فى تلك المأساة البشرية الهائلة .

فقد رأت فرنسا فيه فرصة سانحة يمكن استخدامها للسير بسياسة الانتقام إلى غايتها الطبيعية ألا وهى تمزيق شمل ألمانيا واعادتها سيرتها الأولى قبل تكوين الامبراطورية . وأما انجلترا فقد رأت فيه خير أداة لخدمة مصالحها فى مصر عدا احتمال استعماله عند الضرورة ضد ألمانيا إذا حدثتها نفسها يوما ما بمنازعة انجلترا سيادة البحار . وحتى روسيا ابتهجت أيما ابتهاج لعقد الاتفاق الودى . ألم تكن حليفة لفرنسا صديقة انجلترا ؟ ألا تستطيع الحليفة الغربية استعمال نفوذها مع الصديقة الجديدة لمصلحة روسيا فى الشرق ؟ وهو ما حدث

فصلا فى معاهدة سنة ١٩٠٧ التى مر بك ذكرها . وما دام كل ما يهم انجلترا من اتفاق سنة ١٩٠٤ هو توطيد مركزها فى وادى النيل فماذا يمنع فرنسا وروسيا كل بدورها من استغلال الاتفاق الودى المذكور لمصلحتهما ؟ ومصلحة الحليفتين هى هدم ألمانيا الواقفة كحجر عثرة فى سبيل مطامعهما . ففرنسا كانت تريد حديد الالزاس واللورين مع فحم وادى السار والرور لتتم لها السيطرة الاقتصادية على أوربا بينما أدركت روسيا أن الاستيلاء على الاستانة والبواغيز صار بعد الاتفاق الودى يتوقف على أضعاف النمسا وألمانيا .

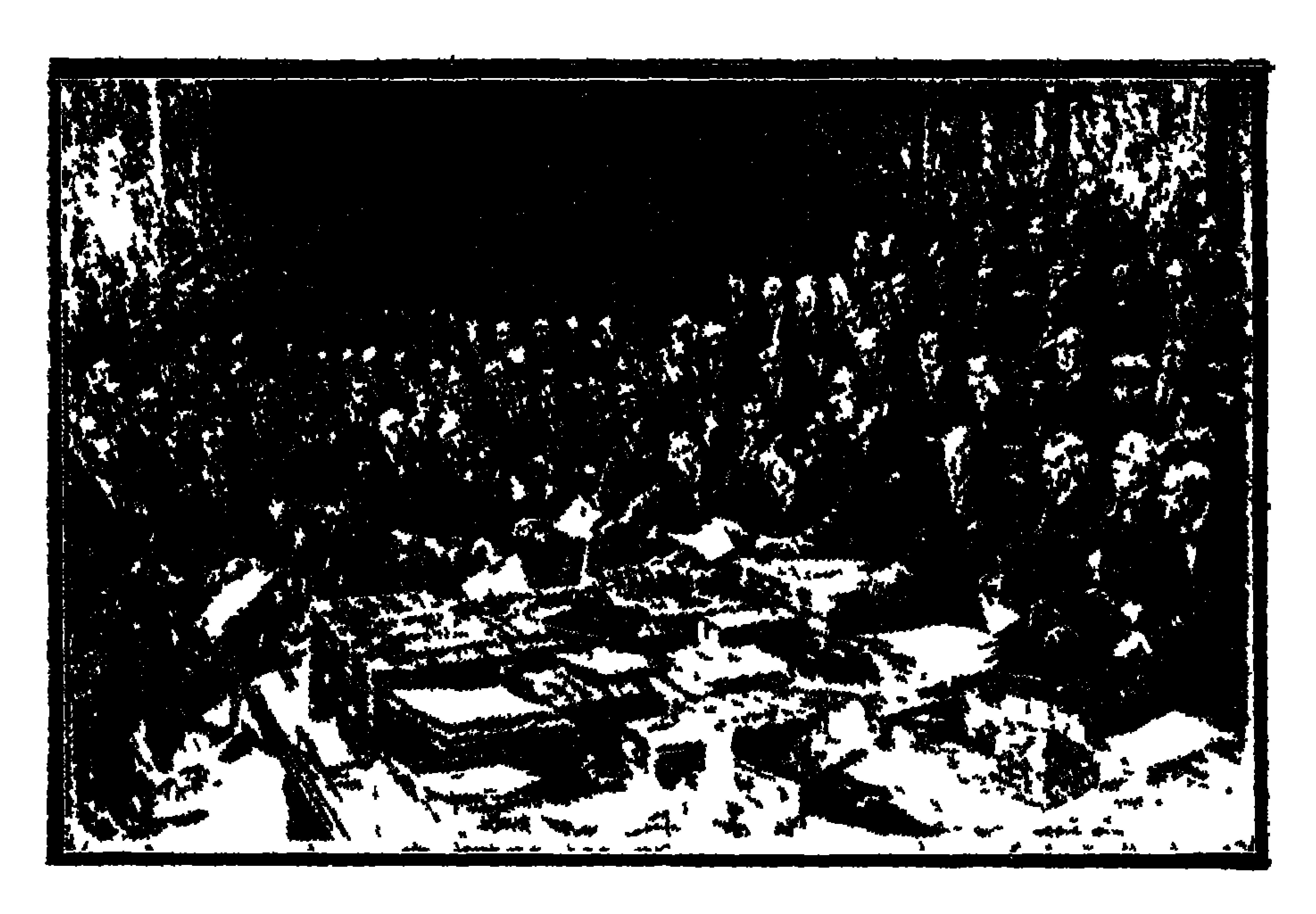
ومن سوء الحظ أن مصلحة فرنسا وروسيا صارت مع الزمن وبفضل دسائس الساسة من خلف الستار مصلحة انجلترا نفسها ، فان ألمانيا بينما كانت تعد العدة لرد عادية خصميها فى الشرق وفى الغرب اصطدمت ببريطانيا التى رأت الفرصة سانحة لاجتياحها والتخلص من منافستها البحرية والتجارية . ومن هذا تبدأ المسؤولية عن الحرب العالمية . فلولا اتفاق سنة ١٩٠٤ ما اجترأت فرنسا ولا روسيا على الكيد لالمانيا ولولاها لما وجدت تلك السحابة التى عكرت صفاء الجو السياسى فى العالم .

نعم ان لورد غراى يبارك ذلك الاتفاق الودى ويرحب به لأنه وضع حدا نهائيا لسياسة وخز الأبر التى كانت قائمة بين فرنسا وانجلترا فى كثير من أنحاء العالم كمصر ومراكش وجزيرة الأرض الجديدة وبعض جهات الشرق الأقصى . ولكن الاتفاق المذكور وان كان قد نجح فى القضاء على السياسة المشار اليها إلا أنه فتح الطريق لتسميم العلاقات الدولية وأوجد على مسرح السياسة مشاكل خطيرة لا تذكر الى جانبها المنازعات الثانوية التى رمى الاتفاق الى تصفيتها . وحسبك أن تعرف أنه لم يمر على عقد الاتفاق بضعة أشهر حتى عصفت أعاصير السياسة فاقصت المسيو ديلكاسيه — بطل الاتفاق — عن كرسيه واجتمع رأى الدول على عقد مؤتمر الجزيرة فى سنة ١٩٠٦ على،

أثر زيارة غليوم الثانى لطنجة . وهو المؤتمر الذى طبع السياسة البريطانية منذ ذلك اليوم بطابع العداء نحو المانيا .

وقد يعتذر البعض عن صاحب المذكرات بأن الاتفاق الودى لم يكن من صنع يده بل كان من صنع سلفه لورد لانسدون ولكن إذا جاز اتهام المحافظين بحب الفتح وخاصة بعد تبرمهم بألمانيا لأنها فطنت الى غاية المستر جوزيف تشمبرلن (أبى السير أوستن تشمبرلن) من الاتفاق الذى عرضه عليها وهى تسخيرها ضد روسيا لخدمة المصالح البريطانية — فماذا عسى أن يكون عذر وزارة الاحرار التى تشكلت بعد ذلك وعقد مؤتمر الجزيرة فى عهدها ؟ لماذا لم يحاول لورد غراى أن يبث فى الاتفاق روحا وديا ؟ ولماذا لم ينتهز مثلا فرصة عقد مؤتمر الجزيرة هذا ليفهم فرنسا بأنها لا ينبغى أن تتورط فى مخاصمة المانيا مبالغة فى الاعتماد على تأييد انجلترا ؟ ان الحالة كانت لا تخلو من أحد أمرين . فاما أن الاتفاق الودى كان اتفاقا بريئا واذن فقد كان فى وسع لورد غراى أن يسير به فى طريق السلام ، واما انه كان يتضمن فقرات سرية لم يسع صاحب المذكرات الا النزول على أحكامها . ولعل هذا هو الأرجح بدليل أن مؤتمر الجزيرة ما كاد ينفرط عقده حتى بدأت المحادثات العسكرية بين انجلترا وفرنسا كأنما أريد تكميل الاتفاق المذكور بنصوص واتفاقات تجعل وقوف انجلترا الى جانب فرنسا في أى نزاع بينها وبين المانيا أمراً لا مناص منه كما لوحظ من تشدد بريطانيا مع المانيا فى ربيع سنة ١٩١١ فى ابان ازمة أجادير .

ونحسب أنه لولا هذه الفقرات السرية لما أبدى مجلس العموم ارتيابه من آن الى آخر فى نوايا الاتفاق الودى ولما ظهر كثير من النواب بمظهر المقتنع بوجود تلك الفقرات التى لاتساعد على توطيد أركان السلم. بل لولاها لما وقف لورد غراى فى مجلس العموم غداة غزو الجيش الالمانى لبلجيكا ليهيب بمواطنيه الى أن يبادروا الى امتشاق الحسام دفاعا عن شرف بريطانيا الذى يحتم



خطبة لورد غراى فى مجلس العموم قبيل اعلان الحرب

الوقوف الى جانب فرنسا ، !! ويكاد لا يصدق الانسان أن تقدم دولة حديثة على الحرب مع علمها بفداحة نفقاتها لمجرد الدفاع عن « الشرف » ليس غير ، بل أن المصلحة كانت ولا تزال الباعث الاول على دخول الحرب . ومما يدلك على أن مصلحة بريطانيا فضلا عن شرفها لم يمسسهما غزو المانيا لبلجيكا بسوء أن ثلاثة من أعضاء وزارة المستر اسكويث وهم لورد مورلى والمستر برنز والمستر تريفليان استقالوا جميعا عند ما صممت الوزارة على دخول حرب قال هؤلاء الوزراء أن انجلترا لم يكن لها فيها لا ناقة ولا جمل ! وليس من يستطيع اتهام لورد مورلى بالتحيز للالمان أو بالطيش والرعونة فقد كان خير صديق للورد غراى وطالما أثنى عليه الأخير فى مذكراته . ولـكنه فوجىء مفاجأة بتلك الفقرات السرية التى ظلت مكتومة عن معظم أعضاء الوزارة سنوات عديدة كما يعترف صاحب المذكرات بذلك ضمنا فى سياق حديثه .

تبعة الحرب العالمية

سعى روسيا للحرب

سبق أن ذكرنا ان اتفاقية سنة ١٩٠٤ قد استغلتها روسيا وفرنسا أولا ثم انجلترا أخيراً لهدم المانيا والتخلص من مزاحمتها وبطشها . واذا ذكرت الحرب العالمية ذكرنا معها أكبر المسؤولين عنها وهم فى فرنسا المسيو ديلكاسيه وزميلاه المسيو ملليران والمسيو بوانكاريه ثم المسيو اسفولسكى والمسيو سازونوف فى روسيا . فألى نشاط الثالوث الأول يرجع الفضل فى تسميم أفكار الشعب الفرنسى المجيد وحفزه للمطالبة باعادة الالزاس واللورين وتحقيق الأحلام القديمة التى طالما منى بها نفسه لويس الرابع عشر وريشيلو ونابليون الأول بجعل الرين الحد الفاصل بين المانيا وفرنسا . أما الأخيران فقد ركزا فى عقيدة الشعب الروسى أن برلين هى الطريق الطبيعى المؤدى الى الاستانة والبواغيز ثم أخذا يتباريان كفرسى الرهان فى اثارة عواطف الفرنسيين ودفعهم الى تحقيق الاحلام القديمة مهما كانت وعورة الطريق ومهما كان ثمن الزحف على برلين باهظا .

ولسنا نكلف القارئ الذهاب بعيداً للتدليل على صحة مانقول . فحسبه أن يلقى بنظرة عاجلة على الوثائق السياسية الخاصة بالمسيو اسفولسكى نفسه والتى نشرتها وزارة الخارجية الالمانية فى شكل كتاب سمته « اسفولسكى والحرب العالمية » . ففى تقاريره إلى المسيو سازنوف خلفه فى وزارة الخارجية الروسية يبدى المسيو اسفولسكى الذى بدأ أعماله فى السفارة الروسية فى باريس فى أوائل يناير سنة ١٩١١ — أى عقب سقوط وزارة المسيو بريان وقيام وزارة المسيو مونيه مكانها — كثيراً من التذمر والتبرم لان الجو السياسى فى فرنسا مشبع — كما يقول — بروح الاشتراكية . على أن أمله فى تحقيق مطامع روسيا

أخذ يعاوده بعد اختيار المسيو ديلكاسيه لمنصب وزارة البحرية الفرنسية .
ومن المهم أن نذكر هنا أن المسيو اسفولسكى هذا هو الذى حدد المطامع الروسية وبين مراميها عند ما كان وزيراً للخارجية قبل ذهابه إلى سفارة باريس. فهو الذى نصح وقتئذ الى الدويلات البلقانية على أثر ضم النمسا لولايتى البوسنة والهرسك أن تتحالف فيما بينها . ثم سرعان ما أظهر انضمامه قلبيا وعمليا إلى سياسة إنشاء صربيا كبرى وذلك بطرد النمسا من شبه جزيرة البلقان . وأخيرا — وهذا هو أهم ما فى برنامجه — عقد فى شهر ديسمبر سنة ١٩٠٩ محالفة عسكرية سرية بين روسيا وبلغاريا نصت المادة الخامسة منها على ما يأتى :

« أن الامانى العظيمة التى تجيش فى صدور الشعوب السلافية التى تعطف عليها روسيا عطفا قلبيا لا سبيل إلى تحقيقها إلا بانتصار روسيا فى حرب طاحنة تنشب بينها من جهة وبين المانيا والنمسا من جهة أخرى » .

فكأنه قضى بان تكون سياسة روسيا من ذلك الحين فصاعدا الاستعداد للحرب مع المانيا والنمسا . لهذا كان طبيعيا أن كل وزارة فرنسية لاتعمل لهذه الغاية أن تبوء بسخطه وأن تكون هدفا لكيده فى السر والعلانية حتى تتخلى عن كراسيها لوزارة أخرى تعمل طبق رغباته

وقد يسأل القارىء كيف يتأتى لسفير دولة ما أن يؤثر في الوزارات الفرنسية فنقول له أن المسيو اسفولسكى توصل إلى غايته عن طريق الصحف الكبرى التى تؤثر فى الراى العام . فأن سأل سائل وكيف أخضعها لأرادته حتى جعلها تستمد الوحى منه قلنا له السر فى المال الذى كان يوزعه يمينا ويسارا ويفرقه على الصحف ذوات الأسماء الطنانة . ولعلك تدهش لذلك ولكنك لو رجعت إلى ص ٣٤ من كتاب «اسفولسكى والحرب العالمية» ص ٩ لرأيت أن هذا السفير قد ابرق فى يوم ١٩ اغسطس سنة ١٩١١ — أى فى ابان اشتداد أزمة أجادير — إلى رئيس الوزارة الروسية ووزير المالية يطلب « الوسائل المادية الكافية للتأثير بها فى الصحف الفرنسية بمناسبة الازمة الدولية الوشيكة الوقوع ».

وفى ١٧ أغسطس من السنة عينها أبرق إلى رئيسه بمناسبة توقيع المعاهدة الالمانية الروسية الخاصة بأيران مانصه بالحرف الواحد « . . . أن أذاعة نبأ قرب توقيع المعاهدة الألمانية الروسية الخاصة بأيران كان عظيم الفائدة لنا . إذ لاريب فى أن هنالك خطراً كبيرا من قيام حملة صحفية جديدة لأيجاد الشك فينا وزعزعة الثقة بسياستنا . من أجل هذا بادرت باتخاذ التدابير الأولية بدون أضاعة للوقت فجاءت النتيجة كما نبغى كما يتبين لك من مقال الماتان والديبا وقد أرسلتهما طى هذا . . . . وليست تخفى عليك صعوبة المعاملة مع الصحف هنا وخاصة إذا كانت تنقصنى الوسائل المادية للقيام بعمل منتج . ولست أستطيع أن أؤكد هل يمكننى حمل الصحف الكبرى الأخرى وأخصها الطان على أن تضرب على النغمة التى أريدها ...» .

وفى ٢٣ مايو سنة ١٩١٢ أبرق يقول « ... وأشد خطرا من كل ماتقدم أنه أصبح يستحيل على أن أؤثر التأثير الفعال فى الصحف المحلية الصغرى التى تعيش على الرشوة وابتزاز أموال الناس . وقد كتبت فى العام الماضى إلى رئيس الوزارة فى هذا الصدد ولكن بلا جدوى . وعلى أن الأمر ما كان ليقلق بالى لو كنا فى أوقات معتادة لأن علاقاتى بالصحف الكبرى جيدة ... ولكن من المهم أن يكون لدى فى أوقات الأزمات وسائل مادية كافية للتأثير السريع فى الصحافة الجائعة الصغرى ... » .

هذا وغيره مما يعج به كتاب « أسفولسكى والحرب العالمية » يبين لك بصفة قاطعة أن السفير الروسى كان يعتمد على المال فى إخضاع الصحافة الفرنسية لأرادته واستخدامها فى إثارة الرأى العام الفرنسى وتوجيهه فى الطريق التى يختارها . وإن شئت دليلا على كيفية تبرمه بأى سياسى فرنسى ينصح حكومته بالتزام خطة السلام فأنك تجده فيما نصبه من المكائد للتخلص من المسيو جورج لويس سفير فرنسا فى بتروغراد لاذنب سوى أنه جعل يحذر حكومته من النطوح وراء المطامع الروسية كما رسمها المسيو اسفولسكى .

وفى الحقيقة أن هذا السفير لم يملأ الكرى أجفانه وينام نومة الاطمئنان على مصالح بلاده إلا بعد أن استقالت وزارة المسيو كايو وحلت محلها وزارة المسيو بوانكاريه في ١٤ يناير سنة ١٩١٢ . فقد أسندت رئاسة الوزارة ووزارة الخارجية إلى هذا الرجل الحديدى الذى لايزال سلم العالم يتوقف على لفظة تسقط من فمه . وحسبك أن تقارن بين أقوال السفير الروسى قبل تشكيل تلك الوزارة وبعده لترى مبلغ تحوله من اليأس إلى الرجاء .

ففى ١٣ ابريل سنة ١٩١١ ارسل إلى المسيو سازونوف كتابا مطولا علق فيه على الخطبة التى ألقاها فى مجلس النواب الفرنسى المسيو ريبو صاحب المحالفة الروسية الفرنسية . قال السفير :

« ... تتلخص خطبة المسيو ريبو فيما يلى: من المسلم به أن التحالف بين روسيا وفرنسا وطيد الدعائم كما أنه يمكن الاعتماد على الاتفاق الودى بين فرنسا وبريطانيا . ولكن السياسة الفرنسية اخفقت فى خلال السنوات الأخيرة فى الاستفادة من هذا التحالف كما فشلت في الانتفاع بهذا الاتفاق . على أن هذا الاخفاق لم يؤثر فقط فى المصالح الفرنسية بل شمل أيضا مصالح فريق الدول التى يتكون منها هذا الاتحاد (كذا) الخ .

فكأنه يريد أن يقول أن فرنسا لم تستفد من موقفها هذا بتحقيق أحلامها فى الالزاس واللورين وغسل عار سنة ١٨٧٠ كما أنها لم تفد روسيا بتحقيق مطامعها الخاصة بالبواغيز والاستانة وهى المطامع التى تقف المانيا والنمسا حجر عثرة فى سبيل تحقيقها .

قارن بين هذه النغمة الحزينة ونغمة الطرب التي تبدو فى خطابه الذى أرسله فى ١٥ فبراير سنة ١٩١٢ — أى بعد انتهاء أزمة أجادير — بمناسبة المناقشة التى دارت فى مجلس الشيوخ فى صدد الاتفاقية الفرنسيه الألمانية بشأن الكونغو ، وقد نثر الزهور والرياحين فى طريق المسيو بوانكاريه بمناسبة موقفه فى تلك المناقشة فقال :

«... وقد رد المسيو بوانكاريه بلهجة التأكيد على الحملات التى وجهت ضد أسلافه فى وزارة الخارجية فقال : إن التحالف مع روسيا والاتفاق الودى مع بريطانيا العظمى هما ركنان أساسيان فى برنامج فرنسا السياسى. فأية حكومة تتجاهل هذين الركنين أو تحيد عنهما قيد أنملة مقضى عليها بالسقوط العاجل أمام عاصفة السخط العام... » .

ثم استرسل المسيو اسفولسكى فأتى على الوزارة الفرنسية الجديدة مقارنا بينها وبين الوزارات السابقة فقال :

« ... من اجل هذا كله يوجد فرق عظيم بين أزمة ١٩٠٥ (التى أبعد فيها المسيو ديلكاسيه عن وزارة الخارجية) وأزمة ١٩١١ . وهذا الفرق نفسه يذكرنى بعبارة سمعتها من الامبراطور غليوم فى حديث دار بيننا بعد مؤتمر الجزيرة بقليل وهى عبارة كثيراً ما أدهشتنى . فقد قال الامبراطور : « ان الستار قد أسدل نهائيا على مسألة الالزاس واللورين . فان فرنسا برفضها ما عرضناه عليها من الاحتكام الى الحسام قد سلمت بلا شرط ولا قيد بصفة رسمية بكل ما تضمنته معاهدة فرانكفورت من الاحكام » . وفى اعتقادى أن الامبراطور بعد ما رآه من حوادث صيف سنة ١٩١١ لا بد أن يكون قد غير رأيه لأن فرنسا كما سبق أن أخبرتكم فى خطاباتى قد ظهرت بمظهر التصميم على الدفاع عن حقوقها ومصالحها كائنا ما كان الثمن حتى ولو أدى الامر الى تحكيم الحسام . وهذه الحالة العقلية تظهر كالخيط الأحمر فى كافة ما ألقى من الخطب فى المجلسين فى خلال المناقشة الخاصة بمعاهدة الكونغو . لهذا ينبغى فعلا أن يحسب حساب هذه العقلية فى أى نزاع مع المانيا فى المستقبل . ولقد علمت من المصادر المطلعة أن الدوائر العسكرية برغم انتهاء الازمة المراكشية بسلام تتوقع حدوث مصاعب دولية جديدة فى الربيع المقبل ولذا شرعت وزارة الحربية تبذل منتهى الهمة والنشاط فى التأهب للأعمال العسكرية فى المستقبل القريب » (كذا ! كذا !) .

أرأيت اذن مبلغ اغتباط السفير الروسى بهذه الوزارة الجديدة التى تختلف عن الوزارات الفرنسية السابقة بتصميمها على الدفاع عن حقوق فرنسا ومصالحها حتى ولو أدى الأمر إلى الحرب؟ ! فلا غرو إذا رأينا توثق عرا الود بين المسيو بوانكاريه والمسيو اسفولسكى الذى كتب فى ١٩١٢ يمتدح المسيو بوانكاريه فقال : « إن رئيس الوزارة الفرنسية الحالى ووزير خارجيتها لرجل ذو شخصية قوية . ولطالما اقتنع الانسان فى عهد وزراء الخارجية السابقين أمثال المسيو كريبى والمسيو دى سلف وغيرهما بان من العبث وإضاعة الوقت سدا مناقشة الحكومة الفرنسية فى أية مسألة من مسائل السياسة العامة . ولكن الحال قد تغيرت تماما بتشكيل الوزارة الحاضرة. فان المحادثات أصبحت اساسية وذات أهمية ... أما فيما يختص بشخصى فان المسيو بوانكاريه يظهر نحوى منتهى الود والعطف ولطالما أبدى لى رغبته فى مباحثتى فى كافة الأمور فى كل حين وبكل دقة بقدر ماتسمح الظروف » .

ونجتزىء الآن بهذا المقدار لضيق المقام . فان دل كل ذلك على شىء فانه يدل على أن العالم بدأ يسير نحو الهاوية المؤدية الى الحرب بمجرد أن تم التفاهم بين وزارة المسيو بوانكاريه والمسيو اسفولسكى وأصبحت الدولتان تنظران بعين واحدة إلى المشاكل الدولية . ولا تفوتنك أهمية اعتراف المسيو اسفولسكى فى رسالته السالفة الذكر «بتأهب وزارة الحربية الفرنسية للأعمال العسكرية فى المستقبل القريب» . فقد قضى باعترافه هذا على مزاعم الزاعمين بأن فرنسا فوجئت باعلان الحرب العالمية التى لم تكن على استعداد لخوض غمارها !! وقد تلت الأزمة المراكشية أزمات أخرى كانت فرنسا مستعدة فيها كلها للحرب كالأزمة الطرابلسية وأزمة الحروب البلقانية . وقد تخللت هذه الأزمات موافقة البرلمان الفرنسى على سن قانون بجعل الخدمة العسكرية لمدة ثلاث سنوات وهو القانون الذى ضج من فداحته الشعب الفرنسى وتوقع كافة الساسة المحايدين أن يؤدى حتما إلى أحد أمرين أما ثورة داخلية واما حرب أوروبية.

على أن لمسألة استعداد فرنسا للحرب العظمى بصفة خاصة ومواصلتها التأهب لأشعال نارها أهمية كبرى تجعلنا نفرد لها مكانا فى سياق هذا البحث متى جاء دور الخوض فيه ·

عداء فرنسا القديم لألمانيا

بعد أن تشكلت وزارة العمال الاولى فى انجلترا فى سنة ١٩٢٤ ذهب المسيو هريو رئيس الوزارة الفرنسية لمقابلة المسترمكدونالد فى قصر تشيكرس فدار بينهما حوار حول الجلاء عن وادى الرور وخاصة وان معاهدة فرساى قد قيدت المانيا بشروط ثقيلة وجردتها من جيوشها فلم تبق لها إلا ١٠٠ر٠٠٠ جندى فقط · فرد الوزير الفرنسى بأن المانيا بهذا الجيش الصغير يمكنها أن تكرر مافعلته بروسيا منذ مائة عام ضد نابليون الاول. وفى اجتماع عصبة الأمم فى سبتمبر سنة ١٩٢٨ — ولم يكن قد جف المداد الذى كتبوا به ميثاق كيلوج الذى طنطنوا به — خطب المسيو بريان فحمل على المستشار الألمانى لأنه اجترأ على القول بأن ألمانيا نفذت كافة الشروط الخاصة بنزع سلاحها ، فادعى بأنها لم تنزع سلاحها بعد وأنه لايزال لديها موارد صناعية هائلة وفى استطاعتها بواسطة المائة الف جندى التى تركتها لها معاهدة فرساى أن تجيش جيشا عرمرما وأن تخوض غمار حرب جديدة !! ولعمرى إن الانسان ليعجب لهذا التعنت الصارخ فكأن القوم فى فرنسا يغيظهم أن يروا ألمانيا استطاعت بعد عشر سنين من نهاية الحرب الماضية أن تذلل كافة ما وضعته معاهدة فرساى فى سبيلها من القيود والمصاعب وأن تقف من جديد على قدميها وأن تنزل مرة أخرى إلى ميدان التزاحم السلمى فتكاد تغمر أسواق العالم بمصنوعاتها ومبتكراتها كما كانت حالها قبل المجزرة البشرية هذا فضلا عن بواخرها المدهشة التى أحرزت قصب السبق فى اجتياز المحيطات ومناطيدها التى تشق أجواز الفضاء معلنة عن عودة ألمانيا إلى الحياة · أجل كأن القوم فى فرنسا يغيظهم أن ألمانيا لم تصبح فى عداد الدول البائدة كما توقعوا ذلك بعدما طوقوها به من

اغلال واصفاد فهم لذلك يتمحلون كل يوم سببا لاستعبادها واذلالها.

وقد يسأل الانسان عن سر هذا العداء والبغض فنقول له أن ذلك يرجع أمره الى زمن بعيد أى الى نحو نيف وثلاثة قرون . فالحرب السبعينية لم تكن فى الواقع الا خاتمة لسلسلة حروب طويلة بين هاتين الجارتين اللتين خلقتهما الطبيعة للتآلف والوئام لا للتنافر والخصام .

ولعلك تدهش أذا قلنا لك أن الذى يقرر هذه الحقيقة المؤلمة هو كاتب فرنسي كبير اشتهر بكتاباته المعروفة فى جريدة «اكسيون فرانسيز» وهو فى الوقت نفسه رئيس تحرير مجلة «اليونيفيرسال ريفيو الجديدة» الا وهو المسيو بينفيل . فقد وضع هذا الفرنسى الصميم كتابا غريبا قال فى ص ٤٠ منه «ان الحروب بين فرنسا وألمانيا قبل القرن السادس عشر لم تكن سوى مجرد مناوشات!»

وغرابة هذا الكتاب هى فى أن صاحبه لايتحاشى ذكر الحقائق بصراحة مهما كان فيها تسوئة لسمعة بلاده . وقد استرسل الكاتب فأتى على بعض أعمال ملوك فرنسا ضد المانيا منذ ذلك الزمن مثل ريشيليو ولويس الرابع عشر ونابليون الكبير إلى أن وصل إلى القرن التاسع عشر فقال بصراحته المعهودة فى ص ٦٣ «أن سياسة فرنسا فى خلال ذلك القرن كله كانت متجهة إلى غاية واحدة هي منع الولايات الألمانية من الاتحاد كما اتحدت فرنسا من قبل !!»

أرأيت اذن كيف يعترف ذلك الكاتب الطائر الصيت بأن سياسة فرنسا فى القرن الغابر كان محورها الحيلولة دون اتحاد المانيا ؟ وهل كانت الحرب السبعينية التى أعلنها «لويس نابليون على بروسيا إلا جزءا من هذه السياسة ؟ لقد طالما لاكت الألسن برقية «إمز» الشهيرة التى زعم بعض قصار النظر أن البرنس بسمارك تلاعب فيها . ولكنا سنشرح حقيقة تلك البرقية للقارىء فيما بعد .

ولئن كان المسيو بينفيل حدثنا عن سياسة فرنسا فى القرون الماضية فانه لم يفته أن يحدثنا عنها وعن اتجاهها فى المستقبل . فقد قال « أن ألمانيا ينبغى أن تبقى ضعيفة ومنقسمة على نفسها . فأن الألمان بانقسامهم يصبحون أشد تعلقا بأهداب السلم لا بل أنهم وقتئذ يؤدون بأخلاص نصيبهم فى ترقية الحضارة العامة .. الخ » .

وهى لعمرك اعترافات خطيرة . وقد جاء من أيدها كل التأييد الا وهو المسيو جان جوريه الزعيم الاشتراكى الشهير الذى قتل فى رابعة النهار ليلة اعلان الحرب العالمية . قال « ان فرنسا منذ عهد شارل الثانى الى لويس الرابع عشر الى لويس نابليون طالما أساءت استخدام وحدتها الوطنية التى أدركتها قبل الشعوب الأخرى . فانها لم تتورع عن معاملة الشعوب الأخرى التى لم تتحد ولم تستقر أمورها بعد بمنتهى الغلظة والقسوة ... الخ ».

الحرب السبعينية

فالحروب التى أغرمت فرنسا باشعالها ضد ألمانيا منذ العصور المظلمة كانت كلها ترمى الى غاية واحدة ألا وهى الحيلولة دون اتحاد المانيا اتحادا وطنيا يحفظ لها مكانها بين جيرانها . وقد كانت سياسة نابليون الثالث سائرة فى نفس الطريق التى سلكها أسلافه . ولكنه لما رأى أن بسمارك أخذت تتكلل مساعيه بتوحيد الولايات الألمانية التجأ الى الحرب السبعينية ليحول دون ذلك الاتحاد . ولكن دارت فيها الدائرة على فرنسا هذه المرة وخرجت ألمانيا منها وقد حققت الغاية التى كانت تنشدها منذ قرون .

وقد تسأل عن السبب المباشر لتلك الحرب فنقول لك أن عاهل فرنسا نابليون الثالث بدأ يشعر بالقلق من جراء تفوق بروسيا على الولايات الألمانية الأخرى فنصح ألى الملك غليوم الأول بأن لا تسمح الاسرة الملكية البروسية



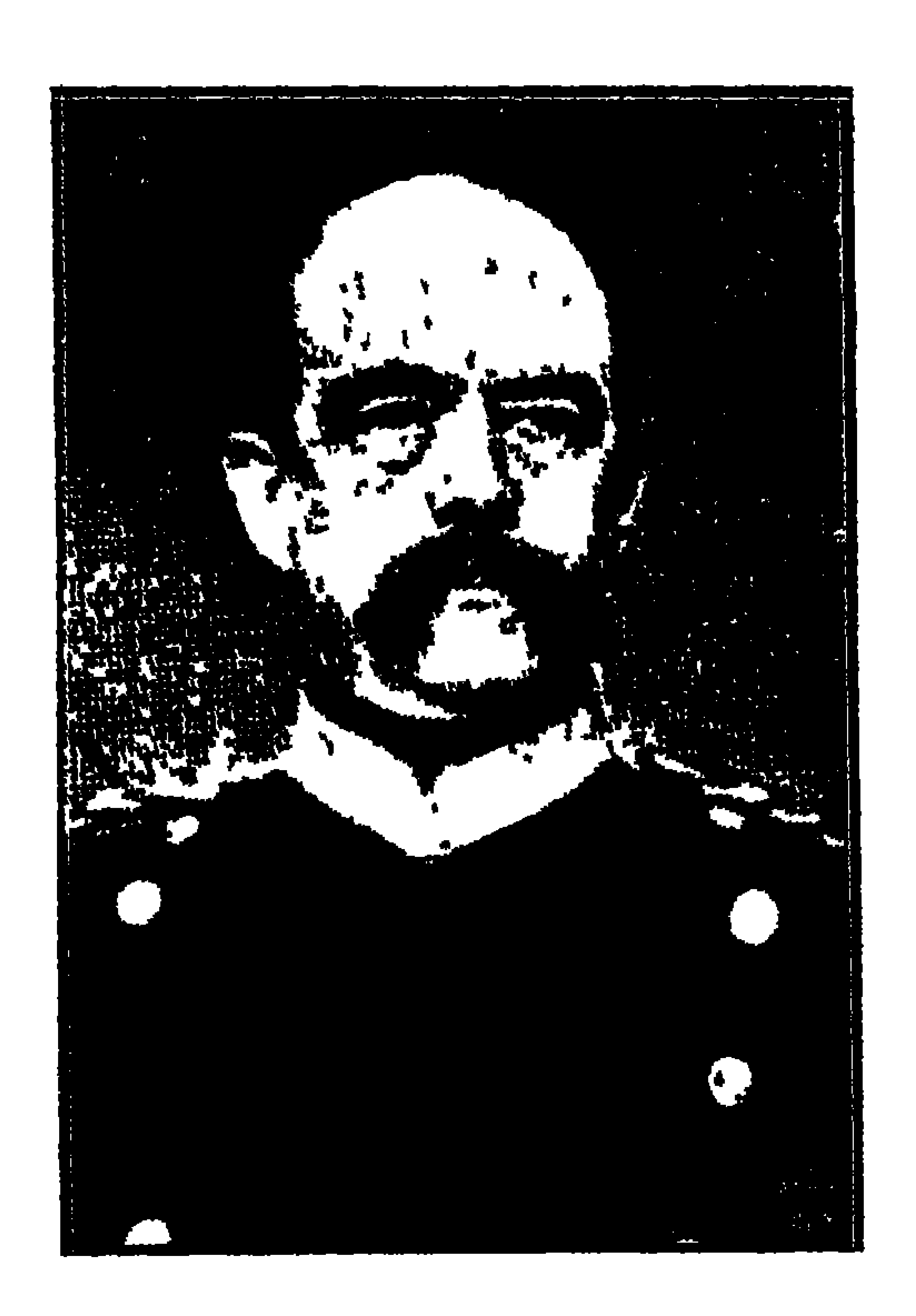
نابليون الثالث

لأحد من اعضائها بترشيح نفسه لعرش اسبانيا الذى كان شاغراً وقتئذ ! وهو طلب غير معقول . لأن اسبانيا لم تكن ولاية تابعة لفرنسا ولا عدوة لها . فرد غليوم على هذه « النصيحة » بأن كلف الأمير المرشح من أسرته لذلك العرش بالتنازل عن الترشيح .

على أن هذا الخضوع من جانب ملك بروسيا لم يرق في عين العاهل الفرنسى الذى كان يريد الحرب مع بروسيا بأى شكل كان حتى يصل من ورائها إلى غايته الرئيسية وهى القضاء على نفوذ بروسيا بين الولايات الألمانية الأخرى . فلم يكتف بامتثال الملك غليوم لأمره بل طلب إليه « أن تتعهد الأسرة البروسية بأن لا يقبل أحد من أفرادها فى المستقبل ترشيح نفسه للعرش الأسبانى » !

برقية امز المشهورة

وقد تقدم بهذا المطلب الجديد المسيو بينيدتى سفير فرنسا إلى ملك بروسيا رأساً وهو فى مدينة «إمز» ! فأنه مع مخالفته للعرف والتقاليد أراد مقابلة الملك رأسا — بدلا من رئيس وزرائه أو كبير أمنائه — لمحادثته فى أمر ذى بال ! !



البرنس بسمارك المستشار الحديدى

فلما لم يجب إلى طلبه ذهب إلى «إمز» رأسا وتعمد مقابلة الملك فى أثناء النزهة وألحف فى إنجاز التعهد الذى طلبه عاهل فرنسا . فأجابه الملك بلهجة جدية بأنه لا يستطيع اعطاء تعهد من هذا القبيل وأخبره بأنه ينتظر وصول أنباء من البرنس بسمارك وأنه سيرسل إليه بفحواها بواسطة ياوره وأنه لا يريد مقابلته ـ السفير ـ مرة أخرى للتكلم فى صدد هذا الموضوع .

وقد استطرد الدكتور فردريك باوسمان العضو الأسبق بالمحكمة العليا بولاية وشنطون فى كتابه القيم واسمه « فلتفسر فرنسا » وهو الكتاب الذى نقلنا عنه هذه الحكاية فقال ما ملخصه :

وقد أرسل ياور الملك إلى بسمارك برقية من « إمز » بتفصيل الحادث وترك له الخيار فيما إذا كان يستصوب أن يرسل إلى الصحف وإلى ممثلى بروسيا فى الخارج بيانا عما حدث .

فأرسل بسمارك إلى الصحف بالبيان التالى : « بعد أن أبلغت الحكومة الاسبانية حكومة فرنسا الأمبراطورية تنازل الأمير البروسى عن الترشيح للعرش الأسبانى طلب سفير فرنسا من جلالة الملك فى « إمز » أن يسمح له بأن يبرق إلى باريس بأن جلالته يتعهد بألا يوافق في المستقبل على ترشيح أى أمير بروسي . وقد رفض جلالته مقابلة السفير الفرنسى مرة أخرى . وقد أبلغ الياور السفير أن جلالته ليس لديه من جديد يقوله له » .

هذه هى حكاية برقية « إمز » الشهيرة . وقد سافر السفير الفرنسى الى باريس قبل أعلان الحرب بأربعة أيام . ولكنه أعلن قبل سفره أن الملك لم يوجه اليه أهانة ما فى أثناء المقابلة . على أن العاهل الفرنسى اتخذ من رفض ملك بروسيا إعطاء التعهد المذكور ذريعة للقول بأنه أهان شرف فرنسا فى شخص سفيرها وأعلن الحرب على بروسيا !! ولكن بسمارك ومولتكه كانا قد أعدا العدة لمقاومة الجيوش الفرنسية . وقد أدركت الولايات الألمانية أن لا أمل فى المستقبل إلا بالاتحاد مع بروسيا فانضمت اليها . وما هي الا بضعة أسابيع حتى كانت الجيوش الألمانية تزحف على باريس . ثم عقدت معاهدة فرنكفورت التى أعلن فيها تأسيس الأمبراطورية الألمانية .

ولع فرنسا بالحروب

لقد ذكرنا لك هذا لنبين لك أن فرنسا قبل الحرب السبعينية وبعدها

كانت ترمى الى تمزيق شمل ألمانيا وإبقائها ولايات متفرقة كما كانت فى الماضى .
فاذا قلت أن الحزب العسكرى الفرنسى وجه عنايته بعد الحرب السبعينية الى حرب الانتقام فليس معنى ذلك أنه كان يعمل على إرجاع الألزاس واللورين فحسب بل وعلى تمزيق الوحدة الألمانية . ولا حاجة بالانسان الى أن يذهب بعيداً للتأكد مما نقول ، فحسبه أن يذكر سياسة المسيو بوانكاريه فى أقليم الرور وتشجيعه الحركة الانفصالية ومطالبته بجعل نهر الرين الحد الفاصل بين ألمانيا وفرنسا ومساعدته لبولونيا على سلخ المناطق الغنية فى سيليسيا العليا عن الوطن الألمانى. وهاهو نفس المسيو بريان يحقد على ألمانيا لانها لا تزال كتلة متماسكة الأطراف .

ولعل من المضحك بل ومن الافتراء على التاريخ أن يتهم البعض ألمانيا بالعسكرية ويصور لنا فرنسا قبل الحرب بشكل الحمل الوادع فى حين أن التاريخ يذكر أن فرنسا منذ أيام المصلح لوثر اخترقت جبال البيرينيه الوعرة مرتين لتغزو أسبانيا واجتازت جبال الألب الشاهقة ست مرات لاجتياح أيطاليا . أما النمسا فقد اجتاحتها فرنسا مرات لاحصر لها . وأما ألمانيا فقد كانت «ملعبا دمويا لملوك فرنسا » كما وصفها المسيو بينفيل .

وقد أغارت فرنسا على هولندا مرتين واستولت مرة على بلجيكا . بل أن روسيا نفسها لم تنج من صولتها . فقد اجتيحت مرة من الشمال وأخرى من الجنوب . ولم ينج انجلترا من بأس فرنسا إلا خليج المانس . ولكن ملوك فرنسا أغاروا على مستعمراتها . ثم أن الفرنسيين أغاروا على المكسيك بينما كانت الولايات المتحدة مشغولة بالحرب عن مد يد المساعدة إلى جيرانها. والصين ألم تحتل حملة فرنسية بعض أراضيها ؟ هذه هي فرنسا الوادعة ! هذا عدا أعمالها فى مراكش وتونس والجزائر . ولعل إخواننا السوريين يدركون الآن مبلغ وداعة فرنسا بعد إذ صوبت نيران مدافعها على مدينة دمشق مدة خمسين ساعة متواصله !!

لعمرى لقد صدق المستر جيرارد سفير أميركا فى برلين عند ما قال فى ذكراته ص ١١٦ « أن العسكرية الالمانية لم تنشأ عن التوحش والشراسة بل عن الرهبة والخوف » .

فممن كانت ألمانيا تخاف ؟ لاريب أن خوفها كان من جارتها روسيا وخاصة منذ أن عقدت معها فرنسا محالفة سنة ١٨٩٢ .

المحالفة الروسية الفرنسية وخطرها على العالم



المارشال هندنبرج

سيعرف العالم يوما ما أن هندنبرج بانتصاره فى معركة تاننبرج بجيشه البالغ

٢٠٠,٠٠٠ جندى ضد الجيوش الروسية التى كانت تنيف عن المليون لم ينقذ بلاده فقط بل أنه خلص قضية المدنية من الدب الروسى . نعم أن اهتمام الالمان بصد الروس عن بروسيا الشرقية أدى إلى توقف زحف الجنرال فون كلوك على باريس فى سبتمبر سنة ١٩١٥ ، ولكنه من جهة أخرى قصم ظهر تلك الدولة الخطرة وقلم أظفارها وجعل المدنية فى مأمن من مكرها .

أنظر بربك ماذا كانت تطمع فيه روسيا لو أتيح لها النصر فى النهاية .

فى ٩ مارس سنة ١٩١٥ أرسل المسيو سازونوف وزير خارجية روسيا إلى السفير الروسى فى باريس برقية هذا نصها :

« أرجو أن ترجع الى البرقية رقم ٣٠٦٣ سنة ١٩١٥ . وعليك أن تجعل هذه الأساسات الاجمالية رائدك فى مؤتمر الصلح المقبل .

« كافة الاتفاقات السياسية التى عقدت بين الحلفاء فى خلال الحرب تبقى كما هى ولا ينبغى مراجعتها . فهى تشمل الاتفاقية المعقودة مع فرنسا وانجلترا بشأن الاستانة والمضايق وآسيا الصغرى وتشمل أيضا معاهدة لندن مع ايطاليا. ولئن اعتبرت الآن كل مفاوضة فى حدود أوروبا الوسطى سابقة لأوانها إلا أنه ينبغى أن يذكر الانسان بصفة عامة كما نحن على استعداد لاطلاق يد فرنسا وانجلترا فى رسم الحدود الغربية لألمانيا فاننا ننتظر منهما فى مقابل ذلك اطلاق يدنا فى رسم حدودنا مع ألمانيا والنمسا .

« ومن المهم — بصفة خاصة — أن تصر على استثناء المسألة البولونية من موضوع المباحثات الدولية وعلى مقاومة كل محاولة لوضع مستقبل بولونيا تحت ضمان الدول واشرافها .

«أما فيما يختص ببلاد اسكندنافيا (السويد والنرويج) فمن المهم بذل كل مجهود لمنع السويد من القيام بعمل عدائى ضدنا واتخاذ ما يلزم من الوسائل بين آن وآخر لاجتذاب النرويج إلى جانبنا فيما لو تعذر فى النهاية منع وقوع الحرب بيننا وبين السويد .

«وقد منحنا رومانيا كافة المزايا السياسية التى يمكن أن تغريها بامتشاق الحسام فى جانبنا فليس ثمة من حاجة إلى بذل مجهود جديد فى هذا الصدد .

« ثم ان مسألة أبعاد الألمان من الأسواق الصينية لعلى جانب عظم من الأهمية ولكن حلها مستحيل ألا باشتراك اليابان ويحسن بحثها فى المؤتمر الاقتصادى الذى سيحضره مندوبو اليابان . ولكن هذا لا يحول دون استحسان البدء فى مفاوضات تمهيدية بين روسيا وانجلترا بالطرق السياسية » .

وفى ١١ مارس سنة ١٩١٧ (أى بعد عدة مفاوضات ومراسلات لا يتسع لها هذا المقام) أبرق المسيو اسفولسكى سفير روسيا فى باريس الى المسيو بكروفسكى وزير الخارجية الروسية البرقية التالية :

« راجع الرد على البرقية رقم ١٦٧ . أن حكومة الجمهورية الفرنسية نظراً إلى رغبتها فى تأكيد أهمية المعاهدات التى عقدت مع الحكومة الروسية فى سنة ١٩١٥ لتسوية مسألة الاستانة والبواغيز عند انتهاء الحرب لمصلحة روسيا ونظراً إلى رغبتها من جهة أخرى فى أن تحصل لحليفتها على كافة الضمانات العسكرية والصناعية اللازمة لسلامة روسيا ونموها الاقتصادى — نظراً إلى كل ذلك تعترف الحكومة الجمهورية بحق روسيا المطلق فى رسم حدودها الغربية » .

ولسنا نحاول الاعتذار عن اطالة الاقتباس فقد تعمدنا ذلك لنبين للقارىء مبلغ مطامع روسيا وإلى أى حد كانت فرنسا موافقة على تحقيق هذه المطامع. فالاتفاق السرى الموضوع بين فرنسا وروسيا فيما بين ١٩١٦ و ١٩١٧ والذى اشتمل على عدة أمور — ذكرنا أهمها بعاليه — ليس إلا صورة مفسرة للمحالفة التى أبرمت بين روسيا وفرنسا فى سنة ١٨٩٢ وهى المحالفة التي اعتبرت بحق أنها من أهم الأسباب التى أدت الى نشوب الحرب العالمية . اذ

لم يكن يعقل أن لا تنزعج المانيا ولا تقلق فى حين أن جارتيها فى الشرق والغرب تتآمران لا عليها فحسب بل وعلى حليفتها النمسا أيضا .

فأذا نحن تكلمنا الآن عن محالفة سنة ١٨٩٢ فيجب أن نذكر إلى جانبها الاتفاق السرى المشار اليه المعقود بين الحليفتين فى سنة ١٩١٦ — ١٩١٧ بقصد إتمام المحالفة المذكورة . فما الذى حمل فرنسا على عقد تلك المحالفة المشئومة ؟

لقد فازت ألمانيا فى الحرب السبعينية مع أنها لم تكن البادئة بالعدوان فلم تشأ التدخل فى شؤون فرنسا مطلقا حتى أنها لم تحظر عليها الاحتفاظ بجيش عرمرم ، بل إنها اكتفت بأخذ الغرامة والجلاء عن الأراضى الفرنسية طبعا ما عدا الالزاس واللورين وهما المقاطعتان اللتان تعتبران ألمانيتين من أقدم عصور التاريخ واللتين اختطفتهما فرنسا من ألمانيا بلا وجه حق .

وقد ظلت ألمانيا بعد هذا الفوز بعيدة عن فكرة التحرش سواء بفرنسا أو بغيرها من جيرانها وها هي هولندا وبلجيكا تشهدان بذلك . نعم أن ألمانيا عقدت مع النمسا تحالفا ثنائيا فى سنة ١٨٧٨ ولكن نشر نصوص هذا التحالف فى سنة ١٨٨٨ أقنع العالم عامة وفرنسا خاصة بأنه لم يكن موجها ضدها بل أريد به اتقاء خطر الروسيا ، لا بل أن الامبراطور الأسبق عند ما تبوأ أريكة العرش في سنة ١٨٨٨ بدأ يظهر لفرنسا ميوله لعقد تفاهم بين هذين البلدين المجاورين ، أضف الى ذلك أنه وجد فى ألمانيا وقتذاك عدد غير قليل أخذ ينادى بوجوب العدول عن النظام العسكرى وتوسيع سلطة المعاهد الدستورية .

وبالجملة ظلت المانيا منذ سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٨٩٢ وهى لا تفكر فى التحرش بجيرانها وتسعى للتفاهم مع جارتها الغربية . ولكنها روعت عند ما رأت فرنسا الديمقراطية تتحالف مع روسيا الأوتقراطية فى تلك السنة . فلماذا عقدت تلك المحالفة ؟ ألاتقاء شر ألمانيا ولم يبد من هذه عمل عدوانى واحد

ضد فرنسا؟ إذن فهى لابد موجهة ضد ألمانيا . ولقد كانت المحالفة دفاعية بادىء ذى بدء أى لمنع المانيا من مهاجمة فرنسا ، ولكن المسيو ديلكاسيه ذهب لزيارة روسيا فى سنة ١٨٩٩ لأول مرة وهناك أحرز ما سماه « فوزاً سياسيا باهراً » بأن أقنع القيصر بوجوب مد أجل المحالفة حتى إلى ما بعد انتهاء المحالفة الألمانية النمساوية وهو الغرض الأساسى الذى كانت هذه المحالفة المشؤومة قد عقدت من أجله . هناك تمكن ديلكاسيه من تحويل المحالفة الى محالفة هجومية دفاعية بعد أن كانت دفاعية بحتة .

ولقد أخبرنا الدكتور فردريك باوسمان الذى سبق أن أشرنا إلى كتابه أن المسيو ديلكاسيه كتب الى المسيو لوبيه رئيس الجمهورية الفرنسية ينبئه بفوزه الباهر فقال بعد كلام طويل :

« لقد تمكنا من توطيد محالفة سنة ١٨٩٢ وأكثر من ذلك قد وسعنا حدودها بشكل عجيب . فبينما كانت محالفة سنة ١٨٩٢ قاصرة على اهتمام الحكومتين بالاحتفاظ بالسلم العام فان المشروع الذى وضعته ينص على أن تهتما فوق ذلك بالاحتفاظ بالتوازن بين القوات الاوربية » .

لذلك لاعجب إذا رأينا المانيا تقوم قائمتها بعد أن وقفت على نتيجة مهمة المسيو ديلكاسيه . وهل كان يمكن أن تبقى تلك النتيجة مكتومة إلى أمد طويل فى مدينة كباريس ؟ ولا عجب أيضا إذا كانت ألمانيا منذ عقد تلك المحالفة بدأت تشعر بالخطر الذى يهدد سلامتها بسبب موقعها الجغرافى بين هاتين الدولتين الكبيرتين .

وقد يسأل القارىء وماذا فعلت روسيا بتلك المحالفة ؟ فنجيبه أنها تمكنت بفضلها من الحصول من الخزانة الفرنسوية على مالا يقل عن مليارى جنيه أنفقتها كلها فى تنظيم جيوشها وانشاء السكك الحديدية العسكرية على طول الحدود الألمانية وإقامة الحصون والمعاقل استعداداً ليوم الفصل الذى تختاره فرنسا .

ففرنسا بعقدها محالفة سنة ١٨٩٢ فى وقت لامسوغ فيه لعقدها لعدم وجود أى تحرش من جانب ألمانيا ضدها ، أرادات أن تفهم العالم عامة وألمانيا

خاصة بأن الحرب لامحالة واقعة . فهل تلام ألمانيا بعد أن أحست بذلك الخطر على اتخاذها الحيطة ضده ؟ كلا .

تعلق ألمانيا بالسلم

لسنا نشك فى أنك ستدهش لهذا العنوان بعد كل ما سمعته عن استعداد ألمانيا للحرب منذ أربعين سنة وتآمرها على قضية السلام!! ولكن « البروباجندا » السامة التى نشرها الحلفاء عن الألمان فى أبان الحرب فى هذا الصدد لاتلبث أن تتلاشى فى الحال إذا ووجهت بالحقائق الدامغة التى لاسبيل إلى انكارها .

لقد قيل أن ألمانيا كانت تعد العدة منذ زمن للانقضاض على فرنسا ! وانها كانت نشيطة فى استعداداتها العسكرية . وقد بينا لك فيما يختص بالنقطة الأخيرة — أن ألمانيا إذا كانت قد نشطت فى استعداداتها تلك فبسبب ما استولى من الذعر على قلوب أولى الحل والعقد فيها بعد إبرام المحالفة الروسية الفرنسية فى سنة ١٨٩٢ التى كانت بمثابة إنذار لألمانيا بأن الدائرة ستدور عليها يوما من الأيام . فاستعدادها فى تلك الحالة لم يكن للانقضاض على جيرانها ، كلا . بل لاتقاء شرها ودفع عدوانهما إذا خامرتهما نفسهما بقلب ظهر المجن لها .

وهل أدل على ذلك من أن ألمانيا تعففت عن الانقضاض على فرنسا مرات عديدة بعد عقد المحالفة المذكورة فى حين أنه كان فى وسعها أن تفعل ذلك دون أن تخشى بأس أحد من العالمين ؟؟

ولنضرب لك الأمثلة على صحة ما نقول وندعمها بأقوال الشهود العدول الذين أدهشهم عدم انتهاز ألمانيا للفرص النادرة التى كان يجود بها الزمان عليها.

خذ المثل الأول بعد حادث فاشودة. ففى سنة ١٨٩٨ — أى بعد إبرام المحالفة الروسية الفرنسية بست سنوات — استحكمت حلقات التشاد فيما بين انجلترا وفرنسا بسبب حادث فاشودة المعلوم حتى لقد لهجت الألسن وقتئذ بترجيح نشوب الحرب، لابل إن الحكومة البريطانية اتخذت احتياطات شديدة

لحماية اللورد كتشنر أثناء اجتيازه الأراضى الفرنسية وهو عائد الى لندن . فلم يكن أحب إلى انجلترا وقتئذ من أن تنقض ألمانيا على فرنسا وخاصة لأن الأخيرة لم يكن لها وقتذاك صديق فى أوربا بأسرها عدا روسيا . ولقد كان الجيش الألمانى وقتذاك — كما كان فى كل حين منذ ابرام المحالفة الروسية الفرنسية — على قدم الاستعداد . ومع ذلك فلم تعلن المانيا الحرب على جارتها الغربية . نعم قد يقال إن ألمانيا لم تجد سببا مسوغا لاعلانها ولكن هل كان يعجزها تلمس المعاذير مهما كانت واهية وهم الذين يزعمون أنها منذ ظهرت فى عالم الوجود كانت تتآمر على السلام وتعمل على تعكير صفوه ؟

المثل الثانى فيما بين ١٨٩٩ و١٩٠٢ أى فى ابان الحرب البويرية . فلقد كان الأسطول البريطانى — الحربى والتجارى — مشغولا بنقل الجنود والذخائر والعتاد إلى جنوبى افريقيا عن أن يفكر لحظة واحدة فى شؤون القارة الأوربية . ثم ان انجلترا نفسها لم تكن قد نسيت حادثة فاشودة ولما يمض عليها سوى عام واحد . أضف إلى ذلك أن الذى كان فى كرسى وزارة الخارجية البريطانية يومئذ هو لورد سلسبورى وهو العدو الألد لفرنسا وروسيا . أفلم يكن فى استطاعة المانيا — لو شاءت — أن تقذف بأداتها الحربية إلى غربى الرين فتحطم فرنسا تحطيما لاقائمة لها بعده ؟ ولكن لا ، لقد سمحت ألمانيا « التى كانت تتأهب للانقضاض على فرنسا ! » بفوات تلك الفرصة وتركت فرنسا فى سلام!!

والمثل الثالث والأخير هو فى سنة ١٩٠٥ — أى بعد الحرب الروسية اليابانية مباشرة . ولقد دهش الساسة لعدم انتهاز ألمانيا لتلك الفرصة الذهبية النادرة للتخلص من فرنسا فى الوقت الذى كانت فيه روسيا كالصفر على يسار العدد . نقول دهش الساسة لهذا التقاعس من جهة ألمانيا كما يدل على ذلك تقرير الكونت فيتى وزير مالية روسيا إلى القيصر فى سنة ١٩٠٦ . وقد أورده الدكتور باوسمان نقلا عن مذكرات الكونت فيتى قال : « أن الحالة الدولية هى بحيث أن لدى ألمانيا فرصة ثمينة للقضاء على فرنسا . فموقف روسيا

فى الوقت الحاضر لايسمح لها بتقديم أية مساعدة حربية تذكر لفرنسا . ثم أن إيطاليا والنمسا لن تقفا حجر عثرة فى سبيل ألمانيا . أما فيما يختص ببريطانيا (لاحظ أن ذلك هو رأى الكونت فيتى فى سنة ١٩٠٦ أى بعد عقد اتفاقية سنة ١٩٠٤ بين انجلتر وفرنسا) فهى لاتستطيع مساعدة فرنسا بريا ، وعلى ذلك فليس ثمة ريب فى أن المانيا قادرة ـ من الوجهة العسكرية على القضاء على فرنسا قضاء مبرما . فالفرصة مغرية جدا لألمانيا » .

وقد لايستطيع القارىء أن يدرك حالة روسيا وقتذاك فنذكر له طرفا مما سجله الكونت فيتى عنها فى مذكراته . قال الكونت أنه بعد عودته من مؤتمر الصلح الذى عقد فى مدينة بورتسموث فى الولايات المتحدة على أثر انتهاء الحرب الروسية اليابانية — « وجد أن الحكومة الروسية ليس لديها جنود ولا نقود تكبح بها جماح الثورة التي أخذت تندلع ألسنتها فى سائر أنحاء روسيا عقب الهزيمة فى الحرب . ولم يكن يمكن أنقاذ الأسرة الملكية من ثورة الشعب إلا بأمرين اثنين : الأول عقد قرض أجنبى كبير ، والثانى أعادة الجنود من سيبيريا . وكان الجيش الروسى بأكمله فى حالة احتضار مادى وأدبى . كما كانت روسيا فى أوربا مجردة كلية من الجنود . ولم يكن لدينا جنود ولا بوليس قروى . وقد انتشرت القلاقل بين الزراعين ونظراً لتوالى الاعتصابات فى السكك الحديدية فى روسية أوربا وسيبيريا انقطعت صلة الشرق الأقصى فى كثير من الاحيان بباقى الأمبراطورية عدة أسابيع متتالية ... » .

ولم تعز ألمانيا الحجة فى هذه المرة لأعلان الحرب على فرنسا . فقد كانت تستطيع أن تحتج بأفعال المسيو ديلكاسيه فى السنة السالفة وتغريره المتعمد بألمانيا فى المسألة المراكشية . فقد وقّع فى نفس الوقت معاهدتين متناقضتين أبقى الصحيحة منهما فى طى الكتمان والأخرى الوهمية أعلنها للملأ دون أن يراعى المجاملات الدولية فيرسل إلى ألمانيا بصورة منها . وسنسهب فى شرح تلك النقطة عندما نصل إلى البحث فى المسألة المراكشية.

ونعود إلى عدم اغتنام ألمانيا فرصة انشغال روسيا بالثورة الداخلية للانقضاض على فرنسا والتخلص من شرها قبل استفحال الأمر ، فنقول إن حالتها كانت سيئة إلى حد أن الكولونيل ربنجتون الكاتب الحربي الانجليزي المشهور كتب في الجزء الأول من مذكراته ص ١٣ يقول « لقد كانت الفرصة سانحة لألمانيا. ومن المؤكد أن كثيراً من الناس لا يستطيعون تعليل عدم مبادرتها إلى الحرب مع أن الظروف كلها كانت أكثر ملاءمة لها مما كانت في سنة ١٩١٤ بعد أن استعادت روسيا قوتها وبعد أن تم إصلاح الجيش الفرنسي وبعد أن استحكمت حلقات الجفاء بين انجلترا وألمانيا ! ! »

أجل يا سيدى الكولونيل لماذا لم تبادر ألمانيا إلى الحرب وقتئذ للقضاء على فرنسا ؟؟ الجواب بسيط . وهو أنها لم تكن تفكر مطلقا فى القضاء عليها .

وفى هذا الوقت الذى كانت تبحث فيه روسيا بواسطة الكونت فيتى عمن يقرضها المبالغ اللازمة لأنهاضها من عثرتها رفضت ألمانيا تقديم المساعدة الماليه كما رفضت الدول الأخرى . ولكن فرنسا هى التى أقدمت على تلك المساعدة وبذا طعنت أنصار الديمقراطية فى روسيا طعنة نجلاء لأنهم كانوا يتوقعون من جراء تضعضع نفوذ آل رومانوف أن يشتد ساعد مجلس الدوما ، ولكن أحلامهم تلاشت بمجرد وصول الكونت فيتى بالذهب الفرنسى الذى استعادت الأتوقراطية نفوذها بفضله .

وقد يتساءل بعض الناس عن معنى وجود الحزب العسكرى فى ألمانيا . فنقول يوجد فى كل بلد تعتمد على الجيش حزب عسكرى لافرق بين ألمانيا أو روسيا أو فرنسا . لا بل أن فى انجلترا نفسها حزبا عسكريا متطرفا ! فاذا كان الحزب العسكرى الألمانى قد قوى نفوذه قبل الحرب فذلك لأنه نجح فى إقناع الشعب الألمانى بصحة نظريته وهى أن ألمانيا معرضة للخطر من جهة الشرق ومن جهة الغرب وفى هذه الحال لايسعها إلا الاستعداد لدفع الطوارىء .

ولا ينبغى أن ننسى بهذه المناسبة أن طول خط الحدود الألمانية يبلغ ٤٥٧٠

ميلا، وهذا فى نفسه يحتاج إلى جيوش كبيرة تدافع عنه فى وقت الحرب .

وقد اعتاد بعض الناس أن يتهموا الأمبراطور الأسبق بميله الى تعكير صفو السلام! فهلا جاءهم أنه لما سمع بمقتل الأرشيدوق جوزيف فيرديناند وعقيلته — كما أكد لنا البارون بينز سفير بلجيكا فى برلين — صاح غاضبا « واأسفاه! لقد ذهبت هباء كافة المجهودات التى بذلتها فى خلال الخمسة والعشرين عاما الماضية لحفظ السلام! » وقد اعترف المسيو بوانكاريه نفسه بأنه سمع من أمير إمارة موناكو أن غليوم الثانى فاه بعبارة من هذا القبيل .

وقد حدثنا البارون بينز أيضا « بأن الأمبراطور قد حافظ على العهود التى قطعها على نفسه عند اعتلائه العرش فيما يختص بالاحتفاظ بالسلام . وحسبه أنه بقى خمسا وعشرين سنة لم يعكر فيها صفو السلام العام » . لا بل إن البارون المشار اليه يقول « إن الامبراطور كان مخلصا حقا فيما بذله من المساعى لايجاد تفاهم بين المانيا وفرنسا . ولكنه عيل صبره فى النهاية عند ما تبين له أن فرنسا تأبى أن تعير مساعيه أذنا صاغية ... ».

وقد جاء المسيو رينون بينون في كتابه « المانيا وفرنسا » على طائفة من أفعال غليوم الثانى الدالة على كرم أخلاقه ورغبته فى اجتذاب ثقة فرنسا ومن ضمنها الأنعام بنيشان النسر الاحمر على الجنرال بيلوت وتعزية فرنسا « بعبارة رقيقة جداً » بمناسبة مقتل كارنو ودعوته عمارة فرنسية بحرية لزيارة قنال كيال عند افتتاحها وأخيرا عدم اخفاء رغبته فى التودد الى فرنسا .

وحسبك أن صاحب هذه المذكرات نفسه اعترف « بأنه يعتقد أن الأمبراطور غليوم لم يكن يقصد الحرب عند ما وقع هذا الحادث» (يشير الى ارسال المدفعية بانثر الى مياه أجادير) . ويقول الكولونيل ربنجتون مكاتب التيمس الحربى سابقا فى هذا الصدد « إن الأمبراطور غليوم لم يرغب فى الحرب وانما كان مدفوعا بسير الحوادث » .

وبمناسبة أجادير أبرق سفير روسيا فى برلين إلى وزير خارجية بلاده

يقول « إن الناس مندهشون لاستسلام ألمانيا وتراجعها أمام فرنسا فى المسألة المراكشية حتى أن المسيو كامبون نفسه — سفير فرنسا فى برلين — أخبرنى أن الناس فى باريس لا يعرفون بماذا يعللون خطة ألمانيا » .

هذا هو الأمبراطور الذى وصفوه لنا بأنه عدو السلام ! والآن وقد بينا لك شدة تعلق ألمانيا بالسلم فلنشرح لك دوراً آخر من أدوار السياسة قبل الحرب وهو ما يسمونه بالخطر الروسى وقلق ألمانيا منه .

الخطر الروسى وقلق ألمانيا منه

إن الناظر إلى خريطة أوربا ليدهش لأن الطبيعة لم تمنح ألمانيا كبقية الدول الأخرى حدوداً طبيعية تقيها عاديات الأيام . فبينما نرى انجلترا تعتصم بالبحر المحيط بها ، وفرنسا كذلك من الشمال والغرب فى حين أن جبال البيرنيه الوعرة المسالك تفصلها من الجنوب عن اسبانيا وليس ثمة ما تخشاه إلا من جهة حدودها الشرقية وهذه مملوءة بالقلاع الحصينة كفردان وتول ومتز وستراسبورج وغيرها ، وبينما سويسرا تكتنفها الجبال الشامخة من كافة نواحيها ، وبينما إيطاليا تحتمى بجبال الألب من شمالها ، وبينما النمسا والمجر تعتصمان بجبال الكربات من الشرق ، وبينما تحمى روسيا الصحراوات الشاسعة التى تمتد من بحر البلطيق الى قرب الحدود النمساوية — نقول بينما توجد لمعظم الدول حدود طبيعية يسهل الدفاع عنها نرى أن حدود ألمانيا «مكشوفة» .

وبديهى أن الدفاع عن حدود مكشوفة يبلغ طولها ٤٥٧٠ ميلا لأمر شاق ، وخاصة وأن مركز ألمانيا الجغرافى بين دول يهمها جداً القضاء على تلك الدولة المجيدة أولا بأول وإبقاؤها دائما — كما كانت حالتها فى الماضى — فى الدرك الأسفل .

أفليس يحق لألمانيا إذن أن تحسب حساب روسيا وهى الدولة التى زادت

مساحتها فى خلال مائتى عام من ٢٧٥٫٠٠٠ ميل مربع إلى ٩٫٠٠٠٫٠٠٠ ميل مربع ! كما زاد عدد سكانها من ١٢ مليون إلى ١٥٠ مليون نسمة ؟ ! ولقد قدر بعضهم أن سكان تلك الدولة قد لايمضى عليهم قرن آخر حتى يصبح عددهم نحو ٤٠٠ مليون نسمة !! فاذا كانت فرنسا لاتزال ترفع عقيرتها مطالبة بالسلامة لأن سكان ألمانيا ٧٥ مليونا وسكان فرنسا ٣٨ مليونا فكم يحق لألمانيا أن تستعد لصيانة سلامتها ضد جارتها الشرقية وهـذا عدد سكانها مع ملاحظة أنهم شعب نصف همجى فهم والحالة هكذا أشد خطراً على ألمانيا من هذه على فرنسا ؟

وكيف لاتخشى ألمانيا شر روسيا وهى التى لم تكن لحكومتها شاغل آخر غير الحرب ؟ لا بل أنها لم تعش إلا بالحرب . ألم يحدثنا الكاتب الأمريكى المعروف هومرلى بانها سلخت لامتلاك البلطيق أحدا وعشرين ربيعا فى محاربة السويديين — وهم شعب يفوق الروس فى الحضارة — حتى أرجعتهم إلى شبه جزيرة سكندنافيا ؟ ألم تحارب بولونيا ثلاث حروب متواصلة للاستيلاء على روسيا البيضاء وروسيا الصغرى أيضا ؟ ألم تحارب تركيا أربع مرات لامتلاك شواطىء البحر الأسود ؟ ألم تصل الفنلنديين ناراً حامية مدة سبعة وعشرين شهراً لتوطيد أقدام الأتوقراطية بينهم ؟ ثم حرب القرم ؟ ثم الحرب التى أعلنتها روسيا مرتين لاخضاع القوقاز ومناطق بحر قزوين ؟ هذا عدا الحرب التى استمرت اثنين وستين عاما ضد الجبليين من سكان القوقاز ؟ ثم لاتنس الحرب التى لبثت ثلاثين عاما فى أواسط آسيا لتكون الحدود الأفغانية طبق أرادة الروسيا .

ومن الغريب أن الكاتب السابق كتب ما كتبه دون أن يشير بكلمة واحدة إلى ألمانيا بل استشهد بما سبق من الحوادث لتبرير خوف الأنجليز من تفاقم الخطر الروسى مع أن ذلك الخطر مهما عظم شأنه لن يهدد انجلترا بأكثر من ضياع بضع مستعمرات فى الشرق ذات ثروة وقوة بالنسبة لانجلترا، ولكن

بريطانيا كدولة بحرية لايمكن أن يهدده اتساع روسيا فى البر ؟ فكم يكون مبلغ تخوف ألمانيا من الخطر الروسى وهو على ابوابها مباشرة ؟

ولقد صرح المسيو بريان فى أبان وجوده فى وشنطون فى ٩ نوفمبر سنة ١٩٢١ بأن بولونيا هى الحاجز الوحيد الذى يحول دون الخطر الروسى ! هكذا يقول رئيس وزراء فرنسا الأسبق مع أن بلاده تفصلها عن ذلك الخطر لا بولونيا، فحسب بل وألمانيا أيضا !! زد على ذلك أن الجيش الفرنسى الآن على أتم استعداد، وأن لبولونيا جيشا ينيف عن ٦٠٠،٠٠٠ جندى فى حين أن الجيش الروسى اقل خطراً مما كان فى عهد الحكم القيصرى !! فاذا كان هذا مبلغ خوف فرنسا القوية التى تفصلها تلك المسافات الشاسعات عن الخطر الروسى فكيف بألمانيا التي كانت واقفة كتفا إلى كتف بجانبه ؟؟

الحق أن الألمان باتوا قلقين من الخطر الروسى وخاصة بعد أن أصبح ساسة الروس لايتحرجون من أعلان أن الطريق الى الأستانة تمر من برلين ! وهنا بدأنا نرى تطورات غريبة فى البلقان بعد أن أصبحت هذه السياسة هي شعار روسيا الرسمية .

فإن روسيا كانت تعلم أن استيلاءها على الأستانة لايمكن أن يتحقق إلا برضي الدويلات البلقانية، فاخذت تستميلهن الواحدة بعد الأخرى الى جانبها. فلأحباط سياستها تلك اضطرت ألمانيا أن تهتم بالبلقان وتؤيد النمسا فى سياستها فيه . وهذا طبعا أدى إلى تنافس ما كان ليحدث مطلقا لولا خوف ألمانيا من روسيا . لأن ألمانيا طبعا بعد أن رأت ساعد روسيا الأيمن يكاد يطوقها من ناحية البالطيق لم تشأ ان ترى ساعدها الأيسر يطوقها من ناحية البلقان . وقد أدى التنافس إلى بذر بذور الدسائس من الفريقين لأن كلا منهما كان يعمل على اكتساب مرضاة الدويلات الصغيرة المذكورة .

فالخطر الروسى كان موجوداً حقيقة. وقد نجح بسمارك فى درئه عدة مرات وتمكن فى خلال وجوده فى كرسى الحكم أن يحول دون تحالف فرنسا وروسيا.

ولنعرض أمامك الآن طائفة من أقوال الأخصائيين فى وصف ذلك الخطر الروسى .

فنى سنة ١٨٨٧ قالت صحيفة الاستاندرد وهى التى كانت لسان حال وزارة الخارجية البريطانية ما نصه :

« إن روسيا لا يضيرها الانتظار وكذلك الحال مع فرنسا . أما ألمانيا فعلى العكس منهما، فنى الانتظار مضرة لها . فعليها إذن ان تفكر فى سلامتها وإعداد العدة لدرء الخطر عنها . ولا ينتظر عاقل أن يقضى البرنس بسمارك ما بقى من أيام حياته يراقب عن كثب تطور تلك المؤامرة الصامتة واطراد النمو الصامت فى قوة فرنسا وروسيا ضد الوطن الألمانى » .

وفى عام ١٩١١ كتب الكولونيل ربنجتون مكاتب التيمس الحربى يقول :

« إن احتمال نشوب القتال فى الميدان الشرقى والميدان الغربى أصبح « بعبع » الخبراء العسكريين الألمانيين ومصدر حيرتهم . وإذا أضفنا إلى ذلك الاحتمال السرعة المدهشة التى تجهز بها روسيا جيوشها منذ عام ١٩٠٥ فلا ينتظر عاقل أن يزول ذلك « البعبع » بسهولة أو قبل مضى زمن طويل » .

وفى ٢٨ يوليه سنة ١٩٠٨ خطب المستر لويد جورج فى قاعة كوينزهول خطبة شائقة جاء فى سياقها قوله :

« أنظروا الى مركز ألمانيا وتمعنوا فيه : فهى تنظر إلى جيشها كما ننظر نحن إلى أسطولنا ، أى أنها تعتبره عدتها الوحيدة ودرعها القوى ضد غدرات الزمان أو أخطار الغزو الأجنبى . فليس لها — كما لنا — أن تحتفظ بقوة دولتين. من المسلم أن جيشها ربما كان أقوى من الجيش الفرنسى أو الجيش الروسى أو الجيش الأيطالى أو الجيش النمساوى. ولكن يجب أن لا ننسى أنها محاطة بدولتين عظيمتين فى استطاعتهما — لو اتحدتا — أن ترسلا الى داخل المانيا جيوشا وفيالق لا نعتبر بجانبها جيوش ألمانيا شيئا مذكورا . فعليكم أن تقدروا مركزها

قبل أن تدهشوا لتخوفها من المحالفات (كذا) وارتيابها فى المعاهدات وقلقها لبعض الاعمال الخفية التى تكشف الصحف الستار عنها أحيانا،وجزعها من اشارات التيمس وتلميحات الديلى ميل وهلم جرا . إن ألمانيا فى وسط أوربا، وفى شرقها توجد روسيا،وفي غربها فرنسا . فاذا اتحدت ضدها هاتان الدولتان كان لجيوشهما التفوق العددى الساحق على أقصى ما يمكن أن تحشده ألمانيامن الجيوش . فافرضوا معى ان تحالفا عقد ضدنا فعرض بلادنا لأخطار الغزو الأجنبى، هبوا أن لألمانياوفرنسا أو لألمانيا وروسيا أولألمانيا والنمساعمارات بحرية تستطيع باتحادها أن تهدد عمارتنا بالخطر، لو فرضتم كل ذلك ألا نشعر بالخوف وقتئذ ؟ ألا نكون وجلين قلقين ؟ ألا نعد مااستطعنا من قوة ونتأهب بقدر مافى طاقتنا ؟ تالله اننا ما كنا نتوانى لحظة واحدة فى التسليح أو نتراخى فى التأهب ولو كلفنا ما كلفنا ».

وفى أول يناير سنة ١٩١٤ — أى فى مستهل العام الجديد وقبل إعلان الحرب بسبعة أشهر فقط ظهرت جريدة الديلى كرونيل وفى صدرها خطبة ألقاها المستر لويد جورج جاء فيها :

« إن احتفاظ ألمانيا بمثل هذا الجيش أمر جوهرى لا للكيان الأمبراطورية الألمانية فحسب بل لحياة الأمة نفسها ودرء الخطر عن استقلالها نظرا لما يحيط بها من الدول الاخرى اللاتى تملك كل منها جيشا لا يقل فى عدده وسطوته عن الجيش الألمانى نفسه . إننا ننسى أو نتناسى أن أنجلترا لكيما تضمن سلامة شواطئها تتمسك بزيادة ٦٠٪ فى قوة بحريتها عن قوة ألمانيا بينما ليس لهذه مايقرب من ذلك التفوق على فرنسا وحدها فضلا عن روسيا التى تهدد حدودها الشرقية. فقوة ألمانيا لاتعادل قوة دولتين . وهذا هو سر قلقها من جراء الحوادث الأخيرة. (كذا) فلا عجب إذا رأيناها تبذل الآن غاية مجهوداتها وتنفق الأموال الطائلة بسخاء فى سبيل إنماء مواردها العسكرية ».

ومع ذلك لم يمض على إعلان الحرب بضعة أشهر حتى تناسى هذا المستر

نفسه كل هذه الاعترافات وتجاهل أقواله هذه وكان بالعكس فى طليعة الزاعمين بأن الألمان هم الذين تآمروا على السلام !

المؤامرة المراكشية

الأزمة الأولى

لقد أصاب اللورد غراى إذ وصف الأزمة المراكشية بالأزمة الأولى. وإذا كان القارىء ستتاح له فرصة الاطلاع على أقوال هذا الرجل وآرائه في تلك الأزمة، فمن حق التاريخ علينا أن نضع إلى جانب أقواله هذه أقوال الشهود العدول الذين كانوا على علم بما يجرى وراء الستار وهو ما يحاول صاحب المذكرات اخفاءه. ومادامت هذه الأزمة الأولى هى التى جرت الى المحادثات السرية بين فرنسا وانجلترا ثم أدت بالتالى إلى الجو المشبع بالشك وعدم الثقة — كما يقول صاحب المذكرات — فليس من الخروج عن الموضوع أن نفصل المؤامرة المراكشية بشىء من الأسهاب لأنها تعتبر مرحلة من المراحل العظمى فى سبيل تعجيل الحرب العالمية .

فالنظام الذى وضعته انجلترا وفرنسا واسبانيا بخصوص مراكش لم يكن فى الواقع سوى مؤامرة على السلام لا أقل ولا أكثر. وكيف لا تكون مؤامرة وتلك الدول الثلاث لم تعمل على هدم استقلال مراكش فقط ، بل عبثت بالمعاهدات واعتبرتها « قصاصة ورق » وداست حرمة القانون الدولى وسنت سنة جديدة أدى احتذاؤها إلى ما شهدناه فيما بعد من الاستخفاف بهيئة القانون العام والازدراء بحقوق الضعفاء لانهم ضعفاء ؟

فاذا ذكرت مراكش — كما يقول المستر موريل فى كتابه «حقيقة الحرب العالمية» الذى نقلناه إلى العربية — ذكر الانسان معها « أنها كانت السبب فى بدء تلك المحادثات السرية الحربية والبحرية بين انجلترا وفرنسا وهى التى

أدت تدريجا وبوسائل غير محسوسة — أى بدون علم مجلس الوزراء الانجليزى. وبالأحرى بدون استشارة البرلمان أو الشعب — وهو ما يعترف به اللورد غراى فى مذكراته — أدت الى تشبثنا معشر الانجليز باتباع خطة سياسية معينة قربت احتمال وقوع الحرب الأوربية وجعلت تدخلنا فيها أمرا محققا .

« ومراكش هي التى طبعت سياستنا وعلاقتنا مع ألمانيا بطابع العداء .

« وهى التى شدت عضد دعاة الحرب فى انجلترا وخولتهم الفرصة النادرة التي كانوا يتحينونها لأشعال نار السخط العام ضد ألمانيا معتمدين على كتم وقائع الأحوال وإخفاء الحقائق اللازمة لتكوين أية فكرة صحيحة بعيدة عن الهوى .

«وهى التى أرتجت — كما لاحظ المستر رامزى ماكدونالد بحق فى تمهيده لكتاب « المسألة المراكشية » بقلم المؤلف نفسه — أبواب الرجاء فى وجوه دعاة السلم والعاملين على حفظه فى أوربا .

« وهى التى افتتحت صحيفة المعاهدات وقيودها ومهدت الطريق للتعهدات السرية التى انتهت بغزو بلجيكا » . ذلك هو رأى كاتب انجليزى معروف فى تلك المؤامرة وإليك رأى زعيم فرنسى شهير فيها .

فى اليوم الخامس عشر من شهر يوليه سنة ١٩١٤ خطب المسيو جان جوريه الزعيم الاشتراكى الفرنسى فى مدينة فيز — أى قبل مصرعه بأسبوعين فقال :

« فى مثل هذه الساعة الرهيبة التي تتمخض بأخطار سوف لا يقتصر بلاؤها علينا وحدنا ، بل سوف يعم غيرنا من الدول الأخرى ، لا أرغب فى التوسع فى الشرح جاريا وراء المسؤوليات وتوزيعها ونصيب كل من المشتركين فيها . . . بل كل ما أريد أن أقوله هو أننا نتحمل شطراً كبيراً من المسؤولية. وإنى أعلن أمام التاريخ وهو أعدل شاهد بأننا (واقصد بذلك نفسى والحزب الاشتراكى الفرنسى الذى أنتسب إليه) لم نكتف بأن تنبأنا منذ زمن بعيد بما يقع تحت أنظارنا الآن ، بل بادرنا بتحذير قومنا عواقب ما تنبأنا به . فعند

ما احتججنا بأن التدخل فى مراكش بالعنف والشدة والسلاح يعتبر بمثابة افتتاح عصر جديد فى أوربا للأطماع والشره والنزاع ، رمانا بعض أعداء الحق بالعقوق واتهمونا بالخروج على الوطن ! فهنالك ، هنالك مع الأسف توجد مسؤوليتنا الوطنية . فاذا ما أردتم تعيين تلك المسئولية فارجعوا إلى مشكلة البوسنة والهرسك وهو منشأ النزاع الحاضر بين النمسا والصرب . فلم يكن لنا معشر الفرنسيين الحق أو المقدرة على تقريع النمسا وتأنيبها على ازدرادها مقاطعتى البوسنة والهرسك لأننا كنا أنفسنا فى شغل شاغل عن كل ذلك بابتلاعنا المراكش،ولأننا أردنا أن يغفر لنا الغير خطايانا متى اظهرنا استعدادنا لغفران خطاياه . ولهذا قال وزير خارجيتنا للنمسا « نعم ! يمكنك ازدراد البوسنة والهرسك على شرط أن تتغاضى عن ابتلاعنا لمراكش ! »

وقد بين المستر موريل فى كتابه السالف الذكر أن ابتلاع فرنسا لمراكش أدى الى ابتلاع النمسا للبوسنة والهرسك . ثم ان إيطاليا حذت حذو فرنسا والنمسا فيما بعد، فانقضت على طرابلس غير مكترثة بمعاهدتى لندن وباريس ، ثم حذت روسيا وانجلترا حذو إيطاليا فى فارس . وفى النهاية دارت الدائرة على بلجيكا وانتهكت حرمتها . فالاعتداء على استقلال مراكش والاستخفاف بالمعاهدات التى كانت موضوعة بشأنها — كل ذلك كان سنة سيئة ظهر أثرها فيما بعد وجعل القوى يستخف بحرمة المعاهدات مهما كانت مقدسة.

ولنشرح لك الآن تاريخ تلك المؤامرة المراكشية التى كانت بين الأسباب المهمة التى أدت إلى زيادة التنافس العسكرى بين ألمانيا والنمسا من جهة، وروسيا وانجلترا وفرنسا من جهة، ثم إلى وقوع الحرب العالمية فى النهاية . وفى هذا يقول المستر موريل :

«فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر أدى وقوع بضع حوادث مهمة إلى جعل مراكش موضع اهتمام أربع من الدول الأوربية وهى انجلترا وفرنسا واسبانيا وألمانيا . أما إسبانيا فكان اهتمامها بها راجعا إلى الصلة التاريخية القديمة



المستر موريل أحد أقطاب حزب العمال

التى كانت تربط البلادين . أما اهتمام انجلترا فكان اقتصاديا وحربيا . وكان الاهتمام الأخير منحصرا فى منع أية دولة أوربية قوية من ترسيخ أقدامها في ساحل مراكش الشمالى الذى يطل على البحر المتوسط حتى لايكون وجودها هناك مهدداً لحصن جبل طارق . فلم ترم انجلترا إلى اكتساب حقوق سياسية فى تلك الأراضى . وأما اهتمام فرنسا فكان استعماريا محضا لأن « الامبيريا ليزم » الفرنسية لم تتطلع إلى ابتلاع تونس فى شرقى الجزائر، ومراكش فى غربيها ، إلا لكيما تؤسس فى شمال افريقيا امبراطورية شاسعة تستعيض بها عن الامبراطورية التى كانت لها فى أوروبا فى عهد نابليون الكبير .

« أما اهتمام ألمانيا فكان تجاريا بحتا . ولذا كانت تجارة تلك الدولة رائجة جدا وآخذة فى النمو كما يدل عليه الاحصاء التالى المأخوذ من كتاب « السياسة السرية فى عشر سنوات » .

السنة	الصادرات الألمانية إلى مراكش بآلاف الماركات	الصادرات من مراكش لألمانيا بآلاف الماركات	المجموع ماعدا المعادن الثمينة بآلاف الماركات
١٩٠١	٣٦٣٢	١٥٦٤	٥١٩٦
١٩٠٢	٣٦٤٥	١٤٣٨	٥٠٨٣
١٩٠٣	٤٦٥١	١٦٦٤	٦٣١٥
١٩٠٤	٥٥٧٧	١٢٨٣	٦٨٦٠
١٩٠٥	٦٠١٧	١٧٢٥	٧٧٤٢
١٩٠٦	٦٢٩١	٢١٣١	٨٣٥٠
١٩٠٧	١٠١٣٤	١٦٧٣	١١٨٠٧
١٩٠٨	١٠١٥٦	٢٣٩٩	١٢٥٥٥
١٩٠٩	٨٥٨٩	٤١٧٥	١٢٧٦٤
١٩١٠	٩٦٣٤	٥٧٧٠	١٥٤٠٤

« فمن هذا الجدول ترى ان ألمانيا كانت إحدى الدول التي ينبغي أخذ رأيها عند إحداث أي تغيير سياسي يمس استقلال مراكش.

« وفي سنة ١٨٨٠ رأت تلك الدول الاربع ، ودول أخرى ذوات مصالح غير مباشرة (وهن أمريكا وبلجيكا وهولندا وإيطاليا وروسيا والنمسا) أن قد حان الوقت لعقد مؤتمر دولي لتحديد علاقات أوروبا بمراكش . فعقد مؤتمر مدريد واشترك في جلساته مندوبو سلطان مراكش.

« ووضعت عدة قرارات كان في طليعتها قرار يقضي بتمتع جميع الدول بكافة الحقوق التجارية في تلك البلاد، وكانت مقصورة حتى الآن على انجلترا، وهذا ما يسمونه في عرف السياسة « بالباب المفتوح » .

ثم استمرت سياسة الباب المفتوح إلى سنة ١٩٠٤ ، وكانت الدول الموقعة على اتفاقية مدريد شديدة الحرص على أن لا تنفرد دولة منها بإحداث شيء قد يؤول بأنه عبث بحرمة الاتفاقية المذكورة . فمن ذلك أن اللورد سلسبوري أراد إدخال بعض إصلاحات محلية دعت إليها الحاجة ووافقته ألمانيا عليها، ولكن

نظرا لمعارضة الفرنسيين لم تنفذ فكرة اللورد . ومن ذلك ايضا ان العلاقات التجارية تعززت بين مراكش وألمانيا إلى حد أن ألمانيا عقدت مع مراكش اتفاقية تقضى بإنشاء سفارة مراكشية فى برلين ، ولكن الحكومة الألمانية أبت إبرام تلك الاتفاقية بدون استشارة الدول التي اشتركت فى مؤتمر مدريد . قارن بين هذا وماحدث فيما بعد !

«وكان المشرف على سياسة خارجية فرنسا فى سنة ١٩٠٤ مسيو ديلكاسيه، وهو رجل شديد الأطماع كثير التذبذب والتقلب ، وكان لايعرف للعهود حرمة . فرأى أن يحول إيطاليا عن مراكش بإغرائها بطرابلس بعد أن خابت آمالها فى تونس . فتحولت إيطاليا شرقا ولكن بعد أن حصلت من فرنسا على تأكيد بعدم التعرض لها فى احتلال طرابلس فى الوقت المناسب — فى مقابل أن لاتقيم إيطاليا العراقيل فى سبيل فرنسا فى مراكش . لاحظ جيداً كيف بدأت سلسلة الاعتداءات هذه واذكر كيف أدت فيما بعد إلى الحرب الطرابلسية والحرب العالمية .

«ثم التفت المسيو ديلكاسيه إلى إسبانيا فاقترح عليها تقسيم مراكش بينها وبين فرنسا . فطالت المفاوضات السرية وكادت تسفر عن نتيجة لولا أن الحكومة البريطانية سمعت بها فتدخلت فى الأمر . وبذا امتنعت الحكومة الأسبانية فى النهاية عن توقيع الاتفاق .

« فأنت ترى من هذا أن سياسة فرنسا أو سياسة ديلكاسيه على الأقل كانت متجهة إلى إخراج ألمانيا من التسوية التى كان ينوى وضعها مع الدول الأخرى بخصوص مراكش . وهى سياسة خطرة كان لابد أن تؤدى عاجلا أم آجلا الى عواقب وخيمة ، ولذا كان يتعين على فرنسا أن ترفض العمل بها أو تفكر فى الاقدام عليها .

« وفى سنة ١٩٠٤ أى بعد أن دارت الدائرة على روسيا فى الحرب اليابانية،

عدلت انجلترا عن عداوة روسيا ووجهت اهتمامها الى إلمانيا وأخذت تفكر في وضع حد لنموها المتزايد .

« فبدأت المفاوضات بين انجلترا وفرنسا لتنظيم علاقات الدولتين فى المستقبل بعدأن كدرت صفوها حادثة فاشودة فى سنة ١٨٩٨ . ومنذ هذه المفاوضات بدأت سياسة « تطويق المانيا » التى ابتكرتها انجلترا ضد تلك المنافسة الفتية . ويرجع الفضل فى تنفيذ تلك السياسة الى الملك إدوارد السابع « ملك السلام » كما يسميه الانجليز ! فلقد تبوأ العرش فى سنة ١٩٠١ وفى سنة ١٩٠٢ استقال اللورد سلسبورى العدو الألد لفرنسا وروسيا . وفى سنة ١٩٠٣ زار « ملك السلام » باريس لتمهيد الطريق لاتفاقية سنة ١٩٠٤ . وفى سنة ١٩٠٤ انهارت روسيا وأصبحت ألمانيا قوية . فاعتبرت انجلترا أن الوقت مناسب لبدء سياسة التطويق المذكورة .

« وقد قلنا أن المفاوضات كانت دائرة بين أسبانيا وفرنسا لتقسيم مراكش ، وأن انجلترا سمعت بها فتدخلت فيها . فانتهى تدخلها هذا بوضع اتفاقية ٧ ابريل سنة ١٩٠٤ المشهورة التى قررت مصير مصر ومراكش ، كما وضعت الأساس الذى تسير عليه سياسة البلدين فرنسا وانجلترا فى المستقبل — حيال المانيا .

« هذا فيما يختص بفرنسا وانجلترا فى شأن علاقاتهما الدولية المقبلة . أما فيما يختص بمراكش فقد وضعت هاتان الدولتان ومعهما أسبانيا معاهدتين ، الأولى أعلنت للملأ ، وهى تقضى باحترام الباب المفتوح ، والثانية سرية ، وهى تقدم مراكش غنيمة باردة لفرنسا .

« والآن وقد حصلت فرنسا بمقتضى هذه المعاهدة السرية على تصديق شريكتيها فى الاتفاق على ضم مراكش الى امبراطوريتها الأفريقية ، لم يبق أمامها إلا أن تخلق « الظروف المناسبة » للاستيلاء على تلك البلاد التعيسة باسم « المدنية والحضارة » .

« ولا ريب فى أن غشا كهذا كان حريا بأن يجعل النفوس تتقزز ممن

أقدموا على ارتكابه ، بل كان كافيا — لو روعيت قواعد العدالة والانصاف — للحط من كرامة الدول التي أقدمت عليه وتسوئة سمعتها . ولكن كلا، لم يعتبر هذا الغش والتدليس إلا مهارة سياسية يستحق فاعله الأشادة بذكره وتخليد اسمه فى بطون التاريخ !

« على أن هذا الغش ما لبث أن انفضح أمره وانكشف ستره. وقد كانت الحكومة الألمانية بكل بساطة وطيبة قلب صرحت فى بدء الأمر أنها لا ترى حرجا على مصالحها من ذلك الاتفاق . كان ذلك طبعا قبل أن يبلغها نبأ المعاهدة السرية . ولكنها ما لبثت أن عدلت موقفها وأدركت أن هنالك شبه مؤامرة لطردها من مراكش بطريقة الاختلاس والتدليس . فثار ثائرها — وبحق — لأنها أولا كانت احدى الدول الموقعة على اتفاقية مدريد . وثانيا لأن انتشار مصالحها فى البلاد المراكشية كان كافيا لأخذ رأيها عند إجراء أى تعديل يمس استقلال تلك البلاد . ثم تحققت ألمانيا بصفة قاطعة من وجود المعاهدة السرية عند ما ألح المسيو ديلكاسيه على سلطان مراكش بادخال عدة اصلاحات ، وتشدد فى ذلك بدون إعطائه فرصة لاستشارة الدول الأخرى التى اشتركت فى مؤتمر مدريد .

« هنالك صممت ألمانيا على أن تشهد العالم أنها لا تسمح بأن يعاملها الغير هذه المعاملة المزرية ولا أن تطرد من ميدان العمل فى مراكش بهذه الطريقة الفاضحة . فشد الامبراطور غليوم رحال السفر الى طنجة فى ابريل سنة ١٩٠٥ . فما كاد يصلها حتى جاءته رسل السلطان وحاشيته للتحية ، وهناك وقف بينهم خطيبا وأعلن أمامهم أنه يعتبر مولاهم الحاكم المستقل المطلق لمراكش ، وأن السلطان يستطيع أن يعتمد على ألمانيا فى تأييد استقلال تلك البلاد .

« ويظهر أن الامبراطور أوعز الى السلطان أن يرسل مذكرة إلى كافة الدول التي اشتركت فى مؤتمر مدريد يقترح فيها عقد مؤتمر دولى آخر للبحث فى أحوال بلاده وعلاقة أوربا بها .

« فأرسلت تلك المذكرة فى ٣٠ مايو سنة ١٩٠٥ وكانت ألمانيا أول من بادرت بقبولها . فتقرر عقد المؤتمر فى الجزيرة .

«وليس يخفى أن مسلك ألمانيا هذا لم يكن فيه مايدعو إلى الانتقاد من الوجهة القانونية، بل بالعكس كانت خطتها صائبة لا غبار عليها. فان مستقبل مراكش لم يكن مسألة تخص انجلترا وفرنسا واسبانيا فقط بل تخص كافة الدول التى اشتركت فى مؤتمر مدريد. فكون انجلترا اتفقت مثلا على أن تجعل فرنسا « وصية » على مراكش لاعبرة به إلا إذا وافقت عليه بقية الدول التى اشتركت فى المؤتمر السالف الذكر . فهل وافقت تلك الدول ؟ كلا . بل بالعكس لم تعلم الدول بالاتفاق السرى بين فرنسا وانجلترا إلا من طريق غير مباشر ، وعلى ذلك لايمكن أن تعترف بذلك الاتفاق وليس من مصلحتها الاعتراف به . ولقد كان يجمل بفرنسا — إذا كانت مصممة على أن يخلو لها الجو فى مراكش — أن تفكر فى طريقة ودية للتفاهم بها مع ألمانيا وتعويضها عن مصلحتها فى تلك البلاد تعويضا لائقا فى جهات أخرى لا أن تعاملها بتلك الخشونة المنافية للمجاملات الدولية.

«ولم يفت الامبراطور أثناء زيارته لطنجة أن يلفت نظر العالم عامة، وفرنسا خاصة، بشىء من الشدة . إلى الأ لعوبة التى لعبها المسيو ديلكاسيه على ألمانيا . وقد كان الموقف يبرر هذه الشدة تبريراً تاما كما لايخفى .

«على أن كثيراً من عقلاء الفرنسيين ثار ثائرهم عند ما وقفوا على المناورة التى عملها المسيو ديلكاسيه، فانبرى عدد منهم لانتقاده حتى فى مجلس النواب الفرنسى وفى الصحف . ثم أخذت الحملة عليه فى داخل المجلس وفى الصحف وفى المجتمعات السياسية تنمو وتشتد إلى أن هانت على الرجل نفسه فرفع استقالته مرغما فقبلت فى الحال وتخلصت فرنسا من ظله المنحوس .

«ومع أن انجلترا هى التى بيتت هذه المؤامرة مع المسيو ديلكاسيه، وعليها عدلا تقع بعض التبعة، إلا أن ألمانيا لم تشأ تكدير علاقاتها معها، فلم تتهم الساسة

الانجليز بالاشتراك فى الغش الذى عمل وأحجمت، بكل بساطة، عن نشر المعاهدة السرية التى كان يصح أن يؤدى نشرها إلى فضيحة الساسة الانجليز كما فضح المسيو ديلكاسيه . ومن العجب أن تعفف ألمانيا عن فضيحة الساسة الانجليز لم يقابل من كثير من الصحف الانجليزية إلا بالسباب والمثالب، وكانت جريدة التيمس فى طليعة الصحف التى أخذت تحمل على الامبراطور حملات شخصية محضة ! !

« ولقد كان الباعث لتلك الصحف فى حملاتها هذه عطفها المصطنع على فرنسا إذ صورتها فى صورة الدولة المغلوبة على أمرها التي تحكمت فيها جارتها ألمانيا بلا وجه حق ، وضغطت عليها إلى أن أجبرتها على خلع وزير خارجيتها ! ! أما السبب الحقيقى لذلك العطف فكان شيئا غير هذا بالمرة. فان وزارة الخارجية البريطانية لحت إلى تلك الصحف بأن تعضد الاتفاق الانجليزى الفرنسى الذى تم فى سنة ١٩٠٤ لتسوية علاقات الدولتين، وهذا التعضيد يقتضى طبعا تسويغ كل ما تعمله فرنسا حتى ولو كان خاليا من المجاملات الدولية ، لأنها لا تفعله إلا بالاتفاق مع انجلترا .

« وهكذا خدع الشعب البريطانى . فقد ظل يعتقد أن المعاهدة العلنية لاغبار عليها، وأنها ضمنت مصالح ألمانيا ، وأنها أبقت على سياسة الباب المفتوح . فترتب على اعتقاده هذا أنه اعتبر شكوى الامبراطور تحككا لامعنى له ، وأن زيارته لطنجة تحرش يقصد به استعراض قوته أمام المراكشيين . وبالجملة فان الجمهور فى بريطانيا قد تسممت عقليته ضد ألمانيا، لأن الصحف الانجليزية أفهمته أن المعاهدة العلنية هى كل شىء ، وأن ليس ثمة اتفاق سرى ، وأن ألمانيا هى التى تتحرش بفرنسا وتضغط عليها كما حدث فى مسألة استقالة المسيو ديلكاسيه !

« ورب قائل يقول ولماذا لم تبادر ألمانيا بنشر الاتفاقية السرية فتفضح غش الساسة الانجليز والفرنسيين ؟ فنجيبه بأن الشؤون السياسية بين الدول لاتدار بهذه الطريقة الصريحة ، والتكتم هو الأساس الذى تقوم عليه تلك السياسة .

أما نحن فنستهجن هذا التكتم ونرى أن الاتفاقات السرية هي أساس ما حدث ويحدث من الحروب. ثم أن نشر تلك الاتفاقية كان يؤدى حتما إلى قطع العلاقات بين ألمانيا وبين فرنسا وانجلترا. فإن كانت هاتان الدولتان قد اتفقتا سراً على تأييد الاتفاقية المذكورة لم يبق أمام ألمانيا، إذا اجترأت على نشرها، إلا أحد أمرين، إما أن تعلن الحرب على انجلترا وفرنسا، وإما أن تتقهقر تقهقراً مزريا بكرامتها وترضى «بالأمر الواقع» بقطع النظر عن أنها كانت على حق فى كافة تصرفاتها.



مؤتمر الجزيرة

«إن الحق غير معروف فى السياسة، لا بل أن السياسة — كما هي معروفة اليوم — تقضى على من يمارسها بأن يكون كذابا مراوغا صفيقا مجرداً من عواطف الرحمة متجاهلا كل ما يحدث حوله مع علمه به، متظاهراً بالاتفاق مع الخصم فى الجوهر، والادعاء بأن الخلاف ليس إلا فى العرض فقط مع اعتقاده عكس ذلك!! فأنت تظهر له ثقتك بنزاهته مع علمك بمكره ودسائسه!! هذه هي أصول السياسة وتعاليمها!!

« ونعود الآن إلى حديث مؤتمر الجزيرة، فإن الدول وفى مقدمتها ألمانيا قبلت دعوة السلطان لحضور المؤتمر . وقد حضرته انجلترا وفرنسا بعد ترددهما فى الحضور . وقد عقد فى أوائل سنة ١٩٠٦ . وبعد مناقشات طويلة كادت تقضى عليه وضع ما يسمى «بعهد الجزيرة» . وقد افتتح «العهد» باسم الله الواحد القهار... وقام أولا على أساس احترام استقلال ، سيادة جلالة السلطان ، وثانيا على سلامة البلاد ، وثالثا على منح الحرية الاقتصادية للجميع بلا تمييز أو تفضيل ... » .

« وقد جاء فى المادة الأخيرة منه وهى المادة ١٢٣ ما يأتى :

« كافة المعاهدات والاتفاقات والترتيبات الموجودة بين الدول الموقعة على « العهد » وبين مراكش تبقى معمولا بها . ولقد تم الاتفاق مع هذا على أنه فى حالة وجود تناقض بين مواد تلك المعاهدات وبين مواد « العهد » العام الحاضر فإن مواد « العهد » هى التى يعمل بها .. » .

« ولقد انتهى ذلك المؤتمر بسلام وكان مسلك ألمانيا فيه — برغم من أن معظم ما وضع فيه من القرارات والاتفاقات كان منافيا لمصلحتها — سلميا وداعيا إلى الاحترام كما شهد بذلك جميع الكتاب المحايدين .

« ذلك إذن هو القانون العام الذى وضعته أوربا فى ١٨ يونيه سنة ١٩٠٦ وحددت به علاقاتها مع مراكش .

« ولقد كان فى وسع اللورد غراى — وهو طبعا لم يكن مسؤولا عن اتفاقية سنة ١٩٠٤ — أن يجعل ذلك المؤتمر فاتحة عصر جديد فى العلاقات الدولية ، وأن يفهم فرنسا — لو أنه كان حقيقة من عشاق السلام — أن انجلترا لا يمكن أن تسمح بدوس ذلك « العهد » أو انتهاك حرمته .

« أجل كان فى وسعه أن يخبر فرنسا أن « عهد الجزيرة » هو معاهدة دولية عليها توقيع انجلترا ، وهى تقضى باحترام استقلال مراكش وسلامتها . فإن كان ولا بد من ابتلاع مراكش تنفيذاً لاتفاقية سنة ١٩٠٤ فليكن ذلك بالطرق السلمية لا بطريق العسف، وبالتأنى لا بالعجلة ، وبطريقة لا تلفت الأنظار، وقبل

كل شيء بالتفاهم مع ألمانيا وتعويضها عن مصالحها فى مراكش تعويضا لائقا في جهة أخرى . نعم كان فى وسعه أن يقول لها « إن انجلترا لايمكنها أن تؤيدك فى تمزيق ذلك «العهد» بطريقة عنيفة » . وقد يكون موقفه هذا منافيا لخطة النزاهة واحترام «العهد» احتراما مطلقا، ولكن ما حيلتنا فى « الدبلوماسيه» وهى التى تمزق باليسار ما تكتبه باليمين، وتدوس اليوم ماقدسته بالأمس» ؟! انتهت أقوال المستر موريل .

لقد كان فى وسع اللورد غراى يقينا أن يغير سير العلاقات الدولية بعد أن تبوأ مقعده فى وزارة الخارجية في سنة ١٩٠٦ . ولكنه لم يفعل، بل بالعكس ما كاد ينفرط عقد مؤتمر الجزيرة حتى سمح جنابه بأن تبدأ بين انجلترا وفرنسا المحادثات الحربية والبحرية لتوحيد أعمال الدولتين فى وقت الحرب ، وهى المحادثات التى اعترف صاحب المذكرات نفسه بأن أمرها ظل مكتوما عن أغلبية الوزراء !!!

فهل كان ذلك عمل رجل يحب السلام ؟

ويلاحظ القارىء أن صاحب المذكرات بدأ حديثه عن الأزمة المراكشية الثانية التى أدت إلى حادث أجادير بقوله « إن ألمانيا فاجأت العالم بإرسال المدفعية بانتر إلى ثغر أجادير الذى لم يكن مفتوحا للشؤون التجارية ! ! » فكأنه يريد أن يفهم الناس أنه لايوجد ارتباط ما بين حوادث سنة ١٩١١ وحوادث سنة ١٩٠٥ التى شرحناها لك هنا . ولكن من حق التاريخ علينا أن نبين للملأ ذلك الارتباط .

المعاهدة السرية الخاصة بمراكش

لقد مر بك قولنا أن انجلترا وفرنسا واسبانيا عقدت فى سنة ١٩٠٤ معاهدتين الأولى علنية والثانية سرية . وإتماما للفائدة نرى أن نثبت هنا بعض النصوص المهمة فى المعاهدة السرية كما نشرتها جريدة « الطان » لأول مرة فى شهر نوفمبر سنة ١٩١١ .

فالمادة الأولى تتنبأ بأن إحدى الدولتين (فرنسا وانجلترا) قد تضطر بحكم الظروف إلى تغيير خطتها ازاء مصر ومراكش الخ .

والمادة الثالثة تشير سلفا إلى وضع مراكش تحت الحماية الفرنسية بشرط أن تستولى اسبانيا على الساحل الشمالى الواقع على البحر المتوسط وساحل المحيط الاطلانطيق وهاك نصها :

« اتفقت الحكومتان على أنه فى حالة تلاشى نفوذ السلطان فى الأراضى المراكشية الواقعة بالقرب من مليلة وسيته والجهات الاخرى تدخل هذه الاماكن تحت نفوذ اسبانيا ، وأن تقوم اسبانيا بأدارة الساحل من مليلة لغاية — ومع استثناء — المرتفعات الواقعة على الضفة اليمنى لنهر سيبو » .

ويحول ضيق المقام دون ذكر المواد الباقية من المعاهدة السرية . وحسبنا ماذكرناه دليلا على أن الدول التى كانت تتظاهر أمام الملأ بالغيرة على استقلال مراكش وعلى احترامها « لعهد الجزيرة » كانت فى الباطن تعمل على هدم هذا الاستقلال وتمزيق « العهد » وجعله « قصاصة ورق » . ! !

ولا بأس من أن نعرض أمام القارىء نصوص الخطابين اللذين تبودلا بخصوص المعاهدة السرية بين المسيو بول كامبون سفير فرنسا فى لندن واللورد لانسدون وزير خارجية انجلترا .

من السفير الى وزارة الخارجية

عزيزى لورد لانسدون :

« كلفت بإبلاغك نص الترتيبات التى تمت بين فرنسا واسبانيا فى صدد مراكش ، وقد أمضى هذه الترتيبات فى يوم ٣ الجارى (اكتوبر سنة ١٩٠٤ كل من وزير خارجيتنا (المسيو ديلكاسيه) والسفير الأسبانى فى باريس .

وتتضمن هذه الترتيبات تصريحا عاما سينشر فى الصحف، واتفاقا سيبقى فى طى الكتمان .

«ولقد أشار المسيو ديلكاسيه ـ وهو يكافني بإبلاغ نص هذه الترتيبات ـ طبقاً للمادة الثامنة من تصريح ٨ ابريل سنة ١٩٠٤ - إلى أن هذا الخطاب سرى محض . وقد طلب إلى أن التمس منكم أن تتكرموا بإبقاء نبأ هذا الاتفاق في طي الكتمان الخ» .

فرد عليه لورد لانسدون فقال :

من وزير الخارجية الى السفير الفرنسى

عزيزى المسيو كامبون

«وصلني خطابك بتاريخ اليوم المشتمل على الوثيقتين اللتين كلفت بإبلاغهما إلىّ طبقاً للمادة الثامنة من «التصريح الخاص بمصر ومراكش» الصادر في ٨ ابريل الماضي، ولا حاجة لأن أقول اننا ندرك تمام الأدراك الصفة السرية التي لهذا الاتفاق المعقود بين رئيس الجمهورية الفرنسية وملك أسبانيا فيما يختص بالمصالح الفرنسية والاسبانية في مراكش ، كذلك لا حاجة لأن نقول أننا سنحترم هذه الصفة الخاصة بالاتفاق . على أنني أفهم أن الورقة الصغيرة أو التصريح الذى وضعته الحكومتان هو للنشر .. الخ» .

كل هذا يدل أوضح دلالة على أن حكومتى فرنسا وانجلترا ارتبطتا بعهد سرى على هدم استقلال مراكش وطرد ألمانيا منها .

ولقد بينا فيما مر بك أن «عهد الجزيرة» أو قانون أوربا العام من حيث علاقاتها مع مراكش قام على أسس ثلاثة :

أولا — استقلال سلطان مراكش

ثانيا — سلامة بلاده

ثالثا — منح الحرية الاقتصادية للجميع بلا استثناء او تفضيل . وقد نالت ألمانيا من ذلك المؤتمر فائدة الاحتفاظ باستقلال مراكش ،في حين أن فرنسا فازت بأن خولها المؤتمر حق إبقاء قوة بوليسية تقرب من ٢٥٠٠ شخص

تشكل بأمر السلطان وتوزع فى ثمانى موانى تجارية،على أن يساعدها فى تنظيم هذه القوة ستون ضابطا فرنسيا واسبانيًا يشرف عليهم جميعاضابط سويسرى. أما المسائل الخاصة بمنع تجارة السلاح على الحدود الجزائرية فقد ترك البت فيها للحكومة المراكشية والفرنسية رأسا .

ولكن مؤتمر الجزيرة ما كاد ينفرط عقده حتى بدأ اللورد غراى يعتبر أن قراراته كانت إهانة بالنسبة لانجلترا !! وسرعان ما سمح للسفير الفرنسى فى لندن بأن يفاتحه فى اقتراحاته المشؤومة لتقرير خطة الدولتين فى الحرب المقبلة والتى لا مناص منها كما سبقت الاشارة الى ذلك .

ثم بدأت « المحادثات » بين الدولتين ، وذهب السير جون فرنش إلى فرنسا للاتفاق مع هيئة أركان حرب الجيش الفرنسى على كيفية توزيع القوات فى وقت الحرب . وعلى أن المقام لا يسمح بالخوض فى تفاصيل تلك المحادثات ولكن حسبنا أن نذكرهنا أنها أسفرت عن تعهد من جانب انجلترا بأن ترسل إلى فرنسا فى حالة نشوب الحرب العالمية تجريدة عسكرية لا تقل عن ١٠٠ الف جندى، وأن تقوم بحماية الشواطىء الفرنسية،فى حين يقوم الأسطول الفرنسى بحماية طرق المواصلات فى البحر المتوسط على أثر انسحاب الأسطول البريطانى منه إلى بحر الشمال . وقد ذكرنا لك أن هذه الاتفاقات ظلت مكتومة عن البرلمان وعن الشعب الأنجليزى ، بل وعن الفريق الأكبر من الوزراء الأنجليز أنفسهم . فان خطبة اللورد غراى عشية اليوم السابق لأعلان الحرب دلت على أن هناك عهوداً واتفاقات ، وأنها سارية على انجلترا فلا مناص للأفلات منها!!

وللتدليل على صحة هذه الأقوال نذكر لك اعترافات لورد غراى فى أواخر الفصل السادس قال « إن حادث اجادير عرض مسألة المحادثات العسكرية على بساط البحث . وأحسب أن بعض أعضاء الوزارة لا بد أن يكونوا قد علموا

بأمرها مما دار بصددها من المناقشات فى لجنة الدفاع الامبراطورى. وفى سنة ١٩١٢ علم الوزراء الآخرون أن هذه المحادثات قد دارت فعلا. وقد كان من حق الوزراء الذين لم يكن لهم أى علم بأمرها أن يعرفوا بالدقة حقيقة موقفنا أزاء الفرنسيين. ولم يكن ثمة ما يدعو الى التردد فى عرض المسألة برمتها على مجلس الوزراء للمناقشة فيها . ولعل الصعوبة الوحيدة كانت منحصرة فى الاعتراض على السماح باجراء هذه المحادثات والتورط فيها الى هذا الحد بدون علم مجلس الوزراء بأسره (كذا ! كذا !) . أما الوزراء الذين سمعوا بأمر هذه المحادثات لأول مرة فقد غلب على ظنهم أن هناك أموراً مكتومة تقيد انجلترا وإلا لما ظلت المحادثات فى طى الكتمان طوال هذا الوقت . ثم طلب فريق من الوزراء أن تسجل نتيجة المحادثات العسكرية كتابيا ما دامت لا تقيد انجلترا بشىء الخ » .

فبماذا تحكم على رجل سمح باجراء مثل هذه المحادثات الخطيرة وكتمها عن الشعب والبرلمان لا بل عن الفريق الأكبر من الوزراء مدة ست سنوات متواصلة؟ على أن نتيجة الأزمة الأولى للمؤامرة المراكشية كانت كما حدثنا المستر موريل فى كتاب « حقيقة الحرب العالمية » .

«أولا : تعهدت الأمة الانجليزية ـ بدون علمها وبدون استشارة برلمانها ـ بتأييد المطامع السرية التى تطمح إليها وزارة خارجية فرنسا تأييدا سياسيا . وبمعنى آخر أن الشعب الانجليزى أخذ على عاتقه مساعدة فرنسا على بسط حمايتها على مراكش .

«ثانيا : كان الشعب الانجليزى يؤيد بدون علمه ـ معاهدة فاسدة غادرة ـ قررت أمرا من الأمور ورامت العمل بنقيضه .

«ثالثا : تعهد الشعب الانجليزى بتأييد حكومته فى نزاعها مع المانيا . غير أن تأييده هذا كان تأييداً أعمى، وقائما على أساس فاسد ـ هو سوء فهم القضية الألمانية تماما ـ بسبب إخفاء الساسة الانجليز بعض الحقائق المهمة

وكتمها عن علم الجمهور حتى لايأتى حكمه مستقلا وبعيدا عن الهوى .

« رابعا : كانت المساعدة السياسية تتحول ــ تدريجا وبدون علم الشعب الانجليزى ــ إلى معونة مادية محتملة . أى أن هذا الشعب كان يتأهب ــ وبدون علمه لخوض غمار الحرب مع ألمانيا لمساعدة فرنسا .

« ولعلك رأيت فيما مر بك أنه لم ترد فى عهد الجزيرة كلمة واحدة تمس استقلال مراكش أو تعبث بسياسة الباب المفتوح . وتأكيدا لهذا عقد بين فرنسا وألمانيا فى سنة ١٩٠٩ اتفاق يسمى « التصريح الألمانى الفرنسى » أعربت فيه كلتا الحكومتين عن رغبتهما فى الاحتفاظ بحرمة « العهد » وقصر نشاطها على الشئون الاقتصادية .

« ولقد رأيت أيضا أن الحكومة الألمانية بدلا من ان تقابل غدر المسيو ديلكاسيه فى عقد المعاهدة السياسية بإعلان الحرب على فرنسا، مع أن ذلك كان فى وسعها عقب انهيار الروسيا فى الحرب اليابانية ــ لجأت إلى السلم كما تشهد الحوادث بذلك .

« ولكن فرنسا على الرغم من تعهداتها شرعت فى تمزيق « عهد الجزيرة » بطريقة منظمة ، مبتدئة بغزو البلاد المراكشية على أثر قتل أحد رعاياها فى مدينة مراكش فى ٢٢ مارس سنة ١٩٠٧ مما أدى إلى حدوث الأزمة المراكشية الثانية فى سنة ١٩١١ .

« ونذكر هنا ملخص الاعتداءات الفرنسية على استقلال مراكش فنقول: بعد مقتل ذلك الرجل ، غزت فرنسا البلاد المراكشية واحتلت جنودها « العوجا » والبلاد الواقعة قرب الحدود الجزائرية وقد استمر الاحتلال برغم وعود الجلاء المتكررة .

« وحوالى هذا الوقت منحت شركة اسبانية فرنسية امتيازا بمد خط حديدى من ميناء الدار البيضاء الواقعة على الشاطىء الاطلانطيقى إلى الشرق . فلما تبين أن الخط سيمر بإحدى المقابر المراكشية التى يقدسها الأهالى احتج

هؤلاء، فلما لم يفد الاحتجاج ثارت المعركة بين الاهالى وعمال الشركة الاجانب حيث قتل عدد من الأخيرين، فأدى هذا إلى حدوث الهرج فى داخل وخارج الدار البيضاء . وإذذاك أطلق الفرنسيون القنابل على الميناء المذكورة واستولوا على منطقة «شاوايا» التى وراء الدار البيضاء . ثم دار قتال شديد قتل فيه آلاف من الأهالى. ثم احتل الفرنسيون الدار البيضاء ورباط، وهذه الأخيرة هى ميناء تجارية عظيمة . وقد وعدت فرنسا بالجلاء عن تلك الجهات ولكن دون أن تبر بوعدها . وهنا بدأنا نرى المرحلة الأولى فى سبيل انهيار استقلال مراكش .

« وليت فرنسا اكتفت بالاحتلال ، بل طلبت من الخزانة الشريفية أن تدفع لها ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه تعويضا عن نفقات الاحتلال وكذا ٥٢٢٫٨٨٤ جنيه تعويضا لأقارب القتلى والجرحى !

« ثم اشتد غضب الشعب على السلطان عبد العزيز فاستقال وخلفه أخوه عبد الحفيظ فى ٤ يناير سنة ١٩٠٨ وكان هذا بمثابة إعلان للحرب الداخلية بينه وبين أخيه الذى هزمت جنوده فى النهاية فى أغسطس سنة ١٩٠٨ .

« ثم بدأت أسبانيا من ناحيتها « بتهدئة » القبائل فى منطقة مليلا وقدمت — بدورها — كشفا تطالب فيه الحكومة الشريفية بمبلغ ٢٤٠٫٠٠٠ جنيه. وهنا أرغمت فرنسا مراكش على عقد قرض جديد بمبلغ ٤٫٠٤٠٫٠٠٠ جنيه مضمون على ٦٠ ٪ من وارد الكمارك أنفق معظمه فى سداد المطالب المذكورة . ولم يأت عام ١٩١٠ حتى كانت مراكش مدينة لأوربا بمبلغ ٦٫٥٢٠٫٠٠٠ جنيه .

« ولما كانت هذه القروض مضمونة بموارد الأيراد لم يبق لدى الحكومة الريفية ما يكفى لاضطلاعها بأعباء الادارة إلا بفرض الضرائب على القبائل مما أدى إلى تنفيرها منها .

« وقد كانت نتيجة سوء الادارة أن الجنود خرجت عن طاعة الحكومة الريفية ، فكان هذا داعيا إلى توغل فرنسا فى الاحتلال. فعمت الفوضى ورأى السلطان نفسه عاجزا عن القتال وعن الحكم وعن الحركة فالتجأ الى الحكومة

الفرنسية لوضع حد لهذه الفوضى المحزنة . فلبت الدعوة مغتبطة !!

«وفى أبريل سنة ١٩١٠ أرسلت فرنسا الجنرال موانير على رأس ٣٠٫٠٠٠ جندى للزحف على فاس .

« وهنا ارتاعت أسبانيا لما حدث. فبالرغم من احتجاجات فرنسا ، قامت هي من جهتها باحتلال الأعراش والقصر على الساحل الأطلنطيق ، وأرسلت هى الأخرى ٢٠٫٠٠٠ جندى إلى الريف (المنطقة الواقعة على البحر المتوسط) .

«فماذا كانت تفعله الصحف الأنجليزية أزاء هذه الاعتداءات المتكررة على استقلال مراكش؟ كانت تصفق طربا لكل تقدم تتقدمه الجنود الفرنسية، لا بل إن السير أدوار غراى لم يخجل أن يعلن فى مجلس العموم ـ وبصفة رسمية ـ إرتياحه لزحف الفرنسيين على العاصمة المراكشية .

«وفى وسط هذه الفوضى الصارخة، وبعد تمزيق «عهد الجزيرة» ودوسه بالأقدام ، وتحويله إلى « قصاصة ورق »أرسلت ألمانيا « البانتر » إلى ثغر أجادير. وهى مدفعية صغيرة لم يكن يتجاوز عدد من فيها من البحارة والجنود البحرية ١٢٥ رجلا . ومع أن المدفعيه المذكورة لم تنزل إلى البر جنديا واحداً ولم تطلق قنبله واحدة، فقد اكفهر جو السياسة فى أوربا ، وأبرقت انجلترا وأرعدت وهاجت وماجت ، وأرسلت الأوامر إلى الجيش والأسطول بالاستعداد للحرب !! ».

حادث أجادير

لايسع الباحث النزيه فى مشكلة تبعة الحرب أن يمر مر الكرام بالأدوار التى تقلبت فيها المؤامرة المركشية . لأن هذه المؤامرة كانت نقطة فاصلة فى تاريخ العلاقات بين فرنسا وانجلترا من جهة ، وألمانيا من جهة أخرى . وقد أخبرنا الدكتور باوسمان فى كتابه « فلتفسر فرنسا » « إن الكاتب الذى



المدفعية بانتر أمام ثغر أجادير

لا يشرح المؤامرة المراكشية فى أثناء بحثه فى مشكلة تبعة الحرب، حرى بان تقابل أقواله بالحذر التام، لهذا عرضنا لهذه المؤامرة بشىء من الأسهاب.

لقد قلنا أن إرسال المدفعية الألمانية «بانتر» إلى أجادير أقام انجلترا وأقعدها بلا مبرر، فى حين أن فرنسا وهي الدولة التى يهمها الأمر مباشرة لم تحرك ساكناً، بل كانت تتوقع هذا العمل من ألمانيا بعد أن قلق الرأى العام الألمانى أشد القلق لدوس حرمة «عهد الجزيرة» بذلك الشكل الفاضح الذى أشرنا إليه فيما مر بك.

ولنعرض أمامك طائفة من أقوال بعض الساسة المحايدين لتعرف مبلغ ذلك القلق الألمانى المشار اليه.

فى يوم ٦ مايو سنة ١٩٠٨ أرسل البارون جريندل معتمد بلجيكا فى برلين إلى حكومته يقول: «إن أهم نقطة فى الكتاب الأبيض الذى تشرفت بإرساله أمس مع تقريرى، تختص بالأناة والحكمة اللتين تتذرع بهما الحكومة الألمانية فى تظاهرها بتجاهل ما هنالك من التناقض المروع بين التصريحات الصحيحة التى نطقت بها الحكومة الفرنسية بصدد مراكش، وبين أعمال الغزو التى تقوم بها الآن المرتكزة على «وصاية» أوربية مزعومة لم يقرها عليها أحد مطلقاً، معلنة أنها ليست مدفوعة إلى اتباع تلك الخطة إلا بظروف سمتها «قهرية» ولكنها في الحقيقة مدبرة مقصودة.

«إن ألمانيا تتحمل كل ذلك إذ ليس فى استطاعتها إلا أن تصبر على جمر الغضى. فلقد فات زمن المفاوضات السياسية، وليس ثمة أمامها إلا أحد أمرين إما أن تتظاهر بأنها لا ترى ما يجرى على مرأى ومسمع منها، وإما ان تحكم السيف وهو ما لا يرضاه الأمبراطور غليوم ويستهجنه الرأى العام فى ألمانيا».

وقال البارون نفسه فى رسالة أخرى فى شهر أبريل سنة ١٩١١:

«إنى لا أتردد مطلقا فى القول بأن الحكومة الألمانية لا ترغب مطلقا فى أن تلعب دوراً مهما فى المسألة المراكشية ... نعم أن الرأى العام الألمانى فى

شدة القلق (كذا ! ...) وقد وجهت انتقادات حادة إلى الحكومة على تماديها فى السكوت عن أعمال فرنسا فى مراكش ... فلو كانت الحكومة الفرنسية مخلصة فى رغبتها فى اجتناب الحرب، لاتخذت الحكمة رائدا لها ، أو لتظاهرت على الأقل بالاعتدال في أعمالها دون أن تتبع الهوى ، حتى لا تحمل ألمانيا على ترك عزلتها وتضطرها إلى الخروج من حيادها » .

وفى أول مايو سنة ١٩١١ أى قبل العاصفة بشهرين كتب البارون نفسه يقول :

« إن قلق الرأى العام الألمانى حقيقة واقعة لا ريب فيها . . . ولا تزال الانتقادات المرة تنهال على الحكومة الألمانية لغضها الطرف عن نقض فرنسا « لعهد الجزيرة » ... إن غلطة بسيطة قد تدفع ألمانيا إلى العمل بلا توان . وعلى الصحف أيضا معول كبير . فإن بعض الصحف الفرنسية صرح بأن النية باتت معقودة على جعل مراكش تونس ثانية ... ومن جهة أخرى كانت خطة الصحف الألمانية — على وجه العموم — خطة تحفظ بحت » .

وفي الوقت الذى كانت الصحف الفرنسية تلهج فيه باحتمال احتلال مدينة فاس كتب ذلك السياسى نفسه كما كتب زميله فى لندن الكونت دى لالن — مايشعر بتخوفه من عواقب ذلك الاحتلال، فإن ألمانيا تجد نفسها وقتئذ مضطرة إلى التدخل لأن نقض « عهد الجزيرة» يصبح بذلك الاحتلال نقضا صارخا وملموسا بحيث لا يستطيع أن يصبر عليه أى سياسى أو يتظاهر بتجاهله » .

وفى ١٧ يونيه سنة ١٩١١ كتب ذلك البارون يقول :

« تتمسك الحكومة الأمبراطورية الألمانية بالموقف الأصلى الذى رسمته لنفسها . فهى تمثل دور المتفرج فقط محتفظة لنفسها بحرية العمل فيما بعد لو داست فرنسا بأقدامها المبادىء السياسية التى قررها « عهد الجزيرة » . فليت شعرى متى تظن ألمانيا أن الساعة قد دقت لمصارحة فرنسا برأيها ؟ وماذا عسى أن تجنيه ألمانيا أو تفعله إذا استعادت حرية العمل فعلا ؟ إننى لا أزال

أعتقد أنها ترغب فى اجتناب الحرب (كذا!) لأن مرا كش أقل من أن تطيح بسببها النفوس أو تسفك من أجلها الدماء . وهي حرب تستطيع فرنسا أن تقتدى أوربا من عواقبها الوخيمة بأن تدخل فى غزوتها لمرا كش، المقدار اللازم من عنصر الرياء حتى لا يتهيج الرأى العام الألمانى .. ».

هذه لعمرك كلها شهادات ناطقة على القلق العام الذى كان مستحوذا على الشعب الألمانى بسبب أعمال العدوان التى كانت تقوم بها فرنسا فى مرا كش .

وليس أدعى كما يقول المستر موريل « إلى الضحك أزاء كل ما سقناه أمامك من الحقائق ـ من أن تحاول بعض الدوائر السياسية فى انجلترا أن تصف ارسال « البانتر » إلى أجادير فى سنة ١٩١١ بأنه عمل وحشى لا مسوغ له لايقل فى شناعته عن زيارة الأمبراطور غليوم السابق لطنجة فى سنة ١٩٠٥!! نعم أن السياسة الألمانية كانت أقل مهارة من سياسة الفريق الآخر الذى قسم مرا كش سراً وتظاهر بالمحافظة على استقلالها، ثم تركها تبلعها فرنسا تدريجا ، كل ذلك فى حين أنه أقنع الجمهور بأن سياسته رشيدة صحيحة لا عوج فيها ولا غبار عليها ! إننا نسلم بذلك ولكنا لا نسلم طبعاً بأن ينخلع قلب الدوائر السياسية البريطانية زاعمة أن الذعر قد تولاها من إرسال «البانتر» إلى أجادير، ودعواها أن ذلك كان اعتداء على حرمة مرا كش، فى حين أنه لم يبق لتلك البلاد المنكودة الحظ حرمة يخشى انتهاكها بعد أن قرت الجيوش الفرنسية فى العاصمة المرا كشية .

« ونسأل الذين يلومون ألمانيا مع تسليمهم بأنها عوملت معاملة خشنة خالية من المجاملة، ما ذا كان عساها أن تفعل عدا الاعتراف بتمزيق «عهد الجزيرة» أو التنازل عن مصالحها بالكلية ؟ إنهم يقولون إنه كان يجب عليها أن تصر على إعادة الحالة إلى ما كانت عليه . حسن ! ولكن كيف ؟ كيف يتأتى ذلك مع وجود ١٠٠,٠٠٠ جندى فرنسى واسبانى فى مرا كش ، ومع وجود جيش

فرنسي فى العاصمة المراكشية وتلاشى سلطة مولاي الحفيظ نهائيا ؟

« إنه لا جدال فى أن موقف ألمانيا من الوجهة القانونية كان منيعا . ولكن الأمور كانت قد وصلت الى عقدة بحيث لم يكن في استطاعة فرنسا أن تنسحب بدون ان يكون فى ذلك إذلال لها، ولا أن ترضى ألمانيا بتمزيق « عهد الجزيرة » بدون أن يكون فى ذلك جرح لكرامتها الوطنية . والفضل فى هذا يرجع بلا جدال إلى خرق الحزب الاستعمارى فى فرنسا ، والى دسائس السلطات الفرنسية فى الجزائر ورضا وزارة الخارجية البريطانية .

« فلو أن ألمانيا أرادت الحرب حقا ـ كما زعم اللورد غراى وأذنا به فى الصحف الانجليزية ـ لطلبت رجع الحالة إلى ما كانت عليه بما فى ذلك انسحاب الجيوش الفرنسية من مراكش ، أو لأرسلت بدلا من المدفعية «بانتر» عدة بوارج حربية، ولا نزلت جنودها إلى البر، ولاحتلت أجادير وما وراءها من الاراضى فى وادى السوس ، كما احتلت فرنسا الدار البيضاء ومنطقة شاويا ، وكما احتلت اسبانيا الغرب والاعراش ، لأن « عهد الجزيرة » كما لا يخفى لم يخول فرنسا أو اسبانيا حقوقا لم يخولها لألمانيا .

« نعم لو أرادت ألمانيا الحرب لكان طريقها اليها بينا واضحا . فمن الوقاحة إذن أن تمثل ألمانيا التى عوملت هذه المعاملة المزرية فى أزمتي ١٩٠٥ و ١٩١١ بأنها هي التى كانت تعمل لاشعال نار الحرب .

« على أننا لا ينبغى أن ننسى أن ألمانيا أفهمت فرنسا فى شهر مايو سنة ١٩١١ أى فى وقت الزحف على فاس، أنها تحتفظ بحرية العمل فى المستقبل . لهذا لم تدهش فرنسا مطلقا عند ما قرر وزير خارجية ألمانيا الهر كيدرلن فيختر أن يرسل فى أول يونيه سنة ١٩١١ المذكرة الآتية إلى المسيو دى سيلف وزير خارجية فرنسا فى وزارة المسيو كايو . وقد أرسلت ألمانيا هذه المذكرة إلى كافة وزراء خارجية الدول الأجنبية وهى كما يلى :

« أظهرت بعض الشركات الألمانية المقيمة فى الجنوب وخاصة فى أجادير

وتوابعها ، قلقها من جراء الهياج المستولى على نفوس القبائل بسبب ما حدث فى بعض البلاد المراكشية . لذلك طلبت هـذه الشركات من الحكومة الأمبراطورية الألمانية حماية أرواحها ومصالحها . وعليه قررت الحكومة إرسال مدفعية إلى أجادير لتقديم المساعدة — فيما لو احتاج الأمر — إلى رعاياها ، ولحماية المصالح الألمانية المنتشرة فى تلك الأنحاء . ومتى عادت الأحوال إلى ما كانت عليه فى مراكش وعاد الهدوء والسكينة ، سحبت المدفعية المكلفة بحماية الرعايا الألمان من أجادير .

« وقد طلب وزير الخارجية الألمانية من سفرائه فى الخارج أن يقدموا المذكرة السالفة الذكر إلى وزارات الخارجية بعد ظهر يوم السبت ـ ان أمكن ـ لأن المصالح معطلة يوم الأحد كما لايخفى . لأن الحكومة الألمانية لم تشأ أن تظل الدول الأجنبية غير عالمة بالخطوة التى خطتها فى عطلة آخر الأسبوع .

« وقد قابلت الحكومة الفرنسية المذكرة الألمانية كما لو كانت حادثا عاديا ، لذلك لم يعرها المسيو دى سيلف أقل اهتمام ولم يغير شيئا من برنامج أعماله . فصحب رئيس الجمهورية المسيو دى فاليه كما كان مقرراً من قبل ، إلى زيارة البلاط الهولندى ، ولم يعودا إلى العاصمة الفرنسية قبل يوم ٧ يولية أى بعد وصول المدفعية « بانتر » إلى مياه أجادير بأربعة أيام !!

« قارن بين مسلك هذا الوزير الذى لدولته مصلحة مباشرة فى الأمر ، ومسلك السير أدوارد غراى الذى ما كاد يستلم المذكرة حتى أرسل فى طلب السفير الألمانى فى يوم ٣ يولية ، ثم طلب عقد اجتماع مجلس الوزراء ، وأرسل بعد انفضاضه فى طلب السفير الألمانى فى يوم ٤ يولية مرة أخرى ، وهناك أخبره بأنه « قد نشأت حالة جديدة الآن ، » « وأن الحكومة البريطانية لا تستطيع الاعتراف بأى ترتيب جديد يوضع بدون موافقتها » !!.

« ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أن التيمس أخذت تقذف الحمم على

ألمانيا ، وقد ظهرت سخافاتها على لسان السير أدوارد غراى الذى كان يحاج السفير الألمانى باحاجى التيمس ويخبره أن الأمر قد يقضى باتخاذ تدابير جديدة ! فاحتج السفير الألمانى وخرج غاضبا من وزارة الخارجية !!

«وفى يوم ٦ يولية أجاب المستر اسكويث على سؤال المستر (الآن لورد) بلفور فقال : « إنه يريد أن يكون مفهوما أن حكومة جلالة الملك ترى أنه قد نشأت حالة جديدة فى مراكش حيث يحتمل أن تؤثر التطورات المقبلة فى المصالح البريطانية بطريقة أكثر مباشرة مما كانت فى الماضى !! » ثم استرسل فأعرب عن ثقته بأن تؤدى المناقشات السياسية إلى حل ، ثم قال : « وفى الخطة التى نسلكها حيال هذه الحالة الجديدة سنراعى تماما تلك المصالح ونقوم حق القيام بالتعهدات التى فرضتها المعاهدة علينا لفرنسا وهى التعهدات المعروفة للمجلس » (كذا !) (يريد طبعا التعهدات المفروضة فى اتفاقية سنة ١٩٠٤) .

« فموقف وزارة الخارجية البريطانية كان من بدء الأمر موقف موافقة على خطة فرنسا أصابت أم أخطأت بسبب ترديد دعوى « وجود حالة جديدة » نشأت عن إرسال «البانتر» إلى أجادير ، مع أنها أغفلت تماما زحف الفرنسيين على فاس وهو الزحف الذى أقره السير غراى فى البرلمان وأعلن ارتياحه اليه - أضف إلى ذلك أن إصرار وزارة الخارجية الانجليزية على الاشتراك فى المفاوضات بين ألمانيا وفرنسا — مع أن المفاوضات كانت دائرة بينهما منذ ١٨ شهر لعقد اتفاق تجارى — أدى إلى تحرج الحالة . لأن المسيو كايو رئيس الوزارة وقتذاك كان يعتقد أن اشتراك انجلترا فى المفاوضات يؤدى حتما إلى إحباطها .

« وصفوة القول أن انجلترا حولت النزاع القائم بين ألمانيا وفرنسا إلى نزاع خاص بها ، فسلكت مسلكا عدائيا ضد المانيا ، فى حين أن فرنسا التى كان الأمر يهمها بصفة مباشرة كانت هادئة مطمئنة . وفى ذلك خير دليل على أن انجلترا كان يهمها ان لا يتم الاتفاق بين المانيا وفرنسا وإلا أخفقت «سياسة التطويق» التى وضعها الملك ادوارد « ملك السلام » .

« ولا يفوتنا أن نذكر أن الدوائر الرسمية الفرنسية كانت مختلفة فى هل يتم ازدراد مراكش بمساعدة انجلترا وروسيا فقط أم بالتفاهم أيضا مع ألمانيا . ولقد كان فى وسع السير غراى لو أنه كان رجل سلام حقيقة أن ينتهز فرصة ذلك الخلاف فيشترط فى مقابل مساعدته لفرنسا على ازدراد مراكش طبقا لاتفاقية سنة ١٩٠٤ أن تعقد اتفاقا فيما بينها وبين ألمانيا .

« ولكن الرجل لم يكن رجل سلام، بدليل أنه لم يقدم أية مساعدة سياسية للعناصر الفرنسية السلمية ـ كالمسيو كايو والمسيو دى سيلف ـ التى كانت تسعى لترك سياسة ديلكاسيه كلية، وابتداء صفحة جديدة فى تاريخ العلاقات الألمانية الفرنسية ، بل قدم كل ما لديه من مساعدة إلى دعاة الحرب كالمسيو بوانكاريه والمسيو ملليران والمسيو ديلكاسيه .

« ولقد صرح المسيو مارسل سيمبا عضو البرلمان الفرنسى المشهور « بأن طلب ألمانيا تعويضا فى الكونغو فى مقابل الاعتراف بالحماية الفرنسية على مراكش، إنما نشأ عن اقتراحات فرنسا نفسها فى المفاوضات التى كانت دائرة بين البلادين، وأن إرسال «البانتر» إلى أجادير ليس عملا عدائيا ، بل وسيلة لفتح باب المفاوضة» .

« لا بل أن كثيرا من الصحف وفى مقدمتها الطان ومعظم الدوائر السياسية « والصالونات » كانت ترى أن لألمانيا حقا فى إثارة المشكلة المراكشية من جديد .

« ولنبين لك الآن كيف أدت خطة انجلترا العدوانية إلى اغضاب ألمانيا وجعلها تعتقد أن الحرب العالمية لامناص منها» .

بعد حادث أجادير

توتر العلاقات الأنجليزية الألمانية

لابد أن تكون لاحظت أن اللورد غراى كان بلا مناسبة أشد غيرة على مصالح فرنسا من الفرنسيين انفسهم ! فمنذ وصول المدفعية «بانتر» إلى مياه أجادير فى ٣ يولية سنة ١٩١١ والرجل كما يقول المستر موريل « لم يقر له قرار . فمن عقد اجتماعات وزارية إلى محادثة السفير الالمانى وأخباره « بنشوء حالة جديدة !! » وهكذا . وقد شاركته التيمس فى هياجه ذلك فكتبت فى افتتاحيتها فى ٦ يولية تقول : « ليس من عادتنا أن ننكث بالوعود (كذا !!) ولا أن نطيق أن تسوى الدول الأخرى مصالح مهمة ، لها علاقة بنا بواسطة محادثات تجرى وراء ظهورنا ... فلا يمكن التسليم بأى « مطلب » ولا السماح بأى « تعويض » فى مسألة دولية تهمنا كثيرا إلا باستشارتنا ورضانا » .

« فهل رأيت بربك بعد هذه صفاقة ؟ ولم التشدق بعدم نكث العهود وقد رضيت بريطانيا عن تقسيم مراكش وراء ظهر ألمانيا ؟ »

« ولكن التيمس ووزارة الخارجية البريطانية كانتا ترميان إلى غاية أخرى ، هى الادعاء بأن المانيا تطلب من فرنسا « مطالب » مستحيلة لاتسمح الحكومة الفرنسية — مهما كانت ضعيفة (والمقصود بذلك وزارة المسيو كايو) — أن توافق عليها . وإذا كانت الحال كذلك فلا بد من اشتراك الحكومة البريطانية فى المفاوضات بين فرنسا وألمانيا . فالاشتراك فى المفاوضات هو الغرض الرئيسى الذى كانت تطمح إليه وزارة الخارجية البريطانية .. ويستطيع القارئ أن يفهم السر فى ذلك الألحاح . لأن دوننج ستريت كان يخشى أن يتم التفاهم بين وزارة المسيو كايو والوزارة الألمانية وإذن تنهار « سياسة التطويق » البريطانية ويبقى خطر الأسطول الألماني كما هو .

« وفى ٧ يولية عاد المسيو دى سيلف وزير خارجية فرنسا من هولندا إلى باريس، فقابل المسيو كامبون السفير الفرنسى فى برلين وكان وقتئذ فى باريس يفاوض المسيو كايو · وفى مساء اليوم نفسه عاد السفير إلى مقر وظيفته حيث قابل وزير خارجية ألمانيا فى اليوم التالى . واستمرت المفاوضات أربعة أشهر وكانت قاعدتها :

« أولا : أن تتفاوض فرنسا وألمانيا رأسا وبدون تدخل طرف ثالث مثل ماحدث بين فرنسا وألمانيا فى فبراير سنة ١٩٠٩ ، وبين فرنسا وانجلترا ثم اسبانيا فى سنة ١٩٠٤ .

« ثانيا : أن تعترف ألمانيا بالحماية الفرنسية على مراكش بشرط المحافظة على سياسة الباب المفتوح .

« ثالثا : أن تعوض فرنسا ألمانيا تعويضا لائقا فى الكونغو الفرنسية فى مقابل المنطقة التى تأخذها من ألمانيا فى افريقيا الغربية الألمانية ·

« فانت ترى أن الأمور كانت وقتئذ سائرة فى مجراها الطبيعى بدون حاجة إلى تدخل انجلترا التى كان كل شىء يترتب على خطتها · وقد أحسنت الديبا عند ماقالت فى يوم ٥ يولية « إن الاتجاه الذى تأخذه المحادثات فيما بين باريس وبرلين يترتب على خطة انجلترا ». وقد كان ذلك هو أيضا رأى الأسبان ، فلقد أبرق مراسل التيمس فى مدريد نقلا عن جريدة الأمبارسيال يقول : « لقد أجمعت الآراء بصفة عامة على أن بيت القصيد هو ماذا عسى أن تكون خطة بريطانيا » .

« ولكن السير غراى لغير ما سبب معقول ـ كان مايزال متشبثا بفكرة لا أساس لها إلا فى مخيلته، وهي أن ألمانيا تريد تقسيم مراكش وإبعاد انجلترا من الاشتراك فى وضع الترتيبات الجديدة المترتبة على هذا التقسيم · ومع أن السفير الألمانى أكد له فى الحديث الذى دار بينهما فى يوم ٤ يولية أن الحكومة الألمانية لاتفكر فى شىء من هذا القبيل، فإن جناب الوزير لم يقتنع.

«وفى يوم ١٢ يولية أخبرنا السير غراى أن السفير البريطانى في برلين قابل المستشار الألمانى ، وسأله هل صحيح أن ألمانيا كانت تنوى يوما ما أن تجرى المفاوضات بينها وبين فرنسا واسبانيا رأساً لتقسيم مراكش بدون اشتراك انجلترا ؟ فأكد له المستشار ان شيئا من هذا القبيل لم يحدث مطلقا . أضف إلى ما تقدم أن الحكومة الفرنسيه نفسها أكدت لانجلترا أنه لم تجر مفاوضات بينها وبين ألمانيا واسبانيا للغرض الذى ذكرته وزارة الخارجية البريطانية . ولكن السير غراى تعمد عدم الاقتناع لكى يبرر سياسته العدائية نحو ألمانيا .

«وبينما كانت المفاوضات بين باريس وبرلين سائرة فى طريقها الهادىء ، إذا بالتيمس تنشر لمراسلها الباريسى فى يوم ٢٩ يولية سلسلة « مطالب » فادحة زعم المراسل أن المانيا طلبتها من فرنسا ! ثم انبرت التيمس للحملة على ألمانيا في مقالتها الافتتاحية التى ختمتها بقولها « ليس فى طاقة أية حكومة انجليزية مطلقا أن تصبر على هذه المطالب حتى لو افترضنا وجود حكومة فرنسية يبلغ بها الضعف والوهن إلى حد التسليم بها !! » ثم ألحت فى ارسال البوارج والمدرعات إلى أجادير .

«ولسنا نعرف ما إذا كانت إدارة التيمس قد كلفت باختلاق هذه المطالب لتحمل دوننج ستريت على أن يقف موقف الحزم فى هذه المشكلة . وإلا فما معنى ان يرسل السير غراى إلى السفير الالمانى فى اليوم التالى وهو يوم ٣١ يولية فيسأله عن صحة « المطالب » الفادحة التى ظهرت فى الصحف ـ كأنما لم تبلغه الحكومة الفرنسية الحقيقة ، وكأنما السفير الانجليزى فى باريس لم يخبره أن ألمانيا لم تقدم مثل هذه المطالب الفادحة !! ـ ويخبره أن المفاوضات بين فرنسا وألمانيا ـ إن حبطت ـ نشأت حالة خطيرة ، وأن أنباء المغرب تقول أن الجنود نزلت من « البانتر » واحتلت بعض الأراضى ، وأن اجادير تصلح لأن تكون قاعدة بحرية ، ولذا فان الحكومة البريطانية قد تتخذ الأجراءات التى تراها

لازمة لحماية مصلحتها ؟؟ نقول ما معنى كل هذا مع أن السير غراى كان قد علم بالحقيقة ؟ ثم مامعنى خطبة المستر لويد جورج فى المانشن هوس مساء ذلك اليوم التى هدد فيها ألمانيا بالحرب ؟ليس لكل ذلك معنى إلا أن انجلترا أرادت أن تفهم العناصر الرجعية فى فرنسا أنها تستطيع إذا أرادت الحرب — أن تعتمد على المساعدة البريطانية .

« ولكن شاءت العناية الالهية أن لا تقع الحرب ، وذلك بفضل مابذله المسيو كايو وأنصاره والامبراطور غليوم من المساعى السلمية . ولقد شجعت الحكومتان الفرنسية والالمانية الاشتراكيين والاشتراكيين الديمقراطيين فى البلادين على القيام بالمظاهرات السلمية الكبرى فى العاصمتين الالمانية والفرنسية .

« ثم استمرت المفاوضات بين فرنسا وألمانيا إلى شهر نوفمبر حيث وضعت التسوية التى اعترفت ألمانيا بموجبها بالحماية الفرنسية على مراكش فى مقابل بقاء سياسة الباب المفتوح ، وفى مقابل ذلك تنازلت فرنسا لالمانيا عن جزء من أفريقيا الاستوائية .

« وما هى إلا أيام قلائل حتى عصفت العواصف فى مجلس النواب الفرنسى واتضح سر المؤامرة المراكشية ، واستهجن النواب سياسة الغش والتدليس التى اتبعها ديلكاسيه . ولقد أظهرت المناقشات أن ألمانيا كانت تفاوض فرنسا رأسا منذ عدة أشهر فى مسائل عديدة لها مساس بمصالح ألمانيا وفرنسا فى افريقيا ، وأن هذه المفاوضات أخفقت بسبب توالى تغير الوزارات الفرنسية ، وأن الحكومة الالمانية بعد سقوط مدينة فاس حذرت الحكومة الفرنسية تحذيراً لا يدع للشك سبيلا ، بأنها لم يعد فى طاقتها التظاهر بالتجاهل بعد أن مزقت فرنسا « عهد الجزيرة » وأنها — ألمانيا — كاشفت فرنسا برغبتها واستعدادها فى فتح باب المفاوضات من جديد على قاعدة الاعتراف بالحماية الفرنسية على مراكش ، بشرط أن تحصل ألمانيا فى مقابل ذلك على تعويضات فى جهات أخرى أسوة بانجلترا واسبانيا وايطاليا . كل ذلك أظهرته المناقشات فى مجلس

النواب ومنه يتبين أن فرنسا لم تؤخذ على غرة .

« والأغرب من كل ماسبق أن المسيو دى سيلف وزير الخارجية كذّب بصفة قطعية، أن ارسال المدفعية « بانتر » كان بقصد اجتياح الساحل المراكشى الاطلنطيق وابتلاعه لقمة سائغة كما خطر للسير غراى . ثم تناول المسيو دى سيلف « المطالب » التي اختلقها مراسل التيمس الباريسى ،فأعلن على رؤوس الأشهاد أن ألمانيا لم تطلب بتاتا « مطالب» بالمعنى الذى فهمه المراسل، وأن دعوى التيمس بأن المطالب تضمنت تنازل فرنسا لألمانيا عن حق الشفعة فى الكونغو البلجيكية هى محض اختلاق وافتراء !!

« وصفوة القول لقد جاءت هذه التأكيدات هادمة لصرح الأكاذيب الذى شيده السير غراى فى مجلس العموم فى نوفمبر من السنة نفسها لتبرير سياسته العدوانية ضد ألمانيا .

«فلم يبق بعد هذه التكذيبات الرسمية من جانب فرنسا وألمانيا إلا التسليم بأن انجلترا تعمدت إيجاد جو فاسد بين هاتين الدولتين لحاجة في نفسها . لهذا كانت نتيجة هذا العدوان الذى أظهره السير غراى لألمانيا بلا مناسبة، سيئة جداً سواء أفى فرنسا أم في ألمانيا . أما فى فرنسا فقد شجعت دعاة « أخذ الثأر » على المضى فى سياستهم العدائية معتمدين على مؤازرة بريطانيا إذا جد جد الحرب .

« وأما في ألمانيا فإن أشد الاشتراكيين الديمقراطيين حبا فى السلام — كما اعترف المستر رامزى مكدونالد بذلك فى مقدمة كتاب «المسألة المراكشية» — اقتنعوا « بأن ألمانيا أصبحت ضحية مؤامرة دنيئة غادرة ، وأن صداقة انجلترا لها ليست فى الواقع إلا مجرد رياء وتمويه » .

« أما رجال أحزاب اليمين الألمانية فقد ترك عمل انجلترا هذا أشد أثر فى نفوسهم، ففد أقنعهم بأن انجلترا صممت على مؤازرة فرنسا أصابت أم أخطأت، وأنهم من الآن فصاعدا يجب أن لا يحسبوا حساب فرنسا وحدها،

بل والأمبراطورية البريطانية أيضا . ولقد قلنا من قبل أن ألمانيا كانت قلقة من جراء الخطر الروسى ، وأنها فى ازمة سنة ١٩٠٥ لم تشأ فضيحة الساسة الانجليز استبقاء لود بريطانيا ، ولكن ثبت لها الآن أنها تجرى وراء السراب ، وأن فرنسا وروسيا وانجلترا قد اتفقن ضدها ، وأن لا سبيل لها إلى الافلات من أنيابهن .

« هنا شعرت ألمانيا بالطوق الحديدى يزداد ضيقا حول عنقها . وهنا أيضا اضطرت لمضاعفة استعداداتها العسكرية لتحطيم ذلك الطوق الذى يكاد يزهق روحها ويخمد أنفاسها .

« ويجدر بنا أن نثبت بعض أقوال أحد رجال السياسة فى الحالة التى وجدت بعد هدوء العاصفة فى أواخر يولية سنة ١٩١١ .

« ففى ٢٨ يولية لخص السفير البلجيكى فى باريس الحالة كما تراءت له وقتئذ فى باريس فصرح باعتقاده أن فرنسا كانت غير راغبة البتة فى قطع العلاقات نهائيا مع ألمانيا، وأبدى ثقته العظمى بالنيات السلمية الأكيدة التى تنطوى عليها نفس الأمبراطور غليوم — بالرغم مما قد يشتم فى بعض أعماله من العداء والتحدى — إلى أن قال :

« أما اعتقادى فى رغبات انجلترا السلمية فضعيف جداً . بل أننى لا أعتبر نفسى مغاليا لو قلت أن انجلترا قد لا يغضبها أن ترى الفريقين الآخرين — ألمانيا وفرنسا — يهم كل منهما بافتراس الآخر وتمزيقه ، وإذ ذاك يصبح من الصعب — إن لم يكن من المستحيل — أن يحدث التدخل بدون تحكيم الحسام . ولا أزال متشبثا برأيى الذى كونته منذ ابتداء الأزمة ، وهو أن مفتاح الموقف فى العاصمة الانجليزية . ففى لندن وحدها يمكن تطور الحالة وانقلابها إلى ما ينذر بالخطر ... » .

نعم ففى لندن تطورت الأحوال وانقلبت إلى ما ينذر بالخطر . واول هذه التطورات الحرب الطرابلسية ثم الحروب البلقانية .

الحرب الطرابلسية والحروب البلقانية

منذ ان استقر فى روع بريطانيا فى سنة ١٩٠٤ ان منافستها فى المستقبل هى ألمانيا ، شرعت تعمل بانتظام لتأليب الدول عليها ثم التحرش بها . وقد بسطنا لك وقفتها العدائية فى المسألة المراكشية بلا مسوغ . وإنما تعمدت انجلترا ذلك لتفهم الحزب العسكرى الفرنسى أن فى وسعه الاعتماد عليها إذا ما جد جد الحرب .

وبديهى أن «سياسة التطويق» التى سنها أدوارد السابع «ملك السلام» كانت تقضى حتما بجانب مؤازرة انجلترا لحلفائها ، السعى حيثما وجد اليه سبيل ، لاستمالة حلفاء ألمانيا اليها — انجلترا — والاجهاز على الدول الصغيرة التى تنظر إليها ألمانيا بعين العطف ، كما تدل على ذلك الحرب الطرابلسية والحروب البلقانية .

فقد أرادت انجلترا فى الحرب الأولى استمالة إيطاليا إلى جانبها ، وفى الحروب البلقانية تخضيد شوكة تركيا التى كانت تربطها بألمانيا مصالح عديدة لا محل للأسهاب فيها هنا .

ولعلك تذكر أن المسيو ديلكاسيه حول أنظار إيطاليا فى سنة ١٩٠٤ عن مراكش ، بأن وعدها بعدم إقامة العراقيل فى سبيل استيلائها على طرابلس متى حانت الفرصة الملائمة .

ومن قبل أوعد اللورد سلسبورى إيطاليا بمثل هذا الوعد أيضا . وقد بسطنا لك فى صدر هذا البحث كيف أرسلت انجلترا معتمدها الجديد اللورد كتشنر إلى مصر لارغام حكومتها على إعلان الحياد للحيلولة دون وصول النجدات التركية إلى أبطال الطرابلسيين مما لا حاجة إلى تكراره هنا .

وليس ريب فى أن انقضاض إيطاليا — حليفة المانيا — على طرابلس

فى سنة ١٩١١ عقب ابتلاع النمسا — وهى أيضا حليفة ألمانيا — للبوسنة والهرسك فى سنة ١٩٠٨ أدى إلى تذمر الدوائر السياسية فى تركيا، وجعلها تعتقد أن ألمانيا بينما تتظاهر بالعطف عليها، ترخى لحلفائها العنان لازدراد الأراضى التركية والاعتداء على حرمتها. وكانت ألمانيا بلا ريب تشعر بموقفها الدقيق، ولذا كم حاولت منع إيطاليا من الاسترسال فى مطامعها، حتى كان البعض ليؤكد أن الانقضاض على طرابلس كان بدون علم ألمانيا والنمسا، لابل أن النمسا أرادت وقتئذ اجتياح الحدود الأيطالية لولا أن خشيت ألمانيا أن يؤدى ذلك إلى تمزق التحالف الثلاثى.

فالحرب الطرابلسية إذن كانت الخطوة الأولى فى سبيل اجتذاب إيطاليا إلى جانب انجلترا وإغرائها بالخروج على ألمانيا والنمسا.

ثم قصفت المدافع فى شبه جزيرة البلقان — ولما تنته الحرب الطرابلسية. وقد بينا لك كيف انخدع كامل باشا صديق انجلترا بوعود السير غراى، وكيف سرح الجيوش التركية. فكانت النتيجة تحقيق مطامع الذئاب البلقانية. كذلك بسطنا لك موقف المستر أسكويث حيال استرداد الأتراك لمدينة أدرنة فلا داعى إلى تكراره هنا. وحسبك أن تعرف أن تمزيق تركيا كان بمثابة حلقة أخرى فى سبيل «تطويق» ألمانيا.

فلما أعلنت الحرب العالمية رأينا «سياسة التطويق» وهى تكاد تخنق أنفاس ألمانيا، فإن إيطاليا بادىء ذى بدء أعلنت حيادها، بل وسمحت لفرنسا بسحب جيوشها المرابطة على الحدود الأيطالية الفرنسية واستخدامها لصد هجوم الجنرال فون كلوك على باريس.

وفعلا كانت هذه الجيوش بمثابة نجدة كبيرة لجيوش فرنسا المتعبة. وقد أسقط فى يد الألمان لظهور هذه الجنود فجأة، فارتدوا إلى نهر الأين وتحولت الحرب من العراء إلى حرب الخنادق. ولم يكف إيطاليا ذلك بل أنها انضمت

فيما بعد إلى أعداء ألمانيا ! ولكم حاول الحلفاء منع دخول تركيا الحرب ولكنهم لم يفلحوا، لأن ساسة الأتراك رأوا أن انتصار روسيا فى الحرب معناه القضاء الأبدى على بلادهم .

ولقد أدت هزيمة تركيا فى الحروب البلقانية إلى تعزيز السياسة الروسية فى تلك الأنحاء مما أدى إلى ازدياد الخطر السلافى ضد النمسا . ولم يكن مصرع الأرشيدوق جوزيف فرديناند إلا أحد مظاهر ذلك الخطر الذى كان آخذاً فى الازدياد، ولذلك اعتبرته النمسا وألمانيا لا مجرد حادث فردى بل حملة منظمة يراد بها تمزيق النمسا أولا، وبذا تصبح ألمانيا بمعزل عن الدول الأخرى فيسهل القضاء عليها .

هل فوجىء الحلفاء بأعلان الحرب؟

استعدادات فرنسا

يخطىء كثيراً من يظن أن الحرب العالمية جاءت فجأة، وأن الحلفاء بوغتوا مباغتة بها لذلك ألفتهم على غير استعداد لها !! فالقول بأن الحلفاء كانوا غير متأهبين للحرب هو دعوى باطلة يكذبها الواقع وينفيها العقل، وهل كان يعقل أن يبقوا مكتوفى الأيدى بعد أن رأيت كيف كانوا يتآمرون على ألمانيا ويتربصون بها ؟

كلا بل الواقع هو أن الحلفاء بعد أن قر قرارهم على التخلص من ألمانيا شرعوا يستعدون بطريقة منظمة للأجهاز عليها .

وإذا كانت ألمانيا فى الماضى جهزت نفسها ضد الخطر الروسى ، فلقد أصبح واجبا عليها بعد الذى رأته من موقف السيرغراى فى المسألة المراكشية، أن تعد العدة للقتال في جبهتين، الأولى فى الشرق والثانية فى الغرب . فتصميم

ألمانيا اذن على القتال فى ميدانين مترامي الأطراف لم يكن باختيارها — وبالطبع لم يكن من مصلحتها فى شىء — بل انما أرغمت عليه إرغاما بسبب تألب الحلفاء ضدها فى الشرق وفى الغرب .

وليس أدل على نية الحلفاء العدائية نحو ألمانيا من أن فرنسا تعهدت بمحض اختيارها فى معاهدة سنة ١٨٩٢ أن تبادر الى مساعدة روسيا فيما لو هاجمتها ألمانيا . وقد رأينا فى خلال تطور الأزمة المراكشية أن انجلترا كانت بدورها مستعدة لمؤازرة فرنسا على كل حال أصابت أم أخطأت !! ومعنى ذلك أنه كان يكفى لاندلاع نار الحرب العالمية أن تتحرش روسيا بألمانيا رأسا، أو بحليفتها النمسا فى البلقان مثلا — كما حدث فعلا فيما بعد — فتشتبك روسيا وألمانيا فى النضال فتمتشق فرنسا وانجلترا الحسام لا دفاعا عن غاية شريفة أو عهد مقدس — كما أرجفوا — بل لمجرد التخلص من ألمانيا التي كانت قذى فى عيونهم وشجى فى حلوقهم .

ومن المهم جداً — قبل استمرار البحث فى الموضوع الذى نعالجه — أن نلفت النظر إلى أن الأمبراطور الأسبق الذى كان يباهى باحتفاظه بالسلام مدة خمسة وعشرين عاما، لم ينضم إلى رأى الحزب العسكرى إلا بعد حادث أجادير. وحسبك دليلا على صحة قولنا هذا ان لورد هلدين الذى كان وزير الحربية إلى قبيل نشوب الحرب، صرح فى حديث له مع احد الصحفيين الأمريكان ونشرته جريدة الديلي كرونيكل فى عدد أول أبريل سنة ١٩١٥ فقال « لست أرتاب مطلقا فى أن الأمبراطور ظل خلال السنين الماضية متشدداً فى معارضته فى الحرب . بيد أن هذه المعارضة أخذت — مع الأسف الزائد — تضعف تدريجيا حتى استقر الرأى منذ عامين على إشعالها » .

أى أنه يجعل بدء التطور فى ميول الأمبراطور في سنة ١٩١٣ ، أى بعد حادث أجادير بعامين .

ثم إن الوثيقة رقم ٦ فى الكتاب الأصفر الذى أصدرته الحكومة الفرنسية

بعد إعلان الحرب مباشرة ، تشير كما يقول مستر موريل « إلى محادثة زعم السفير الفرنسى فى برلين أنها دارت فى أوائل نوفمبر سنة ١٩١٣ بين الجنرال مولتكه والأمبراطور وملك بلجيكا. ولقدشهد فيها السفير « بأن غليوم الثانى طالما بذل جهده فى الماضى (كذا!) وسعى بنفوذه الشخصى الكبير — وفى عدة ظروف عصيبة للاحتفاظ بالسلام » . وهذا يطابق أقوال اللورد هلدين . لا بل أن الوثيقة رقم ٥ من الكتاب الأصفر المذكور تعترف صراحة بأن « الحرب إذا كانت لم تشتعل نارها فى عام ١٩١١ من جراء الأزمة المراكشية، فليس ذلك إلا بفضل الرغبات السلمية التى تمكنت من نفس الامبراطور ومستشاره !! ».

« فاللورد هلدين يصرح بأن التغيير فى ميول الأمبراطور بدأ فى سنة ١٩١٣، بينما الكتاب الأصفر الفرنسى يعلن أن التغيير بدأ قبل هذا التاريخ. وهذا هو الأصح، بدليل أن الملحق الأول للوثيقة رقم ١ فى الكتاب المذكور يحتوى على نبذة من رسالة بعث بها الملحق العسكرى الفرنسى فى برلين إلى حكومته ، وقد كتبت على ما يظهر فى بدء سنة ١٩١٢ وهى وصف للأثر السيىء الذى تركته المسألة المراكشية فى نفوس الألمان وقد قال فيها :

« إننا نكتشف كل يوم مبلغ ما جرحت به عواطف الشعب الألمانى، وانقلابها إلى عواطف غل وعداء مستمر ضدنا ، وهى عواطف أثارتها حوادث العام الماضى » والمراد « بحوادث العام الماضى» الحوادث المتعلقة بالنزاع المراكشى عند ما مزقت الحكومة الفرنسية — بمساعدة الطبقات الرسمية الأنجليزية «عهد الجزيرة» وملأت مراكش بالجنود الفرنسية وتحدت بعملها هذا ألمانيا. ثم استرسل الملحق العسكرى فى وصفه قائلا :

« إن شعور السخط واحد فى جميع أرجاء المملكة . نعم أن الأمبراطور والحكومة أذعنا، ولكن الرأى العام حانق عليهما وعلينا . ولهذا صحت نية الشعب على أن لايتكرر وقوع مثل ذلك التفريط مرة أخرى » .

« مما تقدم نرى أن « رغبات الأمبراطور السلمية » التى كان لها الفضل الأكبر فى منع وقوع الحرب من أجل المسألة المراكشية، قد حولها عن مجراها الأصلى السخط الوطنى العام الناشىء عن المعاملة الخشنة التى عوملت بها ألمانيا فى المسألة المراكشية .

« وهذه مسألة على جانب عظيم من الأهمية لأنها تقضى على الخرافة التى روجها الحلفاء فى أوائل الحرب بأن النسر البروسى كان يتأهب للحرب مدة أربعين عاماً، ثم انقض فجأة على الحلفاء الوادعين فاقض مضاجعهم ورمل نساءهم ويتم أطفالهم !!

« وقبل أن نلجأ إلى الأرقام — وهى أصدق شاهد — نعرض على القارىء طائفة من أقوال المحايدين عن الحالة العسكرية فى بلاد الحلفاء قبل نشوب الحرب، ومنها يتبين للقارىء أن الحلفاء لم يؤخذوا على غرة وأنهم كانوا يستعدون للحرب إلى اللحظة الأخيرة .

« ولنبدأ بفرنسا الوادعة ! ففى فبراير سنة ١٩١٣ كتب البارون غليوم سفير بلجيكا فى باريس يقول « إن المسيو بوانكاريه أحيى الروح العسكرية فى صدور الشعب الفرنسى » . وفى أبريل من السنة نفسها كتب هذا البارون إلى وزارة الخارجية البلجيكية « بأنه حادث المسيو بيشون ، وقد ندد هذا الأخير بالنزعة الحربية التى أخذت تنتشر فى باريس حيث بات نصف مسارح المدينة منهمكا فى تمثيل الروايات العسكرية » . وفى ١٦ يناير سنة ١٩١٤ كتب أيضاً إلى وزارة خارجية بلاده يقول « لقد سبق لى التشرف بأخباركم أن المسيو بوانكاريه والمسيو ديلكاسيه والمسيو مليران وأنصارهم، هم الذين ابتكروا وواصلوا السياسة الوطنية العدوانية التى تهدد سلام أوربا . إنها خطر على أوربا وعلى بلجيكا . إن خطة وزارة بارتو هى فى اعتقادى السبب الفعال فى انتشار الميول العسكرية فى ألمانيا » .

« ولقد حمل المسيو جورج ديمارشال الكاتب الفرنسى الشهير حملة شعواء

على المسيو فيفيانى رئيس وزراء فرنسا الأسبق، لأن الأخير زعم فى خطبة له بعد إعلان الحرب، أن هذا الأعلان « كان عملا عدائيا فجائيا بغيضا لم يعرف له نظير! » فرد المسيو ديمارشال على ذلك الزعم بقوله « كيف يمكن ادعاء ذلك فى حين أن فرنسا كانت مرتبطة بمعاهدة، بأن تعتدى على ألمانيا فيما لو وقعت الحرب بين ألمانيا وروسيا لسبب من الاسباب، وأن تنقض (فرنسا) على ألمانيا فى الوقت نفسه بحيث ترغمها على القتال فى جبهتين » ؟

« وقد نحا كثير من الكتاب الفرنسيين نحو المسيو ديمارشال ومنهم المسيو هنرى باربيسى وأناتول فرانس وأرنست رينولد . ولقد دارت بين هذا الاخير والمسيو بوانكاريه مناقشة طويلة قال رينولد فى خلالها « إن دول الاتفاق الودى كانت راغبة فى الحرب رغبة غليوم الثانى فيها . أما أنت أيها الرئيس وكذا أنصارك فكنتم أشد الناس رغبة فيها » !

« ولقد كان الرئيس بوانكاريه نفسه أكثر مواطنيه ثقة باستعدادات فرنسا . ألم يعلن فى يوم ٤ أغسطس سنة ١٩١٤ — بعد أن أعلنت ألمانيا الحرب — فى الجلسة الخاصة التى عقدها البرلمان الفرنسى « أن فرنسا تراقب تطور الاحوال وأنها مستيقظة بقدر ما هى مسالمة . إنها مستعدة وسيلتقى العدو حتما فى طريقه بجنودنا البواسل . » ؟

وفى يوم ٨ مايو سنة ١٩١٤ أبرق البارون غليوم السفير البلجيكى فى باريس إلى حكومته يقول « لا ريب فى أن الأمة الفرنسية أصبحت فى خلال الأشهر الاخيرة أكثر تحرشا وأشد اعتداداً بنفسها . فالذين كانوا منذ عامين ترتعد فرائصهم لمجرد التفكير فى احتمال حدوث مشاكل بين ألمانيا وفرنسا، قد غيروا لهجتهم الآن وأصبحوا يجاهرون بتأكدهم من النصر وينوهون بالأصلاحات العظيمة التى أدخلت على الجيش الفرنسى — وهذا حقيقى — ويعلنون ثقتهم بالقدرة على وقف الزحف الألمانى ريثما تتمكن روسيا من التعبئة وجمع جيوشها والانقضاض على جارتها الغربية » .

« ونحسب القارىء النزيه يود أن يعرف ماذا كان شعور الألمان وقتذاك فننقل له أقوال السفير الروسي فى برلين فى ١٢ مايو سنة ١٩١٤ إذ قال :

« إن ازدياد قوة روسيا العسكرية أخذ يسبب قلقا شديداً فى برلين . فالدوائر الرسمية الألمانية ترى أن مدافع الحصار الجديدة الضخمة الروسية ستكون جاهزة فى سنة ١٩١٦، وإذ ذاك تبرز روسيا إلى الميدان كعدو شديد الخطر لا مناص لألمانيا من مقاتلته يوما ما » . ثم زاد على ذلك قوله « أن ألمانيا تبذل كل جهد للتظاهر بعدم الخوف ولكن الخوف من روسيا أصبح عاما فى ألمانيا » !!

«ثم ألم تكن روسيا وفرنسا منهمكتين في إعداد معدات القتال كما يشهد بذلك السفير الروسى فى باريس ؟ فقد كتب فى ١١ اكتوبر سنة ١٩١١ إلى بلاده « بأنه حادث الجنرال باربر الفرنسى ، وأن هذا أطلعه على آخر الخطط العسكرية التى وضعتها هيئة أركان حرب الجيش الفرنسى والتى لابد أن تكون تفصيلاتها قد أبلغت فعلا إلى بتروغراد » .

« لا بل ان هذا السفير يعترف بأن فرنسا ـ حتى بعد تسوية النزاع المراكشى مع ألمانيا ـ كانت منهمكة فى الاستعداد . فلقد كتب فى ١٥ فبراير سنة ١٩١٢ يقول : لقد علمت من مصدر موثوق به أن وزارة الحربية الفرنسية ، بالرغم من تسوية الأزمة المراكشية تسوية ودية ـ لاتزال تواصل الاستعداد للقيام بأعمال عسكرية فى القريب العاجل » (كذا) !

«نعم إن المصاعب قامت أحيانا فى وجه السفير الروسى فى باريس . مثال ذلك عند ما كان المسيو كايو رئيسا للوزارة ، ووقتئذ كان هذا السفير يصور الأمور بصورة تبعث على التشاؤم . ولكن الحالة أصبحت تدعو إلى التفاؤل فى نظره عند ما أصبح المسيو بوانكاريه رئيسا للوزارة وجرى بينه وبين السفير حديث هام فى ١٢ سبتمبر سنة ١٩١٢ . فلقد أكد له المسيو بوانكاريه ولاء فرنسا لقيصر روسيا ثم قال :

« إذا أدى النزاع مع النمسا إلى تدخل ألمانيا عسكريا، فإن فرنسا تعتبر ذلك فى الحال عملا عدوانيا ووقتئذ، لاتضيع برهة واحدة بل تسارع إلى الوفاء بالعهود التى قطعتها على نفسها لروسيا ».

وأتماما للفائدة نبسط امامك الآن رأى الجنرال بوات وهو من كبار هيأة أركان حرب الجيش الفرنسى ، فى استعدادات فرنسا بالنسبة لاستعدادات ألمانيا .

قال الجنرال فى كتابه المسمى « الجيش الألمانى فى زمن الحرب من سنة ١٩١٤—١٩١٨ » ما ملخصه :

« يعتقد بعض الناس أن ألمانيا عند ما هاجمت فرنسا فى سنة ١٩١٤ كانت الفريق الأقوى، وأن مواردها العسكرية كانت أكثر من موارد فرنسا، وأن عدد الفرق الاحتياطية فى الجيوش الأولى كان أكبر من عدد تلك الفرق فى الجيش الفرنسى ، مع أن الأمر كان على النقيض من ذلك تماما . فإن القوات العاملة فى فرنسا كانت تشتمل على جيش عامل عــدده ٩١٠٫٠٠٠ جندى واحتياطى عدده ١٫٣٢٥٫٠٠٠ ، وفى وسع الانسان أن يقول أن فرنسا ـ حتى بدون حساب الجيش البلجيكى وكذا الأربع فرق الانجليزية ـ كانت وحدها على الأقل مساوية لعدوتها إن لم تكن متفوقة عليها فعلا »!

ثم أن المسيو أسفولسكى سفير روسيا فى باريس أخبر المسيو سازونوف وزير الخارجية الروسية فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٣ أى فى ابان اشتداد الحرب البلقانية «أن التعبئة الفرنسية على الحدود الشرقية هي حقيقة لاريب فيها، وأن المعدات جاهزة». وكان هذا السفير قد أبلغ رئيسه فى يولية الأسبق « أن المؤتمرات المنظمة بين رؤساء أركان الحرب قد شفعت الآن بمؤتمرات بحرية ، وأن ديلكاسيه قد وافق عليها ، وسيوافق عليها سازونوف بمجرد وصول بوانكاريه إلى بترغراد» وقد أبلغ هذا السفير حكومته فى « الكتاب الأسود » أن وزارة الحربية الفرنسية « تؤكد وثوقها من نتيجة الحرب » هذا من حيث استعدادات فرنسا .

«فيتبين لك من كل ماسبق أن فرنسا كانت تستعد ، وتستعد بهمة فائقة «للقيام بأعمال عسكرية فى القريب العاجل» كما اعترف بذلك المسيو اسفولسكى سفير روسيا فى باريس . فالقول بأنها أخذت على غرة لايدل إلا على جهل قائله، أو على محاولة تغفل العالم . ولقد رأيت الحقائق جلية وسنذكر لك شيئا عن استعدادات انجلترا والروسيا ثم نشفع ذلك بالأرقام فهى كما قلنا أصدق شاهد .

استعدادات انجلترا

وننتقل الآن إلى استعدادات انجلترا، ففى صددها يقول المستر موريل « أن مجلة الجرافيك الأسبوعية ظهرت في أوائل الحرب وقد كتبت فى إحدى صفحاتها بالخط العريض « إننا مستعدون »! ثم شرعت تسرد على قرائها بعض التفاصيل الدالة على استعداد انجلترا لهذه الحرب بقصد تسكين خواطر الجمهور. ولكن تبين لمروجى البروباجندا الانجليزية فيما بعد أن الاعتراف باستعداد انجلترا للحرب أو العمل على نشوبها يضر القضية الانجليزية ضرراً بليغا وخاصة فى الوقت الذى كانت تزعم فيه أنها لم تمتشق الحسام إلا لشدة غيرتها على المعاهدات وحرمتها ! .

« وإذ ذاك صدرت الأوامر بتغيير اللهجة، والانقلاب من الاعتراف بأن انجلترا كانت مستعدة، إلى ادعاء أنها فوجئت مفاجأة بالحرب العالمية ! ولكن الحقائق لابد من ظهورها مهما بولغ فى كتمانها وإخفائها .

ففى كتاب « قبل الحرب » ص ٤٨ و ١٨١ حدثنا لورد هلدين الذى عين لوزارة الحربية فى سنة ١٩٠٥ وظل فى ذلك المنصب إلى قبيل إعلان الحرب» أنه كلف عند استلامه أزمة الوزارة المذكورة بالاستعداد للحرب وتنظيم الجيش البريطانى للحرب (كذا)! وقد حدثنا أيضاً أن الأسطول البريطانى قد رفع مستوى

الكفاءة فيه إلى درجة لا نظير لها ، وأن أركان حرب الجيش ذهبوا فى سنة ١٩٠٥ إلى فرنسا لتوحيد خطة الحرب مع هيأة أركان حرب الجيش الفرنسي. لا بل أن اللورد المذكور أبرق فعلا إلى وزراء المستعمرات البريطانية بأن يتأهبوا للحرب (كذا ! كذا !).

« لاحظ أن ذلك حدث فى سنة ١٩٠٥ وبعدها ، أى بعد مؤتمر الجزيرة. وهذا ما قلناه فى سياق الكلام على المؤامرة المراكشية، حيث لفتنا النظر إلى أن السير غراى اعتبر عقد المؤتمر المذكور أهانة لانجلترا ، ومن ثم شجع السفير الفرنسى فى لندن على تقديم اقتراحات توطئة للمحادثات البحرية والحربية التى دارت بين البلادين فيما بعد لتوجيد خطة العمل وقت إعلان الحرب .

« ولسنا طبعا نلوم انجلترا لأنها كانت تتأهب لحرب تعلم أنها ستخوض غمارها حتما، ولكن وجه اللوم هو أن تزعم بريطانيا أنها أخذت على غرة ! فلم تكن ثمة مباغتة مطلقا، لأن حكام انجلترا كانوا عارفين بما وراء الستار . فان كان ثمة مفاجأة فلقد كانت بالنسبة للشعب البريطانى فقط لا بالنسبة لحكامه .

« على أن لورد فرنش (أيرل إيبر) أخبرنا فى كتابه المسمى «سنة ١٩١٤» أن وزارة الحربية الانجليزية كلفته بالذهاب الى فرنسا فى ١٩٠٥، وأنه كان على اتفاق تام مع هيئة أركان حرب الجيش الفرنسى ،وأن الاتفاق تم على أن يكون الجيش الذى ترسله انجلترا الى بلجيكا عند اعلان الحرب هو ١٦٠٫٠٠٠ وذلك بعد اشعار مدته ١٢ يوما . ويقول الجنرال المذكور أنه كان يعتبر الحرب واقعة لامناص منها (كذا !) .

« لا بل إنه يقول أن الملحقين العسكريين الفرنسيين عندما أبدوا تخوفهم من أن تهجر انجلترا فرنسا ، أكد لهم الجنرال «أن لا خوف مطلقا من هذه الناحية، طالما بقى أسكويث وهلدين وغراى وتشرشيل فى الوزارة . لأن وجودهم ضمان على أن الأمبراطورية ستقوم بتنفيذ التعهد الذى قطعته على نفسها لفرنسا».

« ثم هناك الكولونيل ربنجتون الكاتب الحربى الشهير ، فقد ذكر فى

كتابه «الحرب العالمية الأولى» ص ١٠ «أن الفرنسيين عرتهم دهشة كبرى عند ما رأوا انجلترا تعرض عليهم فكرة التعاون فى الحرب المقبلة، بينما كان بعض أركان حرب الجيش الفرنسى يضع الخطط لغزو الجزر البريطانية!»

«وهذا يدل على أن انجلترا تنفيذا «لسياسة التطويق» هى التى عرضت على فرنسا فكرة التعاون فى الحرب!!

«ولقد أعلن هذا الكاتب الحربى المشهور، الذى كان موضع ثقة هيئتى اركان حرب الجيش الانجليزى والفرنسى، رأيه فى الجيش الألمانى بعد أن شهد مناوراته فى اكتوبر سنة ١٩١١. فكتب فى جريدة التيمس بتاريخ ٢٨ اكتوبر سنة ١٩١١ يقول:

«لم يكون كاتب هذه الأسطر فكرة جيدة عن الجيش الألمانى الذى يعيش على مايظهر على سمعته الباهرة فى الماضى والذى أصبح غير أهل للشهرة التي له الآن. فلم نرشيئا بارزا فى القيادة العليا فى المناورات، بل قد وقعت أغلاط كانت نتيجتها زعزعة ثقة المتفرجين الأجانب فى سمعة القيادة. ثم إن المشاة يعوزها الأقدام، كما أنها أظهرت جهلها بفن حفر الخنادق، هذا فضلا عن بطئها المتناهى فى حفرها، ثم إنها جعلت نفسها هدفا للرماية من أبعاد قريبة، ولم تتمرن على فهم الصلة بين النار والحركة، ويظهر أنها تجهل تماما تأثير النار الحديثة. وكانت الجنود الراكبة عتيقة فى كثير من الأحوال. أما المدفعية ومعداتها البالية، وطريقتها البطيئة، والغير الفعالة فى إطلاق النار فهى منحطة بحيث لا يمكنها بحال من الأحوال أن تقيس نفسها بالمدفعية الفرنسية أو أن تقرب منها. وأخيرا ظهر سلاح الطيران بمظهر غير ملائم. ولقد أصبحت هذه الدولة التى تقدم إلى الجيش أكثر من نصف أبنائها الأقوياء أقل ميلا إلى العسكرية مما كانت عليه فى الماضى»!

«وهذا يؤيد ما ذكرناه من قبل، وهو أن ألمانيا كانت إلى وقت حادث أجادير غير مهتمة بالاستعداد العسكرى، حتى إذا تبين لها أنها ينبغى أن

تحسب حساب روسيا وفرنسا وانجلترا اضطرت أن تضاعف نشاطها لدرء الخطر عن نفسها .

« ثم هناك أقوال لورد لوربيرن العضو بوزارة الحرب. فلقد أخبرنا فى كتابه المسمى « كيف وقعت الحرب؟ » ص ٧٨ ، و٨١ أن الاتفاق مع فرنسا « ظل مكتوما لمدة سنين عن بعض الوزراء البريطانيين وعن البرلمان حيث كان السيرغراى يتهرب بمهارة من سائليه » .

وهذا يعلل انسحاب لورد مورلى ومستر جون بيرنز ومستر تريفليان من الوزارة بأنه احتجاج على وزارة الخارجية لأقدامها على عقد المعاهدات السرية بدون علم فريق من الوزراء والبرلمان .

« ولسنا ننسى ماقاله الكابتن رايت سكرتير مجلس الحرب الأعلى فى كتابه المسمى « مجلس الحرب الأعلى » فقد اعترف بأن الحلفاء كانوا على استعداد تام (كذا !) . ثم اخبرنا بأن الاختيار وقع على السير هنرى ولسون ليكون رئيسا لأركان حرب الجيش الانجليزى لأنه « كان يستعد طول حياته لهذه الحرب (كذا ...) . وكثيرا ماطاف السير ولسون بدراجته فى هذه الجبهة التى كان يتوقع نشوب الحرب فيها » .

ثم هناك كتاب « كيف يدير الساسة دفة الحروب ؟ » لصاحبه المستر نلسون عضو البرلمان الانجليزى ، فقد قال فى الفصل العاشر منه « إن استعدادات فرنسا وروسيا فاقت كثيرا استعدادات ألمانيا برا وبحرا . أما الاستعدادات التي كانت أكثر أهمية من هذه ونعنى بها استعدادات فرنسا وروسيا وانجلترا فقد ظلت سرا مكتوما » . أفلا تدل كل هذه الاعترافات على أن بريطانيا كانت مستعدة ؟ ألم يعلن المستر تشرشل قبل الحرب « بأن استعداد الجيش الالمانى اليوم لخوض حرب هجومية هائلة ليس أكبر من استعداد أسطولنا للقيام بواجب الدفاع الوطني » ؟

« ثم ألم تعبىء انجلترا أسطولها فى مياه سبتهيد قبل إعلان الحرب ؟ لقد قالوا أنه إنما عبىء بمناسبة المناورات التى كان الملك جورج ينوى مشاهدتها . حسن ! فلماذا لم يتفرق بعد انتهاء هذه الزيارة ، ولماذا ظل معبئاً إلى أن أعلنت الحرب فعلا ؟ فعلام يدل هذا إن لم يكن ينم عن اتجاه رأى ولاة الأمور فى بريطانيا إلى خوض غمار الحرب ؟ » انتهت أقوال المستر موريل .

ولماذا نذهب بعيداً، وهاهو صاحب المذكرات نفسه يعترف باستعداد انجلترا براً وبحراً لتلك الحرب ؟ فقد ذكر فى الفصل العشرين تحت عنوان « بعض شؤون فنية » عن استعداد الأسطول ما نصه . « على أن البلاد بلا ريب تحمل فى عنقها دينا كبيراً للمستر تشرشيل بسبب هذه المزية الكبرى ، وهي أن الحرب قد وجدتنا ولدينا أسطول قوى فى حالة استعداد جيد خارق للعادة »!!

أما عن الاستعداد البرى فقد اعترف أيضا به صاحب المذكرات فى سياق تنويهه بالخدمات التى قام بها لورد هلدين فى وزارة الحربية ، وجعله الجيش فى استعداد تام ظهر أثرها — كما يعترف اللورد غراى — فى المبادرة بإرسال تجريدة عسكرية بريطانية فى أول الحرب إلى ميدان القتال وهى مكونة من ١٢٠٫٠٠٠ جندى .

نعم إن ألمانيا كانت على الدوام مستعدة ، وهل كانت تستطيع أن تكون غير ذلك وهى محصورة بين دولتين كبيرتين كفرنسا وروسيا ؟ ولكن كان استعدادها بلا جدال أقل من استعداد خصومها . وحسبك اعتراف المستر « إليس باركر » فى مجلة القرن التاسع عشر عدد يونية سنة ١٩١٣ أى قبل الحرب بعام واحد إذ قال :

« من السهل أن يقف الرجل العادى على الأهمال الهائل الموجود فى الجيش الألمانى على صغر حجم هذا الجيش . فعدد سكان ألمانيا هو ٦٦ مليون ، بينما عدد سكان فرنسا ٣٨ مليون . وقد يستنتج الانسان من هذه الأرقام أن لألمانيا جيشا عاملا يزيد بمقدار ٥٠ ٪ على الأقل عن جيش فرنسا . ولكن

الواقع غير ذلك . فان نظرة واحدة إلى الجدول (المرفق بهذا المقال) تبين أنه جيشي فرنسا وألمانيا العاملين متساويان تقريبا . ثم أن معدات الحرب الألمانية بالية، وتفوقها المعدات الفرنسية بكثير . ويقول اليفتننت كولونيل بيزيك من رجال الطوبجية في الجيس الفرنسي — وهو من الثقاة — أن المدفعية الألمانية دون المدفعية الفرنسية بمراحل . لا بل أن الخطط العسكرية الألمانية نفسها قد صارت عتيقة » ! !

ويلاحظ القارىء أن هذا النقادة كان يقارن بين ألمانيا وفرنسا دون أن يذكر شيئا عن روسيا. ولكنا سنذكر لك استعدادات هذه الدولة أيضا لتتأكد أن الحلفاء لم يفاجأوا كما أرجفوا بذلك عند بدء الحرب .

استعدادات روسيا

ففي يوم ١٣ مارس سنة ١٩١٤ على ما ذكر المستر موريل — أي قبل أعلان الحرب بأربعة أشهر ونصف — كتبت جريدة البورص غازيت أوف بتروجراد — وهي صحيفة شبه رسمية — مقالا مطولا قيل أن كاتبه الجنرال سوخوملينوف وزير حربية روسيا وقتئذ جاء في سياقه :

« يعرف كل انسان ان خططنا العسكرية كانت غايتها إلى الوقت الحاضر الدفاع فقط . ولكن الدول الأجنبية أيقن الآن أن فكرة الخطط الدفاعية قد طرحتها روسيا ظهريا ، وعدلت عنها وعولت على أن يكون جيشها عاملا إيجابيا . ومن مصلحة الشعب أن يعلم أن دولتنا على أهبة الاستعداد لكل الطوارىء . فإما للسلام وإما للحرب . فروسيا المتحدة تماما مع زعيمها لأعظم (القيصر) ترغب في السلام ولكنها مستعدة .!! »

وقبل ذلك بيوم واحد كتبت جريدة جولوس موسكفي وهي من أمهات صحف المحافظين في روسيا وأكثرها انتشاراً ما نصه :



الجرال سوخوملينوف وزير حربية روسيا

« إن البغضاء والكراهة التي تمكنت من قلب الشعب الروسي ضد النمسا، كثيراً ما تلمست لها مخرجا منذ أمد بعيد وذلك عن طريق الحرب (كذا!).

« فالحكومة الروسية تعاني اليوم ما تعاني من جراء محاولتها ابقاء ذلك الشعور مكتوما بحيث لا تضيق به الصدور، أو يخرج عن دائرة الصبر، ولكن لكل شيء نهاية. وقد يأتي وقت تجد فيه نفسها عاجزة عن تخفيف حدة الحقد على النمسا والمجر الذي تكاد تفيض به جوانب الشعب الروسي. وهنالك يصبح اختراق جيشنا للحدود النمساوية أمراً لا مناص منه» (كذا!).

« وأهم مما سبق ما كتبه الدكتور بول متروفانوف — الأستاذ الروسي المعروف في الدوائر السياسية — في التقويم السنوي البروسي إذ قال :

« إن الانتشار جنوبا هو لروسيا بمثابة ضرورة تاريخية سياسية اقتصادية. فالدولة الأجنبية التي تقف في طريق ذلك الانتشار هي في الواقع عدوة لنا . إني أتكلم بإيجاز ووضوح فأينما ولت روسيا وجهها ، وأينما اندفعت في أي بقعة من بقاع الشرق الأدنى لتسوية مشكلتها الحيوية – ألا وهي المسألة الشرقية – اصطدمت بالمقاومة الألمانية، ورأتها واقفة أمامها تعوق طريقها، إما منفردة أو بجانب حليفتها النمسا. ومن ثم تبين للشعب الروسي أن الحالة إذا دامت على ما هي عليه فلا مناص من أن يمر الطريق إلى الأستانة ببرلين، وليست فينا نفسها إلا ذات أهمية ثانوية » .

وفي يوم ٣ يونيو سنة ١٩١٤ عقدت التيمس فصلا افتتاحيا جاء فيه :

« فصل مكاتب التيمس الحربي في مقال دبجه منذ بضعة أيام كيف أن مخاوف ألمانيا من الاعتداء الروسي لم تكن محض أوهام أو مجرد خيالات بل حقائق واقعية قائمة على أساس ثابت (كذا !) . وقد ذكر أن روسيا زادت جيشها في زمن السلم بما لا ينقص عن ١٥٠٫٠٠٠ ، حتى بلغ ١٫٧٠٠٫٠٠٠ وهو ضعفا الجيش الألماني تقريبا (كذا!) . وقد لاحظ المكاتب « أن جواب روسيا على ألمانيا أشبه شيء بتعبئة عامة في زمن السلم، ويعلل تماما غضب صحيفة الكولون غازيت، كما يفسر اتهام ألمانيا لروسيا بما تتهمها به من التهم ... إن هناك ما يدل على أن روسيا قد عدلت عن خطتها الدفاعية ... فمضاعفة عدد مدافع فيالقها وازدياد كفاءة جيشها ، والتحسينات التي أدخلت أو تقرر إدخالها في سككها الحديدية العسكرية ، كل هذه مسائل لا يمكن غض الطرف عنها أو عدم الاكتراث لها . ولا جرم أن هذه الأمور تثير ثائرة القلق والشك والارتياب في نفوس الألمانيين » .

وفي ١٣ يونية سنة ١٩١٤ كتبت البورص غازيت مقالا آخر للجنرال سوخو ملينوف قال فيه « أن روسيا مستعدة وترجو أن تكون فرنسا كذلك . فالجيش الروسي بلغ الآن ٢٫٣٢٠٠٠٠ فعلى فرنسا أن تعني بجيشها » (كذا! كذا!).

«وقد أخبرنا الجنرال بوات الفرنسي أن جيش فرنسا كان وقتئذ ٩١٠٫٠٠٠، هذا عدا الجيش البلجيكي والفرق الانجليزية الأربع»

«ونحسب القارئ، بعد قراءة هذه الاعترافات يدرك أن استعدادات روسيا لم تكن وهمية بل كانت حقيقية . ولنبسط أمامه بعض هذه الاستعدادات كما أذاعتها الصحف الأجنبية الموالية لروسيا لتكون الحجة أقوى والبرهان أدمغ .

« ففي ٢٨ مارس سنة ١٩١٤ وزعت التيمس ملحقا سمته الملحق الروسي. وقد خصصت تلك الصحيفة مكانا يلفت الأنظار لمقال دبجه يراع الكولونيل أريفنكو الروسي بعنوان «الجيش الروسي ـ الروح الوطني الجديد» . جاء في سياقه :

« أن الأجانب ليسوا هم وحدهم الذين يجهلون تقدم جيشنا، بل أن الشعب الروسي نفسه لا يعرف إلا النزر اليسير عن التغييرات الهائلة التي حدثت في الجيش الروسي منذ الحرب الروسية اليابانية في سنة ١٩٠٤ــ ١٩٠٥ » .

وقد لخص الكولونيل المذكور تلك التغييرات فقال « في سنة ١٩٠٥ أنقصت مدة الخدمة الإجبارية من أربعة أعوام إلى عامين وتسعة أشهر، فتمكنت روسيا بفضل ذلك الأنقاص من زيادة جيش الاحتياطي بـ ٢٠٠٫٠٠٠ . وفي سنة ١٩٠٧ تغيرت الوحدات الاحتياطية، وأصلحت المدارس الحربية بين ١٩٠٧ ـ ١٩٠٩، ووسعت دورها ، وأنشئت كتائب لصف الضباط الذين انتهت خدمتهم وعددهم ٢٠٫٠٠٠ . وفي سنة ١٩١٠ ابتاعت الحكومة مهمات حربية جديدة ، ومدافع ضخمة ، ووسائل جديدة للنقل ومحطات لاسلكية، وسيارات وطيارات وهلم جرا » .

« نعم أن أريفنكو أكد أن روسيا مسالمة، ولكنه حذر العالم من أن

يستنتج من هذا أنها « غير متأهبة للحرب » (كذا كذا!) كما أكد لنا « أن مزج الجيش الروسى الجديد بالقديم ، قد أكسب الجيش قوة كبرى لم تكن له فى أى زمن فى الماضى » . ثم قال « ففى أى نضال محتمل فى المستقبل يمكننا أن نؤمل أن لانرى تكرار الهزائم التى حدثت فى ١٩٠٤ — ١٩٠٥» .

« وفى سنة ١٩١٢ صدر مرسوم قيصرى بالاحتفاظ بتعبئة نصف الجيش الروسى وإبقائه فى حالة حرب على مقربة من الحدود النمساوية . وصدر مرسوم آخر ، بتأييد التعديل الذى أدخل على قانون الخدمة الأجبارية فى سنة ١٩١٢ ، ونص على وجوب التحاق كل مواليد الثلاثة أشهر الأخيرة من سنة ١٨٩٢ بوحداتهم العسكرية فى سنة ١٩١٣ بدلا من سنة ١٩١٤ (كما ذكرت التيمس فى عدد ١١ ابريل سنة ١٩١٤) .

« ثم ذكر مكاتب التيمس الحربى (فى ٢٢ أغسطس سنة ١٩١٣) « إشاعة » فحواها « أن روسيا قد قررت زيادة جيشها حتى بلغ عدده ٤١ فيلقا بينما كانت الطوبجية تجرى زيادتها فعلا » .

« ثم قال الكولونيل « أما التشكيلات الجديدة فى الغرب على الحدود الألمانية النمساوية — فيظهر أنه سيعهد اليها أمر تقوية الجيوش المساعدة على الأقل هذا فيما إذا لم تقدم إلى الأمام خطوط التعبئة للجيوش الأساسية . ثم ألمع الكولونيل « إلى اعتزام انشاء سبع كتائب جديدة من الفرسان وإصلاح صفوف الأحتياطى وإجراء تغيير عظيم فى نظام السكك الحديدية العسكرية » !!

« وإلى كل هذا أشار مراسل التيمس فى بتروغراد فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩١٣ فقال :

« إن الدرجة التى سيتأثر بها الجيش الروسى وقت الحرب بسبب التغييرات المزمع إدخالها الآن ليست معروفة تمام المعرفة . بيد أننا نرى الثقاة الذين كانوا يقولون أن عدد الجيش فى زمن السلم يبلغ ١ر٤٠٠ر٠٠٠ يميلون الآن إلى تقديره بـ ٣ر٥٠٠ر٠٠٠ وهو أقصى حد ممكن فى حالة الحرب . أما أن

روسيا لديها ما لا حد له من موارد الرجال غير المدربين ، وهم الذين يمكن تاليف جيش كبير منهم لو اقتضت الضرورة ، فهذا بطبيعة الحال أمر لا ريب فيه . وقد اتفقت الآراء على أن حالة الجيش الروسى لم تكن يوما ما أحسن منها اليوم . فلقد اقترنت جودة ملابسه بجودة طعامه . وإذا كانت الطوبجية لم تبلغ بعد الدرجة اللائقة بها فإن تدريب حملة البنادق قد تحسن كثيراً » .

« ولقد أشار الجنرال فون كوهل رئيس أركان حرب الجيش الأول الألماني إلى استعدادات روسيا فتكلم عن السكك الحديدية العسكرية فقال :

« أنشئت هذه السكك خصيصا لنقل الجنود من موسكو وبتروغراد وقازان إلى الحدود الألمانية والنمساوية . وفى وقت السلم قسمت الجيوش بين الخطوط الجديدة التى كان يراد مدها إلى جبهة القتال » .

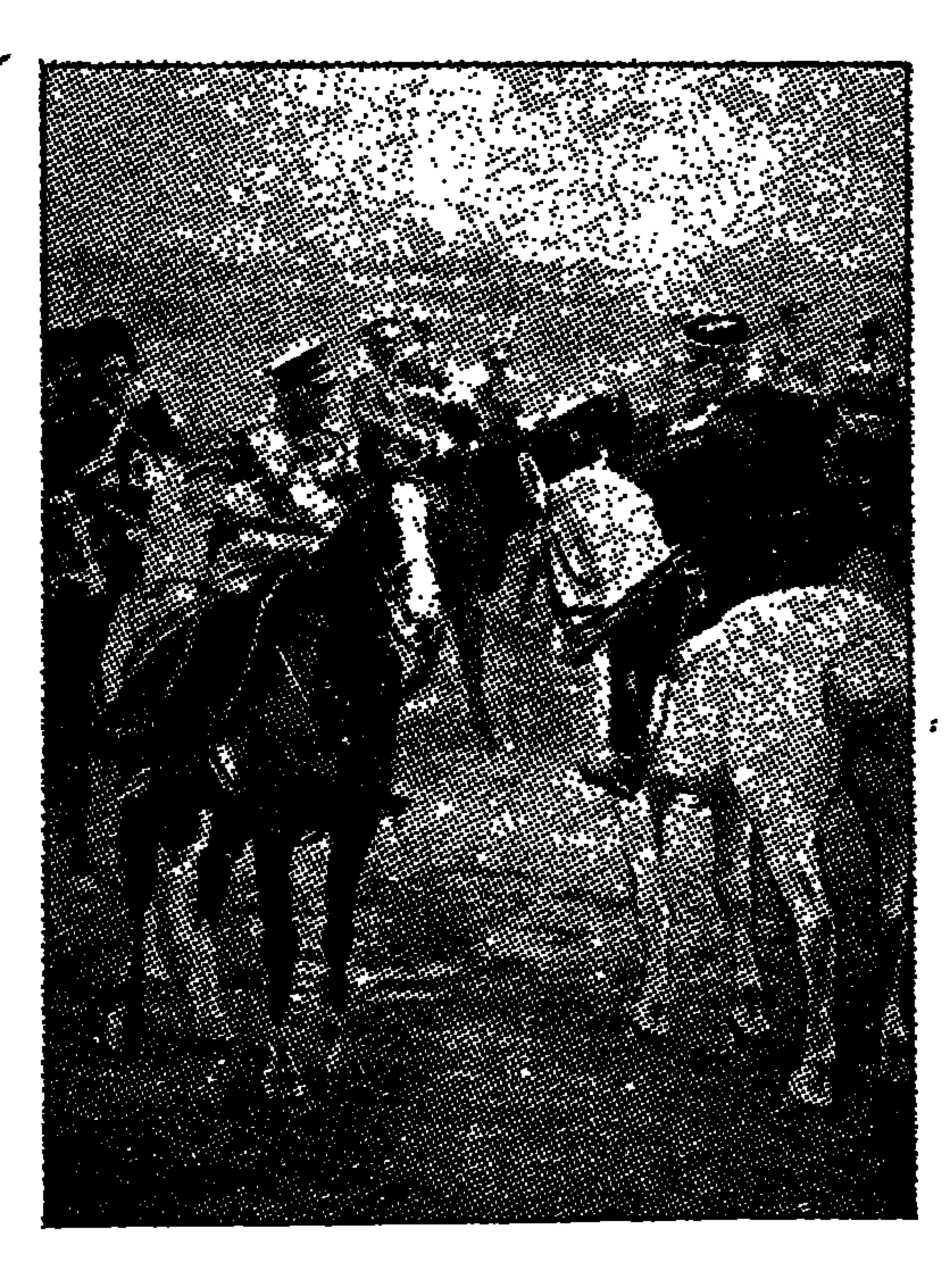
« وقد قدمت فرنسا لروسيا قرضا مقداره مليار فرنك لمد هذه الخطوط



الغرانددوق نيقولا القائد العام للجيش الروسى

الجديدة . وقد جعل خط سكة حديد سيبريا مزدوجا لتسهيل نقل الجنود من تلك الأقطار النائية . وفى سنة ١٩١٢ ابتاعت الحكومة الروسية خطين حديديين مهمين تابعين لشركات مخصوصة . أما الخطان فهما من سوسنوفيس إلى دار صوفيا، ومن الكساندرفس إلى دار صوفيا . ثم أن الحكومة الروسية استبدلت فى سنة ١٩١٢ كافة مستخدمى السكك الحديدية البولونيين بمستخدمين روسيين » .

ثم أخبرنا فون كوهل أن الجنرال دوبايل رئيس أركان حرب الجيش الفرنسى حضر المناورات الروسية فى سنة ١٩١١ وأن الرئيس الروسى سيلينسكى شهد المناورات الفرنسية فى العام التالى، وأن الغراندوق نيقولا طلب إعلان الحرب في سنة ١٩١٢ ولكن الجنرال سوخوملينوف أكد له أن روسيا ليست مستعدة بعد، وهى في حاجة إلى عامين آخرين .



القيصر يستقبل بعثة الجنرال جوفر العسكرية فى روسيا

« ولقد ذهب الجنرال جوفر الفرنسي في خريف سنة ١٩١٣ بمهمة سرية إلى بتروغراد ، واستعرض الجيوش الروسية وشهد كفاءتها . وقد صرح عند عودته « أن الجيش الروسي هو الآن أقوى جيش في العالم » !! وقد تقرر أن تتجه الجيوش المرابطة في فيلنا وارصو نحو الحدود الألمانية . أما التي في « كييف » فتتجه إلى الحدود النمساوية . وما جاء عام ١٩١٤ حتى أعلن سوخوملينوف أن روسيا أصبحت على استعداد تام لامتشاق الحسام » .

ونذكر بهذه المناسبة حكاية غريبة ذكرتها التيمس في سياق تعليقها على وفاة المسيو سازوونوف وزير خارجية روسيا سابقا ، وقد كان فر إلى باريس بعد قيام الحكم البولشفي . قالت التيمس ما ملخصه :

« عند ما كانت المفاوضات دائرة بين عاهل الألمان وعاهل الروس، على التوفيق بين الإنذار النمساوي للصرب وبين المصالح الروسية في البلقان ، أفهم المسيو سازوونوف الجنرال سوخوملينوف أن الحرب لامناص منها، وأن القيصر يرى أن لامناص من التعبئة العامة ، وعليه قد كلف الجنرال سوخو ملينوف بأصدار أمر التعبئة إلى كافة الجيوش .

« على أن الجنرال مع شدة فرحه واغتباطه لحلول الساعة التي كان يتمناها منذ زمن بعيد ليجرب فيها قوة جيوشه وحسن استعدادها، تردد في إصدار الأمر بالتعبئة وفضل أن يسمعه شخصيا من القيصر .

« ثم وصلت إلى عاهل الروس برقية من غليوم الثاني، يخبره أنه أرسل تعليمات جديدة إلى النمسا طلب فيها إظهار الاعتدال، وأنه يطلب إلى عاهل الروس أن يقف أمر التعبئة العامة فوراً . فبادر القيصر إلى التليفون، وما كاد يتصل بالجنرال سوخو ملينوف حتي أخبره هذا أن السهم قد نفد ، وأن الأمر بالتعبئة قد أرسل في اليوم السالف!! قال الجنرال هذا مع أنه لم يكن إلى حين هذه الحادثة التليفونية قد أصدر أمر التعبئة » . انتهت حكاية التيمس .

فإن دلت هذه الحكاية على شيء فانها تدل على أن المسيو سازونوف كان

متآمراً مع الجنرال سوخوملينوف على قضية السلام ، وخاصة بعد ان أيقنامن خطبة سفير انجلترا فى روسيا ، أن انجلترا لامناص من وقوفها إلى جانب فرنسا .

وليعذرنا القارىء إذا كنا قد أطلنا الاقتباس ، ولكننا أردنا أن نبرهن على أن الصحف الموالية لقضية الحلفاء هى التى شهدت بأن روسيا كانت مستعدة كبقية الحلفاء . أفليس من الجرأة على الحق إذن أن يقال أن الحلفاء فوجئوا بالحرب التى كانت بعيدة بالكلية عن مخيلاتهم وهم الذين كانوا منهمكين فى توطيد دعائم السلام ؟!!

وننتقل الآن فنضع أمامك أرقاما رسمية عن استعدادات الحلفاء لمقارنتها باستعدادات ألمانيا وحليفتها النمسا .

مقارنة بين استعدادات الحلفاء واستعدادات ألمانيا والنمسا

وصلنا بك فى هذا البحث إلى أن الحلفاء كانوا مصممين على سحق ألمانيا وهذا التصميم يقتضى حتما التأهب بريا وبحريا إلى اقصى حد ممكن .

وقد أتينا على بعض اعترافات الثقاة العسكريين فى بلدان الحلفاء وكلها شهادات ناطقة على أن التأهبات كانت سائرة على ساق وقدم استعداداً ليوم الفصل .

ولكن لورد غراى يجادل فى الواقع وينكر المحسوس ! وهى موهبة لم تؤت لكثيرين من ساسة بلاده . فقد وقف فى مجلس العموم فى يوم ٢٢ مارس سنة ١٩١٥ وقال : « إننا نعرف الآن أن الحكومة الألمانية كانت تتأهب للحرب (كذا) وان الشعب الذى يدبر الخطط هو الشعب القادر على الاستعداد » !

ولكن هذا التصريح الذى يطالبنا اللورد بتصديقه يتلاشى فى الحال إذا فحصناه فى ضوء الأرقام التى هى اصدق شاهد . وهانحن نستعرض أمامك طائفة من هذه الأرقام وهى مأخوذة من كتاب «حقيقة الحرب العالمية» لترى بنفسك هل كان اللورد يخدم الحقيقة بادعائه ما ادعاه .

« فقد كان مجموع النفقات العسكرية فى الفترة ١٩٠٥ و١٩١٤ كالآتى :—

النمسا والمجر	٢٣٤ر٦٦٨ر٤٠٧ جنيها	فرنسا	٣٤٧ر٣٤٨ر٢٥٩ جنيها
ألمانيا	٤٤٨ر٠٢٥ر٥٤٣ »	روسيا	٤٩٥ر١٤٤ر٦٢٢ »

«أى أن ألمانيا وحليفتها النمسا أنفقتا فى خلال الفترة المذكورة ٦٨٢ر٦٩٣ر٩٥٠ جنيها فى مقابل ٨٤٢ر٤٩٢ر٨٨١ جنيها أنفقتها فرنسا وروسيا . ومعنى ذلك أن نفقات فرنسا وروسيا فى سبيل التاهب للحرب فى خلال السنين العشر السالفة الذكر زادت بمقدار ١٥٩ ر ٧٩٨ ر ٩٣١ جنيها عما أنفقته ألمانيا والنمسا فى هذا السبيل » .

«وقد ابتدأنا بسنة ١٩٠٥ وهى السنة التالية لعقد اتفاقية سنة ١٩٠٤ عند ما قر قرار فرنسا وانجلترا أن تستعدا للحرب تنفيذاً لسياسة ادوارد السابع « ملك السلام ! » ، وعند ما فتحت فرنسا خزانتها لروسيا لتغترف منها ما تشاء لأنفاقه فى انشاء الحصون والمعاقل ومد الخطوط الحديدية على طول الحدود الألمانية .

«على ان هذه الأرقام تظهر أهميتها بصفة خاصة لو قسمت إلى قسمين ، القسم الأول ويشمل النفقات من سنة ١٩٠٥ إلى سنة ١٩٠٩ والقسم الثانى وهو يشمل النفقات من ١٩١٠ إلى سنة ١٩١٤ . واذن تكون النفقات كالآتى

فى الفترة التى بين ١٩٠٥ و١٩٠٩

النمسا والمجر	١٠٥ر٩٦٢ر٧٨٣ جنيها	فرنسا	١٥٠٬٥٣٠٬٤٦٢ جنيها
ألمانيا	١٩٥ر٦٤٧ر٢٢٤ »	روسيا	٢١٥ر٤٨٥ر١٥٢ »
المجموع	٣٠١ر٦١٠ر٠٠٧ »	المجموع	٣٦٦ر٠١٥ر٦١٤ »

في الفترة التي بين ١٩١٠ و١٩١٤

النمسا والمجر	١٢٨٫٧٠٥٫٦٢٤ جنيها	فرنسا	١٩٦٫٨١٧٫٧٩٧ جنيها
ألمانيا	٢٥٢٫٣٧٨٫٣١٩ »	روسيا	٢٧٩٫٦٥٩٫٤٧٠ »
المجموع	٣٨١٫٠٨٣٫٩٤٣ »	المجموع	٤٧٦٫٤٧٧٫٢٦٧ »

« ومن هذا يتبين للإنسان أن نفقات فرنسا وروسيا في الفترة الأولى (١٩٠٥ — ١٩٠٩) وهي الفترة التي اعترف ساسة فرنسا وانجلترا بأن سياسة ألمانيا خلالها كانت سلمية — زادت فعلا عن نفقات ألمانيا وحليفتها النمساء بمبلغ ٦٤٫٤٠٥٫٦٠٧ جنيهات . أما في الفترة الثانية التي تشمل حادث أجادير وانضمام الأمبراطور إلى أراء الحزب العسكري — فقد أخذت تلك الزيادة في الصعود المطرد حتى بلغت ٩٥٫٣٩٣٫٣٢٤ جنيها . وهـذا معناه أن نفقات فرنسا وروسيا في خلال تلك السنوات الخمس زادت عن نفقات أمبراطوريتي الوسط بمبلغ ٩٥٫٣٩٣٫٣٢٤ جنيها . وإذن يكون معدل الزيادة السنوية نحو ٢٠ مليون حنيه تقريبا وهو مبلغ يكاد يوازي نفقات الجيش الانجليزي بأسره .

« فاطراد الزيادة في نفقات فرنسا وروسيا في خلال الفترة الثانية هو الذي أزعج ألمانيا وأقلق بال ساستها .

« ولنذكر لك الأرقام بالتفصيل :

« ففي سنة ١٩٠٨ خطت نفقات روسيا خطوة واسعة إلى الأمام فزادت من ٤٠٫٩١٣٫٦٥٣ جنيها إلى ٤٥٫٢٢٧٫٨٥٠ جنيها . ثم زادت مرة أخرى في العام التالي (١٩٠٩) بمقدار خمسة ملايين فصارت ٥٠٫٤١٦٫٩١٥ جنيها . وفي سنة ١٩٠٩ — ١٩١٠ بلغت ٤٠٫٦٠٤٫٧٦٤ جنيها ! .

« وبالرغم من أن روسيا زادت نفقاتها في السنتين الخاليتين زيادة هائلة (تقرب من عشرة ملايين) فإنها عادت في العام التالي (١٩٠٩ — ١٩١٠) فزادتها مرة أخرى فبلغت ٥١٫٥١٤٫٩٣٤ جنيها كما زادت فرنسا نفقاتها بمقدار مليوني ونصف مليون جنيه .

« وفى سنة ١٩١٠ ـ ١٩١١ خفضت ألمانيا نفقاتها تخفيضا طفيفا فبلغت ٤٠٫٣٤٧٫٠٣٧ جنيها . ولكن روسيا بدلا من إبقاء نفقات السنة الماضية على حالتها زادتها إلى أن بلغت ٥١٫٣٤٩٫٣٣٢ جنيه بينما زادت فرنسا نفقاتها بمبلغ مليونى ونصف مليون جنيه .

« أما في سنة ١٩١٢ وهى السنة التى زادت فيها نفقات ألمانيا زيادة هائلة عند ما بدأت ـ كما أخبرنا لورد هلدين ـ « معارضة الامبراطور غليوم للحرب تضعف » ، فإن فرنسا وروسيا أنفقتا مبلغ ٣٧١ ر٢٥٩ ر٨٩ جنيها فى مقابل ما انفقته ألمانيا والنمسا وقدره ٥٥٥ر٢٥٤ر٦٧ جنيها ، أو بعبارة أخرى زادت نفقات روسيا وفرنسا فى تلك السنة عن نفقات ألمانيا والنمسا بنحو ٢٢ مليون جنيه.

« فأزاء هذه الزيادة المطردة « استولى الخوف » على أفئدة القابضين على نواصى الحكم فى ألمانيا ، وملك الرعب عليهم مشاعرهم حتى دفعهم إلى إعداد العدة للطوارىء التى تتمخض عنها الحالة الأوربية ، فقفزت النفقات الألمانية قفزة واسعة فجأة من ٧٧٥ر٣٨٩ر٤٢ جنيها إلى ٢٦٢ر٢٣٤ر٦٨ جنيها . وقد خصص جزء كبير من تلك النفقات لاقامة الاستحكامات وخاصة فى سيليسيا ، وهو دليل على الخوف من اعتداء روسيا والرغبة فى إعداد العدة لدرء ذلك الخطر » .

« أما نفقات الدول فى سنة ١٩١٤ فكانت كالآتى :

روسيا	٩٨٠ر٩٥٥ر١٠٥ جنيها	ألمانيا	٧٧٠ر٠٣٤ر٥٩ جنيها
فرنسا	٩٦٧ر٠٦٥ر٨١ «	النمسا	٠٠٠ر٩٩٢ر٢٤ «
انجلترا	٠٠٠ر٤٣٠ر٨٠ «	المجموع	٢٧٧ر٠٢٦ر٨٤ «
المجموع	٩٤٧ر٤٥١ر٢٦٧ «		

« أليس من الغريب أن نفقات كل من انجلترا وفرنسا فى تلك السنة المشؤومة كانت توازى متفرقتين نفقات ألمانيا وحليفتها النمسا مجتمعتين ؟ ! ومع ذلك يزعم اللورد غراى أنهما لم تكونا مستعدتين !!

« اما نسبة الجيوش والمدافع عند بدء الحرب فكانت كالآتى :

	جنود	مدافع
روسيا	١ر٢٨٤ر٠٠٠	٤٤٣٢
فرنسا	٨١٨ر٥٣٢	٢٩٣٦
انجلترا	٢٥٥ر٢٣٨	١١٧٠
إيطاليا	٣٠٥ر٢٣٣	١٤٧٠
المجموع	٢ر٦٦٣ر٠٠٣	١٠٠٠٨

« هذا عدا بلجيكا والصرب والجبل الأسود

	جنود	مدافع
ألمانيا	٨٠٦ر٠١٦	٣٨٦٦
النمسا	٣٧٠ر٧٢٥	١٨٥٤
المجموع	١ر١٧٦ر٧٤١	٥٧٢٠

« ولقد أخبرنا الجنرال بوات الفرنسى ان الجيش الألمانى العامل هو ٨٧٠ر٠٠٠ وأن الجيش الفرنسى العامل هو ٩١٠ر٠٠٠ وأن الاحتياطى الألمانى هو ١ر١٨٠ر٠٠٠ والفرنسى هو ١ر٣٢٥ر٠٠٠ بمعنى أن ألمانيا لا تستطيع التفوق على فرنسا إلا بواسطة جنودها الاحتياطية ، ولكن ماقيمة هذا التفوق وأمامها الميدان الروسى ؟ !

« فأنت ترى أن الحرب بدأت وجيوش ألمانيا تكاد تكون متكافئة مع جيوش فرنسا ، فى حين كانت روسيا فى الميدان الشرقى وليس لألمانيا ما تضعه أمامها سوى الجيش النمساوى .

« لقد تكلمنا حتى الآن عن النفقات البرية فلنلمع إلى النفقات البحرية فى الفترة عينها بين ١٩٠٥ و ١٩١٥ وقد كانت كالآتى :

الدولة	النفقات
ألمانيا	١٨٥ر٢٠٥ر١٦٤ جنيها
النمسا والمجر	٥٠ر٦٩٢ر٨١٤ »
المجموع	٢٣٥ر٨٩٧ر٩٧٨ »

الدولة	النفقات
فرنسا	١٦١ر٧٢١ر٣٨٧ جنيها
روسيا	١٤٤ر٢٤٦ر٥١٣ »
انجلترا	٣٩١ر٩١٦ر٧٧٠ »
المجموع	٦٩٧ر٨٨٤ر٦٧٠ »

« أى أن الحلفاء فى تلك الفترة زادت نفقاتهم البحرية عن نفقات ألمانيا وحليفتها مبلغ ٤٦١ر٩٨٦ر٦٩٢ جنيه .

« أما فى سنة ١٩١٤ عينها فكانت النفقات البحرية كما يلى : —

الدولة	النفقات
روسيا	١٠٥ر٩٥٥ر٩٨٠ جنيها
فرنسا	٨١ر٠٦٥ر٩٦٧ »
انجلترا	٨٠ر٤٣٠ر٠٠٠ »
المجموع	٢٦٧ر٤٥١ر٩٤٧ »

الدولة	النفقات
ألمانيا	٥٩ر٠٣٤ر٧٧٠ جنيها
النمسا والمجر	٢٤ر٩٩٢ر٠٠٠ »
المجموع	٨٤ر٠٢٦ر٧٧٠ »

« أى أن نفقات الحلفاء فى تلك السنة زادت عن نفقات ألمانيا وحليفتها ١٨٣ر٤٢٥ر١٧٧ جنيها !

« ولا ينبغى أن تفوتنا إضافة النفقات البحرية الايطالية إلى نفقات الحلفاء ، كما ينبغى أن نذكر أن روسيا بعد الحرب اليابانية أنشأت أسطولا جديدا بالكلية.

« فهذه الأرقام تنطق كلها بأن الحلفاء كانوا يستعدون برا وبحرا ، وأن نفقاتهم فى هاتين الجهتين زادت اضعافا مضاعفة عن نفقات ألمانيا وحليفتها النمسا ، وأن التفوق كان فى جانبهم . ومع ذلك لايتورع اللورد غراى عن أن يملأ فاه بهذا الزعم ، فيقول « أن الحكومة الألمانية كانت تتأهب للحرب وأن الشعب الذى يدبر الخطط هو وحده الشعب القادر على الاستعداد » ! حقا أنها لجراءة أعيت من يداويها !!

الصرب والبلقان

من المهم جدا قبل أن نعرض للأسباب المباشرة التي أدت إلى نشوب الحرب العالمية فى أول أغسطس سنة ١٩١٤ أن نعرف القراء بصربيا ونشرح لهم موقفها حيال النمساء إذ لا يمكن للإنسان أن يحكم على الأنذار الذى أرسلته النمسا لتلك الدولة عقب مصرع الارشيدوق فرانس فرديناند وعقيلته فى سيراجيفو إلا بعد تفهم موقفها حيال جارتها النمسا .

فدويلة الصرب - يوغوسلافيا الآن - التى آثرت فرنسا أن تغرق من أجلها أوربا فى بحار من الدم عن أن ترضى عن ابتلاع النمسا لها — هى تلك الدويلة التى قال عنها مؤلف كتاب « الجبل البلقانى فى خلال عشرين سنة ». ص ٦٧ « إن كل ملك من ملوك الصرب فى خلال أجيال عديدة كان مصيره إما الاغتيال أو الموت فى المنفى ! » وحسبنا أن الأمير ميخائيل قتل فى ١٠ يونية سنة ١٨٦٨ ، والملك اسكندر وزوجته قتلا فى ١١ يونيه سنة ١٩٠٣ ، مما جعل انجلترا تسحب قنصلها احتجاجا على هذا العمل الوحشى .

ونسال من ذا الذى خول روسيا حق حماية الصرب، ومن ذا الذى ادعى أن بين روسيا والصرب رابطة قوية وثيقة العرى ؟ أليست تفصل روسيا عن الصرب سلسلتا جبال شاهقة ودولتان اثنتان ثم نهر الدانوب ؟

إذن فليس لروسيا حق فى التدخل السياسى فى شؤون الصرب . وكل ما انتحلته لنفسها من الحقوق إنما نشأ عن تلك الإنسانية التى لم يظهر أثرها فى معاملة الحكومة الروسية لشعبها نفسه !

فالصرب قبل كل شيء ليست دولة سلافية . « لا بل أن روسيا نفسها — كما أكد السفير الروسى - البارون روزن فى جريدة « السناردى ايفننج بوست » فى ٢١ اغسطس سنة ١٩٢٠ — « لا نعتبر دولة سلافية إلا بقدر ما تعتبر انجلترا

دولة تيوتونية » ! فأول مايجب أن نلاحظه فى الأمة الروسية هو أن قسما كبيراً منها ليس سلافيا ، وأن روسيا قد ابتلعت شعوبا أخرى كالبولونيين والفنلنديين وغيرهم ، بحيث لو طرحنا العناصر غير السلافية من سكان روسيا لأصبحت النمسا نفسها أحق من روسيا بأن تسمى دولة سلافية » !

ولم يكن بين روسيا وصربيا علاقة ودية مطلقا . نعم ان كلا منهما كان يدس الدسائس ويبيت المكائد لاستخدام الآخر . وإلى هذه الحقيقة اشار المستر بجنالد ويون فى كتابه المسمى « البلقان من الداخل » إذ قال « مهما يكن نفوذ الروسيا عظيما، فهى بغيضة إلى الصربيين والبلغاريين والأروام والأتراك على السواء » . وقال المستر هربرت فيفيان فى كتابه المسمى « صربيا » ص ٤٢ « أن الصربى يشعر كما يشعر الرومانى ـ نسبة إلى رومانيا ـ بأن روسيا تستعمله كآلة صماء لمصلحتها فقط » وكتب الصحفى الشهير ستيلمان فى كتابه المسمى « مذكرات صحفى » الجزء الثانى ص١٤٨ « أن مندوبى الروس أغروا الصربيين على التوالى بكراهة الأتراك ، وقد كان هذا أمراً طبيعيا وفى مصلحة الصربيين انفسهم ، ولكنهم أغروهم بكراهة النمسا ، ولم يكن هذا بالأمر الحكيم، لأنه أدى إلى تعقيد الأمور بين البلدين » .

ولقد أحسن الأستاذ فيف فى كتابه المسمى « الأمبراطورية الألمانية بين الحربين » ص ٤٠ عند ما قال « إن الإنذار النهائى الذى قدمته النمسا إلى الصرب فى ٢٣ يولية سنة ١٩١٤ ليس إلا مجرد انذار صادر من أناس قرروا ان يجهزوا بصفة نهائية على شبكة الدسائس التي وضعتها روسيا حول النمساء وكانوا عارفين بأن فى استطاعتهم الاعتماد على حليفهم الألمانى . فمهما كانت نتيجة الحرب فان النمسا ستتخلص من « بعبع » الضغط السلافى » !

واقد وصف المستر فوكس سياسة روسيا فى كتابه المسمى « شبه جزيرة البلقان » . فقال : « إن مؤتمر برلين الذى عدل معاهدة سان استفانو اعترف بأن نية روسيا كانت منصرفة إلى إيجاد دولة بلغارية شاسعة ولكن ضعيفة تقوم

من تلقاء نفسها بخدمة المصالح الروسية وأخيراً تسقط فريسة فى أيديها ».

وكما كانت تلك سياستها فى مؤتمر برلين كذلك انصرفت نيتها لايجاد دولة صربية كبيرة تستعمل لنفس الغاية التى أرادت استعمال بلغاريا لها. وقد أخبرنا الأستاذ سلون فى كتابه المسمى « البلقان » ص ١٤٣ « أن صناعة السياسة فى بلغراد بلغت إلى مستوى لا نظير له إلا فى الاستانة نفسها، فان مسألة خلع ملك وتنصيب آخر مكانه أصبحت مسألة نقود ليس إلا. وقد كان السفير الروسى هو الذى يقدم تلك المبالغ. لقد تتبعنا المؤامرة من منشئها وليس ثمة خطوة إلا ويوجدما ينم عليها من الأدلة الرسمية ».

لا بل أن السنيور نيتى نفسه يقول فى كتابه المسمى « أوربا المضطربة » ص ١٢ « ان روسيا وحدها هي التى كانت تذكى الهياج فى الصرب وبين السلافيين من رعايا النمسا. فمن أجل روسيا كانت الحكومة الصربية سببا دائما للاضطرابات وخطراً دائما على النمسا والمجر. إن سياسة روسيا فى الصرب كانت جنائية بلا جدال» (كذا).

فأنت ترى من كل ما تقدم أن سياسة الصرب وروسيا حيال النمسا كان الباعث عليها أمراً واحداً، هو إيجاد الاضطراب فى داخل حدودها. لهذا يقول الأستاذ « فيف » فى كتابه السالف الذكر ما نصه « إن النمسا اضطرت إلى أن تعبئ جيوشها مرتين فى سنتي ١٩١٢ و ١٩١٣ ضد روسيا والصرب (كذا) — أى فى خلال الحرب البلقانية — وقد رأت حكومة فينا نفسها مضطرة إلى اختيار أحد أمرين، إما استمرار حالة التهييج المحيرة بما يترتب عليها من وجود أزمات عسكرية تهدد الخزانة بالافلاس، وإما الالتجاء إلى الحسام بصفة نهائية ».

وليس من ينكر أن روسيا كانت ترمى من وراء هذه الدسائس إلى تمزيق الأمبراطورية النمساوية، وحسبنا أنها اشتركت فى قتل الملك اسكندر ملك الصرب وعقيلته « دراجا » لأنهما كانا من أسرة «أوبرينوفتش» المعروفة

بنزعتها النمساوية ، لتحل محلهما الملك بطرس وهو من أسرة « كاراجورجفتش » المعروفة بنزعتها الروسية . ولتحقيق هذه الغاية أخذت العلاقات تزداد توطدا بين بتروغراد وبلغراد فى السنوات التى سبقت الحرب مباشرة . ولقد أكد القيصر فى سنة ١٩٠٨ للمسيو باستش الصربى « أن مسألة البوسنة والهرسك ستحل بالسيف وحده ، لذلك لا يسع روسيا والصرب الآن إلا التذرع بالصبر والاستعداد للحرب » .

ولم يخف قيصر روسيا سروره عند ما أخبره المسيو باستش هذا قبيل الحرب « أن الصرب تستطيع تعبئة نصف مليون جندى » .

ومع أن لورد غراى نفسه صرح فى الوثيقة الأولى من الكتاب الأبيض الذى نشرته الحكومة البريطانية بعد إعلان الحرب مباشرة « بأن أبغض شىء هو أن تضطر إحدى الدول العظمى لمحاربة الصرب » ، مما يدل على أن الساسة الأوربيين أنفسهم لم يكونوا ينظرون بعين الارتياح إلى تلك الدويلة الطاغية . نقول بالرغم من ذلك ، فان أوربا سمحت لنفسها بأن تكون مسرحا لمجزرة بشرية لم ير التاريخ مثلها ، لأن تلك الدويلة المشؤومة كانت تبيت مع روسيا مؤامرة ضد النمسا !!

فتاريخ الصرب ليس إلا سلسلة جرائم . ولشد ما كانت حيرة ساسة الحلفاء عند ما اجتمعوا فى فرنسا بعد الكارثة التي أصابت العالم ، من جراء محاولة انقاذ تلك الدويلة المشؤومة من انتقام النمسا — فكان من أصعب ما اعترضهم من المشاكل إيجاد وسيلة لوقف المذابح التى كان الصربيون يقومون بها فى ألبانيا .

ولقد كان الأرشيدوق فرانس فرديناند الذى اغتيل غدرا وخيانة فى شوارع سيراجيفو ، يسعى إلى تحقيق فكرة سياسية جليلة ، ألا وهى ربط كافة العناصر السلافية فى النمسا بإحدى الدول السلافية المجاورة على أن تؤسس من جميع هؤلاء السلافيين مملكة سلافية ترتبط بالامبراطورية

المتساوية كارتباط المجر بها . وبديهى أن تحقيق هذه الفكرة لم يكن من الهنات الهينات، ولكنها فكرة صالحة، وكان تحقيقها خليقا بأن يجهز إلى الأبد على كل دسائس روسيا فى شبة جزيرة البلقان ، لأن دول البلقان مهما كانت الخدمات التى تطمح فى نيلها من روسيا لم تكن توجد واحدة منهن تؤثر أن تقع تحت النير الروسى .

وكما أن روسيا كانت معادية لتلك الفكرة، كذلك كانت دويلات البلقان أيضاً لأن كل دويلة كانت تفكر فى التوسع على حساب جارتها . لذلك لم تكن تنظر بعين الارتياح إلى فكرة الاتحاد التي كان يرمى إليها ولى عهد النمسا . من أجل هذا كانت فكرته، مع أنها رشيدة ، سببا كافيا لاغتيال حياته قبل أن يتبوأ العرش فيحققها فعلا .

ولقد أشار الدكتور باوسمان فى كتابه « فلتفسر فرنسا » إلى السخافات التى كان العالم يصدقها فى أوائل الحرب عن الصرب « الوادعة! » . ولقد أحسن بأن شبه لقرائه الأمريكيين الخطر الصربى بالنسبة للنمسا بالخطر المكسيكى بالنسبة للولايات المتحدة . وقد ذهب إلى أبعد من ذلك إذ تساءل ماذا كانت تصنع الولايات المتحدة لو كانت المكسيك دولة سكانها من الزنوج ، وقد جعلت همها تهييج الرعايا الزنوج سكان الولايات المتحدة ؟ هل لا تعلن الحرب على المكسيك للتخلص من خطرها ؟ وهل لا تعتبر أى تدخل من دولة أخرى لحماية المكسيك عملا عدائيا لا يمكن السكوت عليه ؟

وينبغى أن نلاحظ أن النزاع بين الصرب والنمسا كان نزاعا جوهريا بالنسبه للأخيرة فى حين أنه لم يكن يهم روسيا وليس له علاقة ما بفرنسا . فواجب فرنسا كان يحتم عليها أن تخبر روسيا من بادىء الأمر أنها لا تستطيع أن تؤيدها فى أى نزاع ينشأ عن مشاكل البلقان . فلو أنها حذرت روسيا هذا التحذير لما نشبت الحرب العالمية .

ولا يتسع هذا المقام لذكر تفاصيل البروباجندا الجنائية التى كانت تقوم بها الصرب بين رعايا النمسا السلافيين فى رابعة النهار . وحسبنا ان الصحف

الصربية على بكرة أبيها لم تستنكر اغتيال الأرشيدوق فرديناند وعقيلته ، بل أن بعضها ذهب فعلا إلى تحبيذ الجريمة .

فلا غرو إذا رأينا النمسا تضيق ذرعا بتلك الجارة الحسيسة . وإذا كانت لم تمتشق الحسام فى سنة ١٩١٣ لتاديب الصرب، فالفضل راجع إلى ضغط حكومة برلين وحكومة لندن . ويظهر أن فرنسا كانت راغبة فى عدم وقوع الحرب وقتئذ قبل ان يتم الاستعداد النهائى ، كما يدل على ذلك الخطاب الذى أرسله وزير الصرب فى باريس إلى المسيو باستش فى بلغراد بتاريخ ٩ ابريل سنة ١٩١٣ إذ جاء فيه :

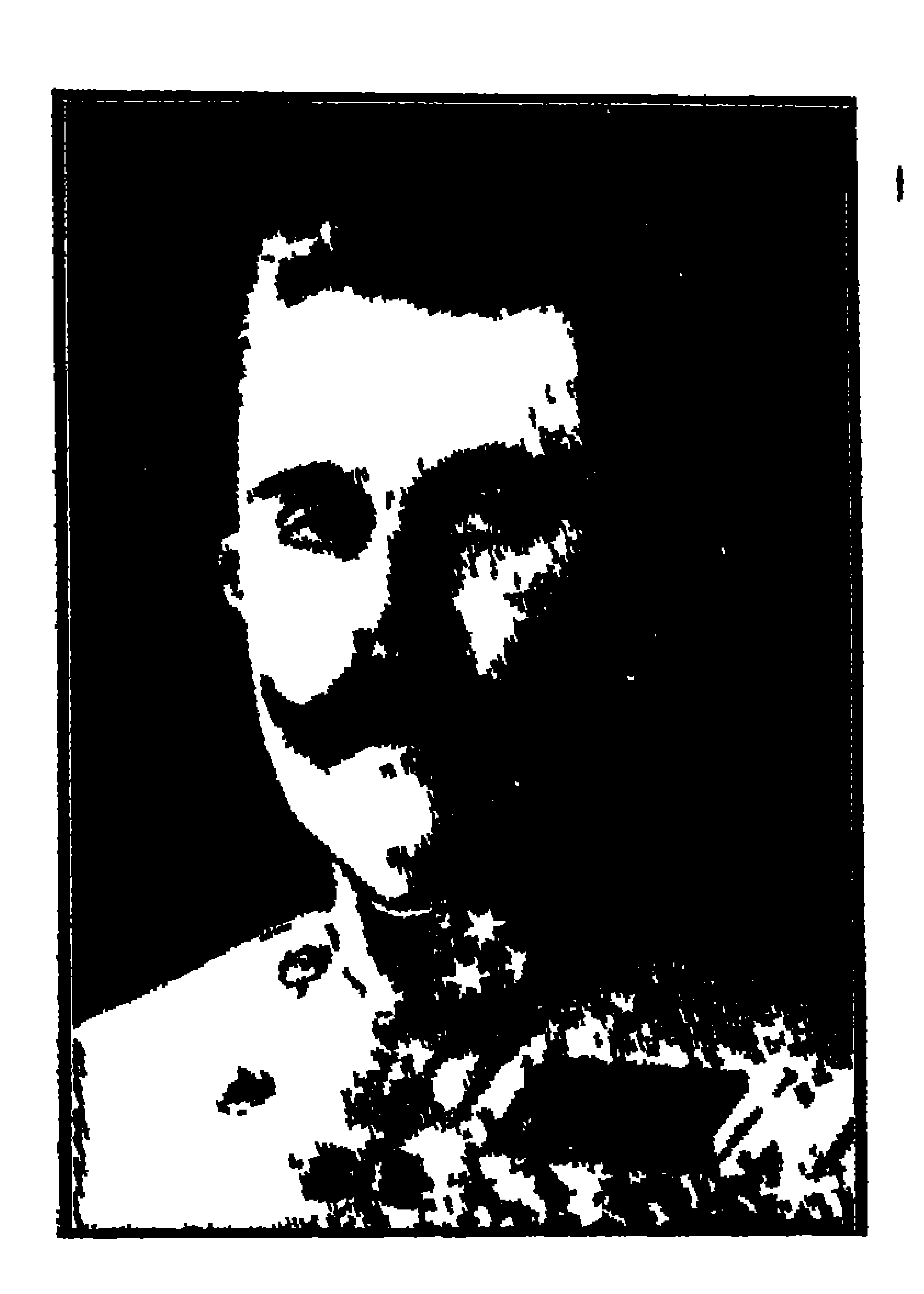
« لقد أخبرنى شخص كبير منذ أيام فى سياق حديثنا فى الموضوع بصفة خصوصية ، أننا كنا فى وسط الاسبوع الماضى قاب قوسين أو أدنى من حرب أوروبية عامة، وأن السبب — بين أسباب أخرى — فى اجتناب وقوع هذه الحرب فى الوقت الحاضر، مع ما فى ذلك من التضحية المعنوية ، يرجع إلى الرغبة فى إعطاء الحلفاء البلقانيين فرصة للانتعاش والاستعداد لما قد يحدث من الطوارىء فى القريب العاجل »!

وقد أشار أحد الكتاب الانجليز إلى قلق أحد المعتمدين الروس لأن الصرب كانت تريد نشوب الحرب قبل أن تتم الاستعدادات . ولقد ضايقه كثيرا أن الصرب لاتستطيع الصبر إلى عام ١٩١٤ ريثما تستعد روسيا .

ولا ينبغى أن ننسى بهذه المناسبة أن سازونوف وزير خارجية روسيا زار انجلترا فى سبتمبر سنة ١٩١٢ حيث قضى اسبوعا كاملا مع السير ادوارد غراى والمستر بونارلو فى قصر بالمورال . وقد غادر الوزير انجلترا يوم ٢٨ سبتمبر . وفى ٣٠ منه عبأت دول البلقان جيوشها ضد تركيا . أفلم تكن تلك التعبئة موضوع الحديث بين أولئك الساسة ؟ طبعا ! أليس هذا دليلا على نشاط روسيا فى البلقان ؟ ولقد أجلت الحرب العامة فى سنة ١٩١٣ إلى سنة ١٩١٤

—٨—

ريثما تتم استعدادات الحلفاء ، فلما تمت الاستعدادات وأصبح المسرح مجهزاً للمأساة الكبرى ، إغتالت الصرب ولى عهد النمسا وقتلته فى شوارع سيراجيفو فبدأت تعبئة الجيوش ، ثم بدأت المذبحة البشرية الهائلة . وسنبين لك الآن من ذا الذى بدأ بالتعبئة لحقت عليه كلمة التاريخ .



الأرشيدوق فرانس فرديناند

بعد مصرع ولى عهد النمسا

ألمانيا تقوم بدور الوسيط

فى أواخر يونية سنة ١٩١٤ شد الأرشيدوق فرانس فرديناند ولى عهد النمسا وعقيلته رحال السفر إلى بلاد البوسنة والهرسك لترويج فكرة الاتحاد

السلافى التى سبقت الاشارة إليها . فلم يكد يصل إلى مدينة سيراجيفو فى ٢٨ من ذلك الشهر، حتى أطلق بعض الأشرار القنابل والنار على مركبتهما فى رابعة النهار ! وقد توفيا على الأثر .



الأرشيدوقة عقيلة ولى عهد النمسا

فكانت هذه الفاجعة بمثابة حلقة جديدة فى سلسلة الجرائم التى كانت حكومة الصرب ترتكبها ضد الامبراطورية النمساوية . ولم يكن يسع دولة عظيمة كالنمسا أن تسكت على هذا التحرش بعد أن عيل صبرها ، أوأن ترضى بأن يذهب دم ولى عهدها بدون أن تنتقم له أو تؤدب المشتركين في هذه الجريمة . وإن كنا فى شك من المسلك الذى تسلكه الدول العظمى فى أمثال هذه الأحوال ، فحسبنا أن نذكر موقف إيطاليا حيال اليونان فى حادثة اغتيال بعثة الجنرال تالليني على الحدود الألبانية اليونانية . ثم أن مصر ما زالت تعانى

الأهوال من جراء موقف الشدة الذى وقفته أنجلترا حيالها بعدحادث اغتيال السردار . فكم كان يكون مبلغ تصلب أنجلترا أوإيطاليا لو كان المقتول ، لا أحد أفراد الرعية ــ كائنا ما كانت مرتبته ــ بل أحد أعضاء الأسرة المالكة ؟ ! فالذين يحكمون على الأنذار النمساوى بالصرامة ينبغى أن يذكروا موقف أنجلترا وموقف إيطاليا فى الحادثين السالفين .

ويظهر أن حادث الاغتيال ذلك أزعج الشعوب الأوربية وجعلها تتوقع أن تنتقم النمسا لنفسها بشكل من الأشكال من تلك الدويلة العنيدة ، ولكن الشىء الذى لم تتوقعه تلك الشعوب هو أن يغرق العالم فى بحر من الدم لأن النمسا أرادت الاقتصاص من الأئمة الغادرين .

وقد مرت الأسابيع الثلاثة الأولى من شهر يولية سنة ١٩١٤ ووزارات الخارجية فى العواصم الأوربية منهمكة فى تبادل المراسلات وكلها ترمى إلى غاية واحدة،وهى أن لاتندفع النمسا وراء عاطفة الغضب ، وأن تصغى لصوت العقل والحكمة ! ! وقد اقترح السيرأدوارد غراى بين ما اقترح،عرض الخلاف على محكمة لاهاى ، إلى آخر ماهنالك من أمثال هذه المسكنات التى لم يكن يسع دولة عظمى كالنمسا أن تقبلها، وإلا عرضت كرامتها للامتهان والاحتقار . وهنا أيضا لانرى مفراً من الاشارة إلى موقف بريطانيا وإيطاليا فى الحادثين السالفين ، وكيف أنهما رفضتا رفع الخلاف إلى عصبة الأمم ، واعتبرتا المسألة داخلية بحتة لايحق للغير ان يتدخل فيها !! ولما كانت حوادث الأسبوع الأخير من شهر يولية أى ٢٥ ــ ٣١ يولية من الأهمية بمكان فلا نرى مندوحة عن ذكرها بشىء من التفصيل ، ليتبين القارىء كيف حدث الانفجار العام الذى طاحت فيه ملايين النفوس البريئة فى الوقت الذى كانت فيه ألمانيا تحاول محاولة اليائس منع حدوث تلك المجزرة البشرية الهائلة .

الأسبوع العصيب!!

بدأ الجو الأوربى يكفهر حقيقة بصفة تبعث على التشاؤم عند ما أرسلت النمسا إنذارها الشهير إلى الصرب فى ٢٣ يولية وطلبت فيه بين مطالب أخرى أن تشترك فى التحقيق الذى يجرى فى الصرب للبحث عن الجناة ، فاعتبرت دول الحلفاء هذا الطلب بصفة خاصة ماساً باستقلال الصرب ، وقامت له روسيا وقعدت ، مع أننا قد رأينا إيطاليا فيما بعد تطلب نفس الطلب من اليونان.

ثم اقترح السير غراى عقد مؤتمر ، فرفضت النمسا الاقتراح ، فعدل السير المذكور اقتراحه بأن طلب من ألمانيا أن تقوم بدور الوسيط فى النزاع النمساوى الصربى . فقبلت ألمانيا القيام بهذا الدور . وفعلا تبودلت الرسائل بين برلين وفينا لهذه الغاية . وكان الدكتور فون بتمان هولفيج المستشار الألمانى ميالا — على ما يظهر — أن تجرى المفاوضات رأسا بين فينا وبتروغراد كما طلبت ذلك روسيا . وهاك برقيته إلى السفير الألمانى فى فينا مساء الاثنين ٢٧ يولية أى بعد إرسال الأنذار بأربعة أيام فقد قال فيها :

« إننا لا نستطيع أن نرفض القيام بدور الوسيط ، لذلك يجب أن نعرض على وزارة فينا الاقتراح الانجليزى الأخير للنظر فيه . فاطلب من الكونت برختولد — وزير خارجية النمسا — إبداء رأيه فى الاقتراح المذكور ، واسأله ايضا رأيه فى رغبة سازونوف أن تجرى المفاوضات مباشرة بين بتروغراد وفينا » .

وقد ألحق المستشار هذه البرقية ببرقية أخرى فى اليوم التالى قال فيها .

« إن الامتناع عن تبادل الآراء مع بتروغراد يكون خطأ كبيرا فيما لو دفع روسيا إلى التدخل المسلح ، وهو الأمر الذى يهم النمسا اجتنابه قبل كل شىء . إننا طبعا مستعدون — بلا جدال — للقيام بتعهداتنا كحليف ، ولكن ينبغى ألا نسمح لأنفسنا بالاشتباك فى حرب عالمية تتسرع النمسا فى إشعال نارها ،

وبدون إصغاء لنصائحنا . فالرجا إخطار الكونت برختولد بهذا فى الحال مع إظهار التأكيد والجد اللذين يقتضيهما المقام » .

وقد أرسلت هذه البرقية مساء الثلاثاء ٢٨ يولية ، ولكن حكومة فينا ظلت ملتزمة الصمت . ثم جاء يوم الأربعاء وهو يوم ٢٩ فازداد انزعاج المستشار الألمانى ، وأحس فى نفسه بأن النمسا تتعمد كتم بعض الأمور عنه . فأبرق من جديد إلى السفير الألمانى تشيرسكى قائلا :

« إننى مندهش أشد اندهاش لخطة الحكومة النمساوية وتصرفها المعدوم النظير حيال الحكومات الأخرى ... فهى تتركنا فى ظلام دامس بالنسبة لبرنامجها ... فلا يسعنى إلا أن أستنتج أنها ميالة لاتباع خطط مخصوصة ترى الأوفق أن تكتمها عنا لتستوثق من مساعدة ألمانيا لها فى كافة الأحوال ولتجتنب الرفض الذى قد يترتب على المفاوضة الصريحة » .

ولم يخب حدس الدكتور بتمان . فإن النمسا كانت فعلا تكتم شيئا عن ألمانيا ، برغم أن العالم كان يظن أن المانيا اطلعت عليه . أما هذا الشيء فهو التقرير الذى وصلت إليه لجنة فيزنر الخاص بالتحقيق فى حادث الاغتيال . فإن اللجنة المذكورة لم تستطع جمع أدلة كافية على اشتراك الحكومة الصربية فى الجناية . هذا التقرير أخفاه الكونت برختولد عن ألمانيا ، وعذره فى ذلك أن نشر التقرير ربما أدى إلى اضعاف المساعدة الألمانية للنمسا . وعلى كل فالذنب واقع على برختولد ، ولا يصح توجيه اللوم لألمانيا لتشددها فى مساعدة حليفتها ، لأنها كانت تعتبر أن التحقيق أسفر عن إدانة الحكومة الصربية .

ثم جاء يوم الخميس ٣٠ يولية وأصبح الدكتور بتمان اشد إصرارا وإلحافا عن ذى قبل . وقد أرسل البرقية التالية يستعجل فيها حكومة فينا لارسال الرد وقد قال فيها :

« إذا رفضت النمسا الدخول فى المفاوضات بأى شكل كان ، أصبحنا وجها لوجه أزاء حرب تقف فيها انجلترا ضدنا ، كما أن رومانيا وايطاليا — حسب ما تدل عليه ظواهر الأحوال — لن تنضما إلى جانبنا . وإذ ذاك تقف ألمانيا

والنمسا أمام روسيا وانجلترا وإيطاليا ورومانيا (لاحظ أن المستشار لم يذكر فرنسا ولا تعرض لها مطلقا) وسيترتب على معارضة انجلترا نزول الصدمة الكبرى على رأس المانيا. ولذلك فإن هيبة النمسا السياسية، وكرامة جيشها العسكرية، وطلباتها العادلة ضد الصرب — كل ذلك يمكن ترضيته ترضية تامة بأن تحتل النمسا بلغراد، أو بعض الجهات الأخرى، فإن اذلالها لصربيا يؤدى حتما إلى استعادة هيبتها فى البلقان وفى علاقاتها مع روسيا. فنظراً إلى هذه الظروف، نلح على حكومة فينا بالموافقة على التوسط طبقا للشروط العاجلة الواردة بعاليه، وستكون المسئولية عن العواقب فى حالة الرفض عظيمة جداً لا نظير لها بالنسبة للنمسا ولأنفسنا ».

فما معنى كل هذا الإلحاح من جانب برلين إن لم يكن لحمل فينا على الأصغاء لصوت العقل ؟ وبديهى أن برلين كانت تعتقد أن الحق فى جانب النمسا وترى أن الوقت قد حان فى النهاية لأن تسوى النمسا بصفة نهائية ما بينها وبين الصرب من الخلاف .

على أنها بالرغم من ذلك الاعتقاد كانت مصممة على حمل النمسا على اجتناب الشطط والمغالاة . فالقول بأن المانيا كانت تؤيد النمسا « إلى الحد الأقصى » هو قول هراء بعد الذى أثبتناه هنا من برقيات المستشار الألمانى.

بيد أن بعض الذين يغالون فى لوم ألمانيا يرون أنها تأخرت فى الضغط على حليفتها، ولكنا نرد على ذلك بأنه كان من حق النمسا أدبيا أن تؤدب الصرب بصفة عسكرية. وقد اعتقدت ألمانيا بحق — وعن خبرة — أن ارسال المذكرات الشديدة للصرب، والاحتجاج على أفعالها بالأقوال لا بالأفعال، ووعد هذه الحكومة بتغيير خطتها العدوانية نحو جارتها — كل ذلك كان مجهوداً ضائعا مع حكومة عنيدة كالحكومة الصربية . لهذا كانت ألمانيا ترى أن الوقت قد حان لأن تؤدب النمسا الصرب بقوة السيف والمدفع .

وبالطبع لم يكن يسع النمسا بعد مالحقها من الأهانات من جارتها المشؤومة إن تكتفى بفوز أدبى كالذى كان اقترحه السير غراى . لأن المسألة كانت قد

تجاوزت ذلك الحد . فلقد كان عليها أن تختار بين احد أمرين، إما ان تؤدب الصرب بشكل يضمن سلامة إمبراطوريتها ، أو تصبر على القذى وتكون عرضة ، لا لتحرش الصرب وحدها ، بل والاعتراف ضمنا بمنطقة نفوذ روسي فى البلقان .

أما ألمانيا فكانت إلى بدء هذا الأسبوع المشؤوم تعتقد أن جريمة الصرب الشنيعة من شأنها أن تجعل روسيا أكثر ميلا إلى السلام ، أو على الأقل أن تحمل حليفتيها انجلترا وفرنسا على النصح لها بعدم التمادى فى سياسة العدوان بشد أزر الصرب . لأن ادعاء روسيا بأن سلامة الصرب مسألة حياة أو موت لروسيا هو ادعاء سخيف يكفى لدحضه أن ينظر الانسان إلى خريطة أوربا ليرى ان ليس ثمة حد مشترك بين الروسيا والصرب فى جهة من الجهات . فتروج



الدكتور فون بتمان هولفيج المستشار الألمانى السابق

مثل ذلك الادعاء كان مجرد تحرش . ولقد كان يخلق ببريطانيا وفرنسا أن تحذرا روسيا من عواقب التمادي فيه .

ولنعد الآن إلى إتمام الحديث . فقد انقضى يوم الخميس ٣٠ يونية دون أن يصل إلى الحكومة الألمانية رد من النمسا . وكان الأمبراطور الأسبق قد عاد يوم الأحد ٢٦ يولية من سياحته في مياه اسكندنافيا ، فوجه عنايته إلى مفاوضة روسيا رأسا بعد أن طلب اليه القيام بدور الوسيط .

وبمناسبة عودة الأمبراطور نقول أن دعوى عقد مجلس امبراطوري في بو تسدام يوم ٥ يولية لتقرير الحرب هي لعمرك دعوى سخيفة يكذبها



الا ميراطور غليوم الثاني

الواقع . فقد زعموا أن الأمبراطور السابق عقد ذلك المجلس وحضره أمراء البلاط الألماني والنمساوى ورجال الحرب فى البلادين ، وهناك قر الرأى على إعلان الحرب!! وقد أخبرنا الدكتور بتمان أن اجتماعا عقد فعلا فى ٥ يولية، ولكن لم يحضره إلا الأمبراطور والمستشار الألمانى والسفير النمساوى فقط . وحسبك دليلا على سخافة هذه الخرافة ، أن الأمبراطور استقل يخته بعد ارفضاض هذا المجلس ، وذهب إلى مياه اسكندنافيا لترويح النفس . كما أن الرؤساء العسكريين كانوا جميعا فى مصائفهم بعيدا عن برلين . وقد كان سفر الأمبراطور بناء على رغبة الدكتور بتمان هولفيج الذى خشى أن يؤول وجود جلالته فى عاصمة بلاده بعد إعلان عزمه على القيام برحلته السكندنافية تأويلا منافيا لمصلحة السلام . أما اجتماع بوتسدام هذا ، فقد أريد به إفهام السفير النمساوى بأن مصلحة السلام تقتضى أن تظهر النمسا اعتدالا كبيرا فى معالجة الأزمة النمساوية الصربية .

فقل لى بربك هل من كان يريد الحرب يذهب إلى المصائف، أم يبقى فى العاصمة لاعداد المعدات للانقضاض على الجيران الوادعين ؟ !

توسط الأمبراطور السابق

لما كان الدور المهم الذى لعبه غليوم الثانى فى الأيام العصيبة التى سبقت إعلان الحرب يلقى ضوءا على الفساد الذى كان متفشيا فى البلاط الروسى ، رأينا أن نبسطه بعض البسط ونتوسع فى شرحه بعض التوسع معتذرين إلى القراء عن هذا الأسهاب الذى يقتضيه المقام .

لما عاد غليوم الثانى من رحلته السكندنافية فى يوم الأحد ٢٦ يولية ، ارتاع أشد ارتياع لتعقد الحالة الدولية ووصولها إلى حد ينذر بأشد الخطر . فرأى فى الوقت الذى كان مستشاره يتبادل فيه البرقيات مع النمسا ويدعوها إلى استعمال الروية والاعتدال، أن يبادرهو من ناحيته باستعمال نفوذه لدى قريبه قيصر الروسيا لتوطيد السلام .

وقبل أن نخوض فى هذا البحث ينبغى أن نسجل هنا اعترافا خطيراً للورد غراى . فقد اعترف فى سياق حديثه فى الفصل الثامن والعشرين من هذه المذكرات بما يأتى :

« وفى اعتقادى أنه لا الأمبراطور ولا بتمان هولفيج ولا فون ياجو دبروا الحرب ولا رغبوا فيها (كذا ! كذا !) . ولكن الأمبراطور — على ما يظهر — لم يستخدم فى الوقت العصيب الذى تلا وصول الرد الصربى نفوذه إلى أبعد حد ، حينما كان يحتمل أن يعود هذا الاستخدام بالفائدة » !!!!

ولا يسعك وأنت تقرأ الفصل الأخير من هذا الجزء وعنوانه « الأزمة الختامية » إلا أن تدهش لأقوال اللورد ومنطقة المتناقض . فالرجل يعترف صراحة بأن روسيا وفرنسا عبأتا جيوشهما ، فلما بدأت ألمانيا تحذو حذوهما إذا به يوجه اللوم إليها ويتهمها بان تعبئتها هذه هى التى عجلت بوقوع الحرب (كذا) ! ثم ذهب يفرق بين التعبئتين فقال أن معناها في فرنسا وروسيا « الوقاية » فقط ، فى حين أنها في ألمانيا تعنى « الاعتداء » (كذا) ! ! واشد من هذا تناقضا قوله فى هذا الفصل « أنه يعتقد أن الأمبراطور غليوم لم يكن له نفوذ كبير (كذا) . !! بل كان النفوذ كله للحزب العسكرى » !! ، هذا فى حين أنه ناقض نفسه بنفسه فى الفصل الثامن والعشرين فوجه اللوم إلى الأمبراطور — كما رأيت — على عدم استعمال نفوذه القوى إلى أبعد حد (كذا) ! !

ولكن مالنا ولمناقشة أقوال اللورد أو محاولة تفنيدها ، وحسبنا أن نسجل هنا مجرد الوقائع التي أثبتها التاريخ فهى بنفسها أبلغ رد على أقوال صاحب المذكرات .

قلنا لك أن الأمبراطور ما كاد يعود إلى برلين فى يوم الأحد ٢٦ يولية حتى أبرق إلى قيصر روسيا في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والأربعين من مساء يوم الثلاثاء ٢٨ يولية ما يأتى :

« لقد سمعت بمنتهى الانزعاج والقلق بالأثر الذى تركه عمل النمسا ضد الصرب ، وليس يخفى أن ما كان يجرى فى الصرب منذ خمسة أعوام من أعمال

التهييج المنطوية على الرعونة، قد أدى إلى هذه الجناية المثيرة للنفوس التى ذهب الأرشيدوق فرانس فرديناند ضحية لها. وفى اعتقادى أنه لايزال يسود الصربيين نفس الروح التى جعلتهم يغتالون مليكهم وزوجه.

« ولست اشك فى أنك توافقني على ان مصلحتنا المشتركة نحن الأثنين — أنا وأنت — بل وجميع الملوك الآخرين ، هى فى الأصرار على أن ينال المسؤولون عن هذه الجريمة الشنعاء العقاب الذى يستحقونه .

« ومن جهة أخرى لايمكنى أن أتجاهل بحال من الأحوال ما تجده أمامك أنت وحكومتك من الصعوبة فى تلطيف حدة الرأى العام . وعلى أننى نظراً للصداقة الودية التى ارتبطنا بروابطها الوثيقة منذ زمن طويل ، سأبذل منتهى نفوذى لحمل النمسا على الوصول إلى تفاهم مرض صريح مع روسيا . وإنى لآمل أن تساعدنى فى هذه المساعى للتغلب على ما قد يطرأ من المصاعب » م؟

صديقك الحميم وابن عمك المخلص

غليوم

فأجاب القيصر على هذه البرقية ببرقية أخرى أرسلها فى الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم التالى وهو يوم الأربعاء ٢٩ وهاك نصها :

« حقا إننى لمغتبط بعودتك إلى ألمانيا . فنى هذه اللحظة العصيبة أرجوك من صميم فؤادى أن تقدم لى ماتستطيع من المساعدة . فأنت ترى هذه الحرب السافلة التي أعلنت ضد مملكة صغيرة ، وهو ما ثارت له ثورة الرأى العام الذى أشاطره غضبه كل المشاطرة . وأخشى أن أصبح بعد قليل عاجزا عن مقاومة الضغط الذى حولى ، وهناك أصير مضطراً للاقدام على أعمال تؤدى إلى الحرب حتما . فمنعا للكارثة التى لابد أن تنجم عن وقوع حرب أوروبية ، ألح عليك باسم صداقتنا القديمة أن تبذل منتهى ما فى وسعك لمنع حليفتك من الذهاب إلى مدى بعيد » م؟

نيقولا

فليت شعرى مامعنى ذلك الضغط الذى أشار إليه القيصر ؟ أليس هو ضغط الحزب العسكرى ؟

وقد رد الأمبراطور على هذه البرقية فى منتصف الساعة السابعة من مساء اليوم نفسه بما نصه :

« لقد وصلت إلى برقيتك وأنا أشاطرك رغبتك فى الاحتفاظ بالسلام . على أننى كما أخبرتك فى برقيتى السالفة — لا أستطيع أن أعد عمل النمسا ضد الصرب « حربا سافلة ». والنمسا تعلم بالاختبارات وعود الصرب طالما أنها مجرد حبر على ورق — لاقيمة لها بتاتا . وفى رأيى أن مافعلته النمسا يصح أن يعتبر كمحاولة منها للحصول على ضمان كاف بأن تترجم وعود الصرب من مجرد الأقوال إلى الأفعال . ومما يؤيد عندى هذا الرأى أقوال الوزارة النمساوية نفسها ، وهى أنها لاترمى إلى الحصول على مكاسب أرضية على حساب الصرب . فمن رأيي والحالة هكذا أنه فى استطاعة روسيا بلا جدال أن تقف وقفة المتفرج فى الحرب النمساوية الصربية دون أن تزج بأوربا إلى أفظع حرب شهدتها . ويقيني أن التفاهم المباشر بين حكومتكم وحكومة النمسا ممكن ومرغوب فيه وهو تفاهم تعمل حكومتى — كما سلف أن أبرقت إليكم — منتهى وسعها لتحقيقه . فكل الاجراءات العسكرية التى يمكن أن تقدم عليها روسيا، والتى يمكن أن تؤول بأن المقصود بها تهديد النمسا ، لابد وأن تعجل بطبيعة الحال بوقوع الكارثة التى نرغب كلانا فى تفاديها . لابل إنها تقضى قضاء مبرما على موقفى كوسيط ، وهو الموقف الذى قبلته عن طيب خاطر بناء على طلبك واتجاهك بالنداء إلى صداقتى ومساعدتى » .

غليوم

وفى ساعة متأخرة من ليلة الأربعاء ٢٩ يولية أجاب القيصر على هذه البرقية بأخرى قال فيها :

« أشكرك على برقيتك المنطوية على المسالمة مع أن الرسالة التى قدمها

سفيرك إلى وزير خارجيتى كانت مفرغة فى لهجة أخرى . فأرجو أن تشرح لى سبب تباين اللهجتين . ومن الأصوب أن يحال النزاع الصربى النمساوى إلى مؤتمر لاهاى . ولى وطيد الثقة فى حكمتك وصداقتك » ؟

نيقولا

وفى اليوم التالى أى الخميس ٣٠ يولية بينما كان الدكتور بتمان هولفيج لايرى نتيجة ما لوابل برقياته التى أمطرفينا بها ، إذا بالامبراطورغليوم — وقد تبين له أن روسيا تواصل تعبئة جيوشها مع أن ألمانيا لم تكن قد أصدرت بعد أمر التعبئة حتى كان يمكن لروسيا أن تعده مسوغا لتعبئة جيوشها — أذا به يبرق للقيصر رداً على برقيته فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ما نصه :

« لقد تسلم سفيرى تعليمات بأن يلفت نظر حكومتكم إلى ما يترتب على تعبئة الجيش الروسى من الأخطار والعواقب السيئة . وقد قلت لكم نفس هذا القول فى برقيتى الأخيرة — أن النمسا إنما عبأت جزءا من جيشها ضد الصرب فقط . فإذا ما راحت روسيا بدورها تعبىء جيشها ضد النمسا ، وهو الواقع على مايظهر ، بناء على رأيكم ورأى حكومتكم ، فان مركزى كوسيط يصبح مهددا ان لم يكن مستحيلا ، وهو دور لم أقبله إلا بناء على رغبتكم وبعد أن عهدتم إلىّ بصفة حية فى القيام به . فعبء المسؤولية يقع الآن على عاتقك ، وأنت وحدك الذى تتحمل تبعة الحرب أو السلام » ؟

غليوم

والآن نذكر لك رد القيصر على البرقية التى أرسلها الامبراطور قبل هذه فقد أرسلها فى الساعة الواحدة والثلث بعد ظهر الخميس ٣٠ يولية وفيها يقول :

« أشكرك من صميم الفؤاد على تعجيلك بالرد . وقد أرسلت هذه الليلة تاتيشيف (ياور شرف للأمبراطور غليوم) بتعليمات خاصة . فالاجراءات العسكرية التى تتخذ الآن كان قد تقرر اتخاذها منذ خمسة أيام ، ويراد بها مجرد الدفاع ضد استعدادات النمسا . وأرجو من صميم فؤادى أن لا تؤثر هذه

الأجراءات بحال ما فى مركزك كوسيط وهوما اغتبط به كل الاغتباط . فنحن، في حاجة إلى قوة ضغطك على النمسا ليتسنى الوصول إلى تفاهم معنا ،»

نيقولا

وهنا لابد أن لاحظ القارىء أن روسيا كانت مصممة على مواصلة استعداداتها. وسنبين له الأسباب، وهي أسباب جعلت الحزب العسكرى الألمانى على حق فى ارتيابه فى حسن نية روسيا ، وأظهرت بشكل يدعو إلى الرثاء مساعي الأمبراطور للوصول -بواسطة القيصر- إلى غل أيدى أولئك الشياطين الذين كانوا يلعبون بالنار ويلوحون بالسلاح الروسى . ولقد رأيت كيف أقامت ألمانيا الدليل على رغبتها فى القيام بدور الوسيط عند ما لاحت لبريطانيا وألمانيا فكرة التوسط . وهاك برقية أخرى أرسلها القيصر إلى الأمبراطور بتاريخ الجمعة ٣١ يولية .

« أشكرك شكرا وديا على وساطتك التى تعزز الأمل بأن الأمور قد تنتهى بسلام حتى فى هذه اللحظة . على أنه يستحيل من الناحية الفنية وقف تعبئتنا العسكرية التى اضطررنا إليها بسبب التعبئة النمساوية ! إن فكرة الحرب أبعد ماتكون عن نفوسنا . فطالما كانت المفاوضات بين النمسا والصرب جارية، فلن تقدم جنودى على أى عمل ينطوى على الاستفزاز ، وهو ما أعطيك عليه عهدا مقدسا ! وإنى شديد الثقة برحمة الله تعالى ، وأتمنى النجاح لوساطتك لدى حكومة فينا لحفظ رفاهة شعبينا وسلام أوربا » .

المخلص نيقولا

ولا بد أن يعجب القارىء كيف أن الأمور لم تنته بسلام بعد هذه البرقية التى أرسلها القيصر إلى الأمبراطور . ولكن المسألة هينة . فهذه المساعي التي بذلها العاهلان لحفظ سلام أوربا ، إنما فشلت وحبطت بفضل أعمال رجال العسكرية الروس ، وهي حقيقة لامراء فيها وقد فضحتها حكومة البلاشفة بعد أن توطد لها الحكم وامتدت أيديها إلى سجلات وزارة الخارجية باحثة منقبة عن السر فى عدم تمهل روسيا فى اصدار أمر التعبئة مع أنها لم تكن مهددة



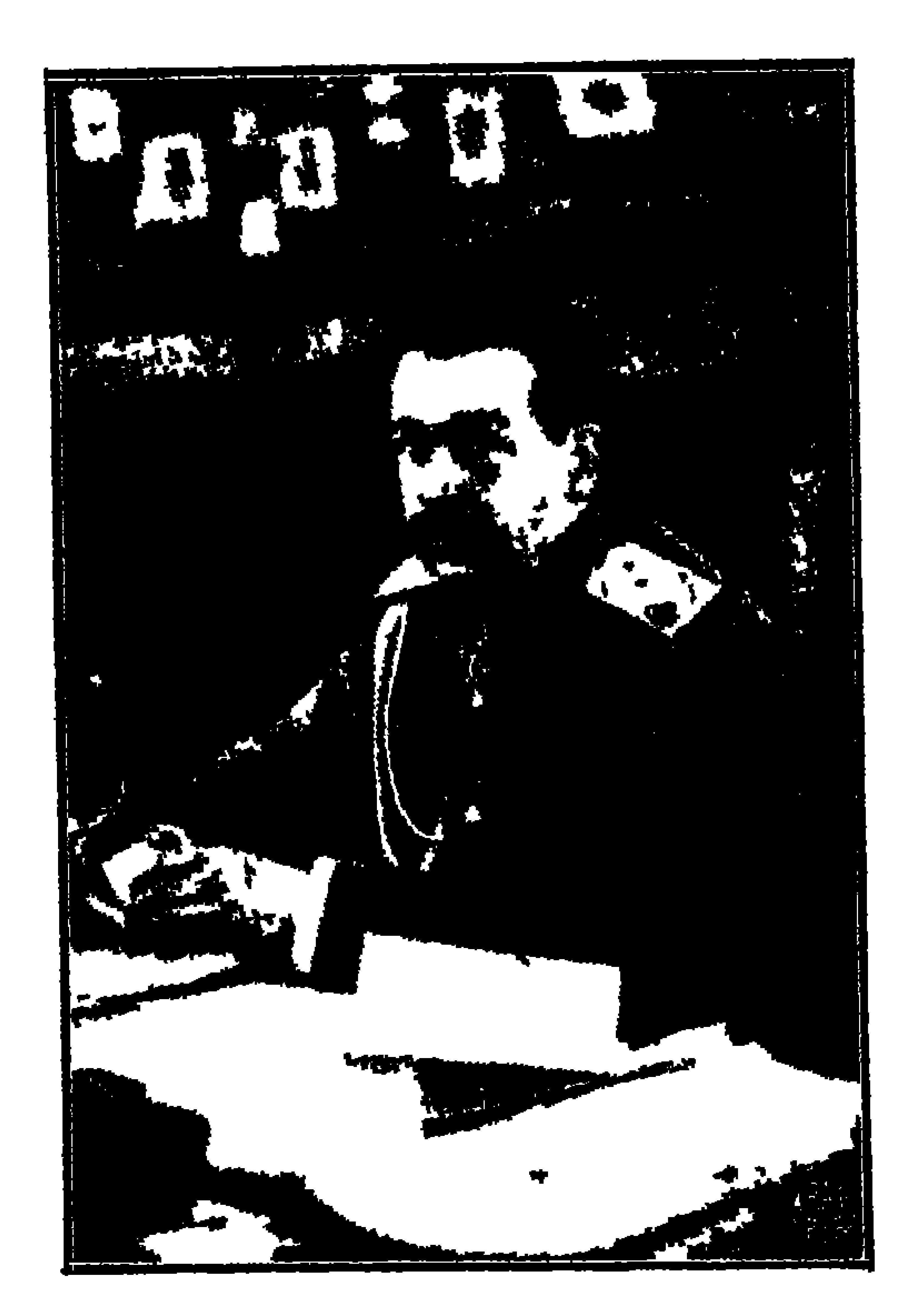
القيصر نقولا

بخطر الغزو ، خصوصا وأن ألمانيا لم تصدر بعد أمر التعبئة ولم تعبئ النمسا إلا جزءا من جيوشها ، وضد الصرب فقط ؟

السر يجده الانسان فى الكراسة التى أصدرها الأستاذ «أومان» الانجليزى وهى وإن كانت كراسة مكتوبة بلهجة التحيز ضد ألمانيا إلا أنها تثبت دهشة مؤلفها لحلم الامبراطور وصبره الزائد عن الحد بينما الجيوش الروسية تعبأ تحت نظره

وقد أورد الأستاذ حكاية محاكمة الجنرال سوخوملينوف وزير الحربية وشريكه يونوشكيفتش بواسطة البلاشفة . فاذا بالأول يعترف أمام المحكمة بأن القيصر بعد أن وصلته هذه البرقيات من الامبراطور تناول آلة التليفون وطلب إلى وزير الحربية وقف التعبئة . وكان القيصر إلى هذا الحين يعتقد أن

التعبئة كانت جزئية فحسب . ولكنها كانت عامة فعلا وهو عمل لابد من موافقة القيصر عليه مباشرة قبل البدء فيه . وقد اعترف سوخوملينوف بأنه أخفى عن القيصر أنه أصدر أمره بالتعبئة العامة ، لا بل أنه أخفى الحقيقة عنه فى المحادثة التليفونية . ثم اعترف بعد ذلك بأنه وعد القيصر بوقف التمادى فى التعبئة ، وأن لايصدر أمراً بالتعبئة العامة . فهو يعترف صراحة بأنه كذب على القيصر !!



الجرال يونوشكيفتش رئيس أركان حرب الجيش الروسى

فهو لم يكتف بأن يعد القيصر على التليفون وعداً كاذبا ، بل أنه سمح باستمرار التعبئة العامة !!

اما زميله الأشر يونوشكيفتش فلم يستطع أن يحير جوابا فى قفص الاتهام بل جعل يتخبط فى أقواله وشهادته كرجل بعقله دخل .

فأنت ترى أن القيصر كان يتوهم أنه أمر بوقف التعبئة الجزئية فى حين أن التعبئة العامة كانت سائرة على قدم وساق . وهو ما كان يعرفه الألمان ، ولذا رأينا الأمبراطور يرسل آخر برقية قبل أن يتبعها بالأنذار الذى طلب فيه إلى روسيا الكف عن التعبئة فى خلال ١٢ ساعة . وهاك نص البرقية :

« إجابة لرغبتك عند ما ناشدتنى باسم الصداقة، وعند ما ألححت علىّ ببذل المساعدة ، قمت بدور الوسيط بين حكومتك وحكومة فينا ، وبينما كنت قائماً بأعباء هذا الدور إذا بجيوشك تعبأ ضد النمسا حليفتي وهو ما جعل وساطتى كما سبق أن بينت لك — عملا هزواً لاقيمة له . وعلى أننى واصلت القيام بهذا الدور برغم هذه التعبئة ، ولكنى قد علمت الآن من أوثق المصادر ، أن استعدادات عسكرية خطيرة قائمة على ساق وقدم على حدودى الشرقية . ولا ريب فى أن مسؤوليتى عن صيانة بلادى تحتم علىّ الالتجاء إلى الاجراءات الدفاعية . ولعلك رأيت كيف أننى ذهبت إلى أبعد من كل ما هو مستطاع فى سبيل الاحتفاظ بسلام العالم . فلست أنا الذى يقع علىّ وزر الكارثة التى تنذر العالم المتمدين على بكرة ابيه الآن . فأنت الذى بيدك أن تحول دون وقوع هذه الكارثة ، فليس هناك من يهدد سلامة روسيا أو شرفها ، وقد كان بوسعها حقا أن تتريث ريثما تتكلل وساطتى بالنجاح . لقد طالما قدست وعملت بالوصية الغالية التى أوصانى بها المرحوم جدى وهو على سرير الموت ، وهى الاحتفاظ بصداقتك وصداقة بلادك ، ولعلك تتذكر أننى ظللت إلى اليوم إلى جانب روسيا وفى أوقات محنتها ، وخاصة فى خلال الحرب الروسية اليابانية الأخيرة . فبواسطتك لايزال فى الأمكان صيانة سلام أوربا ، وهذا إنما يكون متى قررت روسيا عدم مواصلة هذه الاستعدادات العسكرية التي تهدد سلامة ألمانيا والنمسا على حد سواء » [1]

غليوم

ولكن الكلمة العليا صارت الآن للحزب العسكرى فى بتروغراد . فقد ظل ذلك الحزب يغرر بالقيصر ويواصل التعبئة إلى الحد الذى يحرج صدر ألمانيا فيدفعها إلى فعل شيء يتخذه الحزب المذكور مسوغا لتأهبات روسيا . وقد ظلت التعبئة الروسية سائرة بنشاط وسرعة أكثر مما كان يتفق مع سلامة ألمانيا . وأن الانسان ليعجب حقا كيف صبر غليوم الثانى على تلك التعبئة فلم يطالب روسيا بالكف عنها ! فأنه كان يعرف ـ كما كان يعرف كل انسان ـ أن الجيش الروسى الواقف على قدم الاستعداد وقتذاك ، يبلغ عدده مليونى مقاتل ، وأن كل يوم تتباطأ فيه ألمانيا فى إعلان الحرب هو فى مصلحة روسيا على التحقيق ، إذ تتمكن فيه من نقل جيوشها إلى الحدود الألمانية . وأدهى مما سبق أن السفير الألمانى فى بتروغراد كان كلما احتج للمسيو سازونوف ولفت نظره إلى ماالديه من البراهين المفحمة على تجمع الجيوش الخطر بالقرب من الحدود ، هدأه هذا ودحض تلك البراهين بعبارات ظهر فيما بعد أنها مجرد اكاذيب !!

ولقد أورد الهرفون أجلنج الألمانى فى كتاب له ، بعض تفاصيل تثبت بالبرهان القاطع نجاح الحكومة الروسية نجاحا تاما فى خديعة السفير الألمانى فى بتروغراد فيما كانت تقوم به من تعبئة جيوشها تحت ستار كثيف من التضليل والإيهام . وبينما يقول الكاتب الألمانى فون كوهل أن هيئة أركان حرب الجيش الألمانى كانت تحسب دائما أن جنود الصف الأول فى الجيش الروسى لايمكن أن يتم نزولها إلى الميدان قبل اليوم الخامس من إعلان التعبئة ـ إذا به يقول أن الحكومة الروسية كانت فى سنة ١٩١٤ تنفذ الخطة التى رسمتها لنفسها فى سنة ١٩١٢ ـ وقد سقطت صورة من هذه الخطة فى أيدى الألمان فى أثناء الحرب وهى ترمى إلى خديعة الحكومة الألمانية ومطاولتها ، إلى أن تجتاز الجيوش الروسية الحدود الألمانية بدون إعلان الحرب وهو ماحدث فعلا !! فإن الجيوش المذكورة كانت قداجتازت تلك الحدود فى أربع نقط فى اليوم الذى أعلنت فيه ألمانيا الحرب على روسيا وهو يوم أول أغسطس سنة ١٩١٤ . وقد ذكر المستر موريل فى

الفصل الثالث من كتابه « حقيقة الحرب العالمية » « أنه لم يمض على إعلان الحرب خمسة ايام حتى سمعنا باختراق جيشين روسيين عظيمين لحدود بروسيا الشرقية !!... وقد هزم هذان الجيشان الجيش الألمانى فى جهة جومبنن ، وضربا الحصار على حصن « كونجسبرج » ، واستوليا على مدينة «تيلسيت» ، وما جاء آخر أغسطس حتى كانت بتروغراد تموج بنشوة الفرح العام،حتى أنه تقرر منح أول جندى روسى يدخل برلين مبلغ ٢٠٫٠٠٠ جنيه مكافأة له على بسالته (كذا) !

واتماما للبحث نورد هنا تواريخ التعبئة كما وردت فى كتاب « التاريخ السياسى للحرب » لصاحبه المستر فيلبس بريس وهى كما يا تى :

فى يوم ٢٥ يولية عبأت النمسا جيشها ضد الصرب (أى تعبئة جزئية) .

فى يوم ٢٨ يولية عبأت روسيا جيشها ضد النمسا (اى تعبئة جزئية) .

فى يوم ٣٠ يولية (ليلا) أصدرت روسيا أمرا بالتعبئة العامة (أى ضد ألمانيا والنمسا).

فى يوم ٣١ يولية اعلنت ألمانيا وجود حالة احكام عرفية فى بلادها .

فى يوم ٣١ يولية (فى منتصف الليل) طالبت المانيا روسيا بتسريح جيشها فى خلال ١٢ ساعة وإلا اضطرت إلى التعبئة .

فى يوم ٣١ يولية (على اقرب تقدير، أما الكتاب الأبيض الانجليزى فقد عين يوم اول أغسطس) اصدرت النمسا امرا بالتعبئة العامة (اى ضد روسيا).

فى يوم اول أغسطس (بعد الظهر) اصدرت المانيا أمرا بالتعبئة العامة».

فإن دل هذا على شىء فانه يدل على أن المانيا لحسن نية القائمين بالأمر فيها لم تبادر بإعلان التعبئة ثم الحرب ، إلا بعد أن تباطأت أكثر مما ينبغى، وأضاعت وقتا ثمينا ندمت عليه فيما بعد حيث لم ينفعها الندم .

وقد تسأل عن سر ذلك التباطؤ ، وقد رأيت بعض أسبابه فى نجاح روسيا فى خديعة المانيا وستر حركات جنودها . ولكن هناك سر أهم . ألا وهو أن حكومة برلين كانت حتى تلك اللحظة تعلل نفسها بإمكان اجتناب الحرب وحل الإشكال بالطرق السلمية .

غليوم الثانى يشرح الحالة بقلمه

صفحة من مذكراته

ولسنا نقول ذلك القول مستندين إلى غير دليل . فأمامنا مذكرات غليوم الثانى وقد أورد فى الفصل العاشر فيها حكاية إعلان الحرب وما أحاط بها من الظروف . ونحسب أن القارىء يهمه الاطلاع على أقوال العاهل الألمانى فى هذا الموضوع ولذا رأينا أن نلخص له الفصل المذكور فيما يلى :

قال الأمبراطور السابق: عند ما وصلتنى الأنباء باغتيال صديقى الأرشيدوق فرانس فرديناند عدلت عن الذهاب إلى كييال لمشاهدة حفلة سباق الزوارق، وعدت إلى برلين معتزما الذهاب إلى فينا للاشتراك فى تشييع الجنازة . ولكن الوزارة الألمانية طلبت إلىّ العدول عن هذه الخطة بحجة المحافظة على سلامتى كما قيل لى فيما بعد ، وهى مسألة ما كانت لتشغل بالى مطلقا .

« ولما كنت قد أصبحت مشغول البال بسبب سير الحوادث واحتمال تطورها من سيء إلى أسوأ ، فقد عزمت على العدول عن رحلتى إلى المياه النرويجية والبقاء فى ألمانيا . ولكن المستشار الألمانى ووزارة الخارجية رأيا عكس ذلك ، وطلبا إلىّ السفر خيفة أن يؤول العدول عنه تأويلا سيئا . فلما أظهرت امتناعى لتركى بلادى فى وقت بدا يتعكر فيه الجو السياسى ، أخبرنى المستشار بلهجة حازمة أن العدول الفجائى عن السفر بعد أن أذيع نبأ هذه الرحلة فى كافة أنحاء الأرض ، ربما جعل الموقف يظهر أنه أكثر تعقيدا مما هو فى الواقع ، وربما أدى إلى نشوب حرب يلقى الناس تبعتها علىّ . وإن العالم ليتنفس الصعداء إذا سمع أننى بالرغم من تعقد الحالة قد قمت فعلا برحلتى النرويجية .

« وهنا باحثت رئيس أركان الحرب فى الموقف فرأيته هادىء البال غير

قلق ، بل أنه طلب لنفسه إجازة الصيف لقضائها فى حمامات كارلسباد . وإذ ذاك قررت القيام بالرحلة بالرغم من تبلبل أفكارى .

« أما مؤتمر ٥ يولية الذى طالما طنطنوا به فلم يكن له أصل بالمرة . وحكاية ذلك المؤتمر هى محض افتراء . وكل ما حدث هو أننى قابلت بعض الوزراء على انفراد كما جرت عادتى قبل قيامى بأية رحلة ، وباحثتهم فى شؤون وزاراتهم . فلم يكن هناك مجلس وزراء ، ولم يكن هناك حديث ما عن الحرب أو عن الاستعداد لها فى محادثاتى مع الوزراء .

« وكان الأسطول الألمانى يجوس خلال المياه النرويجية كعادته . ولم تكن تصلنى أنباء تفصيلية من وزارة الخارجية الألمانية فى أثناء الرحله ، حتى اضطررت أن أعتمد فى معرفة الأخبار على ماتنقله الصحف النرويجية ، ومنها أدركت أن الموقف انقلب من سئ إلى أسوأ . وكثيرا ما أبرقت إلى المستشار بأننى أرى ضرورة عودتى إلى برلين ، ولكنه كان فى كل مرة يرد علىّ بألا أغير شيئا من برنامج رحلتى .

« ولما سمعت بأن الأسطول الانجليزى مازال محتشداً بعد استعراض سبتهد أبرقت مرة أخرى إلى برلين بأننى أرى ضرورة العودة فى الحال . ولكنهم لم يشاطرونى رأيى هذا .

« ولما علمت من الصحف النرويجية — لا من برلين — بأن النمسا قد أرسلت بلاغا نهائيا إلى الصرب ، وأن الصرب قد أجابت على هذا البلاغ ، قررت أن أعود أدراجى إلى برلين بدون استشارة أحد ، وأمرت الأسطول بالعودة إلى ثغر وهلمسهافن . وعند الشروع فى العودة سمعت من مصدر نرويجى بأن هناك أشاعة فحواها أن جزءاً من الأسطول الانجليزى قد سافر خفية إلى النرويج لاعتراضى فى الطريق وإلقاء القبض علىّ (بالرغم من أننا كنا لانزال فى وقت السلم !) . ومما يلفت النظر أن وزارة الخارجية الألمانية أخطرت السير أدوارد جوشن السفير البريطانى فى يوم ٢٦ يولية ، ان قرار

حودتى من تلقاء نفسى أمر يدعو إلى أشد الأسف ، إذ ربما يؤدى إلى رواج إشاعات مقلقة .

« وقد وجدت عند وصولى إلى بوتسدام المستشار ووزارة الخارجية فى خلاف مع الجنرال مولتكه رئيس هيئة أركان الحرب . فقد كان هذا يرى ان الحرب قد باتت ولا مفر منها ، فى حين أن الا خرين كانوا يعتقدون أن الحالة لن تصل إلى هذا الحد من السوء ، وأنه يمكن اجتناب الاحتكام الى الحسام بشرط ألا أصدر أمرى بالتعبئة . واستمر هذا الخلاف فى الرأى قائما بين الفريقين إلى أن أعلن الجنرال مولتكه أن الروس أحرقوا مخافرهم على الحدود ، واقتلعوا خطوط السكك الحديدية هناك ، ونصبوا اعلانات حمراء بالتعبئة العامة . هنا ــ وهنا فقط ــ تلاشت معارضة رجال السياسة فى برلين ، وأدركوا أن السهم قد نفذ . فاستسلموا مرغمين ، وقد كانوا إلى هذه اللحظة يأبون الاعتقاد بأمكان اشتعال نار الحرب (كذا) !!

« هذا كله يدل على أننا لم نتوقع الحرب فى يولية سنة ١٩١٤ ، وأننا لم نكن نستعد لها . ومما تحسن الاشارة اليه هنا أن نيقولا الثانى قيصر الروسيا سئل فى ربيع سنة ١٩١٤ بواسطة رئيس بلاطه عن برنامج زياراته فى خلال فصلى الربيع والصيف من ذلك العام فكان جواب القيصر

«je resterai chez moi cette année parce que nous aurons la guerre».

[أى أننى سأبقى فى بلادى هذا العام لأننا سنشتبك فى الحرب] . ويقال أن هذه العبارة نقلت إلى المستشار بتمان ، ولكنى لم أسمع بها وقتذاك ولم أعلم بها لأول مرة إلا فى نوفمبر سنة ١٩١٨ .

« ذلك هو قيصر روسيا الذى أقسم لى بشرفه كملك ــ وبدون إلحاح منى ، وبشكل أدهشنى ــ فى دفعتين مختلفتين الأولى فى « بجوركو » والثانية فى « ثغر البلطيق » ، معززا قسمه هذا فى كلتا الدفعتين بالضغط على يدى ومعانقتى ــ اقسم لى أنه لن يمتشق الحسام ضد إمبراطور ألمانيا ، وأبعد من ذلك احتمالا أن يمتشقه كحليف لانجلترا فى حرب أوربية عامة ، (كذا !) وذلك اعترافا بالجميل لمسلك

هذا الأمبراطور فى الحرب الروسية اليابانية التى اشتبكت فيها روسيا بفضل مساعى انجلترا وحدها!! ثم أضاف إلى ما تقدم أنه يبغض انجلترا من صميم فؤاده بسبب ما ارتكبته من الآثام ضده وضد روسيا بتحريض اليابان عليها .

« وفى الوقت الذى كان قيصر روسيا يعلن برنامجه الحربى لفصل الصيف ، كنت أنا منهمكا فى أعمال الحفريات فى جزيرة كورفو . ومنها ذهبت إلى ويزبادن ثم إلى النرويج . فالملك الذى يرغب فى الحرب ويعد لها المعدات لينقض فجأة على جيرانه — وهذا كما لا يخفى من الأمور التى تتطلب استعدادات طويلة سرية للتعبئة العامة وحشد الجنود — مثل هذا الملك لا يعقل أن يقضى عدة أشهر في خارج بلاده ، كما لا يعقل أن يسمح لرئيس أركان حربه بأجازة طويلة يقضيها في كارلسباد!! أما أعدائى فأنهم كانوا فى نفس هذا الوقت يعدون معدات الهجوم على ألمانيا .

« وقد باءت سياستنا بالفشل ، ولم يدرك خطر الحرب بسبب تشبث وزارة خارجيتنا بفكرة السلام أيا كان الثمن ، واستبعادها من حسابها أى احتمال باتجاه ساسة الحلفاء إلى تحكيم الحسام !! ولهذا رأيناها لا تهتم بتاتا بكل المقدمات التى كانت تشير صراحة إلى الحرب .

« وهذا لعمرك دليل على نوايا ألمانيا السلمية . فان موقف وزارة الخارجية هذا أوقعها فى خلاف مع هيأتى أركان الحرب فى الجيش والأسطول وهما اللتان ما فتئتا — قياما بالواجب — تحذران رجال السياسة من سوء العاقبة المرة بعد المرة ، وتلحفان فى ضرورة إطلاق أيديهما لاعداد معدات الدفاع . وقد ظل أثر هذا التشاحن ملحوظا مدة طويلة من الزمن . فلم ينس الجيش من ناحيته أنه أخذ على غرة ، كما أن الساسة غاظهم جد الغيظ أن الحرب قد اندلعت ألسنتها برغم ما بذلوه من المحاولات لمنع نشوبها » .

موقف فرنسا بعد اعلان ألمانيا الحرب على روسيا

لقد رأيت أن الذى عجل بنشوب الحرب هو أمر التعبئة الروسية - فلولاها لسويت المشكلة بين النمسا والصرب ومرت العاصفة، كما حدث في مناسبات كثيرة سابقة . وهذا هو أيضا رأى البارون روزن · فقد ألقى في كتابه المسمى « أربعين سنة فى الحياة السياسية » الصادر فى سنة ١٩٢٠ ص ٨٥ ـ التبعة على سازونوف وسوخوملينوف ويونوشكيفتش · وقد أتى البارون على بضع تفصيلات هامة، فقد دعى مرة إلى تناول العشاء على مائدة وزير الحربية الجنرال سوخوملينوف، وفى أثناء تناول الطعام وصلت إلى الجنرال برقية بأن النمسا أعلنت الحرب على الصرب · فصاح الجنرال « إننا سنزحف حتما هذه المرة » ! ويقول البارون روزن أن الجمهور فى روسيا لم يكن مكترثا لما كان يحدث أمامه، ولكن الطبقة الراقية ـ ويعززها الحزب العسكرى ـ كانت تعمل على نشوب الحرب ·

وقد يتبادر إلى ذهنك أن إعلان ألمانيا الحرب على روسيا كان معناه حتما اشتعال نار القتال · ولكن لا، فقد حدثت أمور هامة كان يمكن ساسة الحلفاء ـ لو كانوا أرادوا السلم حقا ـ أن يتذرعوا بها لاجتناب وقوع المجزرة البشرية .

أولا : لقد صرح الأمبراطور غليوم أن النزاع إنما يختص بالنمسا والصرب فحسب، فلا ينبغى أن يتدخل فيه طرف ثالث وإلا كان وقوع الحرب العالمية أمراً لا مناص منه ·

ثانيا : فى اليوم الذى أعلنت فيه ألمانيا الحرب على روسيا، أعلنت النمسا قبولها مبدأ الوساطة بينها وبين الصرب كدولتين ذات سيادة · وقد علمت بتروغراد بقبول النمسا ذلك كما علمه السير إدوار غراى فى أول أغسطس باعترافه فى الكتاب الأبيض البريطانى رقم ١٣٣ .

ثالثا : إن الامبراطور غليوم ـ باعتراف سازونوف فى « مجلة فرنسا » فى عدد ٩٥

نوفمبر سنة ١٩٢١ـ أبرق إلى قيصر روسيا برجوه بأن يبقى جنوده برغم إعلان الحرب بعيدا عن الحدود الألمانية . وقد اعترف سازونوف أن الامبراطور كان فى حالة قلق تقرب من الجنون .

فلو أراد قيصر روسيا الحاكم بأمره فى بلاده منع الحرب وقتئذ لكان فى استطاعته ذلك بكلمة واحدة يفوه بها ، ولكنه لم يفعل . فهل عرفت لماذا ؟ لأن فرنسا كانت تدفعه إلى مواصلة خطة العدوان



القيصر يستقبل المسيو بوانكاريه فى بتروغراد

وفى الواقع أن زيارة المسيو بوانكاريه والمسيو فيفانى لروسيا فى خلال الأيام العصيبة التي سبقت إعلان الحرب أى من ٢٠ يولية إلى ٢٣ يولية كانت على ما يلوح لحمل روسيا على ارتكاب متن الشطط حتى ولو أدى الأمر إلى اشتعال نار الحرب . ولا نذهب بعيداً لتأييد قولنا ذلك . فإن المسيو

باليولوج سفير فرنسا فى روسيا قد ذكر فى كتابه المسمى « روسية القياصرة فى خلال الحرب العظمى » الذى نشر فى يناير سنة ١٩٢٢ ص ٢٣٠ ماملخصه :

عند ما وصل المسيو بوانكاريه على ظهر الطرادة « فرنسا » يمم شطر اليخت « اسكندرية » لمقابلة القيصر ، وهناك بدأت أول محادثة بينهما . وكانت المحادثة – أو المؤتمر – جدية كما كان يستشف من حركاتهما . وكان كل منهما يسأل الآخر . وقد بدأ بوانكاريه الحديث ، وما عتم أن استقل به ، بينما كان القيصر يصغى له باهتمام ويلوح عليه الاقتناع والقبول . وفى المساء أقيمت مأدبة كبرى للمسيو بوانكاريه حضرها القيصر واستؤنفت المحادثة مرة أخرى . . . الخ . . . لخ

هذا كان فى يوم ٢٠ يولية فانظر ماذا حدث فى يوم ٢١ يولية .

ذهب القيصر لزيارة المسيو بوانكاريه فى سراى بيترهوف ولبث معه نحو ساعة . وفى منتصف الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم خرج المسيو بوانكاريه للنزهة حول مدينة بتروغراد . وفى الساعة الثالثة استقبل وفدا من الجالية الفرنسية . وفى الساعة الرابعة استقبل رجال السلك السياسى وسفراء الدول فى قصر الشتاء . ولم يشأ المسيو بوانكاريه أن يكلم سفير ألمانيا في السياسة مطلقا ، ولكن كلم السفير اليابانى واتفق معه على وجوب انضمام اليابان إلى دول الوفاق الثلاثى . وقد رد عليه السفير بالقبول . ثم تكلم مع السير جون بوكنان سفير انجلترا فى رغبة القيصر فى التفاهم مع انجلترا على المسألة الفارسية ، ولفت نظره إلى وجوب إدراك انجلترا فى نهاية الأمر لأهمية تحويل الوفاق الودى الثلاثى إلى تحالف ثلاثى .

ثم ذكر باليولوج المحادثة المهمة التى دارت بين المسيو بوانكاريه والكونت سزابارى سفير النمسا . قال :

بعد أن قدم المسيو بوانكاريه عزاءه للسفير على مصرع الأرشيدوق ، سأله عما إذا كانت وصلته أنباء من الصرب ، فأجابه السفير بأن التحقيق

مستمر ، فقال المسيو بوانكاريه « إننى لا أخشى نتيجة هذا التحقيق،فإنك تذكر يا جناب السفير أن تحقيقين سابقين فى حادث فريدينج وبروهاسكا لم يحسنا علاقاتكما بالصرب » . فقال السفير« إننا لانستطيع ان نسمح لحكومة أجنبية أن تعد الوسائل لاغتيال ملوكنا فوق أرضها » .

فقال المسيو بوانـكاريه « مع شىء من حسن النية يمكن تسوية هذا النزاع الصربى . ولكنه يمكن بسهولة فى الوقت نفسه أن يصبح نزاعا خطيرا . فلا يخفاك أن للصرب أصدقاء حميمين من الروس وأن لروسيا حليفة هى فرنسا . فانظر إلى عظم الارتباكات التى يمكن أن يؤدى اليها هذا النزاع الصربى » !

وفى يوم ٢٢ يولية أقام الغراندوق نيقولا نيكوليفتش مأدبة عظمى للمسيو بوانـكاريه،وقد حضرتها الغراندوقتان انسطاسيا ومليتزا كريمتا ملك الجبل الأسود فقالت أولاهما بجزل عظيم للمسيو باليولوج :

« ليتك تعلم أننا نجتاز أياما تاريخية ـ أياما كلها خير وبركة ! ففى استعراض الغد لن تعزف الموسيقى العسكرية إلا مارش « اللورين والسامبر والموز » . وقد وصلتنى اليوم برقية من أبى بإشارات جفرية متفق عليها فيما بيننا،وهى أن الحرب ستشتعل نارها قبل مرور شهر . لنعم البطل أبى ! وإنه لجدير بالالياذة! ولكن قف قليلا لترى ما تحتويه تلك العلبة الصغيرة التى لا تفارقنى مطلقا . ففيها قطعة من أرض اللورين أحضرتها عبر الحدود عند ما كنت فى فرنسا مع قرينى منذ عامين ! ثم انظر إلى جدول الشرف هذا وقد جلله الحسك وما كنت لأرضى بغيره بديلا . فهو حسك اللورين ! وقد التقطت بعض سوقه وأحضرتها معى وزرعت بذورها فى حديقتى . . والآن يا مليتزا لا يفوتك أن تخبرى السفير مبلغ أهمية هذا اليوم فى نظرنا ريثما أذهب لاستقبال القيصر » .

قال باليولوج « وكنت فى خلال تناول الطعام جالسا إلى جانب الغراندوقة انسطاسيا فاستأنفت حديثها وتنبؤاتها، قالت :

« ستعلن الحرب حتما . . . ولن يتبقى شيء من النمسا . . ولتعودن لكم الالزاس واللورين .. وستتقابل جيوشنا في برلين .. وستمزق المانيا شر ممزق»!. ثم سكتت فجأة قائلة «ولا تخذن الحيطة الآن في اقوالى فإن القيصر يرمقنى بعينه ».

فانظر بربك إلى هذا الجو المكهرب في العاصمة الروسية . ولم تخطيء الغراندوقة فيما قالته عن الموسيقى فانها عزفت المارش المذكور في اليوم التالى. ولكن الأغرب هو برقية الملك نيقولا التى تنبأ فيها يوم ٢٢ يولية بنشوب الحرب ، مع أن النمسا لم تكن قد أرسلت انذارها النهائى بعد إلى الصرب بل حتى ولا سمع به ! ! ولم يفت المسيو بوانكاريه أن يستغل هذا الهياج فختم خطبته التي القاها في يوم ٢٣ يولية عند ماتبودلت الأنخاب بقوله « إن الدولتين يحدوهما غاية واحدة هي السلام في ظل القوة والشرف والمجد » ! وقد قوبلت هذه الجملة بتصفيق حاد وجعل الحاضرون ينظرون جذابين في ناحية السفير الفرنسى .

ولهذه الحفلة أهميتها فقد دلتنا كيف كان الحزب العسكرى في روسيا ينظر إلى المسيو بوانكاريه الذى لم يذهب إلى روسيا في تلك الأيام العصيبة إلا ليقضى على تردد القيصر ويشجعه على المضى في سياسة العدوان .

ولقد رأيت آثار هذه الزيارة منذ رحيل المسيو بوانكاريه في اليوم التالى. فإن الأمبراطور غليوم ما كاد يتدخل في النزاع النمساوى الصربى ويقوم بما طلبه منه قيصر روسيا من الوساطة حتى أخذت مساعيه تذهب أدراج الرياح ، لأن القيصر كان قد وقع تحت تأثير المسيو بوانكاريه ورجال الحزب العسكرى الروسى .

وهنا يسأل الأنسان ماذا عسى كان يحدث لو لم يذهب المسيو بوانكاريه إلى روسيا في تلك الأيام العصيبة ؟ نعم إن الزيارة المذكورة كانت مقررة منذ يناير سنة ١٩١٤ ، ولكن ألم تكن الحالة الدولية الحرجة تتطلب من المسيو بوانكاريه إلغاءها أو تأجيلها على الأقل ؟ وهل لو كان أفهم روسيا في خلال

تلك الزيارة أنها ينبغي أن تستعمل الاعتدال، وأن تنصح لصربيا بعدم ارتكاب متن الشطط ، أ كان يمكن أن تركب روسيا رأسها وخاصة وقيصرها كان فى شدة التردد على نحو ما رأيت ؟ ثم بماذا نفسر تعبئة الجيوش الروسية على الحدود الألمانية بعد رحيل المسيو بوانكاريه واتفاق سازونوف وسوخوملينوف ويونوشكيفتش على إخفاء أمر التعبئة عن القيصر إن لم يكن هذا كله بالاتفاق مع المسيو بوانكاريه ؟ الحق أن تشجيع فرنسا لروسيا وتظاهرها لها بأنها مستعدة لامتشاق الحسام من أجلها فيما لو وقعت الواقعة — هو الذى حمل روسيا على إصدار أمر التعبئة الذى اتفقت آراء الكتاب على أنه كان السبب المباشر لأعلان الحرب .

قد يقال أن فرنسا بصفتها حليفة روسيا كانت مضطرة إلى تأييد حليفتها ؟ ونحن نسلم بذلك ولكن متى ؟ إذا كانت ألمانيا مثلا اعتدت على روسيا أو تحرشت بها . ولكنك قد رأيت قيصر روسيا يرجو الأمبراطور بالتوسط فى النزاع ، ثم ما لبث أن اصدر أمر التعبئة العامة ، فرجاه الأمبراطور بإبقاء جنوده برغم إعلان الحرب بعيداً عن الحدود الألمانية .

ففرنسا أو بالأحرى الحزب العسكرى الفرنسى الذى كان يرأسه المسيو بوانكاريه ومليران وديلكاسيه — هو المسؤول عن موقف روسيا هذا وعليه تقع بلا جدل تبعه إعلان الحرب بين ألمانيا وروسيا .

موقف انجلترا

ولننظر الآن هل كان يمكن لفرنسا أن تشجع روسيا على الاسترسال فى عدوانها لولم تكن مستندة إلى تأييد انجلترا ؟ كلا وألف كلا !!

وقبل أن نتوسع فى بحث هذه المسألة ينبغى أن نسجل هنا وبكل صراحة أن روسيا لم تتدخل فى النزاع النمساوى الصربى — وخاصة بعد تحذير الأمبراطور غليوم المشهور بأن تدخل أى طرف ثالث يؤدى حتما إلى حرب عالمية — لم تتدخل روسيا حبا فى سواد عيون الصرب ولا لصيانة الصرب من انتقام النمسا

كلا ، بل لأنها جربت كافة الطرق السلمية لتحقيق حلمها التاريخى بالاستيلاء على الأستانة والبواغيز فلم تفلح ، بل رأت من حلفائها وخاصة انجلترا شيئاً من الفتور ، فأرادت ان تجرب الوصول إلى تحقيقها عن طريق الحرب . إذن فلتغمس اوربا فى بحر من الدم !!

ولقد كان أسفولسكى سفير روسيا فى باريس هو رسول تلك الخطة الجديدة والساهر على تنفيذها ، ومن يطالع مذكراته يرى أنه جعل غايته الوحيدة التى داب وراء تحقيقها ليل نهار — هى إشعال نار البغضاء بين ألمانيا وفرنسا ، واثارة الأحقاد الوطنية بين شعبيهما . ولقد طالما حدثنا فى مذكراته بصراحة مرة ، كيف أنه كان يطالب حكومته بأموال طائلة لاستخدامها فى إرشاء الصحف الفرنسية الكبرى ليقفها على خدمته ويلهب بها الشعور الفرنسى ضد الألمان على نحو ما بيناه لك .

وقد وجد ضالته فى وزارة المسيو بوانكاريه التى رأى منها استعداداً لاعتبار مصالح فرنسا ومصالح روسيا متطابقة فى جملتها وتفاصيلها .

ولقد كانت سياسة فرنسا ترمى إلى استعادة الألزاس واللورين ، وهذا لايكون إلا بالقضاء على المانيا . ثم أن روسيا لايمكن أن تستولى على الأستانة والبواغيز إلا إذا هزمت تركيا صديقة النمسا وألمانيا . وبما أن الحروب البلقانية لم تؤد إلى النتيجة التى كانت تتمناها روسيا ، إذن فلا بد من تجربة جديدة ، وذلك بمهاجمة النمسا أو بالأحرى بالاشتباك فى الحرب مع ألمانيا . ومن هذا ترى أن مصالح فرنسا وروسيا ، اشتركت فى الرغبة فى التخلص من ألمانيا وضربها الضربة الساحقة .

ولا يعقل أن انجلترا كانت تجهل هذا الاتجاه الجديد فى سياسة التحالف الروسى الفرنسى . بل بالعكس رأيناها توافق على الغاية التى ترمى إليها تلك السياسة وعلى الوسائل المؤدية إليها . فمعاهدة سنة ١٩٠٧ بين انجلترا وروسيا لتمزيق فارس ، وموقف انجلترا فى خلال الحروب البلقانية ، كل ذلك لم يكن إلا

لاكتساب صداقة الروس وتسخيرهم متى حان « اليوم العظيم » لخدمة المصالح البريطانية بالقضاء أيضا على ألمانيا .

فإن انجلترا كما يعرف من درس تاريخها راعها أن يكون لألمانيا اسطول كبير يضارع أسطولها وينازعها سيادة البحار، كما ساءها أن يكون لتلك الدولة الفتية أسطول تجارى يهدد تجارتها فى كافة الأسواق وبزاحمها وهى المعروفة بأنها « مصنع العالم » . وإذ قد حبطت كافة الوسائل السلمية لحمل ألمانيا على العدول عن سياسة التنافس البحرى ، فلم يعد لبريطانيا إلا أن تلجأ بدورها إلى الحسام فتنضم إلى روسيا وفرنسا اللتين كانتا تتعطشان للثأر من تلك الجارة القوية .

وكما أنه لم يكن يعقل أن انجلترا كانت تجهل مرامى السياسة الفرنسية الروسية، كذلك لم يكن يعقل مطلقا أن روسيا وفرنسا كانتا تقدمان على سياسة العدوان التى سلكتاها على أثر اغتيال الأرشيدوق فرديناند ، لو لم يكن لاعتمادهما على مساعدة انجلترا دخل كبير فى الأمر .

ونسأل القارىء هل يظن أن الحرب كانت حقيقة تتسع دائرتها أو يتجاوز نطاقها النزاع الصربى النمساوى لو أن انجلترا أفهمت روسيا في حزم ، بأنها لاتعتبر النزاع المذكور مسوغا لإشعال حرب عالمية ؟ إذن لخففت روسيا من غلوائها ، وإذن لنصحت لحكومة بلغراد بأن لاتركب رأسها . وإذن لما وجد الباعث على غزو فرنسا أو انتهاك حرمة الحياد البلجيكى .

ولكن ... ولكن روسيا مع الأسف كانت قبل ذلك التاريخ بزمن بعيد معتمدة على تأييد انجلترا بواسطة تأييدها لفرنسا .

وهاك ما كتبه أسفولسكى فى يوم ٢٧ فبراير سنة ١٩١٣ أى قبل الحرب العالمية بنحو ١٨ شهراً . فى سياق تقرير له وصف فيه محادثة مع المسيو بوانكاريه رئيس الجمهورية الجديد الذى قدم له وسام القديس اندراوس بأمر القيصر ، قال المسيو أسفولسكى ما نصه :

« حدثني المسيو بوانكاريه بصفة سرية فقال مشيراً إلى علاقات

بريطانيا بفرنسا ، إن بريطانيا العظمى وإن كانت غير مرتبطة مع فرنسا بتعهدات سياسية معينة، إلا أن صفة ولهجة التأكيدات التى وصلت الحكومة الفرنسية من وزارة لندن تسوغ للحكومة الفرنسية أن تعتمد (كذا !) على تأييد بريطانيا المسلح لفرنسا فى الحالة السياسية الراهنة فيما لو نشبت الحرب بينها وبين ألمانيا!! وقد وضعت خطط التعاون بين فرنسا وانجلترا فى البحر بكافة تفصيلاتها . وبعد أيام قليلة سيزور المستر ونستن تشرشيل وزير البحرية الموجود الآن فى فرنسا تفرطولون ثم يباحث هيئة أركان الحرب البحرية الفرنسية فى أثناء مروره بباريس... » .

أفتظن أن روسيا وأمامها مثل ذلك التوكيد ، كانت تتمادى فى سياسة العدوان لو أن انجلترا طلبت إلى حليفتها فرنسا أن تسلك سبيل الحكمة والعقل وأن لا تحاول أن تغمر أوروبا فى بحر من الدم بسبب الصرب ؟

وقد يقول قائل ولكن انجلترا ـ كما صرح السير إدوارد غراى فى خطبته التاريخية فى مجلس العموم عشية اليوم الذى سبق إعلان انجلترا الحرب ـ لم تكن مرتبطة بعهود ما لفرنسا ، وهو أيضا ما سلم به المسيو بوانكاريه ، ولكن هذه السفسطة لا تجوز إلا على البسطاء . إذ بربك ما هو إذن معنى وضع خطط عسكرية وبحرية بين هيأتى أركان حرب البلادين فى حالة ما إذا هاجمت ألمانيا فرنسا ؟ هب أن لك صديقا يخشى بأس عدو لكما، وأنك أفهمت هذا الصديق بأنك تسارع إلى نجدته إذا تحرش به هذا العدو ، أليس معنى هذا أن لصديقك أن يعتمد فى كل حين على تأييدك له ؟ وأليس توكيدك له بمساعدته ضد ذلك العدو خليقا بأن يغريه بالتحرش بذلك العدو ، وخاصة إذا كانت مصلحتكما المشتركة تقتضى التخلص منه ؟ نعم قد تقول إنك لم تقطع على نفسك أى عهد، ولكن أليس يكفى أن يعتبر تعهدا وضعك مع صديقك الخطة المفصلة اللازمة للتخلص من العدو فى الوقت المناسب ؟ !

ومع ذلك فإن السير إدوارد غراى يعترف نفسه في الفصل السادس من مذكراته أن بعض زملائه الوزراء لما اشتموا من المحادثات العسكرية بين هيأتى أركان حرب البلدين رائحة تعهد تعطيه انجلترا لفرنسا، طلبوا بإلحاح بأن يكتب السير غراى فى نوفمبر سنة ١٩١٢ إلى السفير الفرنسى خطابا رسميا (كذا !) بأن المحادثات العسكرية لاتتضمن أى تعهد من ذلك القبيل، فكان هذا النفى أقطع من عهد جديد تأخذه بريطانيا على نفسها، بدليل أنه لما جد جد الحرب، وقف السير غراى فى مجلس العموم يقول أن شرف بريطانيا يقتضى الوقوف إلى جانب فرنسا، وأن انجلترا مرتبطة بروابط الشرف الخ. فمن أين نشأ ذلك الارتباط إذن ؟ إنه نشأ بلا جدال من المحادثات العسكرية التى كانت بمثابة عهد معطى من انجلترا إلى فرنسا.

فانجلترا إذن تتحمل تبعة تهور فرنسا فى متابعة روسيا. ولو أن السير جورج بوكنان سفير بريطانيا فى روسيا لمح لحكومة القيصر بأن انجلترا لا علاقة لها بالنزاع الحاضر، لما استطاعت روسيا أن تحرك أصبعا. ولكن السفير المذكور كان مع الأسف ملازما الصمت فى الوقت الذى كان فيه وزير خارجية روسيا يعلن أن انجلترا ستنضم إلى حليفتيها فرنسا وروسيا.

حياد البلجيك الوهمى ! !

لقد بينا لك أن سياسة انجلترا كانت متفقة تمام الاتفاق مع سياسة فرنسا وروسيا. فالأولى كان يهمها التخلص من الأسطول الألمانى والتجارة الألمانية، بينما كانت الثانية تطمع فى الاستيلاء على الألزاس واللورين، فى حين أن الثالثة قد أصبحت تؤمن بأن الوصول إلى البواغيز والأستانة لايكون إلا عن طريق فينا وبرلين. وما دامت هذه الدول الثلاث كن متفقات على سياسة معينة ضد ألمانيا، فمن سخف القول أن يزعم إنسان بأن خرق الحياد البلجيكى هو الذى عجل بدخول انجلترا الحرب. إذ لاجدال فى أن بريطانيا، حتى ولو لم تقتحم الجيوش الألمانية بلجيكا، ما كانت لتظل طويلا على الحياد. وهل يعقل أنها كانت تقف وقفة

المتفرج بينما ألمانيا تفتك بروسيا وفرنسا—حليفتيها—اللتين كانت بريطانيا تعتمد عليهما فى التخلص من الخطر الألمانى ؟ إن بريطانيا كانت تعلم أن ساعة اصطدامها بألمانيا آتية لاريب فيها ، وأنه لخير لها طبعا أن يقع ذلك الاصطدام بينما يشد أزرها حلفاء أقوياء فى الشرق والغرب أولى من أن تقف وحدها .

فالحياد البلجيكي — إذا سلمنا أن بلجيكا كانت على الحياد — لم يكن له دخل مطلقا فى نزول انجلترا إلى ساحة الوغى . ولسنا نبالغ إذا قلنا أن سياسة بريطانيا هي على التحقيق التي عرضت الحياد البلجيكي للخطر .وأليك الدليل:

فأولا — كان يمكن جعل النزاع قاصراً على الصرب والنمسا لو أن انجلترا نصحت لروسيا بانتهاج سبيل الحكمة والعقل .

ثانيا — أن نشوب الحرب بين روسيا وألمانيا كان يمكن أن لايتعدى إلى الغرب لو ان فرنسا لزمت الحياد .

ثالثا — أن الحرب ما كانت لتلفح نارها الأراضى البلجيكية لو ان انجلترا تعهدت لألمانيا بالتزام الحياد طالما احترمت ألمانيا حرمة الحياد البلجيكي .

ولكن انجلترا لم تشأ أن تتعهد بشيء ، ولا أن « تقيد حريتها فى العمل » — كما قال السير غراى فى رده على اقتراح ألمانيا باحترام الحياد البلجيكي بل وبعدم الاعتداء على شاطىء فرنسا الشمالى فيما لو لزمت بريطانيا الحياد . فلم يكن يسع القيادة العليا الألمانية أن تترك مؤخرة الجيوش معرضة لهجمات الانجليز عن طريق البلجيك ، متى سنحت لهم الفرصة المناسبة وقضت عليهم مصلحتهم بمهاجمة المؤخرة الألمانية والزحف على برلين رضيت البلجيك أم عارضت .

ولم تنس القيادة الألمانية أن انجلترا فى أثناء الحروب النابوليونية، هاجمت الدانيمارك صباح يوم من الأيام مع أنها كانت على الحياد !! وأن الأسطول البريطانى أطلق قنابله على العاصمة الدانيماركية واستولى على ذلك الأسطول المحايد ! ! فلما احتجت تلك الدولة المسكينة على هذا الاعتداء الصارخ ، أجابت انجلترا بأنها فعلت ذلك من قبيل الاحتياط خيفة أن تنضم الدانيمارك إلى الأعداء !!

ولماذا نذهب بعيداً ؟ ألم ينزل الحلفاء جنودهم إلى سلانيك فى أبان الحرب ويخلعوا ملك اليونان ، كل ذلك بحجة أنهم يخدمون مصالح الشعب اليونانى الحقيقية !! .

بعض أدلة على استعداد الحلفاء لمهاجمة ألمانيا

بينا لك فيما سبق أن الحلفاء كانوا متأهبين للحرب فى سنة ١٩١٤ لا بل أنهم كانوا يفكرون فى الانقضاض على ألمانيا لو لم تبادر هى باعلان الحرب . وقدسجل الامبراطور السابق فى مذكراته بعض ما وصل إلى علمه فى هذا الصدد فى إبان الحرب أو بعدها . ففى الوقت الذى لم يكن احد فى ألمانيا يفكر فى الحرب يقول غليوم :

أولا — شرعت المصارف الانجليزية حتى ابتداء من شهر أبريل سنة ١٩١٤ فى تخزين الذهب ، بينما كانت ألمانيا لغاية شهر يولية من السنة عينها لا تزال تصدر الذهب والحبوب إلى بلاد الحلفاء وغيرها من البلاد .

ثانيا — أبلغ الملحق البحرى الألمانى فى طوكيو الكابتن فون كنور فى شهر أبريل سنة ١٩١٤ أنه مندهش كل الاندهاش لأن الناس فى اليابان يتكلمون بلهجة التأكيد عن نشوب الحرب فى القريب العاجل بين دول الحلفاء من جهة وألمانيا من الجهة الأخرى . .

ثالثا — ذكر الجنرال شربتشيف مدير الأكاديمية الحربية فى بتروغراد فى نهاية شهر مارس سنة ١٩١٤ فى سياق خطاب القاه على ضباطه « أن الحرب مع دول التحالف الثلاثى لم يعد هناك مفر منها، نظراً لسياسة النمسا العدائية لروسيا فى البلقان . . وأغلب الظن أن تلك الحرب ستنشب فى صيف هذا العام، وأن واجب الشرف يقضى على روسيا بأن تبدأ فى الهجوم فى الحال » .

رابعا — ذكر السفير البلجيكى فى برلين فى تقرير أرسله إلى حكومته بمناسبة وصول بعثة عسكرية يابانية إلى بتروغراد فى ابريل سنة ١٩١٤ ان

الضباط اليابانيين سمعوا فى «ميس» الأورط كلاما صريحا عن قرب اشتعال نار الحرب بين الروسيا وألمانيا والنمسا، كما أنهم سمعوا أن الجيش على أتم استعداد للنزول إلى حومة الوغى، وأن الفرصة سانحة لروسيا ولحليفتها فرنسا .

خامسا — أثبت المسيو باليولوج سفير فرنسا فى روسيا فى مذكراته التى نشرها فى «مجلة العالمين» فى سنة ١٩٢١ أن الغراندوقة انسطاسيا والغراندوقة مليتزا أخبرتاه فى تسارسكوسيلو فى يوم ٢٢ يولية سنة ١٩١٤ أن أباهما ملك الجبل الأسود قد أنبأهما فى برقية جفرية «بأننا سنخوض غمار الحرب قبل انتهاء الشهر [أى قبل ١٣ أغسطس حسب التقويم الروسى] ، وأن النمسا ستصبح فى خبر كان .. وأنكم معشر الفرنسيين «ستستعيدون الألزاس واللورين .. وأن جيوشنا ستتقابل فى برلين .. وأن ألمانيا ستمزق شر ممزق» !!

سادسا — أورد المسيو بوجتشفتش القائم بأعمال السفارة الصربية فى برلين سابقا فى كتابه «أسباب الحرب» الذى نشره فى عام ١٩١٩ العبارة الآتية التى قال أن المسيو كامبون سفير فرنسا فى برلين ذكرها له فى يوم ٢٦ أو ٢٧ يولية سنة ١٩١٤ وهى : «إذا أرادت ألمانيا أن تؤدى الحالة إلى نشوب الحرب فستجد انجلترا ضدها . وسينقض الأسطول الانجليزى على هامبرج . ولنهزمن الألمان شر هزيمة» . ويقول بوجتشفتش أنه أيقن بعد سماع هذه الأقوال، أن الحرب قد تقرر اعلانها في أثناء زيارة بوانكاريه لقيصر روسيا في بتروغراد ان لم يكن قبل ذلك .

سابعا — أخبرنى صديق حميم لسازونوف وعضو من الأعضاء المهمين فى مجلس الدوما بمجلس البلاط الذى عقد سراً فى فبراير سنة ١٩١٤ برئاسة القيصر ، وقد حصلت فيما بعد من مصادر أخرى على ما يؤكد حكاية عضو الدوما المذكور . قال : فى المجلس المذكور ألقى المسيو سازونوف خطابا اقترح فيه على القيصر الاستيلاء على الأستانة ، وهو عمل وإن كان لا يمكن

أن يقره الحلفاء، إلا أنه يؤدى على كل حال إلى إعلان الحرب على ألمانيا والنمسا . ثم زاد على ما تقدم أن إيطاليا بطبيعة الحال ستتخلى عن حليفتيها، وأنه بينما يمكن الاعتماد الكلى على فرنسا، فإن انجلترا على الأرجح ستقف جنبا إلى جنب مع روسيا، (كذا)!

ويقال أن القيصر وافق على هذا الاقتراح وأصدر أمره باتخاذ العدة لتحقيق ما جاء فيه . ولكن الكونت كوكوفزيف وزير مالية روسيا كتب إلى القيصر ينصحه بالعدول عن هذا الرأى — وهو ما أكده لى الكونت ميرباخ بعد معاهدة برست ليتوفسك — ويشير عليه بالتحالف مع ألمانيا ويحذره من عواقب الحرب، قائلا انها تكون وبالاً على روسيا، وقد تؤدى إلى الثورة وسقوط الأسرة الملكية . ولكن القيصر طوى كشحا عن هذه النصيحة واستمر يواصل السياسة التى أدت إلى الحرب .

ثامنا — أخبرنى هذا السيد نفسه ما يأتى : بعد إعلان الحرب بيومين دعاه المسيو سازونوف لتناول طعام الإفطار على مائدته . وقد استقبله هذا والبشر طافح على وجهه وهو يفرك كفيه من شدة الفرح وقال «هلم ياعزيزى البارون ! إنى واثق بأنك ستسلم معى بأننى أحسنت اختيار الفرصة المناسبة للحرب ، أليس كذلك » ؟ فلما سأله البارون وهو مضطرب البال عن موقف انجلترا، ضرب الوزير بيده على جيبه ورمقه بنظرة تنطوى على المكر وهمس « إن لدى فى جيبى ما سيدخل عند إذاعته بعد يومين السرور فى قلب كل روسى وسيدهش له العالم أيما دهشة . . فلقد تلقيت وعداً انجليزيا بان بريطانيا ستقف إلى جانب روسيا ضد ألمانيا » !

تاسعا — ذكر الأسرى الروس التابعون للفيلق السيبيرى ممن وقعوا فى أسرنا في بروسيا الشرقية ، أنهم قد جئ بهم من سيبيريا بالسكة الحديدية فى صيف سنة ١٩١٣ وأرسلوا إلى منطقة موسكو . وقد قيل لهم أن القيصر سيشهد المناورات الكبرى هناك . ولكن هذه المناورات لم تحدث ، ولم يسمح

الجنود بالعودة إلى ديارهم، بل كلفوا بقضاء شهور الشتاء بالقرب من موسكو. وفى صيف سنة ١٩١٤ أرسلوا إلى منطقة فلنا، حيث قيل لهم أن المناورات الكبرى ستجرى على مرأى من القيصر! وفى منطقة فلنا أخذت الجنود محلاتها المختلفة ووزعت عليهم فجأة «الخراطيش المدببة» (ذخيرة الحرب)، ثم قيل لهم أن الحرب قد اندلعت بين ألمانيا وروسيا!! فلم يكن فى طاقتهم أن يحيروا جوابا.

عاشرا — فى شتاء سنة ١٩١٤ — سنة ١٩١٥ نشر أحد السائحين الامريكان فى الصحف تقريرا عن رحلة قام بها فى القوقاز فى ربيع سنة ١٩١٤. وقد ذكر فيه أنه عند وصوله إلى القوقاز في أوائل شهر مايو سنة ١٩١٤ رأى وهو فى طريقه الى «تيفليس» صفوفا كثيرة من الجنود من كافة الأسلحة. وهى بمعدات الحرب. فخشى أن تكون الثورة قد نشبت في القوقاز. فلما سأل من ولاة الامور فى أثناء فحص جوازه فى تفليس عن جلية الخبر، طمأنوه بأن الحالة هادئة تماما فى القوقاز، وأنه يمكنه السفر حيثما شاء، وأن الجنود التى رآها لم يكن يراد بها إلا القيام بتمرينات الزحف والمناورات!!

وفى نهاية مايو سنة ١٩١٤ انتهت رحلته فأراد أن يستقل الباخرة من إحدى موانى القوقاز، ولكن البواخر جميعا كانت غاصة بالجنود حتى أنه لم يستطع حجز حجرة له ولزوجه إلا بشق الأنفس. وقد اخبره الضابط الروسى أنهم سينزلون فى أودسا ومن ثم يواصلون السفر للاشتراك فى بعض المناورات الكبرى.

حادى عشر — فى سنة ١٩١٨ جاء إلى مركز القيادة العليا فى بوسمونت، البرنس تندانوف رئيس قوزاق القلمق المقيمين بين تسارتسن وأستراخان، وكان قبل الحرب وفى خلالها ياورا خاصا للغراندوق نيقولا نيقوليفتش. وكان حضوره بقصد إيجاد روابط مع ألمانيا نظرا لأن القوزاق لم يكونوا من الجنس السلافى وأنهم شديدو العداء للسلاشفة.

وقد ذكر أن الغراندوق نيقولا أرسله قبل إعلان الحرب إلى مركز أركان

الحرب لاطلاع الغراندوق على ما يجرى هناك، وأنه كان حاضرا المحادثة التليفونية المشهورة بين القيصر ورئيس أركان الحرب الجنرال يونوشكيفتش، وأن القيصر بعد أن تأثر بالبرقية الجدية التى أرسلها اليه إمبراطور ألمانيا، صمم على منع التعبئة وكلف يونوشكيفتش تليفونيا بعدم المضى فيها أى بوقفها، وأن الأخير عصى هذا الأمر الصريح، واستفهم تليفونيا من سازونوف الذى كان معه على اتصال دائم لمدة أسابيع تآمرا فيها ضد السلام وعملا سويا على إشعال نار الحرب — عما ينبغى عمله الآن، وأن سازونوف قد أجابه بأن أمر القيصر ذلك من السخافة بمكان، وان كل ماينبغى عليه عمله هو أن يواصل التعبئة، وأنه هو شخصيا (سازونوف) سيقنع القيصر فى اليوم التالى بعدم الإصغاء لبرقية إمبراطور ألمانيا الشخصية، وأن يونوشكيفتش بناء على ذلك أخطر القيصر بأن التعبئة قد قطعت شوطا بعيدا بحيث يستحيل وقفها الآن.

وقد أضاف البرنس تندانوف بأن هذا لم يكن سوى محض افتراء. فقد رأى بعينى رأسه أمر التعبئة ملقى على مكتب يونوشكيفتش مما يدل على أنه لم يكن قد بدئ بتنفيذه بعد.

وعلى أن أهم ما يلفت النظر فيما يختص بهذه المسألة، هو أن القيصر نيقولا — وهو الذى كان له أكبر ضلع فى تمهيد السبيل للحرب العالمية حتى انه أصدر أمر التعبئة فعلا، رغب في آخر لحظة فى التراجع والتقهقر. ذلك أن برقيتي التى حذرته فيها عاقبة اندفاعه جعلته يدرك بجلاء لأول مرة، عظم التبعة التى تقع على عاتقه من جراء تأهباته الحربية. فأراد بناء على ذلك وقف أداة الحرب التى طاحت بشعوب بأكملها بعد أن بدأت فى التحرك. ولا ريب فى أن مساعيه كانت كفيلة بالنجاح وأن سلام العالم كان خليقا بالصيانة، لولم يعبث سازونوف برغباته ويذرى مساعيه في الريح.

وهنا سألت البرنس عما إذا كان الغراندوق نيقولا المعروف ببغضه للألمان قد حرض على الحرب، فقال إن الغراندوق مافتئ يعمل على التحقيق لإشعال

الحرب ، ولكن لم تكن ثمة من حاجة إلى تحريضه لأن الضباط الروس جميعاً كانوا ضد ألمانيا ناقمين عليها، وان هذا الشعور قد انتقلت عدواه إليهم من الجيش الفرنسي، وأن الرغبة كانت متجهة إلى الاشتباك فى الحرب فى سنتى ١٩٠٨ — ١٩٠٩ — أى فى إبان أزمة البوسنة والهرسك — ولكن فرنسا لم تكن قد أتمت استعداداتها بعد ، وأن روسيا لم تكن فى سنة ١٩١٤ قد استعدت نهائياً، وأن يونوشكيفتش وسوخوملينوف كانا فى الواقع يتأهبان لدخول الحرب فى سنة ١٩١٧ ولكن لم يكن يمكن ضبط عواطف سازونوف وأسفولسكى والفرنسيين لغاية هذا التاريخ ،وأن الأولين كانا يتوجسان حدوث فتنة أو ثورة فى روسيا، أو أن ينتهى تأثير الأمبراطور فى نفس القيصر بإقناعه بالعدول عن فكرة الحرب نهائياً ، وأن الفرنسيين وإن كانوا فى الوقت الحاضر مطمئنين إلى معونة انجلترا، كانوا يخشون أن يتم التفاهم بينها وبين ألمانيا على حساب فرنسا .

وهنا سألت البرنس هل كان القيصر يعرف ذلك الشعور الحربى فى روسيا وهل كان يصبر عليه، فأجاب أن مما يلفت النظر أن القيصر حظر بالمرة — من قبيل الاحتياط — دعوة الساسه الألمان أو الملحقين العسكريين إلى ولائم الغداء أو العشاء التى يقيمها الضباط الروس ويحضرها بنفسه .

إثنى عشر — عند ما تقدمت جنودنا فى سنة ١٩١٤ الفت كميات هائلة من معاطف الجنود الإنجليز فى شمالى فرنسا وفى بلجيكا . وبسؤال الأهالى عن هذه المعاطف، أخبرونا أنها أودعت هناك فى أواخر سنى السلام !! وقد لاحظنا أن الجنود الانجليز الذين وقعوا اسرى فى أيدينا فى صيف سنة ١٩١٤ كانوا بلا معاطف . فلما سألناهم عن سر ذلك أجابونا بشىء من الخبث والمكر « لقد قيل لنا إننا سنجد معاطفنا فى مستودعات موبوى ، وليكسنو وغيرهما فى شمالى فرنسا وبلجيكا» !

وقد كان هذا أيضا شأن الخرائط . فلقد عثر جنودنا فى موبوى على كميات هائلة من الخرائط العسكرية الإنجليزية الخاصة بشمالى فرنسا وبلجيكا . وقد

جيء ببعض هذه الخرائط إلىّ . وقد كتبت أسماء المدن بالإنجليزية والفرنسية ووضعت فى الهامش ترجمة الكلمات التى يحتاجها الجنود ، مثال ذلك كلمة طاحونة وجسر ومنزل ومدينة وغابة الخ الخ . أما تاريخ هذه الخرائط فهو سنة ١٩١١ وقد صنعت فى مدينة سوثمبتن !!

وقد وضعت انجلترا هذه المستودعات فى إبان أيام السلام وقبل الحرب، بإذن من الحكومتين الفرنسية والبلجيكية!! فقل لى بربك ماذا كانت تكون عاصفة الاشمئزاز فى بلجيكا « تلك الدولة المحايدة! » وماذا كانت تكون الضجة التى تثيرها انجلترا وفرنسا، لو أن ألمانيا فكرت فى وضع مستودعات من معاطف الجنود الألمان والخرائط الحربية فى سبا، ولياج، ونامور ؟! » انتهت أقوال الإمبراطور.

كيف خسرت ألمانيا الحرب؟!

فشل السياسة الألمانية

ظاهر من كل ما مر بك أن السياسة الألمانية كانت قصيرة النظر، ومترددة ينقصها كثير من الحزم وحصافة الرأى . فلا عجب إذا رأيناها تضيع ثمرة ما أحرزته الجيوش الألمانية من الانتصارات الباهرة فى مختلف الميادين ، ولا عجب إذا رأينا لأول مرة فى التاريخ هدنة تعقدها الدولة المغلوبة !! وجنودها متوغلة فى بلاد الاعداء!! وهل سمع أحد بمثل تلك الهدنة المخزية التى عقدتها ألمانيا فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ في حين أن جيوشها كانت محتلة البلجيك، وشمالى فرنسا، وشطراً كبيراً من شمالى إيطاليا، ثم رومانيا، والصرب ،والجبل الأسود، هذا عدا روسيا، التي كانت قد سلمت من قبل، وأدى تسليمها إلى زلزلة عرش آل رومانوف وتوطيد الحكم للبلاشفة ؟!

ويخيل إلينا أن سفينة السياسة الألمانية قد أصبحت تعبث بها العواصف، بعد أن فقدت ربانها القدير بسمارك!!

بين بسمارك وغليوم الثانى

فلقد كان من سوء حظ ألمانيا أن غليوم، الأمبراطور الشاب لم يستطع استمرار التعاون فى العمل مع بسمارك المستشار الحديدى كما يسميه الألمان! وقد نشأ سوء التفاهم بينهما على ما يظهر، بسبب أن المستشار كان من دهاقنة السياسة البعيدى الغور، بحيث يعجز أمثال ذلك الأمبراطور الشاب عن إدراك مرامى السياسة المعقدة التى كان يتبعها ذلك الداهية.

ونحسب أن المقام لا يتسع لذكر ما نشأ من الخلاف بين غليوم وبسمارك وهو ما فصله الأمبراطور فى مذكراته، ونجتزىء بذكر خلاصة منها مما له علاقة بموضوع الحرب العالمية.

لقد قلنا إنه من سوء حظ ألمانيا أن الأمبراطور لم يستطع استمرار التعاون مع بسمارك وهذا صحيح. ففى العقد السابع من القرن التاسع عشر إستطاع ذلك المستشار الحديدى أن يخوض غمار ثلاثة حروب موفقة، كانت نتيجتها تكوين الأمبراطورية الألمانية. فلقد هزم النمسا وتخلص من سيطرتها، واستولى فى سنة ١٨٦٦ على شلزويج وهولشتين من الدانيمارك، واسترد الألزاس واللورين من فرنسا، فى سنة ١٨٧٠ بعد أن هزمها شر هزيمة فى سيدان. ولو لم يترك سفينة السياسة الألمانية لأيد أخرى غير يده، لكان شأن ألمانيا فى الحرب العالمية الأخيرة غير شأنها الحاضر! ولكن قدر فكان!!

سياسة بسمارك

وقد كانت سياسة بسمارك قبل تكوين الأمبراطورية الألمانية ترمى بصفة عامة إلى تحويل أنظار الدول العظمى عن ألمانيا، وعن شؤون القارة الأوربية، بالاستعمار والاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه من الأراضى التى أصبحت

ملكا مشاعا للرجل الأبيض على أثر اكتشاف مجاهل القارة الأفريقية أو القارة السوداء كما يسميها الأوربيون . فبينما كانت الدول تبنى لنفسها امبراطوريات وتضم مستعمرات فى الخارج، كان أكبر هم بسمارك أن يدعم قوة ألمانيا بحيث يجعلها القابضة على دفة سياسة القارة الأوربية .

وقد ظهرت نتيجة هذه السياسة بوضوح فى مؤتمر برلين المشهور فى سنة ١٨٧٨ . فإلى مهارة بسمارك يرجع الفضل فى عدم نشوب حرب عالمية وقتئذ، وإليه أيضا يرجع الفضل فى إغلاق البوسفور والدردنيل فى وجه روسيا، الأمر الذى أثار عليه حفيظة حكومة بترو غراد .

على أن سياسة بسمارك كانت ترمى إلى أبعد من ذلك . فلأن كان قد أغضب روسيا فى مؤتمر برلين، فذلك ليقربها منه فيما بعد ويجعلها تعتمد عليه وحده فى تحقيق أحلامها التاريخية فى البواغيز والآستانة!! وليس لنا أن نجزم بأنه كان ينوى فعلا أن يعطيها البواغيز والآستانة، أو أنه كان فقط يلوح لها بهما ويستخدمهما « كطعم » لها ليأمن شرها ويدرأ خطرها عن الوطن الألمانى .

ومهما تكن حقيقة نواياه فإن غليوم الثانى ـ كما يقول فى مذكراته ـ ذهب فى نهاية شهر أغسطس ١٨٨٦ أى فى إبان حياة جده الامبراطور غليوم الأكبر، بناء على إشارة البرنس بسمارك على اثر الاجتماع الذى عقد بين البرنس وفرانس جوزيف أمبراطور النمسا وغليوم الأكبر ذهب ليبسط أمام قيصرها اسكندر الثالث نتيجة ذلك الاجتماع، وليعرض بين ما يعرضه موافقة بسمارك على منح روسيا الآستانة والبواغيز مع النصح لتركيا بالتفاهم مع روسيا .

ويظهر أن قيصر روسيا لم يكترث كثيراً بذلك العرض وهو ما حسب بسمارك حسابه من قبل . ولهذه النقطة أهمية سنرجع إليها فيما يلى .

وكانت آخر كلمات فاه بها غليوم الأكبر على سرير موته أمام بسمارك وغليوم الثانى، هى العمل على تقوية روح الصداقة مع روسيا . فلم يكد الأمبراطور الشاب يتبوأ العرش حتى أشار عليه بسمارك ـ تنفيذاً لرغبة جده ـ أن يبادر بزيارة

روسيا . وهنا حاولت الملكة فكتوريا أن تمنع هذه الزيارة ونصحت لحفيدها بلهجة ودية يتخللها الحزم،بأن لابد له من مراعاة شعار الحداد لمدة عام كامل على الأقل، كما لابد له أن يبدأ قبل كل شيء بزيارة انجلترا بلاد جدته .

وقد امتعض بسمارك لهذا التدخل،وأخبر غليوم الثانى بوجوب وضع حد لهذا « التطفل العائلى » كما سماه وقتئذ ، وكلفه بأن يرد عليها بلهجة حازمة بأنه « كإمبراطور لا يعد نفسه مدفوعا إلا بمصالح بلاده».

وفعلا تمت الزيارة . وهنا نشرح أهمية النقطة التى أسلفنا الاشارة عليها . فإن بسمارك اتخذ من هذه الزيارة وسيلة لعقد معاهدة سرية بين ألمانيا وروسيا اطمأنت بها روسيا على دعاواها فى البواغيز والأستانة .

ولم يعرف غليوم الثانى شيئا عن هذه المعاهدة إلى ما قبل خروج بسمارك من الوزارة عند ما أخبره المستشار الحديدى ان قيصر الروسيا يثق فيه كل الثقة وهذا هو سر حرصه على البقاء فى منصبه !!

وقد كانت بين ألمانيا والنمسا معاهدة موجهة ضد روسيا ولا تعرف هذه الأخيرة شيئا عنها !! وهكذا كان بسمارك متفقا سراً مع روسيا ضد النمسا وتركيا دون أن تعلما هاتان الدولتان شيئا من ذلك!!فى حين أنه كان متفقا مع النمسا ضد روسيا دون أن تشك هذه فى إخلاصه لها !!

بهذه السياسة العويصة استطاع بسمارك الاحتفاظ بصداقة روسيا والنمسا على السواء ودرء الخطر عن الوطن الألمانى . وهى سياسة بارعة، وإن كنا نسلم أنها تتنافى ومقتضيات الأمانة والفضيلة . ولكن ما قيمة هذه الصفات فى السياسة اليوم ؟ لعمرك أن المتحلى بالفضيلة لا يصلح فى عصرنا الحاضر لأن يعالج فن السياسة ، وهى إنما تقوم على الختل والخداع والغش وغير ذلك من النقائص والرذائل .

ويقول غليوم فى مذكراته أنه كان يجهل هذه المعاهدة الألمانية الروسية جهلا تاما ، ولم يسمع بها لأول مرة من بسمارك إلا قبيل خروجه من الوزارة

كما قدمنا . ويلوح أن هذه المهارة السياسية التى أظهرها بسمارك فى معاملاته مع روسيا والنمسا وتركيا لم ترض غليوم الثانى بل ظنها مجرد خداع وغش يجب أن تربأ ألمانيا بنفسها عنها، وهو ما يتفق تماما مع ما عرف عنه من شدة التمسك بالفضائل الدينية .

ثم أخذ النزاع يشتد بينهما على اثر هياج الاشتراكيين ومطالبتهم بإدخال تعديلات على القانون الأساسى . وكان من رأى غليوم أخذ الاشتراكيين بالملاينة ، فى حين أن بسمارك كان يرى كبح جماحهم بالقوة وإرسال الجنود عليهم إن احتاج الأمر . وأخيراً عقد الإمبراطور مجلس البلاط لاستفتاء الوزراء فى الموضوع ، فكانوا جميعا مع بسمارك مما غضب له الأمبراطور . ولقد سألهم غليوم فيما بعد على انفراد، كيف أنهم خذلوه بهذه الصفة، فكان جوابهم أنهم لا يستطيعون أن يعصوا لبسمارك أمرا !

وقد ادت هذه المشاحنات — كما كان ينتظر أن تؤدى — إلى خروج المستشار الحديدى من الوزارة وحلول المستشار كابريفى مكانه .

وكل ما يهمنا هنا بمناسبة حدوث هذا التبدل، أن الإمبراطور الشاب أخذ منذ خروج بسمارك من الوزارة يسير سفينة سياسة ألمانيا طبقا لأهوائه . نعم إنه نجح فى توثيق عرى الصداقة بين بلاده وبين النمسا وتركيا ، إلا أنه قد زاد الهاوية اتساعا بين ألمانيا من جهة وروسيا وانجلترا وفرنسا من الجهة الاخرى . وهذا ما أدى إلى تألبهن عليه . وسيذكر التاريخ أن العدول عن سياسة بسمارك كان منافيا لمصلحة ألمانيا شخصيا .

خطأ سياسة التنافس البحرى بين ألمانيا وانجلترا

وما دمنا قد تكلمنا عن سياسة بسمارك وكيف أنها كانت ترمى الى تلهية الدول الأوربية بالاستيلاء على المجاهل الافريقية، فيحسن أن نقول هنا أن الإمبراطور الشاب قلب هذه السياسة رأسا على عقب، وشرع لغير ما مسوغ ظاهر، يستثير حفيظة تلك الدول ويضاعف مخاوفها منه . ولعل أكبر خطأ

ارتكبه فى هذا الصدد تطوحه في سياسة التافس البحرى ضد انجلترا .

فالأسطول لبريطانيا — كما يعلم كل انسان — هو بمثابة الحياة التي بدونه تصبح تلك الإمبراطورية الشاسعة فى عداد الدول البائدة . فهى لاتنظر ـ ولا يمكن ان تنظر ـ بعين الارتياح لكل مسعى يراد به إضعاف سطوة ذلك الأسطول. لهذا رات نفسها مسوقة — منذ أن أعلن الامبراطور أن مستقبل ألمانيا فوق البحار — إلى اعتبار هذه الدولة منافسة لها وأن لا بد من وقوع الاصطدام بين الدولتين يوما ما .

وليس يسع منصفا أن يلوم انجلترا ـ وقد رسخت فى نفسها هذه العقيدة ـ أن تسعى طاقتها إلى الإكثار من الحلفاء والأصدقاء ليكونوا عونا لها ضد ألمانيا وقت الشدة .

فسياسة الأسطول الضخم التي سلكها الأمبراطور الشاب كانت تحديا مباشرا لانجلترا التى يهمها قبل كل شيء الاحتفاظ بالتوازن الدولى الذى تتوقف عليه حياتها .

لقد كانت المانيا بعد انتصارها فى الحرب السبعينية ، وهزيمة روسيا فى الحرب اليابانية، السيدة المطاعة فى القارة الأوروبية . ونحسب أنها كانت تبقى كذلك إلى ما شاء الله ، لو أن الأمبراطور ابتعد عن سياسة التحدى لانجلترا بانشاء الأساطيل الضخمة التي لم يقصد بها حماية التجارة أو المستعمرات الألمانية ـ إذ لم يكن ثمة خطر على هذه أو تلك من إحدى الدول القارية ـ وإنما قصد بها نزع السيادة البحرية من بريطانيا ، أو بعبارة أخرى القضاء على تلك الدولة . وليت ذلك الأسطول المنحوس أفاد ألمانيا فى ساعة محنتها ، بل لقد رأيناه يسلم لانجلترا ويغرق فى ميناء سكابافلو ! !

وإن من يقرا تاريخ الحروب الإنجليزية مع الدول القارية فى خلال القرنين الماضيين، يجد أنها تدور حول محور واحد هو سعى انجلترا فى الاحتفاظ بسيادة البحار. فإذا كان الأمبراطور قد سلك مسلك التحدى هذا، فلا يلومن إلا نفسه إذا كانت انجلترا قد ألبت عليه العالم ، وأبت أن تغمد حسامها أو يخلع عن العرش .

اضطراب السياسة الالمانية فى ابان الحرب

وإذا كانت سياسة الأمبراطور قد مكنت انجلترا من تأليب روسيا وفرنسا ضد ألمانيا قبل الحرب، فإن ماارتكبته السياسة الألمانية من الأغلاط في خلال الحرب قد ألب العالم عليها . وإليك الدليل

فأولا — أضاع الساسة الألمان وقتا نفيسا قبل البدء فى التعبئة العامة، وبهذا مكنوا روسيا من حشد جيوشها على الحدود قبل أن يضرب الجيش الألمانى فرنسا الضربة الحاسمة .

ثانيا — وقف المستشار الألمانى فى بدء الحرب فى مجلس الرشستاج يسم بلاده بميسم العار ، إذ اعترف أنها ـ لضرورة عسكرية ـ أرغمت على ارتكاب عمل شائن بخرق الحياد البلجيكى !! ولو كان الرجل سياسيا بالمعنى المعروف، لاختار عبارة أخرى تؤدى نفس الغرض دون أن تتخذ حجة ضده كما حدث !

ثالثا — عجزت السياسة الألمانية عن شراء مساعدة إيطاليا حليفتها بتمنيتها بالاستيلاء على بعض الموانئ النمساوية فى نهاية الحرب ! وقد منّاها المستر لويد جورج بوعود خلابة على حساب تركيا، ثم راح يمنى اليونان بنفس هذه الوعود بدون علم إيطاليا !! نعم لقد انفضح أمره فى النهاية، ولكنه نجح فى الوقت الملائم فى تسخير كل من إيطاليا واليونان لخدمة المصالح الانجليزية. فلو أن ألمانيا فعلت ذلك مع إيطاليا ورومانيا. وتفاهمت عليه مع النمسا إلى أن تنتهى الحرب، لكانت النتيجة غير ما رأينا .

رابعا — بعد أن اكتسحت الجيوش الألمانية البلغارية الصرب والجبل الأسود ، كان المنتظر أن يستمر الزحف إلى سلانيك لطرد جيوش الجنرال ساراى منها، ولكن ألمانيا تعففت عن خرق الحياد اليونانى مراعاة لقسطنطين !! فأضاعت بهذا الفرصة النادرة . وكان من سلانيك أن ضرب الجنرال فرانشيه ده سبرى ضربته الحاسمة ضد بلغاريا وحملها على طلب الصلح الذى

كان بدء النهاية . فهذا الخطأ أدى إلى هزيمة حلفاء ألمانيا الواحدة تلو الأخرى حتى انتهى بكارثة الهدنة الألمانية فى وقت كانت فيه جيوش ألمانيا متوغلة فى اراضى العدو وواقفة امام أبواب نصر لم يسمع بمثله التاريخ .

خامسا — عند ما عادت الجيوش الألمانية من الميدان الشرقى متشبعة بالمبادىء البلشفية وأخذت تحرض الجنود فى الميدان الغربي على وقف القتال وإلقاء السلاح — لا بل قد وقفت فعلا إرسال الذخيرة والمؤن إلى خط النار نحوا من ٤٨ ساعة — نقول لما فعلت ذلك اراد المارشال هندنبرج أن يضرب هؤلاء الثائرين ضربة قاضية ، ولكن تدخل الأمبراطور فى الأمر — كما تدخل من قبل ضد بسمارك فى المسألة الاشتراكية — فكانت النتيجة وبالا عليه وعلى شعبه .

الحق أن هذا الشعب الألمانى الذى دوخ أمبراطرة الرومان ، واشتهر بالبسالة العسكرية النادرة مبتلى بالعقم السياسى . فبينما تستطيع أن تعد عشرات القواد الماهرين ، لا تستطيع أن تعد بعد بسمارك سياسيا واحدا من الطراز الأول . ومعنى هذا أن ما يمكن أن يحرزه قادة الألمان فى ميدان الكفاح ، لا بد حتما أن يضيعه ساستهم حول منضدة الصلح !!

نهاية الحرب وتنازل الأمبراطور عن العرش

ونحسب أننا لا نكون قد أدينا واجبنا نحو القارىء إذا لم نبسط أمامه ما خطه الأمبراطور غليوم بقلمه فى وصف المأساة التى انتهت بتنازله عن العرش . ولا حاجة بنا إلى القول فى أن كلماته تعتبر حجة فى هذا الموضوع، كما أنها تبين بشكل مؤثر كيف سقطت كأس النصر من يد المانيا ، فى الوقت الذى كانت توشك أن تسجل فيه فوزاً باهراً لم يعرف التاريخ مثله . وهذا الوصف مأخوذ من مذكرات غليوم التى عربها الأستاذان أسعد داغر ومحب الدين الخطيب . ونحن ننقل الفصل الثانى عشر بعد استئذان حضرتى الأستاذين . قال العاهل الألمانى ما نصه :

مجلس الامبراطورية يقرر المفاوضة فى شأن الصلح

« دعوت مجلس العرش إلى الاجتماع فى ٨ أغسطس سنة ١٩١٨ للبحث فى إيضاح الحالة وإرشاد الكونت هرتلنغ إلى الخطة السياسية التى يجب أن يسير عليها. ووافقت القيادة العليا على هذه الفكرة ، فكرة تمكين المستشار من استخدام الوسائل اللازمة للسعى فى سبيل التفاهم بشرط أن نستدرج العدو إلى خطوط « سيغفريد » وأن نهزمه أمامها انهزاما تاما ، وحينئذ يمكن الشروع فى مفاوضات الصلح . وقد أمرت المستشار بأن يتصل بإحدى الدول المحايدة ـ هولندة ـ وأن يعجم عودها ليعلم هل تخطو الخطوة الأولى فى سبيل التوسط أم لا .

«ومما زاد هذا السعى صعوبة أن النمسا رفضت أن توافقنا عليه، كما رفضت أن تسلمنا التصريح الذى طلبناه منها فى هذا الشأن . وكنت قد قررت الاجتماع بالامبراطور تشارل ولكن جلالته أجل هذا الاجتماع مرة أخرى بعد موافقته عليه ،وذلك لأنه كان يعمل بتأثير بوريان .

« وردت هولندة علىّ ـ وكنت قد سألتها رأيها شخصيا ـ قائلة انها تضع نفسها تحت تصرفنا . ولكن النمسا قامت خلسة عنا وعرضت الصلح المنفرد للمرة الأولى فأقامت بذلك العقبات فى سبيلنا (كذا) .

« وكان الامبراطور تشارل قد عمل سراً ومن تلقاء نفسه على الاتصال بالحلفاء. وكان قد قرر التخلى عنا من زمن طويل ونهج خطة وصفها لرجال حاشيته بقوله

« حينما أكون مع الألمان أقول إنى على اتفاق معهم فى كل الشؤون ، ولكنى اذا رجعت إلى بيتى لا أفعل إلا ما أريد ! »

« هكذا كانت فينا تخدعني وتخدع حكومتي على التوالي . ولم نكن نستطيع القيام بأقل عمل يقينا شرها لأننا كنا نسمع منها دائما ما يأتي :

« إذا أحدثتم لنا شيئا من المشاكل تركناكم وشأنكم وامتنع جيشنا عن القتال في جانبكم » (كذا !) « إننا كنا مضطرين الى درء هذا الخطر في الأحوال التي اكتنفتنا لأسباب عسكرية وسياسية .

تلاشي النمسا

« نشأت الأزمة الألمانية عن تلاشي النمسا والمجر . ولو تمكن الأمبراطور تشارل من أن يضبط نفسه ويسكن أعصابه ثلاثة أسابيع أخرى لتغيرت الحال تغيراً كبيراً . ولكن الكونت أندراسي — وقد اعترف هو بذلك — كان قد بدأ يفاوض الحلفاء في سويسرا خلسة عنا . وقد توهم الأمبراطور تشارل أنه يكتسب عطف الدول المحالفة بهذ العمل .

لودندورف

« وأعلن الجنرال لودندورف بعد فشلنا في ٨ اغسطس ، أنه لم يعد يكفل انتصارا عسكريا . لذلك لم يبق بد من الشروع في مفاوضات الصلح . ولكن السياسة لم تتمكن من الشروع في مفاوضات تعلل بآمال كبيرة . وكانت الحالة العسكرية قد تحرجت كثيرا بسبب الدعوة الى الثورة (كذا !) فطلب لودندورف في ٢٩ سبتمبر أن نسعى لعقد الهدنة بدلا من السعي لمفاوضات الصلح .

التقهقر الاول

« في هذه الساعة العصيبة التي بات فيها توقيف الحرب ضرورة لا غنى عنها ، قامت في البلاد حركة ترمي الى تأليف حكومة جديدة ، ولم أكن لأستغرب هذه الحركة ، لأن الحكومة التي كانت في دست الحكم لم تستطع في خلال

سبعة أسابيع — من ٨ أغسطس إلى أواخر سبتمر — أن تبدأ بمفاوضات للصلح تبعث على الأمل بالنجاح.

وجاء الجنرال فون جالويتز والجنرال فون مودرا لمقابلتى فى تلك الأثناء وكانا من قواد الميدان الغربى — فوصفا لى حالة الجيش المعنوية وصفا يؤخذ منه أن عدد الذين يقتلون وراء الخطوط آخذ فى الازدياد (كذا!) وأن حوادث التمرد والعصيان بدأت تتضاعف وأن العلم الأحمر ظهر بين الجنود العائدين من الأجازة من ألمانيا (كذا!).

« وقال القائدان أن السبب فى هذه الحال هو التأثير السيء الذى أحدثته فى الجيش الروح السائدة فى البلاد، وقد تسربت الرغبة العامة فى توقيف القتال والرجوع إلى حياة السلم من وراء الخطوط إلى المخافر ثم بدأت تدب فى بعض فصائل الميدان (كذا!).

الانسحاب الى خط أنفرس — الموز

« وقد حملت الأسباب الآنفة البيان هذين القائدين على الإشارة بوجوب سحب الجيش إلى خط أنفرس — الموز. فأمرت المارشال هندنبرج بذلك تليفونيا وأشرت عليه بوجوب الإسراع فى سحب الجيوش إلى وراء الخط المعين. وإذا كان لتقهقر جيوشنا — التى أنهكها التعب بلا جدال ولكنها لم تغلب فى ميدان من ميادين القتال — معنى فى نظر العالم، فهذا المعنى هو أنها تراجعت إلى خط أقل اتساعا، وأكثر ملاءمة للدفاع، ولو لم يكن قد أنشىء فيه شيء من الاستحكامات الجديدة. وكانت الحاجة ماسة إلى استرداد الحرية فى المحطات الحربية، وكنت أرى أن الحصول على ذلك ليس بالأمر المستحيل. وقد سبق لنا الانسحاب غير مرة فى أثناء الحرب رغبة فى الانتقال إلى مواضع أكثر ملاءمة للتعبئة والقتال.

« ولست أنكر أن جيشنا فى هذه الأيام الأخيرة لم يكن فى حالته التى

كان عليها فى بداية الحرب. فإن النجدات التى أرسلت إلى الجيش سنة ١٩١٨ كانت تحت تأثير كثير من مذاهب الدعوة إلى الثورة والانتقاض، وكثرت حوادث انسلال هؤلاء الجنود من خط النار تحت جنح الظلام هاربين إلى المنازل . غير أن السواد الأعظم من جيوشى حاربوا حتى الدقيقة الأخيرة بعزم وثبات، محتفظين بالروح العسكرى والنظام التام . وكانت قوتهم المعنوية أعظم من قوة الأعداء المعنوية رغم تفوق الأعداء فى العدد والأسلحة والمهمات والتنكس والطيارات .

« وعلى هذا فإن جيوشنا الأولى كانت على صواب فى كتابتها على راياتها « نحن لم نغلب لا فى بر ولا فى بحر » .

« إن ما قام به الجيش الألمانى فى معارك أربع سنوات ونصف كان فوق كل ثناء . ولست أدرى أى حالتيه أسمى وأمجد، هجوم الشبان المشاة سنة ١٩١٤ على العدو ببسالة وإقدام دون أن ينتظروا من مدفعيتنا تعضيدا، أم سهرهم فى الليل وهم يحفرون الخنادق رغم سوء غذائهم واستماتتهم فى النهار بهجومهم على مدافع العدو وطياراته وسياراته المدرعة واستمرارهم على ذلك أربع سنوات متواصلة ؟

« إن هذا الجيش الذى يعتبر منهك القوى، استطاع أن يقوم بالهجوم مرات عديدة بعد حرب دامت أربع سنوات، على أن العدو لا يستطيع أن يدعى لجيوشه مثل هذه الدعوى .

« وبعد فإنه لم يكن معقولا أن نطلب من جيشنا أموراً فوق طاقة البشر ، وأن جيشا هذا شأنه يحق له أن ينسحب إلى الوراء ترويحا للنفس.

« وعارض الفيلد مارشال هندنبرج فى أمر التقهقر بكل قواه (كذا ..) فقال : « يجب علينا أن نبقى حيث نحن لأسباب سياسية كثيرة، منها المفاوضة فى شأن الصلح، فضلا عن أن سحب المعدات والذخائر لا يتيسر من غير تمهيد وما شاكل ذلك» .

« وقد قررت حينئذ — إجابة لرغبة الجيش — أن أذهب إلى ميدان القتال لأقيم بين جنودى المشتبكين مع العدو في أعظم ملحمة ذكرهاالتاريخ، ولكي أدرس الحالة الروحية وموقف الجيش فىالمكان الذى يجب درسهافيه.

« وكان تنفيذ هذا القرار سهلا علىّ ، ولا سيما لأن الحكومة الجديدة والمستشار لم يريا فى وقت من الأوقات أن الحاجة ماسة إلى وجودى فى برلين .

وقد بحث سولف ووزارة الحرب ، ومجلس الرشستاج فى بيانات « ولسن » والرد عليها فى جلسات طويلة لم أطلع على شىء مما جرى فيها. (كذا!) حتى اضطررت فى النهاية — بعد وصول مذكرة ولسن الأخيرة — أن أعلن سولف بواسطة رئيس ديوانى إننى أريد أن اقف على الرد قبل ارساله.

« ووصل سولف يحمل إلىّ المذكرة وهو يفاخر بالأسلوب الذى قارن به بين مطالبة ولسن إيانا بالتسليم وبين الهدنة التى اقترحناها نحن . فلفتّ نظر سولف إلى الإشاعات التى تتناقلها الألسنة عن تنازلى عن العرش، وطلبت أن تتخذ وزارة الخارجية خطة فى الصحف لتمنع الحملة الدنيئة التى حملها بعض الجرائد .

« فقال سولف أن الناس يبحثون جهاراً فى الشوارع فى مسألة التنازل عن العرش ،وأن أعظم الأندية السياسية تشير إليها كثيراً كما تشير إلى أمر بسيط . ولما أعربت عن اشمئزازى قال سولف — كأنه يريد أن يعزيني :

« إذا تنحيتم جلالتكم فأنا أيضا أتنحى، لأنى أرى البقاء فى منصبى من المحال فى مثل تلك الأحوال . ولكني تركت أنا العرش أو بالأحرى خلعتنى حكومتى ، أما سولف فقد بقى فى منصبه .

حكومة البرنس ماكس بادن

« ومهما يكن من الأمر فقد أفرغ البرنس ماكس دى بادن المستشار قصارى جهده لإقامة الصعاب فى سبيلى بعدما علم بعزمى على السفر إلى ميدان القتال. وقد سألنى عن السبب الذى يحملنى على ترك برلين فقلت : « إنى أرى عودتى إلى ميدان القتال من أقدس واجباتى بصفتى قائداً عاما للجيش، ولا سيما لأنه مضى علىّ شهر وأنا مفصول عن جيشى الذى يحارب حرب الجبابرة» .

« واعترض المستشار على ذلك قائلا أن بقائى فى برلين ضرورى جداً (كذا!) فقلت : أننا فى حرب، وأن الأمبراطور هو ملك جنوده. ثم قطعت الحديث بقولى : أننى مسافر على كل حال .

« ألم يكن من الضرورى بعد وصول مذكرة ولسن بشأن الهدنة أن تدرس هذه المذكرة فى مركز القيادة العليا إلى جانب الجيش وأن يأتى المستشار نفسه إلى « سبا » للاشتراك فى درسها وتمحيصها (كذا!) ؟

« لذلك سافرت إلى ميدان « فلاندر » بعد ما أصدرت إلى أركان حرب سبا أمراً آخر بالتقهقر إلى خط « أنفرس — الموز » بأسرع ما يمكن ليستطيع الجنود الخارجون من المعركة أن يستريحوا قليلا . وقد بقيت مصراً على هذا الأمر رغم الاعتراضات التى قدمت إلىّ، وجاء فيها أن ذلك يحتاج إلى وقت طويل ، وأن المواقع لم تكن قد أعدت ، وأن المهمات يجب أن تسحب قبل الجيش الخ ومن ذلك الحين ابتدأ التقهقر (كذا) .

« وفى فلاندر قابلت مندوبى كثير من فرق الجيش وتكلمت مع أفراد الجند ووزعت الأوسمة، واستقبلنى الجنود والضباط بالابتهاج والسرور فى كل مكان ولا سيما مستودع المجندين الجدد من ابناء سكسونيا ، فإنهم استقبلونى

بأعظم الحفاوة ، ولما عدت إلى القطار كانوا يصفقون لى تصفيقا حاداً ، وعند ما كنت اعلق الأوسمة على صدور جنود إحدى فرق الحرس طار فوقنا أسطول من طيارات الأعداء وألقى القنابل فى جانب قطارى الخاص .

« وكان قواد الجيش يصرحون لى جميعا بان الحالة المعنوية فى جيوش الجبهة الحربية حسنة جداً ويمكن الاعتماد عليها . ولكن الحالة لم تكن كذلك فى الكتائب الخلفية ، فالدعوة السيئة كان ينقلها إلى الكتائب الخلفية أولئك الجنود الذين يعودون من أجازاتهم إلى ميدان القتال (كذا !) أما المجندون الجدد الذين فى مستودعات التجنيد فحالتهم حسنة .

« وفيما كنت ذاهبا إلى سبا كانت الأخبار متواصلة من ألمانيا عن ازدياد الهياج وانقلاب الرأى العام على الإمبراطور وعن تهامل الحكومة وتركها الحبل على الغارب ، فهى واقفة كالمتفرج بلا عزيمة ولا إرادة حتى أطلقت الصحف عليها عنوان « نادى المناقشات » أما الصحف التى كانت ترمى إلى فكرة معلومة فقد كانت تسمى البرنس ماكس دى بادن باسم رئيس « وزارة الثورة » !

« وعلمت بعد ذلك أن المستشار لزم فراشه مدة عشرة أيام بالنزلة ، فلم يتمكن من مباشرة الأمور بنفسه ، وإنما كان يتولى إدارة الأمور فون بير وسولف بالاتفاق مع وزارة الحرب التى كانت فى حالة إجتماع دائم . وفى اعتقادى أن سفينة الحكومة لما تكون مهددة بالأخطار كما هى فى هذه الأزمة لا يجوز ان تدار الأمور بأيدى وكلاء الحاكم المسؤول الذين لا يملكون ما يملكه هو من سلطة ونفوذ .

« وكان الحل الوحيد الذى يستدعيه الواجب يومئذ ، هو أن يتولى أدارة البلاد رجل ذو شخصية أقوى من شخصية البرنس ماكس دى بادن . وبما أن بلادنا خاضعة للنظام الدستورى ، فقد كان فى استطاعة الأحزاب أن تسعى لذلك فتقترح علىّ إقامة من يخلف البرنس دى بادن ولكنها لم تفعل .

الحكومة تكرهني على التنازل

« وبدأت الحكومة والمستشار بعد ذلك يسعيان لحملي على التنازل عن العرش، فجاء وزير الداخلية « دروس » لمقابلتي في سبا كمندوب للمستشار بحجة إعلامي بحقيقة الحال، فوصف لي الحوادث المعروفة التي وقعت في الصحف والجمهور وبين كبار المتمولين ، وأعلن أن المستشار لم يعين خطته إزاء مسألة التنازل ، ومع ذلك فقد رأى من الواجب أن يوفد إليّ وزيره . فاستنتجت أن مهمة « دروس » كانت إقناعي بالتنازل عن العرش من تلقاء نفسي لكي لا يظهر للعالم أن الحكومة ضغطت عليّ .

« وعلى ذلك وصفت للوزير العواقب الوخيمة التي تنشا عن تنازلي وسألته كيف يستطيع — وهو موظف بروسي — أن يوفق بين الإنذار الذي يحمله إليّ وبين يمين الإخلاص التي حلفها لمليكه ؟

« فاضطرب دروس واعتذر بأنه تلقى بذلك أمراً من المستشار الذي لم يجد من يقبل هذه المهمة سواه ، على أني أبلغت فيما بعد أن « دروس » كان في مقدمة الوزراء الذين تكلموا عن تنازل الامبراطور .

« وقد رفضت في النهاية أن أتنازل عن العرش ، وأبلغت دروس أني سأجمع جنودي وأعود معهم لمساعدة الحكومة على توطيد دعائم الأمن ،

« وعلى أثر هذا الاجتماع زار دروس المارشال هندنبرج والجنرال جرونر خلسة عني وبسط لهما المهمة التي كلفه بها المستشار ، ولكن القائدين قابلاه مقابلة غير لطيفة وأرسلاه باسم الجيش ليبحث فيما يعنيه .

« وكان جرونر خاصة قد وصف البرنس ماكس وخطته وصفا مؤلما اضطرني في النهاية إلى أن أسلي الوزير وأسكن روعه . أما الفيلد مارشال فقد لفت أنظار دروس إلى أن الجيش لا يقاتل بعد تنازلي عن العرش، بل يختل نظامه ويستغني قواده ويصير الجنود بلا رؤساء .

« وأبلغني أحد أولادي بعد مدة ان المستشار كلفه بمثل المهمة التي كلف بها دروس، فرد إبني على ذلك بكل اشمئزاز قائلا أنه لن يقترح على والده التنازل عن العرش .

« وكنت في تلك الأثناء قد أرسلت الهرفون دلبروك رئيس ديواني الملكي إلى برلين ، ليعرض على المستشار بيانا من البيانات اليومية أعددته للنشر محل الخطبة التي ألقيتها فى الوزارة الجديدة ولم يشا المستشار إذاعتها (كذا !)

« وكان هذا البيان — الذى أوضحت فيه الحالة تماما — يعين موقفى أزاء الحكومة وأزاء تيار السياسة الجديدة بكل دقة ووضوح . ولكن المستشار أهمل نشر هذا البيان في بدء الأمر ، ولم يقرر إذاعته إلا بعد مرور بضعة أيام عليه ، وعلى أثر كتاب ارسلته الأمبراطورة إليه كما قيل لى فيما بعد .

« وقد أبلغني الهرفون دلبروك أن هذا البيان وقع احسن وقع فى برلين وفى الصحف، وأنه سبب انفراج الحال وأعاد السكينة إلى البلاد فتنوسيت فكرة التنازل واضطر اشتراكيو اليمين أنفسهم إلى إرجاء البحث فيها .

« لكن الأخبار المقلقة عادت فراجت كثيراً فى الأيام التالية لسوء الحظ ، وكانت تنبىء بأن الاشتراكيين عقدوا النية على اضرام نار الفتنة فى برلين ، فبلغ قلق المستشار أشده من جراء ذلك . ثم أن التقرير الذى رفعه دروس إلى الحكومة بعد عودته من سبا أحدث فيها أعظم تأثير . فان هؤلاء السادة كانوا يريدون الانفصال عنى ولكنهم خافوا من عواقب هذه المغامرة .

« وكانت آراؤهم أقل وضوحا من خطتهم . لأنهم عملوا كأنهم لا يريدون الجمهورية ، غير أن اعمالهم كانت تؤدى إلى الجمهورية رأسا وان كانوا لا يشعرون، فاتخذ الناس خطتهم دليلا على رغبتهم فى إنشاء جمهورية فى البلاد .

«ويعتقد كثيرون أن البرنس ما كس لم ينهج الخطة التى نهجها أزائى، ولم يعمل على إبعادى إلا رغبة منه فى أن يعلن رئيسا للجمهورية بعد ما يعين نائبا

عن الإمبراطور . ولكن هذا الاعتقاد إهانة للبرنس ماكس لأن مثل هذه الحسابات لا تليق بسليل بيت عريق فى المجد من أقدم البيوت الحاكمة فى ألمانيا !

« وذهب الجنرال جرونر إلى برلين للوقوف على الحالة . فعاد منها وقد خابت آماله من جراء الروح السائدة فى الحكومة وفى الأهلين واقتناعه بأن البلاد تسير إلى الثورة بخطوات واسعة .

« واشتد الخلاف بين أعضاء الوزارة واستفحل أمره ، فتعذر عليهم القيام بأى عمل جدى وكان الشعب يريد الصلح مهما يكن ثمنه ، وقد تلاشى نفوذ الحكومة واتسع نطاق الحملة المنظمة ضد الإمبراطور ، حتى ضعف الرجاء بملافاة التنازل عن العرش .

« أما جنود الداخلية فلم يكونوا ممن يصح الاعتماد عليهم ، ولو قامت الفتنة لفوجئنا على الغالب مفاجآت مؤسفة . فقد عثر البوليس فى حقيبة سفير السوفييت على وثائق خطيرة الشأن تدل على أن الثورة البلشفية المنظمة على الطراز الروسى قد وجدت الوقت الكافى لأن تعمل بدقة تامة وبكل سكينة وهدوء على يد سفير روسيا وبمساعدة جماعة سبارتاكوس (كذا !) وقد تم ذلك كله تارة بعلم من الخارجية وتارة خلسة عنها . فإن هذه الوزارة كانت تتلقى المعلومات الوثيقة فى هذا الشأن وتغض الطرف عنها بحجة أنه لا يجوز اغضاب البلشفيك . وقد فعلت ذلك على مرأى من البوليس فغلت يده وجعلته — بإصرارها على هذه الخطة — عاجزا عن العمل (كذا !)

وعاد الجنود الموجودون من أجازاتهم يبثون السم فى الجيش الذى ظهرت فيه أعراض الداء .

مجلس ٩ نوفمبر

« لقد بتنا نخشى امتناع الجيش عن محاربة الثوار بعد ما يتوارى شبح الحرب أمامه ويعود إلى وطنه (كذا !) لذلك لم يكن لنا بد من قبول الهدنة فى الحال

مهما تكن شروطها قاسية ، لأن الجيش لم يعد فى طاقتنا الاعتماد عليه (كذا!).
« أن الوطن كان يرى الثورة منتصبة أمامه !

« وفى صباح ٩ نوفمبر أبلغنى المستشار البرنس ماكس مرة أخرى - تأكيداً لما قاله يوم ٧ منه - أن الاشتراكيين والوزراء الاشتراكيين أنفسهم يطلبون تنازلى عن العرش . وقد انضم اليهم سائر الوزراء الذين لم يكونوا قبل الآن على هذا الرأى ، وأن حزب الأكثرية فى الرشستاج يرى ذلك أيضا . فرجا منى المستشار أن أعلن تنازلى فى الحال وإلا قامت ثورة فى شوارع برلين تراق فيها الدماء سدى . وكانت هذه الفتنة قد ظهرت بوادرها حينئذ فى بعض الأحياء .

« فطلبت المارشال هندنبرج والجنرال جرونر إلى مقابلتى حالا ، فصرح لى الجنرال جرونر بأن الجيش لم يعد يريد القتال، وأنه لا يطمح إلا إلى الراحة والسلم فمن الواجب والحالة هذه أن نقبل الهدنة بأسرع ما يمكن ، لأن المؤونة الموجودة تحت تصرف القيادة العليا لا تكفى الجيش أكثر من ستة أيام إلى ثمانية أيام ولأن مخازن التموين صارت كلها بيد الثوار الذين احتلوا جسور الرين وقطعوا طريق التموين (كذا كذا !!)

« وهنا وقعت حادثة لا يدركها العقل ! فان لجنة الهدنة التى سافرت من برلين إلى فرنسا وفيها ارزبرجر والسفير الكونت أوبرندورف والجنرال فون ونترفلد إجتازت خطوط العدو الامامية ولكنها لم ترسل إلى مركز القيادة العليا أقل نبأ عن الشروط المعروضة علينا (كذا كذا) !!

« ووصل ولى العهد ومعه الكونت شولنبرج رئيس أركان حربه واشترك فى المفاوضات .

« وبينما نحن نبحث فى الأمر وصلتنا عدة إشارات تليفونية مستعجلة من المستشار تنبىء بان الاشتراكيين تركوا الحكومة، وأن الحالة باتت شديدة الخطر. وقال وزير الحربية إن فريقا من حامية برلين إنضم إلى الثوار ، وذكر الألاى

الرابع عشر من الرماة والفصيلة الثانية من ألاى الـكسفور وبطارية جوتريج الثانية ، ولم يكن قد وقع شيء في الشوارع إلى ذلك الحين .

« وأردت ان أحقن دماء شعبي وامنع وقوع الحرب الأهلية فوافقت على التنازل عن مقامى الأمبراطورى منذ الدقيقة التى رأيت فيها أن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لحقن الدماء ، ولكنى تمسكت بمركزى كملك بروسيا رغبة منى فى البقاء إلى جانب جنودى بهذه الصفة . ألم يقل كبار القواد أن تنازلى التام يجعل الضباط يتركون ميدان القتال فيصبح الجيش بلا قواد ، ويتدفق جنوده على ألمانيا تدفق السيل . فيلحقون بها أضراراً عظيمة ويعرضونها لأخطار فادحة ؟ .

« وقد أجبنا المستشار بأن المسألة يجب أن تدرس بدقة تامة وأن يفرغ القرار فى صيغة حسنة ثم يرسل إليه .

شيوع الأخبار الكاذبة فى برلين عن تنازلى

« لم يكد يصل هذا الرد إلى المستشار حتى تلقينا منه جوابا مدهشا وهو أن قرارى وصل متأخراً ، وأن المستشار أعلن من تلقاء نفسه تنازلى عن العرش ـ مع أننى لم أكن قد قررته بعد ـ كما اعلن تنازل ولى العهد الذى لم يستشره أحد فى الأمر (كذا !)

« أودع البرنس ماكس الحكومة فى أيدى الاشتراكيين، ودعا إيبرت إلى منصب المستشار . وقد أذيعت هذه الأخبار فى كل مكان بالتلغراف اللاسلكى وغيره وعرفها الجيش فى حينها .

« وهكذا حال جماعتى بينى وبين القرار الذى يمكننى من البقاء أو السفر ومن التنازل عن عرش الأمبراطورية والبقاء على عرش بروسيا (كذا كذا) !!

« وجازت الأكاذيب على الجيش فتوهم أن مليكه تركه فى الساعات العصيبة فخارت قواه وتسرب اليأس إلى صميم فؤاده . (كذا !)

« وإذا نظرنا الآن نظرة إجمالية إلى سياسة المستشار ماكس رأينا ما يأتى :

« بدأ أعماله بإصدار بيان رسمى تعهد فيه بأن يقوم هو والحكومة بالدفاع عن العرش . ثم حال دون نشر بلاغ منى لو نشر فى حينه لتغير سير الحوادث ، وترك بعد ذلك الأمبراطور فى عزلة ، وألغى المراقبة ، فحملت الصحف على الأمبراطور حملة عنيفة جداً . وقد ختم هذا كله بما بذله من السعى لحمل الأمبراطور على التنازل عن العرش . ثم أعلن خبر هـذا التنازل بالتلغراف اللاسلكى على غير علم من الأمبراطور (كذا كذا) ! !

« وتدل هذه الحوادث كلها على أن شيدمان الذى جعل المستشار آلة فى يده ـ كان يلعب دوراً شديد الخطر على الدولة . وقد ترك شيدمان زملاءه الوزراء على جهل تام بحقيقة آرائه ، وجعل يقود البرنس خطوة خطوة وهو يقنعه بأن العامة لم تعد تنقاد إلى الزعماء . وهكذا حمله بالتدريج على ترك إمبراطوره وأمرائه وبلاده وجعله « مخرب الإمبراطورية الألمانية » .

« ولما حقق شيدمان هذه الآمال أنزل البرنس ماكس السياسى الضعيف عن منصة الحكم !!

أسباب سفرى الى هولندا

« وتفاقمت الحال بعد وصول التلغراف اللاسلكى عن تنازلى عن العرش . وكانت فصائل الجند قد دعيت إلى سبا لتمكين القيادة العليا من مواصلة عملها بالطمانينة اللازمة . ولكن المارشال رأى أنه لا يصح الاعتماد التام على هؤلاء الجنود ولا سيما إذا وصلت فرق ثائرة إلى سبا قادمة من إكس لاشابل أو من كولونيا ، لأن جنودنا سيجدون أنفسهم حينئذ مضطرين إلى مقاتلة إخوانهم . لذلك أشار على بترك الجيش والبحث عن بلاد محايدة أقيم فيها درءا لمثل هذه الحرب الأهلية .

« وشعرت حينئذ فى صميم فؤادى بأعظم نزاع نفسى . فكنت من جهة

أثور ثورة الغضب لدى تفكرى بانى ـ أنا الجندى ـ أترك جيوشى الباسلة ـ التى حافظت على إخلاصها لى ، ثم أذكر من جهة أخرى أن العدو أعلن أنه لا يبرم معى صلحا تتحمله ألمانيا ، وأذكر أيضا أن حكومتى أكدت لى مراراً أن الحرب الأهلية لا يمكن اجتنابها إلا إذا تركت البلاد إلى الخارج .

« وقد صرفت النظر فى هذا النزاع عن كل ملاحظة شخصية ، وضحيت بشخصى وعرشى عن طيبة خاطر فى سبيل وطنى المحبوب . ولكن هذه التضحية ذهبت سدى، لأن سفرى من ألمانيا لم يخفف شيئا من شروط الهدنة والصلح المفروضة علينا ، ولم يمنع الحرب الأهلية، بل زاد الموقف حرجا لأنه استعجل تمزيق الجيش والبلاد .

« لقد كان الجيش عنوان مجدى وافتخارى مدة ثلاثين عاما . فإنى عشت من أجله وشقيت من أجله . ولكنه بعد حرب أربعة أعوام ونصف عام كلها مفاخر وانتصارات ، وبعد ما رأى الصلح على مقربة منه ولمسه بيده ، أصيب فى ظهره بخنجر الثائرين فخر مضرجا بدمه !!

« ولما سمعت أن أسطولى المجيد ـ الذى هو صنع يدى أيضا (كذا!) قد شعر باشمئزاز شديد فى بدء الأمر ، ثارت عواطفى وبلغ التأثر أشده فى نفسى .

« وقد كثر اللغط بسبب انسحابى من الجيش وسفرى إلى بلاد محايدة ! فقال فريق من الناس ، كان الواجب على الامبراطور أن يسير على رأس فرقة من جيوشه وينقض على العدو محاولا أن يموت فى معركة أخيرة . ولكن لو فعلت ذلك لما اقتصر الأمر على استحالة عقد الهدنة التى اشتد ميل الشعب إليها وأرسلت برلين لجنة لمفاوضة الجنرال فوش في شأنها ، بل لضحينا بلا فائدة حياة كثيرين من الجنود ومن أشدهم مراسا وأكثرهم إخلاصا .

« وقال آخرون : كان يجب على الامبراطور أن يعود إلى ألمانيا على رأس جيشه . ولكن مثل هذا العمل ما كان يتم بصورة سلمية ، لأن الثوار احتلوا جسور الرين ومراكز اخرى منيعة وراء الجيش . نعم كان فى إمكانى المرور

فى مقدمة جنودى المخلصين القادمين من الميدان ، ولكنى لو فعلت ذلك لقضيت على ألمانيا القضاء المبرم ، لأن الحرب الأهلية تضاف حينئذ إلى الحرب مع العدو الذى يحاول بلا جدال أن يزحف ورائى على البلاد .

« وقال غيرهم : كان يجب على الأمبراطور ان ينتحر ! ولكن اعتقادى الديني الوثيق كان حائلا بيني وبين هذه النتيجة التي لو وقعت لصاح كثيرون قائلين : « ياله من جبان ! لقد تخلص الآن من التبعة بالانتحار » !

« ثم إنى لم أعمد إلى هذه الخطة لاعتقادى بأنى قد استطيع أن أخدم أمتي وبلادى فى إبان المصائب المحدقة بهما ، فضلا عن أنى كنت واثقا بأن مسألة التبعة التى دخل البحث فيها حينئذ فى دور جدى ، والتى كانت المحور الأكبر لمصيرنا ومستقبلنا ، سندعونى حتما إلى الدفاع عن مصالح شعبى ، لأنى أستطيع أكثر من كل إنسان أن أثبت حسن نية ألمانيا ورغبتها الأكيدة فى السلم .

« فاذا كنت قد عقدت النية على ترك الوطن الى بلاد أجنبية ، بعد نزاع نفسى شديد فى صميم فؤادى ، وبعد النصائح المؤثرة التى أسداها إلىّ أناس كانوا حينئذ مستشارىّ المسؤولين ، فما ذلك إلا لأنى صدقت تلك النصائح واعتقدت بأنى أقدم لبلادى بعملى هذا أعظم خدمة . وقد أيقنت بأن تنازلى عن العرش سيمكنها من أن تنال شروطا حسنة للهدنة والصلح ، ويمنعها من تقديم ضحايا جديدة فى الرجال ، ويدرأ عنها غائلة الحرب الأهلية وما تؤدى إليه من المصائب والويلات » . انتهت أقوال الإمبراطور .

ونقف الآن عند هذا الحد من وصف تلك المأساة المؤلمة ، ونتنقل مع القارىء إلى مطالعة مذكرات اللورد غراى التى رخص لنا بطبعها صاحب الترجمة فى خلال وجودنا فى لندن فى صيف سنة ١٩٢٩ م .

علي احمد شكري

هليو بوليس فى أول أكتوبر سنة ١٩٢٩

مذكرات اللورد غراي

وزير خارجية انجلترا سابقاً

من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩١٦

مقدمة المؤلف



صاحب المذكرات

لورد غراي بعد أن ضعف بصره

مما يهم العالم أهمية جوهرية أن تسرد له حقيقة الحوادث التى ادت إلى نشوب الحرب العالمية ليتسنى له الوقوف على أسباب وقوعها وفهمها فهما صحيحا. ولعمرى إن الأمم مالم تفهم هذه الأسباب حق الفهم، لن تستطيع اجتناب الاشتباك فى حرب أخرى قد تكون أشد هولا وأكثر تدميراً وفتكا من سابقتها. من أجل هذا قد بدا لى كأحد الذين كانت لهم بسياسة ما قبل الحرب صلة متينة، أن الواجب يقتضى أن أروى روايتى عما وقع من الحوادث وعن رأيى فيها ذاكراً فى عين الوقت ما تركته فى نفسى من الأثر. وهو ما يجعلنى أعتقد بوجوب نشر كتابى هذا على الملأ. لذلك لا أرانى بحاجة إلى الاعتذار عن تصميمى على نشره.

أما أن الكتاب ينبغى أولا ينبغى أن ينشر الآن فهذه مسألة فرعية لانعرض لها بالبحث.

إن الحرب العالمية الماضية قد أهاجت الشهوات وأذكت نيران العواطف وأثارت الأحقاد الكامنة، كما أن أبناء الجيل الذى عاش فى زمن الحرب قد أصبحت له عقيدة ثابتة لاسبيل إلى تحويرها أو تبديلها، وصار خاضعا لأهواء وميول معينة امتزجت كل الامتزاج بحياته اليومية وغدت تجرى من نفسه مجرى الدم فى عروقه. فليس يستطيع امثال هؤلاء أن يستسيغوا إلا كل ما من شأنه أن يؤيد ما كونوه فى الماضى من آراء ونظريات. أما ما عدا ذلك فهو مردود عندهم، وليست له فى نظرهم قيمة. فتراهم إذا ما عنوا ببحث أمر جديد خاص بالحرب فليس قصدهم منه الوقوف على الحقيقة، كلا بل على أمل ان يجدوا فيه ما يدعم آراءهم الماضية ويزيدها قوة ورسوخا.

وأشد ما تنطبق هذه الملاحظات على الأمة التى منيت بالمحنة وتغلغل فى نفسها شعور العار الناشىء عن الهزيمة. فإلى أن ينشأ جيل جديد نستبعد — إن لم نقل يستحيل — أن يوجد من يقبل على مطالعة كتب الحرب بقصد تحريها وتفهمها لا بقصد إطرائها أو استهجانها.

وثمة اعتبار آخر يسوغ إرجاء النشر . ذلك أن الكاتب إذا ما كان له ضلع فى شان من الشؤون التى هى محور النزاع ، ففى أغلب الأحايين يكون كلامه عن الماضى مقترنا بميل القارىء إلى إطراء أو استهجان الدور الذى قد يلعبه ذلك الكاتب فى أى نزاع حاضر أو مقبل . من أجل ذلك كان كتاب من هذا القبيل يكون اقوى تأثيراً لو نشر بعد وفاة صاحبه إذ لايكون وقتئذ للمدح او القدح أى أثر فى نفسه .

على أنه لابد من الناحية الأخرى من مراعاة رغبات الجيل الناشىء الذي لاتزال آراؤه عن الحرب وكيفية نشوبها فى حاجة إلى التكوين . لا بل إن كثيرين من أبناء جيل الحرب متعطشون إلى معرفة الحقيقة ، ولذا كان من حقهم علينا أن نبسط امامهم فوراً كل ما يريدون الوقوف عليه من البيانات . فلهذه الاعتبارات إن لم يكن لغيرها وضعنا كتابنا هذا .

ولا ينبغى أن يتبادر إلى الذهن على كل حال أن المؤلف نظراً إلى كونه كان موجوداً فى وسط المعمعة — تكون روايته حتما كاملة أو تعتبر فصل الخطاب . إذ الواقع ان الشخص الواقف فى وسط الغابة يعجز عن إدراك أطرافها بسبب تكاثف الأشجار أمامه . أضف إلى ما تقدم أن مدى عقل الفرد ليس سوى جزء من كل . فالإنسان مهما حاول ، لايسعه إلا إدراك أحد جوانب الحقيقة ، ثم ينقله إلى الغير . ومن يدرى فقد يظهر فى المستقبل مؤرخ لاتربطه أية صلة بحوادث هذا الجيل فيستطيع بسمو نظره وبعده عن المؤثرات أن يروى قصة الحرب شارحا أسبابها بأنزه مما نستطيع نحن فى الوقت الحاضر ؟

ولا يفوتنا أن نقول إن كثيراً من كتاب المذكرات ممن لهم اشتغال بالشؤون العامة ، كثيراً ما يذهبون ضحية اعتبارين تكون نتيجتهما ضياع قيمة مذكراتهم وتلاشى فائدتها .

أولا — رغبتهم فى تنسيق حوادث الماضى وسردها بحيث تنصب

على آرائهم . وشعورهم فى الوقت الحاضر ليوهموك أنهم كانوا يتنبأون بما سوف يقع ؟

ثانيا — ميلهم الطبيعى إلى إظهار الدور الذى قدر لهم أن يلعبوه على المسرح السياسى بمظهر ترتاح له النفوس وتبتهج به. وأغلب الظن أنه قلما يوجد كاتب لا يتأثر بهذين الاعتبارين . وبالعكس قد يبالغ الكاتب أحيانا فى حرصه على عدم التأثر بهما فينتقل من النقيض إلى النقيض، بمعنى أنه قد يغالى فى تقليل أهمية الدور الذى لعبه فى الشؤون العامة وهنا تنعكس الآية، وإذا بصاحبنا قد غمط نفسه حقها !

ولقد حرصت الحرص كله على تفادى الوقوع فى هذه الزلات ، وسردت الحوادث كما وقعت فعلا، مبينا الدور الذى لعبته فيها ذاكراً شعورى الحقيقى حيالها وقت حدوثها .

وليس يخفى أن هذا الكتاب يمثل طبعا وجهة النظر البريطانية، أو هو يمثل على الأقل القسم الذى كانت ولا تزال له علاقة بشخصى . ولكنى برغم ذلك لم يفتنى أن أضمنه وجهة النظر الدولية عن الحرب ومنشأها . وفي الواقع ليست غاية كتابنا الحاضر جعل أطراء دولة معينة بذاتها أو استهجان أخرى فصل الخطاب فى الموضوع، لأن عملا كهذا خليق بأن يعد عبثا لا يؤدى إلى نتيجة صالحة . ولقد بذلت منتهى العناية فى إيضاح الحقائق وسردها بطريقة تساعد الناس على استنباط أنجع الوسائل لمنع وقوع حرب هائلة أخرى كالحرب الماضية .

وقد تحاشيت ذكر أسماء كثيرين ممن أسعدنى الحظ بالعمل معهم فى وزارة الخارجية ، على أن هذا ليس يعنى عدم اعترافى بالجميل لرجال من أمثال السير آرثر نيكلسون أو السير تشارلس هاردنج وغيرهما . وقد كان أولهما وكيل الوزارة والثانى مدير الادارة عند ما كنت وزيراً للخارجية . وأحسب أن التنويه بفضلهم أجمعين لما يستغرق صفحات عديدة ، لذلك أكتفى بالثناء

على روحهم العامة وما ادوه للدولة من خدمات صادقة قيمة . وإنه لما يشرفنى ويزيدنى اغتباطا أننى قد اتيح لى العمل مع أمثال أولئك الرجال القادرين .

كذلك كان من أشد بواعث ارتياحى منذ مغادرتى لوزارة الخارجية أن رأيت فى ترقية السير ايراى كرو[1] لمنصب مدير أدارة الخارجية،تقديراً لما امتاز به من سعة اطلاع ومقدرة عظيمة وتفان معدوم النظير فى خدمة المصلحة العامة . ولا بد من أن أضيف إلى ارتياحى السابق ارتياحى لاختيار السير اريك درموند الذى كنت معه على أشد اتصال فى أبان الحرب ، ليكون سكرتيراً عاما لعصبة الأمم ، وارتياح رؤسائه وكذا الدوائر الأجنبية لهذا الاختيار .

وهناك شخص آخر لا مندوحة عن ذكر اسمه ، وهو السير وليام تيريل الذى كان سكرتيرى الخاص لسنوات عديدة . فالجمهور لا يعرف إلا القليل، أو لا يعرف بالمرة ، كم هو مدين فى حسن أداء المصلحة العامة وتصريف الأمور على وجهها الأكمل إلى ما لبعض كبار الموظفين المدنيين فى مصالح الدولة من موهب أو صفات ممتازة . وأينما وجدت هذه الصفات فإن الشخص المتحلى بها يؤدى واجبه على أحسن وجه وطبقا لطريقته الخاصة . هذا عدا اشتراكه فى إدارة شؤون المصلحة التابع لها . وكثيراً ما كانت مقدرة السير تيريل على إدراك وجهة النظر الأجنبية من أهم العوامل فى زيادة وجهة النظر البريطانية إيضاحا، وجعلها أدنى إلى القبول فى نظر الأجانب . إذ لا شىء يهىء الانسان للتفاهم كإحساسه بأن الغير يفهمه . ولقد أتيح لى وأنا فى وزارة الخارجية أن أعرف ما لتيريل من شأن عظيم ويد طولى فى المصلحة العامة . على أن الأمر الذى أقدره حق قدره هو أن صداقتنا المتينة التى بدأت فى وزارة الخارجية استمرت وثيقة العرا حتى بعد أن انقطعت بيننا الروابط الرسمية .

---

(١) منذ كتابة هذه العبارة فجعت المصالح العامة فى هذه البلاد أكبر فاجعة بوفاة السير ايراى كرو.

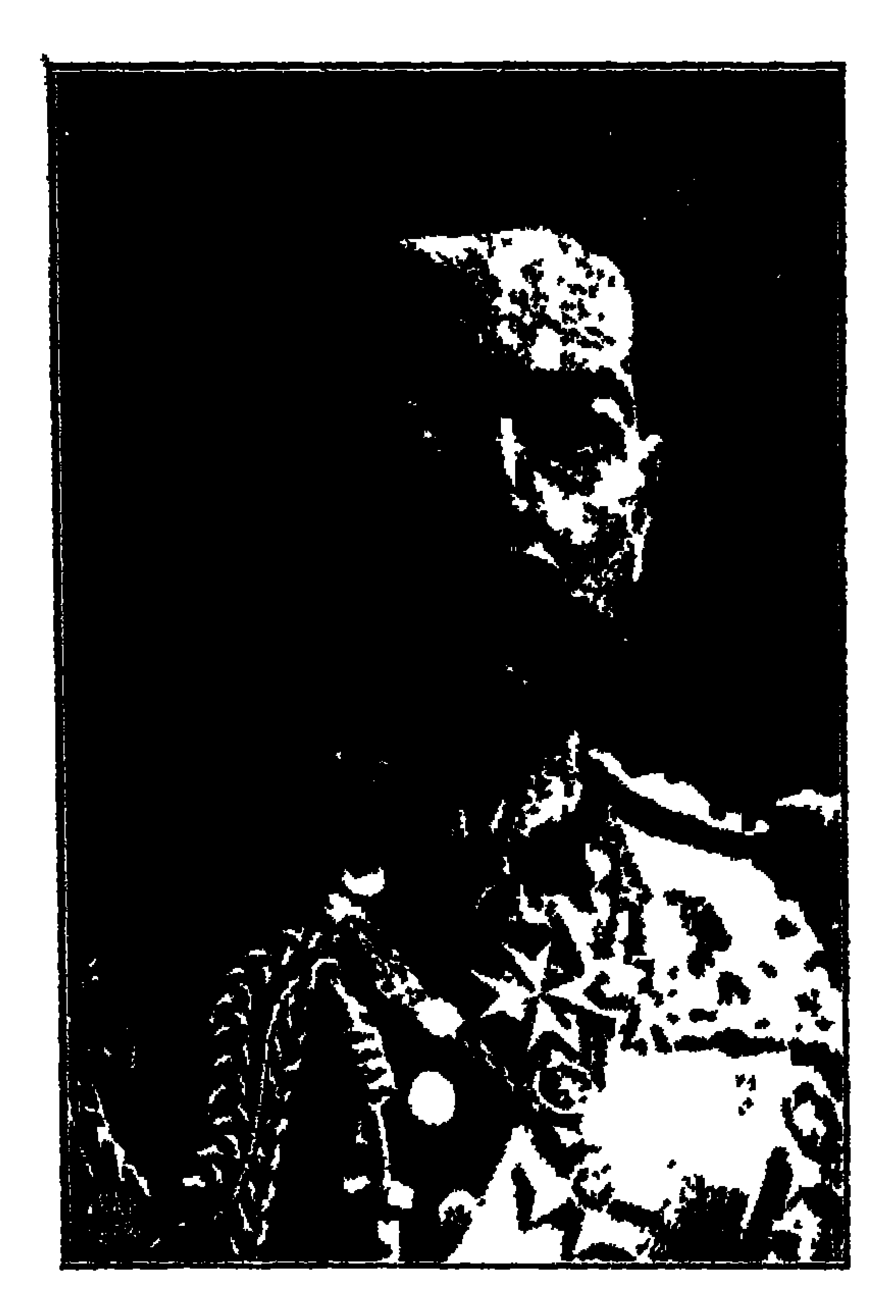
ولقد وضعت هذا الكتاب وأنا أشكو ضعف البصر مما حال بيني وبين البحث والتنقيب فى الوثائق المكدسة لاختيار ما اشاء منها . وأحسب أنه كان يكون منتهى التعنت والإرهاق ، لو أننى طلبت إلى أحد فى وزارة الخارجية أن يترك أعماله العامة ليؤدى لى هذه المهمة الشاقة ، هذ مع العلم بأن الكتاب شخصى بحت ، أى أنه غير رسمى .

فسألت المسترسبندر باعتباره صديقى الحميم منذ سنوات عديدة ان يضطلع عنى بهذا العبء . فجاء اشتراكه في العمل مزية كبرى للكتاب . ولا ريب فى أن طول تمرسه بمعالجة الشؤون العامة ونزاهته فى الحكم جعلا ماقدمه لى من المساعدة مما لايقدر بثمن . وقد تركت له الحرية فى أن يختار من الوثائق المكدسة فى وزارة الخارجية مايظنه فى الدرجة القصوى من الأهمية أومايحسب أنه يلقى ضوءاً ناصعا على اتجاه السياسة . فلما أتم مهمته بعث إلىّ بمختاراته مصحوبة ببعض نبذ أو تعليقات مؤشراً عليها بالقلم الأحمر لافتا نظرى إلى نقط خاصة . ومن هذه المختارات اخترت بدورى بعض وثائق سأقتطف منها بعض فقرات أو أشير إليها فى سياق الحديث . وليس يخامرنى ريب فى أنه أحسن الاختيار ، وأن الوثائق المذكورة تعطى فعلا فكرة صحيحة غير مشوبة بتحريف أو تحيز عن وزارة الخارجية وسياستها ومعاملاتها . وتوجد فى وزارة الخارجية طبعا وثائق مكدسة أخرى عدا هذه قد يظن بلا ريب أن لكثير منها أهمية لاتقل عن أهمية الوثائق المذكورة فى كتابنا هذا .

ولكن ماأذكره ـ وهذا أيضاهو رأى المسترسبندر بعدطول البحث والتنقيب ـ هو أنه لاتوجد وثائق أخرى يمكن أن تضع السياسة البريطانية فى ضوء آخر ، أو تكشف النقاب عن أمور جديدة لم يحط بها الكتاب . وليس يسعنى إلا أن أتقدم لجلالة الملك بخالص الشكر القلبى لتفضله بالسماح بمراجعة بعض الوثائق الموجودة بين أوراق جلالته الخاصة . كذلك أشكر اللورد كيرزون[1]

---

(١) جاءت الانباء بنعى اللورد كيرزون بينما كانت هذه المسودة قد ذهبت إلى المطبعة وينبغى أن أضيف إلى اعترافى له بالجميل ، أسفى العظيم لانتهاء هذه الحياة المتلألئة فى تاريخ الخدمة العامة.



الملك جورج الخامس ملك الأنجليز

الذى تفضل وهو وزير الخارجية بإصدار الإذن الذى طلبته لسبندر بمراجعة السجلات الرسمية فى وزارة الخارجية عن المدة التى كنت فيها وكيلا أو وزيراً لتلك الوزارة . ولا يفوتني أن أعترف بالجميل للمستر جاسيلى أمين قلم المحفوظات بوزارة الخارجية ، وأشكر كذلك موظفى القلم المذكور على ما قدموه من المساعدة لسبندر فى اثناء تنقيبه عن الوثائق الخاصة ٠ وعلى أن جميع أوراقى الخصوصية ما عدا ورقتين فقط قد ظلت فى وزارة الخارجية ولا تزال محفوظة فيها ٠ وقد وضعت هذه الأوراق تحت تصرف سبندر الذى وقع اختياره على بعض نبذ منها ٠ ولعل ماقلته عن توخى النزاهة



اللورد كيرزون وزير الخارجية الأنجليزية سابقا

فى الاختيار من الوثائق الرسمية ، ينطبق بصفة خاصة على الاختيار من اوراق الخصوصية . ويجدر بهذه المناسبة ان أذكر أن ليس من العدل في شيء أن يبت الوزير فى أمور خطيرة ، بعقد اتفاقات خصوصية بينه وبين الدول الأخرى ، ثم لاتعلم وزارة الخارجية شيئا عن هذه الاتفاقات . إذ أن الموظفين فى مصلحة من المصالح لايقال أنهم خدموا الدولة الخدمة الصادقة المنتظرة ، مالم يلموا بكل ما يجرى فى المصلحة التى يعملون فيها . وينبغى أن يكون الوصول إلى السجلات فى الوثائق الرسمية مستطاعا وسهلا فى أى وقت من الأوقات .

من أجل هذا أقرر أن أوراقى الخصوصية لاتشتمل مطلقا على أسرار متعلقة بالدولة يخشى من إفشائها . أما الوثيقتان اللتان استثنيتا من الأوراق الخصوصية المحفوظة فى وزارة الخارجية كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، فتتضمن أولاهما خطابا خاصا وصلنى من البرنس لشنوفسكى ، وتتضمن الثانية مذكرة الكولونيل هوس ومذكرتى الملحقة بها . وقد ذكرت هاتان الوثيقتان فى الموضع المناسب الخاص بكل منهما فى سياق الحديث (١)

ولقد احتطت كثيراً حتى لا أغفل شيئا يكون حقيقيا أو تكون له أهمية عظيمة . ثم إنى قد عنيت بالابتعاد عن الأغلاط أيا كان نوعها . وليس يخفى أنه قلما يخلو من الأغلاط كتاب ضخم كالذى نحن بصدده تستغرق حوادثه ردحا طويلا من الزمن كما هو الحال هنا ، ويشمل أهم ما حدث من المسائل العالمية وأكثرها تعقدا . ولئن خانتنى الذاكرة أحيانا فى صدد بعض التفصيلات ، فإن الوقائع الرئيسية وما ترتب عليها من النتائج بقى كما هو دون أن تشويه شائبة .

ولا بد لى من القول بأن بصرى وإن كان مازال يساعدنى على الكتابة ، إلا أنه لم يعد يقوى على حمل عبء قراءة المخطوطات أو المطبوعات المطولة بصفة مستمرة . من اجل ذلك قد تركت أمر المراجعة وتصحيح المسودات إلى بصر أقوى من بصرى .

أما من حيث قيمة الكتاب من الوجهة السياسية فهذا ما أدع الحكم فيه للغير . فمع أنه يمثل آرائى الخاصة فلست أريد من ورائه أن أحمل القارىء على الاقتناع بها ، بل إنما أريده أن يفكر بنفسه لنفسه . وأحسب أنه غير خاف أن ساستنا الذين نضجوا فى خلال القرن التاسع عشر أدركوا حقيقة الأمور ، وكونوا

---

(١) يستحسن أن نبين للقارىء الذى لايدرى الرسميات السياسية أن العرف يقضى على وزير الخارجية بأن يدون محادثاته مع أى سفير أجنبى فى شكل رسالة يبعثها إلى السفير البريطانى لدى الدولة التى يمثلها السفير الذى دارت معه المحادثات فى لندن . وعليه فان معظم المحادثات المذكورة فى هذا الكتاب قد دون بهذا الشكل . أما إذا أراد القارىء أن يلم بتفاصيل واجبات وزير الخارجية فى هذه المسألة وغيرها ، فيحسن به الرجوع إلى الفصل الثلاثين من هذا الكتاب .



البرنس لشنوفسكى سفير ألمانيا فى لندن سابقا

آراءهم الأولى فى القسم الأخير من عهد الملكة فيكتوريا ، ولكن تغييراً سريعا كان قد طرأ على الآراء الخاصة بالشؤون الداخلية قبيل سنة ١٩١٤ ، ومن هنا يمكن اعتبار الحرب العالمية بمثابة حد فاصل بين عهدين فى الشؤون الخارجية . فالذين شغلوا أسمى المناصب العامة فى سنة ١٩٠٤ كانوا فى الواقع من المخضرمين . فنحن الآن نرى أنفسنا حقيقة أمام مسائل نعتبرها فى رأينا جديدة . وقد يختلج نظرنا ببعض أمور نتوهمها مقلقة ، لا بل مزعجة لغرابتها ليس غير ! وفى الواقع قد انتقلت المراقبة على شؤون الدولة انتقالا جزئيا - وينبغى التعجيل بانتقالها بتاتا - إلى عقول الشباب الخصبة وهى بلا مراء أبعد غوراً وأحد نظراً . ورب أمر يغم علينا أو ينشغل له بالنا لغرابته ، فإذا به على



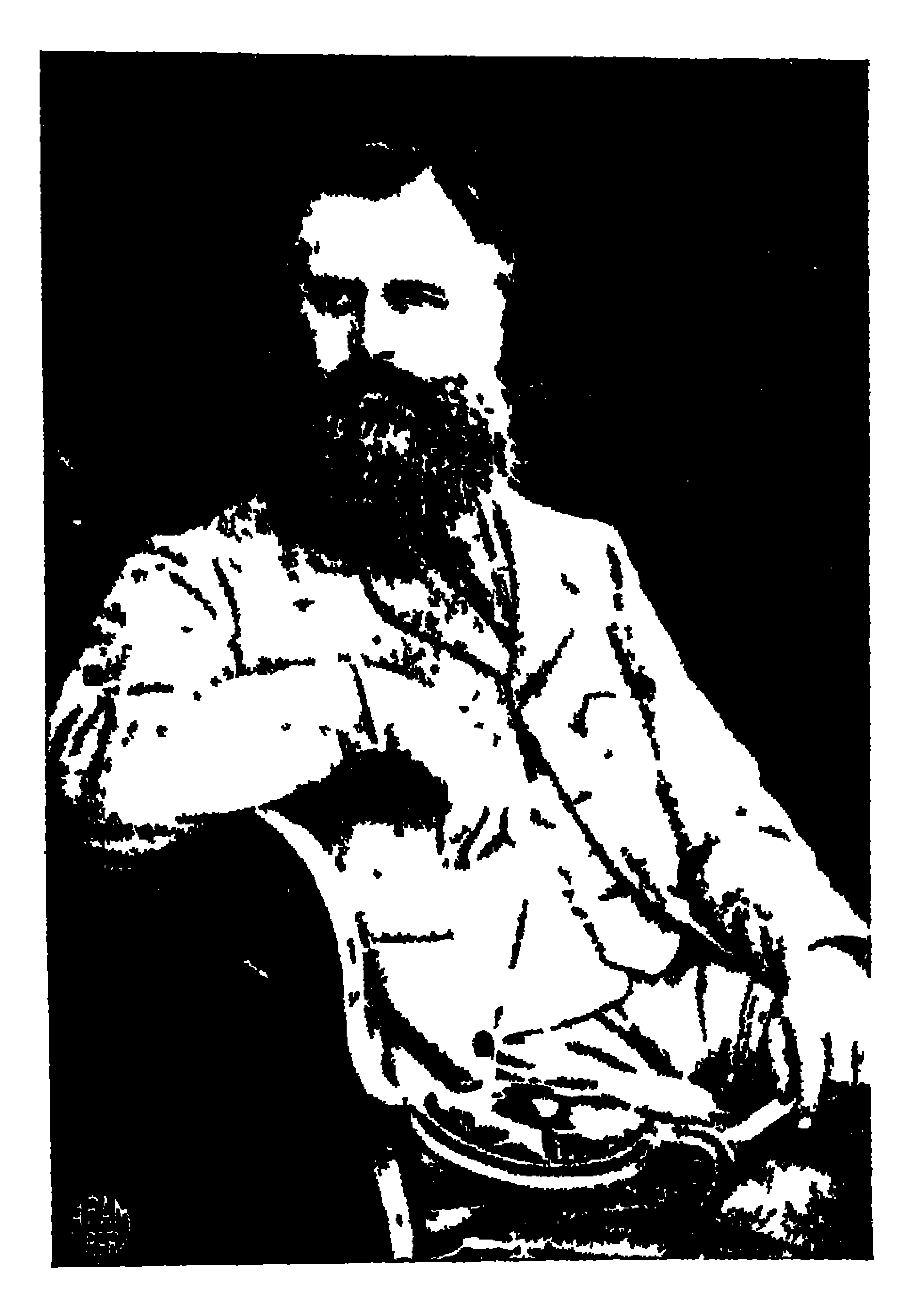
الـكولونيل هوس

العكس يبدو لتلك العقول الناشئة بديهيا معقولا . وليس لنا أن نزعم أننا اقدر من الشباب على استشفاف ما فى جوانح الغيب لأننا أعرف منه بشؤون الماضى، بل كل ما نستطيعه هو ان نسرد له تجاربنا الماضية ورأينا فيها ، على امل أن يشجع هذا عقول الشباب على التفكير بطريقة قد تؤدى إلى اعظم الفوائد .

وإذ لم تكن الغاية من هذا الكتاب نشر ترجمة حياتى فلا حاجة إلى التكلم عن أيام الطفولة ، ولا عن ايام التحصيل في المدرسة أو الجامعة، ولا عن اقترانى او حياتى المنزلية إلا من حيث ارتباطها وتأثرها بالحياة العامة أو أثرها فيها .

ففى باكورة أيامى لم يكن للسياسة حظ كبير أو صغير من اهتمامى ، ولذلك لا تعى ذاكرتى إلا النزر اليسير من شؤون السياسة فى تلك الأيام .

ولقد أذكر أن أبى سألنى يوما ما عن شبوب نار الحرب بين روسيا وفرنسا فى سنة ١٨٧٠ إلى أى الفريقين انتمى ، ولم يكن عمرى وقتئذ أكثر من ثمانية أعوام وثلاثة أشهر . وفى الواقع لم يكن لى ميل خاص ، كلا ولا علقت على الموضوع أهمية . على أن تأثرى بما سمعت بوقوعه فى معركة « ووترلو » ، وميلى إلى لعبة الدومينو « الألمانية » التى تختلف عن اللعبة العادية ، جعلانى أجيب



الجنرال جورج هنرى غراى والد اللورد غراى

على السؤال السابق بأنى طبعا أميل إلى الألمان . ولما كان أبى[1] قد سبق له

(١) الكابتن جورج هنرى غراى (فيما بعد الليفتنانت كولونيل لفرقة الميليشيا فى مقاطعة نورثمبرلند) مدير اسطبلات ولى العهد من سنة ١٨٥٩ الى سنة ١٨٧٤ . وراجع ترجمة حياة أدوارد السابع فى الكتاب الخاص.

العمل فى فرقة البنادق ، واشترك بهذه الصفة مع الفرنسيين فى حرب القرم، فإنه لم يرتح لجوابى . فانبرى يقرعنى على ذلك التفضيل مما أعادنى إلى الصمت الناشىء عن عدم الاكتراث، وهو ما كنت لأخرج منه لولا سؤاله السابق إلىّ .

وحدث بعد أشهر عدة من تلك الحادثة أننى دعيت مساء أحد ايام الشتاء إلى الخروج إلى شرفة الدار فى فاللودن لرؤية الشفق الشمالى . ولم يكن الجزء الأكبر من السماء متألقا بالضوء فقط ، بل كان أيضا مخضبا بالحمرة . ولا تزال ذكرى هذا المنظر الجميل عالقة بذهنى إلى اليوم . ولست اذكر أننى



دار اللورد عراى القديمة بفالودن

رايت شفقا شماليا يقرب فى تألقه وتوهجه من هذا فى السنوات التى تلت تلك السنة . ويحتمل أن الخيال قد أسرف فى تقدير جمال ذلك المنظر وجلاله ، ولكنه لا يزال على كل حال عالقا بذهني كمنظر بديع . واذكر أن جدى قال بهذه المناسبة ونحن وقوف بالشرفة : لولا أن باريس بعيدة ، لتبادر إلى ظننا أن البروسيين أحرقوها ، وأن ما نراه من هذا الضوء العقيق سببه اندلاع ألسنة اللهب وانعكاسها فى الأفق .

وفى أواخر صيف سنة ١٨٧٣ صحبت جدى لزيارة بعض أصدقائه فى جبال الهايلندز . وعند عودتنا بالقطار من مدينة إنفرنس جلست إلى جانب جدى فى ديوان خاص بنا . فلما وقف القطار فى إحدى المحطات — وأرجح أنه تكون محطة كنجسى — أطل جدى من نافذة الديوان وسمعته يحيى شخصاً



السير جورج غراى جد اللورد غراى فى سن الستين

على الرصيف . وما هى إلا لحظة حتى لحق بنا فى الديوان ذلك الشخص الذى لم أكن اعرفه، وأخذجدى يبالغ فى حسن استقباله . ثم شرعا يتحادثان حديثاً يتخلله شيء من الحدة ، وظلا كذلك إلى أن وصلنا إلى مدينة بيرث. وبالطبع لم أفهم شيئاً مما دار بينهما ، كما أننى لم أعر حديثهما أى اهتمام . وفى بيرث غادرنا

خلك الرجل الغريب . وما كاد يبتعد عنا حتى التفت إلىّ جدى فأخبرنى أنه المستر جلادستون . على أنى لم أحفل وقتئذ كثيراً بهذا النبأ ، ولكن جدى سألنى بعد سنوات هل لازلت أذكر تلك المناسبة . ومن ثم شرع يقص علىّ

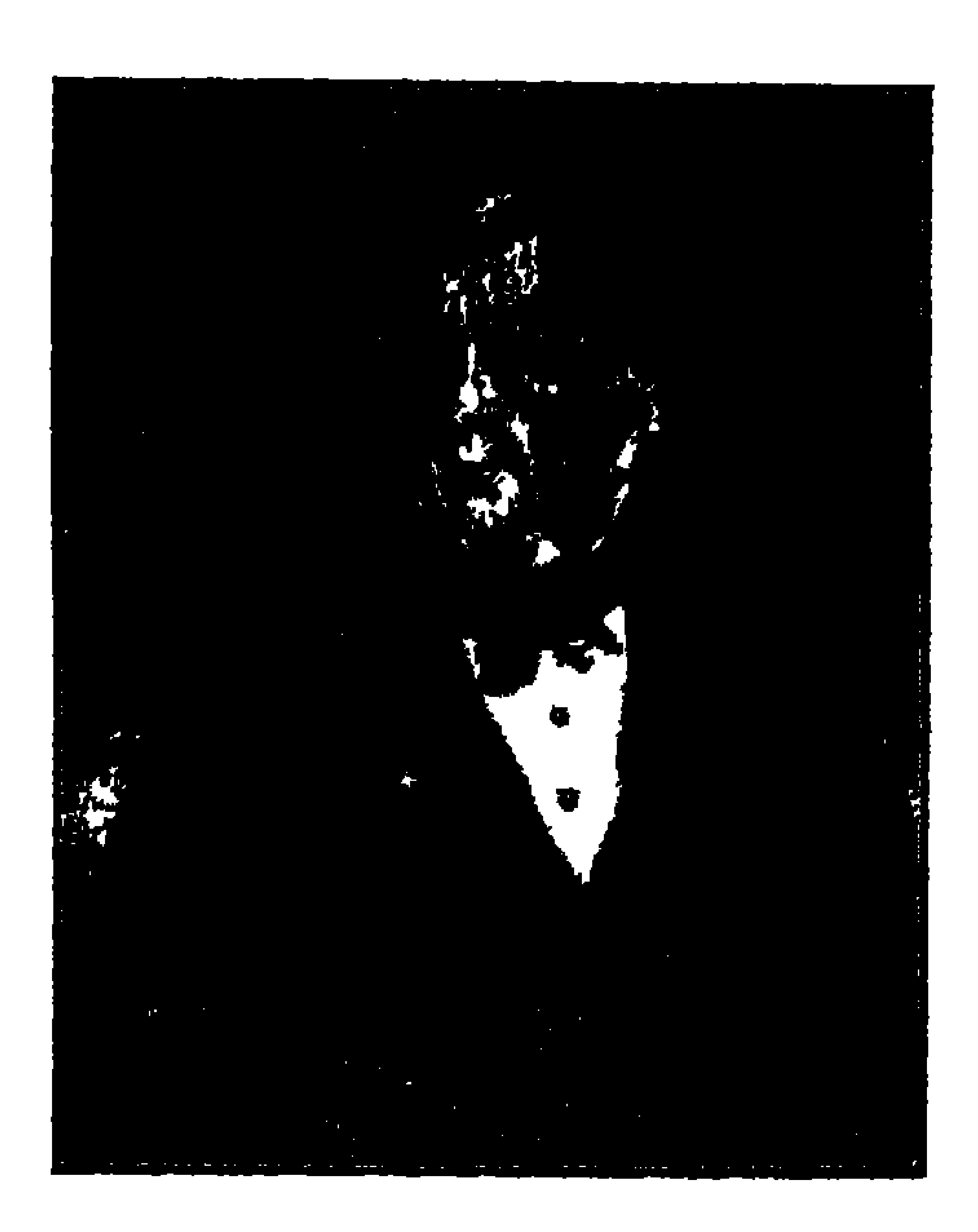


المستر جلادستون

موضوع الحديث الذى دار وقتئذ بينه وبين المستر غلادستون . فقد كان خاصا بمسألة فنية معقدة ناشئة عن قبول المستر جلادستون لرئاسة الوزارة قبل استقالته من البرلمان وإعادة انتخابه . وكان جدى السير جورج غراى [1] — قبل استقالته من منصبه — زميلا للمستر جلادستون فى عدة وزارات ، وقد حصل فى أثناء وجوده فى وزارة الداخلية على خبرة واسعة وتجربة متنوعة، ثم انتخب عضواً فى مجلس العموم مدة أربعين سنة، وما زال عضواً فيه. من أجل

(١) عين وزيراً لدوقية لانكستر فى وزارة لورد ملبورن الثانية سنه ١٨٤١ وعين وزيراً للداخلية فى وزارة لورد جون رسل الأولى (سنة ١٨٤٦ — ١٨٥٢) وعين وزيراً للمستعمرات فى وزارة لورد أبردين (سنة ١٨٥٤ — ١٨٥٥) وعين وزيراً للداخلية فى وزارة لورد بالمرستون الأولى (سنة ١٨٥٥ — ١٨٥٨) وعين وزيراً لدوقية لانكستر ثم فيما بعد وزيراً للداخلية فى وزارة لورد بالمرستون الثانيه (١٨٥٩ — ١٨٦٦) .

هـذا كله ، كان يعتبر حجة فى النظام البرلمانى . ولا ريب فى أن المستر جلادستون رحب بتلك الفرصة فانتهزها للبحث مع جدى فى الموضوع السالف الذكر .



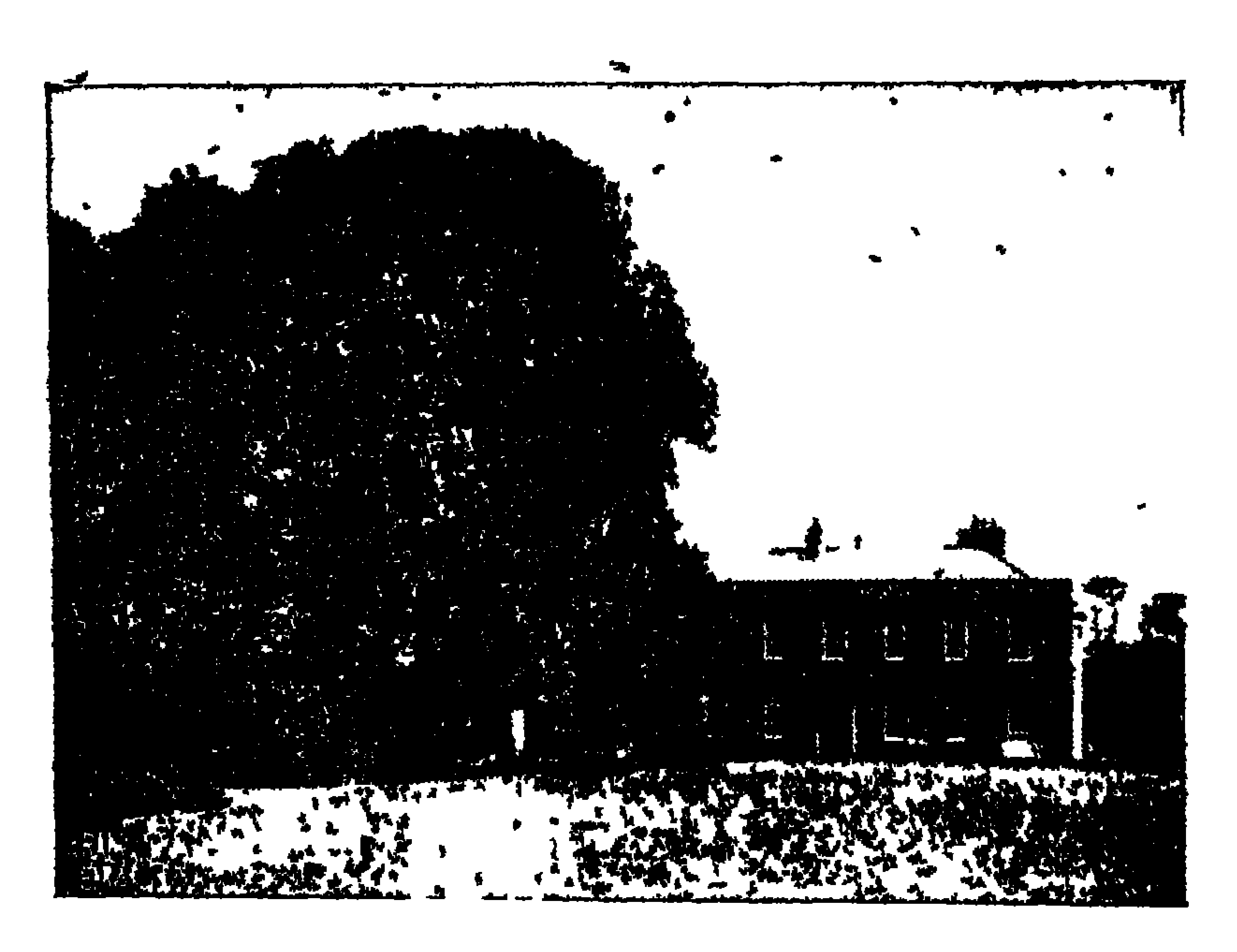
لورد بالمرستون رئيس الوزارة الأنجليزية سابقاً

وفى نهاية سنة ١٨٧٤ توفى أبى . وكان قد ظل بعد زواجه فى فاللودن ، حيث جعلت أمى تشرف على شؤون المنزل فى أثناء تغيب جدى وعقيلته فى لندن بمناسبة الدورة البرلمانية . فبعد انتقال أبى إلى الدار الآخرى بقينا جميعا فى فاللودن حيث حل جدى محل الأب فى العناية بأحفاده[١] .

---

(١) كنا سبعة أولاد أربعة ذكور وثلاث إناث . وقد نشرت شركة النشر المعروفة بشركة لونجمان وجرين وشركاها فى سنة ١٩٠١ ترجمة حياة السير جورج جراى التى كتبها الدكتور كريتون (أسقف لندن) . وقد أشار الدكتور فى أقواله التى تدل على معرفة دقيقة إلى استقامة أخلاق السير جورج ورقة عواطفه . ويستطيع من يقرأ تلك الترجمة أن يدرك ما نحن مدينون به من سعادة ونجاح إلى عطف جدنا وسموه . راجع التذييل حرف (أ) فى آخر هذا الكتاب .

ولست أذكر أنى عنيت بالاهتمام بالحوادث أو الشؤون العامة قبل ما وردت الأنباء باغتيال اللورد فردريك كافنديش فى دبلن سنة ١٨٨٢ . وكنت وقتئذ طالبا فى كلية بيليول بأكسفورد ، فانضممت إلى المطالبين بإعلان الحكم العرفى . وقد رددت هذه الرغبة أمام جدى ، فلم يكن منه إلا أن التفت إلى منتقداً وقال « إن إعلان الحكم العرفى معناه تعطيل سائر القوانين »!



الدار الحديدة فى فاللودن وقد جدد بناؤها سنه ١٩٢٣

وبعد أشهر معدودات توفى جدى . فانتقلت إلىّ ملكية العين والمنزل اللذين فى فاللودن . وفى سنة ١٨٨٤ ، أى بعد فترة طويله يسمونها عادة حياة الكسل والخمول — وإن كانت على عكس ذلك فيما يختص بى لأنها كانت حياة نشاط قوامها مواصله الجرى وراء اللهو البرىء كالألعاب الرياضية والصيد — بدأت أهتم فجأة بالأمور التى توصف بأنها خطيرة . فأقبلت على مطالعة كتب الأدب القيمة ، وهيج الشعر أشجانى إلى حد التحمس ، وبالجملة قد

عكفت على التلذذ بقراءة كل ما يعتبر جديا مهما كان مطولا أو مملا . وأذكر أنى شغفت بقراءة ترجمة حياة « جورج إليوت » عند ظهورها ، فلم أدع الكتاب حتى فرغت منه . كذلك كان اهتمامى بالشؤون العامة ، فقد تهافت على مطالعة المقالات الافتتاحية والمجلات السياسية . وفى بداية هذه اليقظة وقع لى حادث كان القول الفصل في اتجاه حياتى .

ففى سنة ١٨٨٤ إقترحت وزارة المستر جلادستون توسيع مدى الاقتراع العام حتى يشمل الولايات الإنجليزية بما يشبه الشروط التى منحت إحدى وزارات المحافظين بمقتضاها هذا الحق للمقاطعات فى سنة ١٨٦٧ . ولكن مجلس اللوردات ضرب عرض الحائط بالاقتراح المذكور . فعم التذمر كافة الولايات وتألفت فى مقاطعة « آلنويك » القريبة من فاللودن مظاهرة كبرى للمطالبة بالاقتراع العلم .

ولم تكن ميولى السياسية قد عرفت بعد ، ولكن اسم أسرتى كان متصلا منذ زمن بعيد بمشروع الاصلاح الموضوع فى سنة ١٨٣٢ . وقد مثل جدى فى مجلس العموم هذه الدائرة من سنة ١٨٤٨ إلى سنة ١٨٥٢ — بل كان فى الواقع آخر من مثلها من الأحرار — فطلب إلىّ أن اتبوأ كرسى الرئاسة فى مظاهرة « آلنويك » . وكان يلوح لى أنه ليس من العدل فى شىء أن يحرم رجال الأقاليم عامة وأقليم نورثمبرلاند خاصة من حق الاقتراع إسوة بغيرهم فى المقاطعات التى نالت هذا الحق منذ سنوات عديدة . وإذ كنت قد نشأت نشأة ريفية فإن حب الانصاف وشدة اهتمامى بالشؤون المحلية جعلانى أعطف كل العطف على جماعة المتظاهرين . لذلك لم أتردد فى قبول الدعوة لرئاسة الاجتماع . أما الخطبة التي ألقيتها وقتئذ فانها كانت عادية وموجزة ، وكانت أول خطبة عمومية ألقيتها فى الشؤون السياسية ، ولكني برغم ما اعترانى من القلق والارتباك فقد أديتها بأسهل مما كنت أظن . وإذ كانت مسألة توسيع مدى الاقتراع هي مدار الخلاف ومحور النزاع بين الأحزاب ، فان خطبتى فى الاجتماع

المذكور كانت فصل الخطاب فى ميولى السياسية، ومن ثم اتضح للملأ إلى أى حزب أصبحت أنتمى.

ثم رشحنى حزب الأحرار عن الدائرة الجديدة ، دائرة « بيريك على نهر تويد » التابعة لمقاطعة نورثمبرلند ، وتحتوى على جهة « آلنويك » والمناطق المجاورة لمنزلنا . وهناك تهافت على صناديق الانتخاب الناخبون الجدد الذين طالما ضجوا بالشكوى من حرمانهم من حق الاقتراع ، وهو الحق الذى نالوه الآن . فأقبلوا زرافات زرافات على صناديق الانتخاب لتأييد مرشح الحزب الذى أكسبهم ذلك الحق . وكانت النتيجة انتخابى للبرلمان فى نوفمبر سنة ١٨٨٥ .

وما هى إلا فترة وجيزة حتى حدث حادث آخر كان فيه فصل الخطاب بالنسبة إلىّ . ذلك أن وزارة جلادستون كانت قد اضطرت فيما بين سنتى ١٨٨٠ و ١٨٨٥ إلى تطبيق سياسة العنف والإرهاب فى إرلندا . ولطالما انهمكت الوزارة فى كفاح متواصل مع أعضاء البرلمان الإرلنديين المطالبين « بالهوم رول » وكانوا يعملون تحت لواء الزعيم بارنل الذى وصفه المستر جلادستون مرة بأنه يعمل على تقويض دعائم الإمبراطورية عن طريق السلب والنهب ! ! بيد أن ذلك لم يمنع وزارة المحافظين التى خلفت وزارة جلادستون فى الحكم فى أواخر صيف ١٨٨٥ من تقوية روابط الصداقة بينها وبين بارنل عقب المقابلة التاريخية بينه وبين لورد كارنارفون أحد اعضاء الوزارة الجديدة وحاكم إرلندا . نعم كان واضحا ان وزارة المحافظين لم تذهب إلى حد الوعد بإنشاء برلمان مستقل فى دبلين ، ولكنها بحثت فيما يمكن أن يترتب من الفوائد على توسيع اختصاص السلطات المحلية . وكانت مسالة « الهوم رول » إذ ذاك حديث الناس، وبالفعل انضم إلى المحافظين الأعضاء الإرلنديون فى الانتخابات العمومية التى دارت رحاها فى خريف سنة ١٨٨٥ مما أدى إلى زيادة عدد الأخيرين إلى أكثر من ضعفى عددهم السابق حتى صاروا الآن ٨٥ عضواً .

ثم رددت الألسن فى أوائل سنة ١٨٨٦ أن جلادستون سيؤيد سياسة «الهوم رول». وما لبثت الحوادث أن حققت هذه الأشاعة فقد انبرى للتنديد بالنظام العتيق الذى خضعت له إرلندا عشرات السنين، وقال إنه قد فشل أيما فشل! وبديهى أن تحول المستر جلادستون الفجائى وانقلابه إلى هذه السياسة الجديدة كان خطوة واسعة جريئة لم يستطع مجاراته فيها لفيف كبير من زملائه الأحرار الذين أيدوه من قبل فى معارضة المطالبين بالهوم رول. أما أنا فلحداثة عهدى بالحياة العامة لم أعد تلك الخطوة جريئة ولا واسعة. لهذا لم يكن فى تشيعى للمطالبين بالهوم رول أو للقائلين باتحاد إرلندا وانجلترا ما يمكن أن يعتبر تناقضا مع آرائى ومبادئى.

وليس يخامرنى شك فى أن جلادستون كان من حيث متانة الخلق ومضاء العزيمة وحدة الذهن أعظم رجل وقعت عليه عيناى. ولم أكن فى بداية دخولى إلى الحياة العامة قد عركت الحوادث إلى حد انطبعت فيه هذه الصفات فى نفسى كما انطبعت فيها فيما بعد وكما لا تزال مطبوعة حتى يومنا هذا. لهذا لم يكن تحول جلادستون هذا فى سنة ١٨٨٦ العامل الوحيد الذى كان فيه فصل الخطاب بالنسبة إلىّ.

وعلى أن هناك صعوبة ما تزال تقف - ولن تزال على الأرجح تقف - فى سبيل صاحب الفكر المستقل فى الحياة العامة. ومنشأها استحالة مجاراة عظماء الرجال فى كافة اطوارهم بلا تعرض للتناقض أو التذبذب. وبينما أن الطبيعة لم تخلق الرجال العاديين للقيادة والزعامة، كذلك يندر أن تسلك العقول الكبيرة الطرق المعبدة المالوفة إلا فترة قصيرة من الزمن فقط. ومن هنا يدرك الفرد العادى صعوبة مجاراة أرباب تلك العقول الجبارة واستحالة اللحاق بهم.

فاعتناق رجل له عظمة المستر جلادستون وخطورته لسياسة الهوم رول، وتحوله الفجائى من مهاجمتها إلى تأييدها والدفاع عنها، كان حقا حادثا مهما

يستوقف الأنظار بحيث دفعني إلى إطالة التفكير وإنعام النظر . وليس عليّ حرج أن أسلم بأن هذا التحول الفجائي أوقعني في حيرة وملأ نفسي شكوكا .

ثم وقعت عيناي على المقالات التي أنشأها جون مورلي في صحيفة البال مال غازيت في إبان تطبيق سياسة العنف والإرهاب التي لجأت إليها وزارة جلادستون لقمع الحركة الإرلندية . وقد بدا لي من تتبع تلاوة المقالات المذكورة أن منطقها مفحم لاسبيل إلى نقضه بالمغالطة او التهويش . أما الغاية التي كتبت من أجلها تلك المقالات فكانت التنديد بسياسة القمع التي ما كانت طبعا تصلح في العهد الحديث الحاضر نظاما ثابتا لحكم إرلندا . وكان المخلص الوحيد من ذلك النظام الإرهابي يتلخص في منح إرلندا الهوم رول



اللورد سلسبوري

وكنت أنا شخصيا مقتنعا تمام الاقتناع بذلك الرأى ، كما أن مورلى على ما تبين لى من كتابته كان صائب الرأى وغير متناقض فى كل ما يتعلق بإرلندا .

واجتمع البرلمان فى أوائل سنة ١٨٨٦ ، وسقطت وزارة سلسبورى وشكل جلادستون الوزارة مع علم الناس جميعا بأنه سيعرض على مجلس العموم مشروع قانون الهوم رول . وقد عين مورلى وزيرا لإرلنـدا ، واقتضى هذا التعيـين إعادة الانتخاب فى دائرة نيو كاسل الواقعة على نهر التاين . ولما اشتدت المنافسة بين مورلى وبـين خصمه مرشح المحافظين ، طلب إلىّ بذل المساعدة لنجاح مورلى - باعتبارى النائب عن الدائرة المتاخمة لدائرة نيوكاسل - ففعلت عن طيب خاطر . ومن ثم اصبحت أحد الأحرار المتشيعين لسياسة الهوم رول .

ولم يقع مايستحق الذكر فى السنوات الست الأولى التى قضيتها فى مجلس العموم . وقد حال تهافت الأعضاء الراغبـين فى التكلم فى موضوع الهول رول دون سنوح الفرصة لإلقاء خطبتى الأولى عند قراءة المشروع للمرة الثانية . وكان مثلى كمثل أعضاء كثيرين آخرين راموا القاء خطبهم الأولى فلم يتمكنوا. من أجل ذلك لم أدع إلى إلقاء الخطبة الأولى على الرغم من وقوفى للخطابة أكثر من مرة فى يومين متتاليين . وأخيراً أبلغت أن رئيس المجلس سيدعونى إلى الخطابة . ولكن مراقبى الحكومة ألحوا عليه بأن يدعو عضواً آخر أقدم وأكبر سنا منى لم تتح له فرصة الـكلام إلى ذلك الحين . ولعل هذا كان من حسن حظى لأن موضوع المناقشة كان أكبر من أن يتسع لما كان فى نيتى أن أقوله . ولا تنس أن تضيف إلى ماسبق عجزى وقتئذ عن الإلقاء. ولقد بلغ من ارتياحى لعدم زج نفسى فى ذلك المأزق أننى لم أشعر بغضاضة ما لعدم انتهازى هذه الفرصة السانحة .

بيد أن هذا المأزق لم يكن ثمة مناص من الانزلاق إليه يوما ما ، فاستجمعت قوى ونهضت ونجحت فعلا فى إلقاء خطبة فى موضوع المسألة



المستر أسكويث رئيس الوزارة البريطانية سابقا

الإرلندية · وبديهى أن توفيقى هذا كان دون توفيق أسكويث في خطبته الأولى التى ألقاها فى السنة نفسها ، والتى قيل فى صددها بحق ، أن المجلس أصغى لها باهتمام كما لو كانت لأحد الزعماء المبرزين · وعلى كل فإن خطبتى المتواضعة أصابت شيئا من التوفيق إذ سرعان ما وصلتنى على أثرها دعوة لتناول طعام العشاء أنا وقرينتى على مائدة السير وليام هاركورت واللادى عقيلته .

وفى سنة ١٨٨٨ بدت الأعراض الابتدائية للاستقلال · فإن وزارة المحافظين بينما كانت تعارض فى الهوم رول ، كانت فى الوقت نفسه تعمل على ترويج مشروع يرمى إلى ابتياع الأراضى الأرلندية . ومع أن هذا المشروع كان جزءاً من سياسة الهوم رول التى ابتكرها جلادستون فى سنة ١٨٨٦ ،

إلا أن حزب الأحرار لم يظهر استعدادا للموافقة عليه إلا باعتباره جزءا من سياسة الهوم رول . على أن بعض الاتحاديين ـ وهم القائلون باتحاد انجلترا وإرلندا ـ كان من رأيهم أنه يمكن وضع حد للهياج السياسى فى تلك البلاد بتسوية مسألة الأراضى الإرلندية على قاعدة جعل المستأجرين ملاكا . وهذا وإن كان مخالفا لرأيى إلا أننى كنت على استعداد للموافقة على ماينجم من النتائج عن مشروع شراء الأراضى. فإن أدى إلى نهاية الهياج السياسى فبها ونعمت ، وإلا فنكون على الأقل قد فصلنا المسألة السياسية عن مسألة الأراضى وهي مسألة فى غاية التعقيد . وعلى كل فإن تسوية مشكلة الأراضى هى فى مصلحة بريطانيا العظمى وإرلندا على السواء . ولقد وجدت هلدين على اتفاق معى فى هذا الرأى . ومن ثم نشأت بيننا صداقة ازدادت عراها توثقا بمرور الزمن . وقد خطبنا واقترعنا ضد حزبنا ، ولكن لفظة « منشقين » كانت تعتبر أسمى وأكبر من أن تطبق على عمل مستقل قام به عضوان لم ينخرطا فى سلك الحزب إلا منذ عهد قريب . وفيما عدا ذلك الاستثناء العرضى ، قد كنت على الدوام اقترع فى جانب الهوم رول ، وهى السياسة التى يعمل على تحقيقها حزب الأحرار . على أن شعورى بخلو الحياة من الإنصاف والمساواة ، قد أهاج أشجانى ودفعنى إلى العمل مع من كان يعتبر وقتذاك أنه الفريق الراقى فى الحزب ، وبينهم لفيف من الطلبة وصفهم مورلى فى خطبة له راعى فيها الحذر والاحتراس ، بأنهم جماعة من الشباب غارقون فى بحر الخيال . وهكذا انقضت ست سنوات كان جل الاهتمام دائرا فيها حول الجانب السياسى المتعلق بالشؤون الداخلية. وفى سنة ١٨٩٢ دارت رحى الانتخابات العامة فانتخبت عضواً للبرلمان للمرة الثالثة . وفى الفصل التالى يرى القارىء بدء الرواية التى يفتتح بها هذا الكتاب .

الفصل الأول

أول عهدى بوزارة الخارجية

الانتخابات العمومية فى سنة ١٩١٢ — وزارة المستر جلادستون الأخيرة — تعييني وكيلا لوزير الخارجية لورد روزبرى — أعمال وكيل الوزارة — إطراد السياسة — بريطانيا العظمى والتحالف الثلاثى — قواعد السياسة الخارجية البريطانية — التوازن الدولى .

أدت معركة الانتخابات العمومية التى دارت رحاها فى يولية سنة ١٨٩٢ إلى خروج الأحرار والوطنيين والإرلنديين منها بأغلبية ٤٠ مقعد فى مجلس العموم . وكان التحالف السياسى بين الأحرار والإرلنديين وطيدا وتاما . فلما التام عقد البرلمان فى شهر أغسطس ، تخلت وزارة المحافظين عن كراسيها ، وشكل المستر جلادستون الوزارة على أساس منح إرلندا الهوم رول . ومع أن الحزب الإرلندى لم يشأ الاشتراك فى الوزارة ، إلا أنه قطع على نفسه عهدا بتأييدها تأييداً كلياً،لأن الحكومة عقدت نيتها على أن تجعل باكورة أعمالها فى منصة الحكم أن تضع مشروع قانون للهوم رول وتسعى لحمل البرلمان على إقراره

وقد اختير لورد روزبرى لوزارة الخارجية . ولقد قيل وقتئذ أنه ما قبل هذا المنصب إلا بعد تردد كثير ، وبعد أن ألحت عليه جهات لاتمت للأحرار بصلة ما حيث أفهمته أن المصلحة العامة تقتضي وجوده في وزارة الخارجية . فوقع اختياره علىّ لأكون وكيل وزارته البرلمانى .

ولم يكن قد سبق لى التمرس بأعمال وزارة الخارجية ، لا بل إننى لم أكن إلى ذلك الوقت قد اعطيت الشؤون الخارجية شيئا من التفانى واهتمامى . بيد أن الشاب الذى يعين وكيلا برلمانيا لايتعين عليه حتما أن يلم بالأمور



اللورد روزبرى

إلمام الإخصائى بها . أو بعبارة أخرى أن مهمته ليست فى أن يكون إخصائيا ، وإنما المراد مرانه على الاضطلاع باعباء الشؤون العامة . فالحكم النيابى ليس معناه لا في القول ولا فى العمل الحكم بواسطة لفيف من الإخصائيين — كلا بل معناه حكم البلاد بواسطة رجال ذوى خبرة عامة وكفاءة معترف بها يهيمنون على أعمال الإخصائيين الذين هم فى الواقع موظفون مدنيون فى مصالحنا العامة .

وليست للوكيل البرلمانى لوزارة الخارجية — فى العرف السياسى — كلمة

مطلقا فى تسيير الدفة السياسية ، هذا مع أن له حق الاتصال فى أى وقت برئيسه وزير الخارجية ، وإبداء رأيه فى أعمال الوزارة تحريريا أو شفويا ، واعتزال منصبه إن رأى أنه على أختلاف مع رئيسه ، والاطلاع على كافة البرقيات والرسائل المهمة بعد أن يكون رئيسه قد بت فيها . فمهمته في الواقع تشمل الوقوف على كل شاردة وواردة مما يجرى فى جدران الوزارة ، واستحضار جميع المعلومات التي قد يرغب بعض أعضاء مجلس العموم الرجوع إليها فى نقطة من النقط ، وإلقاء بيانات عن الشؤون الخارجية تكون متفقة تمام الاتفاق وسياسة الوزارة ، والدفاع عن تلك السياسة وشرح مراميها بشكل لا يجرح شعور الدول الأجنبية . فهو لا يتحمل تبعة زلات اللسان أو عدم التبصر . نعم عليه أن يستعمل التروى وأن يتوخى الفطنة ، ولكن مع عدم المبالغة فى الاحتياط والتحفظ . ولعمرى لقد كان هذا المران مدعاة إلى الاعجاب فضلا عن أنه كان ممتعا فى الوقت نفسه وخاصة — وهو ما كان يحدث فى بعض الأحيان — عند وقوع خلاف فى الرأى بين الوزراء بعضهم وبعض ، وانتهاء هذا الخلاف بوضع قرار بالتوفيق بين الآراء المتباينة .

ففى مثل هذه الأحوال يخطر الوزير وكيله بما استقر الرأى عليه ويصدر له التعليمات اللازمة . وعلى الأخير بعد ذلك أن يشرح تلك السياسة لمجلس العموم مبينا مراميها — مع شىء من الإسهاب أحيانا — وبشكل مرض لفريق من الوزراء ، مع عدم التفوه بشىء قد يعده فريق الوزراء الآخر أنه خروج على الحل الوسط الذى سبق أن تم عليه الاتفاق . وبديهى أن الوكيل يفعل ذلك كله مع العلم بأنه لم يكن حاضراً اجتماع الوزراء الذى دارت فيه المناقشات وتباينت فيه الآراء وتقررت فيه السياسة الواجب اتباعها ! وليس يخفى أن مثل ذلك البيان يلقى على رؤوس الأشهاد وفى مواجهة حزب معارض يتربص الفرص لإحداث ثغرة فى سياسة الحكومة ، وعلى مسمع من وزراء كان لهم ضلع فى تقرير تلك السياسة . وكثيراً ما يكون الحل الوسط المذكور خاتمة فاترة لمناقشات ممتعة — وممتعة جداً — أحيانا . ففى هذه الحالة يعتبر بمثابة ملطف أو

مسكن وإن لم يكن دائما منافيا لسياستين متباينتين ولا طريقا وسطا بينهما . وقد يتراءى للوكيل أن ذلك الحل الوسط هو عبارة عن الأخذ برأى أحد الفريقين فى السياسة الواجب إتباعها وتقييد ذلك الرأى بشروط يضعها الفريق الآخر عن كيفية رسم هذه السياسة وطريقة إعلانها للملأ .

ومهما يكن من أمر فإنه لم يكن بين الوزراء خلاف ما فى الشؤون الخارجية الخطيرة فيما بين سنتى ١٨٩٢ و١٨٩٥ . ولعل الخلاف الرئيسى الوحيد كان بسبب أفريقية الشرقية البريطانية وأوغندا ، وهل تصيران مستعمرتين بريطانيتين بصفة نهائية ، وهل تمد سكة حديدية إلى أوغندا أم لا تمد ؟ وكانت تلك المسائل من اختصاص وزارة الخارجية ، ولكن نظراً لارتباطها بالتوسع الإمبراطورى لا بالسياسة الخارجية ـ فقد أحيلت فيما بعد إلى وزارة المستعمرات وهو ما كان ينتظر بطبيعة الحال . وقد انتهز المحافظون ـ وهم حزب المعارضة ـ تلك الفرصة فحملوا على الوزارة حملة شعواء مع أنهم ـ والحق يقال ـ كانوا يؤيدونها تاييداً عاما فى المسائل الخارجية سواء فى إبان وجود لورد روزبرى فى وزارة الخارجية أو عند تبوئه رئاسة الوزارة . لهذا لا أرانى فى حاجة إلى الأسهاب فى مسائل كان يلوح وقتئذ أنها مهمة ومعقدة . ولنبحث الآن فى مسائل السياسة الخارجية التى هى بيت القصيد فى هذا الكتاب .

وضع المستر جلادستون نصب عينيه قبل انتخاب سنة ١٨٩٢ وفى اثنائها مبدا فصل الشؤون الخارجية عن السياسة الحزبية . لا بل لقد صرح مرة فى خطبة له أنه لا يأخذ على لورد سلسبورى شيئا فى سياسته الخارجية بين سنتى ١٨٨٦ و١٨٩٢ ، ولهذا قرر إبعاد السياسة الخارجية عن متناول المنازعات الحزبية .

فما كاد لورد روزبرى يستلم أزمة وزارة الخارجية حتى بادر بإبلاغ سفراء دول التحالف الثلاثى[1] باعتزامه مواصلة سياسة لورد سلسبورى ، وأنى لأذكر

(١) كان التحالف الثلاثى مكونا من ألمانيا والنمسا وإيطاليا . المعرب

بين ما وقع عليه نظرى فى أول عهدى بوزارة الخارجية، أننى قرأت وصفا لما دار من المحادثات مع السفراء المذكورين عند ما أبلغهم لورد روزبرى تلك النية. فقد جاء فى ذلك الوصف أنهم جميعا أعربوا عن ارتياحهم القلبى لهذا التبليغ.

ولا جدال فى أن السياسة التقليدية التى سلكتها الوزارة الجديدة ازاء دول التحالف الثلاثى كانت لحمتها الصداقة وسداها المودة. فلم يكن هنالك ارتباط بتعهد أو بوعد أو باتفاق ما. بمعنى أن تلك السياسة كانت طليقة من كل قيد بحيث يمكن تعديلها أو تغييرها فى أية لحظة حسب مقتضيات الأحوال. وقد حرصت انجلترا على عزلتها وحريتها فى العمل حتى أن المسترجوشن احد أعضاء وزارة لوردسلسبورى وقف يخطب مرة من مقاعد الوزراء فى مجلس العموم فوصف تلك السياسة بأنها سياسة «عزلة جليلة». على أنه كان يوجد برغم ذلك ترتيب معين اصبح فى عرف الناس وقتئذ بمثابة ترتيب عملى، وكان ظاهرا للعيان ومحسوسا بحيث أن الصحف الفرنسية ما كانت تترك اية فرصة يحدث فيها تشاد بين فرنسا وانجلترا إلا وتنبرى للحملة الشديدة لا على التحالف الثلاثى، بل على ماسمته التحالف الرباعى اوسبب ذلك أن الوزارات البريطانية كان من عادتها فى ذلك الزمن أن تقف فى الشؤون السياسية الى جانب دول التحالف الثلاثى. وأخلق بالذين يذهبون بين الناس مؤكدين أن سياسة بريطانيا العظمى كان دائما أساسها التوازن الدولى فى اوربا ان ينعموا النظر هل كانت تلك السياسة منصبة تماما على ذلك المبدأ فى تلك السنوات الخالية؟

واست أذكر أننى فهت مرة بعبارة «التوازن الدولى» بل بالعكس طالما تعمدت اجتناب استعمالها. ولست أظن أيضا أننى قصدت إلى وضع «التوازن» نصب عينى كمطمح يسعى الانسان إلى تحقيقه. لذلك لا أرانى بحاجة إلى الإسهاب فى شرح ماهية التوازن ولا ما هى حدوده ومراميه. فغايته على ما يخيل إلىّ، أن تنضم انجلترا فى حين ظهور دولة قوية أو كتلة من الدول القوية فى أوربا ـ تنضم إلى جانب كتلة أخرى من الدول، وبذا يحفظ التوازن فى القارة

الأوربية ضد تلك الدولة أوالدول القوية المذكورة. ولقد ظل التحالف الثلاثى فى خلال سنة ١٨٨٦ وما تلاها ـ أى فى عهد وزارتى لورد سلسبورى ولورد روزبرى أقوى كتلة سياسية وأعظم أداة فى أوربا بلا ممانع . ومع ذلك فقد سلكت بريطانيا العظمى نحوه سياسة ودية حتى قبل أن تعقد روسيا وفرنسا محالفة بينهما لحفظ التوازن ضده .

وقد ظل هذا منهج الحكومة البريطانية سنوات عديدة . ومع أن التحالف الثلاثى كان لا يزال العامل المسيطر على السياسة الأوربية فإن بريطانيا العظمى لم تحاول فى خلال الفترة المذكورة ، أن توجد توازنا ضده بل بالعكس كانت واقفة إلى جانبه . ولست أجزم هنا أن هذه السياسة الودية لو أنعم فيها النظر بطريقة جدية تتنافى حتما مع النظرية التى عرفت عن ميل السياسة البريطانية على الدوام الى الاحتفاظ بالتوازن فى أوربا ، ولكن وجود تباين محسوس بين تلك السياسة الودية ونظرية التوازن يحتم علينا أن نستعرض ما يسمى بسياسة الحكومة البريطانية أزاء التحالف الثلاثى ابتداء من سنة ١٨٨٦ إلى نهاية القرن الغابر ، وأن نستوعب البواعث التى دعت إلى انتهاج تلك السياسة .

فالباعث الحقيقى ـ لافى هذه المسألة فحسب بل فى كافة الشؤون الخارجية البريطانية ـ ليس مرجعه إلى أصالة رأى أو بعد نظر ولا أية فكرة خطيرة أو مشروعات جسيمة . وهنا لا يسعنى إلا أن أقول أن الوزير الذى قلما يجد وقتا كافيا للالتفات إلى شؤون أخرى بسبب انهماكه فى أعمال وزارته ـ وخاصة إذا كانت وزارة رئيسية ـ لابد أن تتملكه الدهشة عند ما يرى الملأ ـ سواء منهم القادح والمادح ـ يعزون إليه مشروعات محكمة الوضع وبواعث خفية عميقة ربما كانت أبعد الاشياء عن فكره ! وأحسب أن اختلاق مثل هذه الاوهام وتصورها يتسع لها وقت المتفرج الذى يشهد سير الحوادث دون أن يرهق عاتقه عبء المسؤولية . فأمثال هذا المتفرج هم الذين يعزون

إلى الوزراء أموراً كثيرة لا يتسع وقت الوزراء لاختراعها لأنفسهم مهما سلمنا جدلا بأنهم من القدرة والكفاية بحيث لا يعييهم اختراع أمثال تلك الأوهام. وفى اعتقادى أنه اذا ما انحسر اللثام عن كافة الأسرار، لتبين للإنسان أن وزراء خارجية بريطانيا كانوا يسترشدون فى اعمالهم كلها بمصلحة البلاد المباشرة دون أى تفكير فى ماعسى أن يأتى به المستقبل . ولعل اكبر مزايا أولئك الساسة كانت سلبية أكثر منها إيجابية . فلم يعرف عنهم العمل على إدخال أى تغيير فجائى فى اتجاه السياسة البريطانية ، ولا الميل إلى احداث المضار أو اثارة الأحقاد بين الأمم بعضها وبعض بقصد الاصطياد فى الماء العكر ، بل بالعكس كانوا قد ألهموا أن السلام واستقرار الاحوال فى أوربا شرطان جوهريان لانتعاش التجارة البريطانية . لهذا كنت تراهم يتحاشون قدر ما استطاعوا ، تقييد أنفسهم باحتمالات المستقبل وماقد يقع أولا يقع فيه من الحوادث ، ولا يشجعون فى بعض النواحى آمالا قد يتعذر عليهم تحقيقها ، ولا يفوهون فى أى وقت إلا بما يعنونه فقط مجردا عن العبارات الجوفاء الخلابة . وأحسب أن مصالح الإمبراطورية البريطانية قد صينت بصفة عامة بهذه الوسيلة، أى أنه لم تحدث أغلاط خطيرة عرضت البلاد للخراب كما كان يرجح أن يقع ممن يسمونهم بالمفكرين الكبار وهم الذين الفوا أن يحسبوا للزمن حسابه ويعدوا للحوادث عدتها قبل وقوعها بأمد طويل، فيما لو أخطأهم التوفيق أو أرتج دونهم باب التفكير الصحيح . كذلك أمكن أن تنجو سفينة الإمبراطورية البريطانية من الارتطام بصخرة المصاعب وهو ما كان يحدث حتما لو أن الإشراف على السياسة الخارجية انتقل من يد قوية موفقة إلى أخرى ضعيفة واهنة .

على أن الناقد قلما يعجزه أن يشير إلى نقائص وأغلاط عديدة فى سياسة بريطانيا الخارجية فى خلال المائة عام الماضية . وقد لا يكون من الحيف أو الجور فى شىء أن يكشف الإنسان عن هذه النقائص بله وأن يندد بها ، ولكن قل لى بربك أين هى الدولة الأوربية التى يسعها أن تزعم أنها لم ترتكب

خطأ مرة واحدة فى سياستها الخارجية فى خلال مائة عام ؟ على أن الفضل فى تلافينا الأغلاط لا يعود الى براعة وزراء خارجيتنا أو لكياستهم بقدر ما يعود بلا جدال إلى الصفات الأخلاقية الغريزية فى الشعب الإنجليزى، وإلى ما لموقع انجلترا من المزايا الجغرافية . على أننا لا نعدو محجة الصواب إذا قلنا بصفة إجمالية أن إدارة الشؤون الخارجية كانت فى الغالب منصبة على تطورات الإمبراطورية وحاجاتها .

أما من حيث استطاعة السياسة الانجليزية أو عدم استطاعتها منع وقوع الكارثة الأوربية فى سنة ١٩١٤ فهذه مسألة سنوفيها هى وما يتصل بها من المسائل الأخرى حقها من البحث متى وصلنا إلى دورها فى سياق الحديث . والآن نعود إلى بيان الأسباب التى حدت بالسياسة البريطانية فى سنة ١٨٧٦ وما تلاها إلى ممالأة التحالف الثلاثى وشد أزره . وفى مقدمة هذه الأسباب أن الإمبراطورية البريطانية كانت فى تشاد لا ينقطع أمده مع فرنسا وروسيا . هذا إلى أنه زاد فى وطأته عما كان بين انجلترا ودول التحالف الثلاثى من تشاد . فكان من البداهة من جهة أن تنحاز بريطانيا العظمى إلى الدول التى لم يكن بينها وبينها نزاع جدى، ومن جهة أخرى فقد كنا بحاجة إلى تأييد سياسى فى مصر، وهذا نظرا إلى أن ماقام به لورد كرومر من الأعمال فى وادى النيل كان من الأهمية بحيث لا سبيل إلى التخلى عنه بدون تضحية المصالح البريطانية وإلحاق أبلغ ضرر بها . ثم إنه لم يكن من مصلحة مصر لا من الوجهة المالية ولا من الإنسانية أن نفكر فى التخلى عنها دون أن يلحقنا العار . ولكن كل هذا كان يتوقف على تأييد ممثلى الدول الأجنبية فى القاهرة . وبما أننا كنا هناك وجها لوجه أمام معارضة روسيا وفرنسا فلم يكن لنا إذن غنى مطلقا عن تأييد دول التحالف الثلاثى . تلك كانت أسبابا محسوسة عدها بعض الناس — على ما أظن — كافية لانحياز سياستنا نحو ألمانيا . ولكن تحت هذه الأسباب جميعا، وجد سبب آخر هو بمثابة



اللورد كرومر

الدعامة منها ألا وهو وجود اعتقاد عام — على ما أظن — بأن بأس التحالف الثلاثى وجهته خدمة السلام العام فى أوربا وتوطيد دعائمه ، والعمل على استقرار الحالة فيها ، وأن فرنسا وروسيا برغم كونهما الفريق الأضعف شأنا والأرق حالا لو قيس من الوجهة العسكرية بالفريق الأول — فإنهما اشد دول أوربا تبرما بالحالة العامة بعكس دول التحالف الثلاثى التى كانت راضية ومرتاحة لها . يخرج الانسان من كل هذا بالنتيجة الآتية وهى ان بريطانيا العظمى لم تكن من الناحية النظرية تعارض في سيطرة أية كتلة أوربية كائنا من كانت طالما كان رائدها العمل على استقرار الحالة وتوطيد دعائم السلام . مثل هذه الكتلة تجد السياسة البريطانية نفسها على العموم مدفوعة إلى تأييدها ، أما إذا تحولت من العمل على توطيد دعائم السلام إلى زعزعة أركانه والتحرش بالغير ، فإن انجلترا إذا ما اقتنعت بأن مصالحها باتت عرضة للخطر ، تتحول هى بدورها وتسلك — إن لم يكن عن عمد فبدافع غريزة الدفاع عن النفس على الأقل — سياسة يصح وصفها بأنها سياسة احتفاظ بالتوازن .

الفصل الثانى

النشاد مع ألمانيا وفرنسا

حادث فى القاهرة — الجانب الخشن فى الصداقة الألمانية — وساوس فرنسا — أزمة فى سيام — إعتذار فى أوانه — المتاعب فى أفريقيا الغربية — « تصريح غراى » — منشأ هذا التصريح — إعتراضات الوزارة — بريطانيا العظمى واليابان — بدء الصداقة .

سرعان ما أدركت أن سياسة الصداقة نحو التحالف الثلاثى مهما كانت داعية إلى ارتياح حكومات ألمانيا والنمسا وإيطاليا ، فليست ملائمة لنا من بعض الوجوه. فلم يقض لورد روزبرى فى وزارة الخارجية سوى زمن يسير حتي حدث له حادث مؤلم .

ذلك أن تركيا كانت تفكر فى مد سكك حديدية لتحسين حالة آسيا الصغرى . ولم يكن من الهنات الهينات وقتئذ الحصول على امتيازات بمد سكك حديدية أو عداها من الحكومة التركية بدون مجهود سياسى ، فلا أمل لطالب امتياز فى نيله مالم تساعده حكومته ، مهما كان ما يعرضه على الحكومة التركية من الشروط خلابا . ومهما كانت القاعدة التى تقوم عليها الشروط سليمة من الوجهة الاقتصادية .

فحيثما كان الضغط السياسى هو القاعدة لم يكن ثمة مندوحة عن الالتجاء إليه لنجاح المصالح التجارية . وقد كانت بعض الشركات البريطانية تسعى للحصول على امتياز بمد سكك حديدية فى آسيا الصغرى ، وكان السفير البريطانى فى الاستانة — بموافقة وزارة الخارجية — يساعدها للحصول عليه . ولم تكن الشركات الألمانية اقل سعيا للحصول على ذلك الامتياز

إنذار نهائى من برلين طلب إلينا فيه أن نكف عن مزاحمة الشركات الألمانية فى طلب الحصول على امتيازات السكك الحديدية فى تركيا ، وإلا فإن القنصل الألمانى فى القاهرة يتخلى عن تأييد الإدارة البريطانية هناك . وقد أرسلت تعليمات بهذا المعنى فعلا وبلا إمهال إلى المعتمد الألمانى فى القاهرة . وما هو أن وصل هذا الإنذار حتى تسلمنا بعده بساعات قليلة برقية باعثة على اليأس من اللورد كرومر يقول فيها إنه يستحيل عليه مواصلة عمله فى مصر بدون تأييد ألمانيا وذلك نظرا لمعارضة فرنسا وروسيا [1]

وقد ترك هذا العمل الفجائى المصحوب بالخشونة أثراً سيئا فى نفسى . وليس يمكن أن يقال إن اعتراض ألمانيا كان فى جوهره خاليا من الوجاهة بالمرة . فقد كان لها الحق على كل حال أن تطلب منا — فى مقابل تأييدها لنا فى مصر — أن لا نزاحم بعض المصالح الألمانية المعينة فى جهات أخرى . ولكنها لو نوهت إلى ذلك لما وسعنا عدلا أن نرفض البحث معها للوصول إلى ماقد تعرضه على بساط البحث من اتفاق معقول . غير أن الطريقة الجافة التى سلكتها أزاءنا لم تكن مما يستعمله الصديق نحو صديقه . ولم يكن لنا معدى عن الإذعان لطلبها تفاديا من فتح باب المسألة المصرية على مصراعيه من جديد فى وقت لا تقف فيه إلى جانبنا دولة واحدة من الدول العظمى . فتخلى لورد روزبرى عن المزاحمة الخاصة بامتيازات السكك الحديدية المذكورة وبذا عادت الأمور إلى مجراها الطبيعى فى القاهرة واعتبر الحادث أنه انتهى. على أنه ترك وراءه شعوراً سيئا وأثرا كريها . فقد كشف عن ضعفنا الناجم

(١) للوقوف على العلاقات بين بريطانيا العظمى وألمانيا فيما يختص بمصر راجع « ترجمة حياة لورد غرانفيل » بقلم فتزموريس الفصل التاسع من المجلد نفسه والفصل الثانى عشر . « على أثر سقوط وزارة المستر جلادستون الثالثة أدرك اللورد سلسبورى — بعد رجوعه إلى دست الحكم مرة أخرى — أن الحاجة ماسة إلى عقد اتفاق مع ألمانيا . وقد ظل مركز انجلترا فى مصر مدة أعوام متوقفا على حسن نية التحالف الثلاثى. وبخاصة ألمانيا

عن مركزنا فى مصر . وبديهى أن ألمانيا كان بوسعها إعادة هذه الكرة كلما راق لها إبعادنا عن كل ميدان تجارى تكون لها مصلحة فيه . فطالما أننا جعلنا أنفسنا مسؤولين عن حكم مصر فإن الامتيازات الأجنبية تظل بمثابة الربقة المشدودة إلى أعناقنا تستطيع أى دولة لها حقوق بمقتضى تلك الامتيازات أن تشدها أو ترخيها تبعا لمقتضيات الأحوال .

وقد شدت ألمانيا فى الحالة التي نحن بصددها الربقة بشيء من العنف. وعلى كل فإن الحادث كان حجة على سخف مبدأ « العزلة الجليلة » إذ لم تكن هناك « عزلة » ثم إنها لم تكن « جليلة » بالمرة ! على أن الحادث مر دون أن يترك أثرا فعالا فى سياستنا، ولكنه دفعنا إلى انعام النظر فى ضعف مركزنا. ومن يدرى أن تجارب كهذه كانت بعض العوامل الفعالة فى السياسة التى نهجها خلفاؤنا فى الحكم فى وزارتى المحافظين الاتحاديين اللتين شكلاها لورد سلسبورى والمستر بلفور.

وقد عرضت للسياسة البريطانية وقتذاك أمور كانت أشد خطراً وأكثر تكديراً للخواطر من مجرد إظهار الجانب الخشن فى الصداقة الألمانية بين آن وآخر. مثال ذلك التشاد المستمر بين بريطانيا العظمى من جهة وبين فرنسا أو روسيا من جهة أخرى، وهو تشاد كان ينشأ لأقل الأسباب وأوهى الدواعى. فالتشاحن بين الفريقين كان متواصلا لا نهاية له . وليس يخفى أن المصالح البريطانية متماسة مع مصالح فرنسا أو مصالح روسيا فى كثير من أنحاء المعمورة. ومن أخطر العوامل دائما أن يوجد عند تماس المصالح جو مشبع بسوء النية. ففيه تنمو الوساوس وتتضاعف الشكوك كما ينمو النبات الخبيث فى الجو المكفهر القاتم . فلا تلبث إحدى الحكومتين ان تعزو كل ما تأتيه الأخرى من أمور مستقيمة رشيدة إلى بواعث دنيئة، ولا يفتا مندوبو كل من الحكومتين فى نفس المكان يخزون وزارة المستعمرات فى بلادهم ويستفزونها بالأقاصيص ملفقة عما يفعله مندوبو الحكومة الأخرى . وهكذا قد تصبح للحادث التافه أهمية عظيمة لاتلبث أن تهدد السلام بين الدول العظمى . وكانت هذه

هي نفس الحالة الموجودة وقتئذ بين فرنسا وبريطانيا العظمى. وليس مانشا من النزاع بسبب سيام فى سنة ١٨٩٣ إلا أحد الأمثال العديدة على أن الأمر التافه قد يؤدى أحيانا إلى كارثة فجائية عاجلة. ولما كان المثل المشار إليه يبين الحالة أصدق تبيين فيجدر بنا أن نذكر تفاصيله.

فقد طالبت فرنسا باسم مستعمراتها فى شرقى آسيا بحدود معينة عدتها حكومة سيام افتئاتا على حرمة أراضيها. وليس يخفى انه توجد فى شرقى آسيا جهات عديدة يمكن أن تفتح الدعاوى الأرضية فيها المجال واسعا لكثير من الجدل والمناقشة. ويبدا البحث فيها عادة بالمسائل الرئيسية ثم ينتهى بالأمور التافهة. ولا حاجة بنا الآن إلى إثارة الجدل فى ماهية النزاع الذى كان بين فرنسا وسيام. فكثير منا يذكر أن هذه الأسماء الغريبة « كنهن ميكونج » وعطفته الكبرى» «باتامبانج» الخ الخ كانت يوما ما من الألفاظ المألوفة التى رددناها فى منازلنا مع أن النزاع لم يكن يمسنا مباشرة. نعم كانت لنا مصالح تجارية فى سيام بحيث كان يهمنا استقلال تلك البلاد وسلامة أراضيها من هذه الوجهة. زد على ذلك أنها كانت نسبيا دولة ضعيفة وهو ما حرك فى نفوسنا عاطفة النخوة، حتى لقد بلغ الأمر بأحد زعماء حزب المحافظين أن هدد الفرنسيين من مقاعد المعارضين الأمامية بالأسطول السيامى الذى وصفه بأنه عمارة صغيرة مجهزة وصالحة للعمل. ولم يكن يخامرنا شك ما فى فداحة الطلبات الفرنسية. على أننا بالرغم من ذلك كله قد قصرنا عملنا على اتخاذ ما شعرنا بضرورة اتخاذه من الاحتياطات لحماية الرعايا البريطانيين والأملاك الانجليزية فى بانجكوك عاصمة سيام الواقعة على نهر مينام.

وتحقيقا لهذه الغاية صدرت الأوامر إلى بعض سفن الأسطول البريطانى بالسفر إلى المياه السيامية. وقد رابطت الطرادات عند مصب النهر فى حين أن إحدى المدفعيات واسمها « لينيت » واصلت سيرها فيه، إلى أن ألقت مراسيها أمام بانجكوك حيث كلفت بالبقاء فيها لحماية الأرواح والأملاك

البريطانية فيما لو اضطرب حبل النظام . كذلك أرسلت الحكومة الفرنسية بعض قطع أسطولها ، للضغط على حكومة سيام وحملها على الإذعان للمطالب الخاصة بالأراضى الواقعة عند الحدود . ولكنها لإدراك هذه الغاية ضربت « الحصار السلمى » على شواطىء سيام ، ورابطت السفن الفرنسية فى خط لحصار الذى جعل خارج مصب نهر مينام .

وكان رأى بريطانيا العظمى أنه لا يوجد ما يسمى بـ « الحصار السلمى » ولذا لم يكن يسعنا الاعتراف بما لا أصل له فى القانون الدولى . لأننا لا نعترف بحالة « الحصار » إلا إذا كانت عملا من أعمال الحرب ليس غير . وسرعان ما ثار النزاع بيننا وبين فرنسا حول هذه النقطة . ثم وقع حادثان جعلا كل أنسان لمدة أربع وعشرين ساعة يعتقد أن الحرب بين بريطانيا العظمى وفرنسا باتت ولا مناص منها . فقد وردت برقية بأن إحدى الطرادات الفرنسية المحاصرة لمصب نهر مينام قد أدارت مدافعها على إحدى الطرادات البريطانية الراسية وهى تجتازها، وأمطرتها وابلا من قنابلها . وليس يخفى أن عملا كهذا يعتبر إهانة عظيمة يسوغ العرف البحرى لقومندان السفينة البريطانية أن يرد عليه بإطلاق قنابله على السفينة الفرنسية . ومع أنه لم يكن يمكن تجاهل حركة القومندان الفرنسى، فان القومندان الإنجليزى لم يرد عليها وقتئذ بإطلاق النار . لهذا صار يتعين المطالبة على الأقل بتقديم اعتذار عنها . ولما كان يلوح أن ذلك الاعتداء الفرنسى متعمداً أو مقصوداً فقد ساد فى الأذهان أن فرنسا تأبى حتما تقديم ذلك الاعتذار .

ووردت حوالى الوقت نفسه برقية أخرى بأن الأميرال الفرنسى أمر المدفعية لينيت بمغادرة بانجكوك . وبما أنها كانت أرسلت خصيصا فى العاصمة السيامية لحماية الأرواح والأملاك البريطانية ، ونظراً إلى أن ضرب حبل الأمن أصبح الآن أكثر احتمالا منه فى أى وقت مضى . . لكن يمكن أن يدور بخلدنا أن نأمر بسحبها. يضاف إلى ذلك أنه

لم يكن من شأن الضباط البحريين الفرنسيين فى حال من الأحوال أن يصدروا اليها الأوامر . فابرق لورد روزبرى فى الحال بأن تبقى المدفعية فى بانجكوك . وهكذا ساد الاعتقاد مدة أربع وعشرين ساعة بأن الفرنسيين يتحدوننا عمداء، وأن الحرب آتية لا ريب فيها . ولقد لاكت الألسن فى وزارة الخارجية إشاعة فحواها أن الإمبراطور الألمانى -وكان قد جاء إلى زيارة الملكة فيكتوريا - اطلع على البرقيات المذكورة فى بحثه فى جهة «كاوز» وأنه اعرب بشىء من السرور الظاهر عن رأيه بأن لا مخرج من الحادث المذكور بغير الحرب[1] وهكذا ظلت وزارة الخارجية عدة ساعات فى قلق شديد.

وما عتم أن وصلت برقيتان أخريان، وفى أولاهما أن الأميرال الفرنسى لم يامر المدفعية لينيت بمغادرة بانجكوك ، بل إنه نظرا إلى خط الحصار الذى ضربه حول الشواطىء ، خيرها بين أن تبقى فى بانجوك وبين أن تنسحب إلى الخارج تفاديا من اقتحام الخط الفرنسى وخرق الحصار . وهكذا وضعت هذه البرقية بلا شك حادث المدفعية لينيت فى ضوء آخر . ولما لم نكن قد اعترفنا بالحصار فقد كان من الممكن أن لا نلبى الأميرال الفرنسى إلى طلبه . ولكن بما أننا كنا نريد إبقاء لينيت فى بانجكوك لم نرغب وقتئذ — كما لم تكن لنا حاجة — فى استخدامها فى تحدى الحصار المذكور .

ثم وردت برقية أخرى بأن الأميرال الفرنسى بدون انتظار أمرنا أرسل قومندان الطرادة الفرنسية ليقدم اعتذاره للقومندان البريطانى عن انتهاك حرمة العرف البحرى الصحيح بلا مسوغ . وقبل أن يتمكن الثقاة الحقوقيون من وضع تقرير واف عن مسألة « الحصار السلمى » وقبل أن يتسع المجال لتعقد النزاع الذى يترتب على ذلك التقرير ، كانت الحكومة السيامية قد سلمت

(١) لاينبغى أن يفهم من ذلك أن خطته كانت خلية من الصداقة . بل بالعكس ، لأننا إن صدقنا الإشاعات التى ترددت يومئذ ، فانه كان على ميله ميالا لأن يقدم مساعدة ألمانيا لانجلترا ضد فرنسا .

بمطالب الفرنسيين فزال الحصار البحرى وأسدل على المسألة بحذافيرها ستار النسيان .

ويلوح أن الانسان لا يكاد يصدق أن دولتين أوربيتين عظيمتين كانت الحرب بينهما قاب قوسين أو أدنى من اجل أمر سريع الزوال كهذا . على أن الحادث قد بقى راسخا فى ذهني كمثال حى على ما عسى أن يترتب على وجود سوء النية بين الأمم من الخطر الشديد . وقد انتهى الحادث بمسألة أخرى كانت سببا فى إنعام النظر .

فلقد ترددت الاشاعات — كما جرت العادة بترددها عقب وقوع أمثال تلك الحوادث فى عهد وزارة الأحرار — بأن الحكومة البريطانية لم تظهر حزما كافيا في هذه الحوادث . ولقد نمى إلى أن أحد أولى النفوذ بين الزعماء المحافظين صرح بأنه إذا كان لامفر من الحرب مع فرنسا فالأولى خوض غمارها فى الحال . واذكر أن إحساسي فى الموضوع كان قويا وقتذاك . فقد بدا لى بالفطرة وبلا تعمق فى البحث ، أن التعجيل بالحرب وبما يترتب عليها من خراب وأرزاء قبل أن يصبح اجتنابها ضربا من المستحيلات ـ لا يعتبر فقط سياسة غير رشيدة بل يعتبر جريمة . لأنه بلاريب عمل قد يكون جزاؤه غير مافى الحسبان . وقد سألت نفسى بعد طول التجارب والتفكير فى تشعب الشؤون الانسانية وعدم استقرارها أفى استطاعة أى عقل بشرى أن يحسب حساب العواقب العديدة الآخذ بعضها بخناق بعض ، بحيث يحجم عن إثارة حرب لا لزوم ولا مسوغ لها ؟ وقد يلوح أن بسمارك كان المستثنى الوحيد . وسواء أكان كذلك حقيقة أم فى الظاهر فقط ، فهذا أمر نترك الخوض فيه إلى وقت استعراض حوادث سنة ١٩١٤ . ونحسب أن الرجال البعيدى النظر يسعهم على كل حال أن يقدروا العواقب المباشرة لأى عمل أو سياسة عامة . أما العواقب الغير المباشرة فهى ما لا يستطيع العقل البشري ادراكها سلفا ، وليس يخفى ان هذه الأخيرة هي التى تكون لها مع مضى الزمن أهمية عظمى . فينبغى على من يشتغل بالأمور العامة أن يكون له آراء

وأن يضع قرارات، ولا بد له من العمل- وفى بعض الأحيان بلا توان. أما حيثما كانت المسألة مسالة تذرع بالوسائل السافلة وتسويغ استعمالها كأداة لإدراك الغاية المقصودة بالذات فإن بعض اولى العقول الكبيرة قد خانهم الحظ وزلت أقدامهم لأنهم تناسوا أنهم بشر مثلنا وأنهم معرضون مثلنا لارتكاب الأغلاط. أما ماذا عسى كانت تكون العواقب الغير المباشرة فيما لو كانت فرنسا وبريطانيا إشتبكتا في حرب طاحنة فى سنة ١٨٩٤ ، فهو موضوع ممتع جدير بإطلاق عنان الفكر فيه . وفى الاستطاعة وضع مجلدات ضخمة فى هـذا الموضوع ، ولكن لن يكون للتفكير فائدة أو معنى إذا لم يقتنع الكاتب أولا بصحة النتائج التى يصل إليها .

ولم تكن سيام هى المسألة الوحيدة التى تشاددنا فيها مع فرنسا . فقد كانت ثمة منازعات وحوادث لانهاية لها فى غربى أفريقيا . هـنا إلى النزاع المتواصل حول ما كنا نسميه معاهدة الشاطىء ويسميه الفرنسيون الشاطىء الفرنسى فى نيوفوندلند . ومع أن المصالح الوطنية فى الجانب الفرنسى فى نيوفوندلند كانت زهيدة، فقد كان النزاع قديما يرجع عهده إلى معاهدة يوترخت . وقد كان من الجائز أن يحدث حادث فى أى وقت فيمس حقوق السيادة من جهة، أو يثير مسألة خدش الشرف من الجهة الأخرى . ثم إن احتلال بريطانيا لمصر كان دائما مثاراً لسخط الفرنسيين وقد كان موقفهم أزاء ذلك الاحتلال من أسباب مضايقتنا باستمرار .

وكانت أفريقية الغربية هى المرعى الخصيب لوقوع الحوادث . فقد كان الموظفون البريطانيون يجوبون البلاد ويعقدون مع الحكام الوطنيين معاهدات جعلناها أساسا لما لنا من الحقوق . وكان الموظفون الفرنسيون يقومون من ناحيتهم برحلات كرحلاتنا ويعقدون معاهدات كمعاهداتنا . وكثيراً ما كانت معاهداتهم تناقض معاهداتنا ، وهو ما أدى بطبيعة الحال إلى حدوث الفوضى . فلقد كان من المستطاع أن يقال فى اى وقت أن إحدى المعاهدات لم تعقد مع حاكم

.وطنى بل مع تابع غير مستقل فتكون بناء عليه المعاهدة المعقودة معه لاقيمة لها!
وكثيراً ما تصادف أن الحاكم المستقل كان ميالا إلى عقد معاهدة مع الموظف البريطانى على ان يعقد معاهدة مشابهة لها مع الموظف الفرنسى بشرط أن تاتى الواحدة بعد الأخرى . وعلى كل فقد جاءت إلى وزارة الخارجية فى صباح أحد الأيام فى مارس سنة ١٨٩٥ انباء بوقوع تعدى لامسوغ له مقرون بشىء من التحرش.

وقد استمر هذا التعدى منذ وقت طويل . وكان من المحتمل أن يوجه إلى عضو فى مجلس العموم سؤالا في هذا الصدد . نعم كان زعماء المعارضة يؤيدون وزارة الأحرار بصفة عامة فى الشؤون الخارجية ولكن كان يوجد دائما بعض أعضاء مستقلين جعلوا ديدنهم التذرع بأى اشاعة عن وقوع اعتداء أجنبى للحملة على حكومة الأحرار . ثم لاتنس الأعضاء أنصار الاستعمار الامبراطورى وخاصة فى أفريقيا، فقد كانوا شديدى القلق لهذا التعدى الفرنسي المتواصل .
وكان من المقرر أن يجرى الاقتراع فى مجلس العموم على اعتمادات وزارة الخارجية بعد ظهر ذلك اليوم وفى مسائه . فذهبت إلى اللورد كمبرلى الذى عين وزيراً للخارجية بعد أن صار لورد روزبرى رئيسا للوزارة فى سنة ١٨٩٤ فاخبرته أن البحث فى المجلس قد يؤدى إلى المناقشة فى أعمال الفرنسيين فى غربى أفريقيا وسألته رايه فيما ينبغى ان اقوله بمناسبة الأنباء المقلقة الأخيرة .

ولست أعرف من يفوق اللورد كمبرلى فى غزارة مادته إذا بدأ يتناقش - أو على الأصح - يتحدث. فهو واسع الاطلاع خبير بأحوال الناس وشؤون الحياة بما فى ذلك شؤون أعيان الأقاليم ، وبالاختصار كان فياضا فى سائر هذه المسائل . وقد يتصادف أحيانا ان يذهب إليه وكيل الوزارة ليرجوه الاطلاع على صورة الرد على سؤال خاص سيوجه إليه فى مجلس العموم بعد ربع ساعة، وهنا يمكنك أن تتصور مبلغ حيرة الوكيل إذ يرى اللورد كمبرلى تطرق إلى الاسهاب فى شرح ما صيبت به أشجار مقاطعة نورفولك من الأضرار الكبيرة فى أثناء إحدى العواصف الشديدة ! هذا مع أن التقلبات الجوية والأشجار

قد تكون من أبعد المسائل عن اهتمام الوكيل . وكان اللورد عند الكتابة او عند ما يعنى بمسألة يراد البت فيها، على عكس ذلك تماما . فإنه كان لايجارى فى الايجاز ولا فى الدقة مع الإيضاح . وكان متى قدمت له صور أجوبة الأسئلة يقرأ كلا منها بسرعة مدهشة مع الإحاطة بما فيه ثم يوقعه بالحروف الأولى من اسمه مع إبقائه على أصله أو إدخال شيء من التعديل عليه بخط واضح ثابت .

وكان شديد الاخلاص لعمله فى وزارة الخارجية بعيداً عن الأنانية فى أداء هذا العمل، ورئيسا يثق بمرءوسيه لايفرط فى أحد منهم ولا يخذله . أما فيما يختص بالمسألة التى نحن بصددها فإنه بعد أن بت فى صور أجوبة الأسئلة التى ستكون مدار البحث فى مجلس العموم ذلك اليوم — التفت إلىّ للبحث فى الافتراض الذى سألته عنه وهو « ماذا ينبغى أن أقول إذا تطرق البحث فى مجلس العموم إلى حوادث تعدى الفرنسيين على الحدود فى غربى افريقيا » ؟

فكان جوابه « افعل كل ما تستطيع ، ولكن لاتنس أن تكون لهجتك حازمة » ! ولم تكن غربى افريقيا بين جدول أعمال ذلك المساء . ولكن كان سيل الأسئلة شديداً فيما يختص بوادى النيل ومآرب فرنسا فيه . ولقد كان السودان لايزال فى أيدى الخليفة التعايشى . ولم تكن مصر قد تخلت عن دعواها فيه بالرغم من أنه أصبح ظاهرا للعيان أن السودان منذ أن وضع المهدى فى سنة ١٨٨٦ حدا لحكم مصر فيه فلا يمكن لهذه أن تفتحه من جديد بدون مساعدة بريطانيا العظمى . هذا فضلا عن أن السودانيين انفسهم لن يصبروا مرة أخرى على الحكم المصرى البحت الذى ثاروا عليه . وعلى كل فقد كان من الواضح أن لا حق لأحد فى السودان وفى وادى النيل إلا لمصر أو لأية دولة تعمل بالنيابة عن مصر .

وكانت الألسن قد رددت أن تجريدة فرنسية في طريقها إلى تلك

الأقطار . وهذه هى النقطة التى طلب إلىّ إيضاحها . وقد كنا واثقين من أنه ليست هناك تجريدة ذاهبة إلى وادى النيل . ولم تكن ثقتنا هذه على غير أساس . لأن تجريدة مارشان — كما تبين فيما بعد — لم تغادر مكانها فى أثناء وجودنا فى وزارة الخارجية . وعليه فقد كان ثمة متسع من الوقت للفت نظر فرنسا إلى ما نريد لفتها إليه دون أن نضطرها إلى التقهقر أو العدول عن شيء تكون قد قامت به . وقد كان من المستحيل أن يحدث حادث فى ذات المكان لأنه لم يكن ثمة جنود فرنسية أو انجليزية فى السودان . وقد تزاحمت كل هذه المسائل فى ذهنى وأنا جالس فى مقاعد الوزارة أفكر فيما ساقوله . وليس شك فى أن الفرنسيين يكونون قد ركبوا متن الشطط فعلا إذا هم اخترقوا أفريقيا كلها ليصلوا إلى أعالى النيل . وقد شعرت بشيء من التحمس عند ما أشار أحد الأعضاء فى سياق المناقشة إلى احتمال وصول الفرنسيين إلى وادى النيل . ومهما كانت اللهجة التى أردت استعمالها فيما يختص بافريقيا الغربية حيث المصالح متعارضة ، والأعمال متباينة ، والموظفين البريطانيين والفرنسيين فى نشاط دائم ، فإنها لم تكن ملائمة بحال ما لمسألة وادى النيل . فرأيت أن استعمل فى موضوع النيل ما سمح لى باستعماله من الحزم والشدة فى صدد المطالب المتنافرة فى غربى أفريقيا . ثم أطلت التفكير فى ما ينبغى استعماله من الكلمات بقدر ما يسمح به ما لدىّ من الوقت القصير الذى كنت ملزما فيه بالاصغاء إلى ما يلقيه أعضاء المجلس من الخطب . ثم نهضت للخطابة وقلت كل ما استطعت أن أقوله مع احتراسى بأن أضم اسم مصر إلى اسم بريطانيا العظمى فى كل ماله علاقة بالمطالبة بالسودان [1] .

وفى اليوم التالى حدثت ضجة فى باريس وأخرى في دوننج ستريت

---

(١) مجلس العموم ٢٨ مارس سنة ١٨٩٥ «إن تقدم تجريدة فرنسية بناء على أوامر سرية من جانب أفريقيا الآخر إلى أراض مسلم بحقوقنا فيها منذ زمن طويل، لا يمكن أن يعتبر فقط عملا متناقضا وغير منتظر بل يعتبر — كما تعرف الحكومة الفرنسية ذلك حق المعرفة — عملا عدوانيا وستعتبره انجلترا أيضا كذلك».

- على ما فهمت . فإن فريقا من الوزراء عارض فى أى توسع فى أفريقيا مهما كان نوعه واعتبر احتلال مصر نفسها تورطا داعيا إلى الأسف ، وأظهر استياءه من الخطبة التى ألقيتها فى المجلس. هذا بينما الفريق الآخر ومنهم — كما استنتجت — لورد روزبرى رئيس الوزراء واللورد كمبرلى - كان يرى أن ما قلته كان صوابا ومفيدا . ومما يرجع إليه الفضل فى إزالة هذا الخلاف بين الفريقين أن لفظة « مصر » التى احتطت فى أن أقرنها مع بريطانيا العظمى سقطت لحسن الحظ بالصدفة عند نقل أقوالى فى محضر مجلس العموم . وقد استنتجت أن الفريق الموافق على الخطبة تشبث بحذف هذه اللفظة . وهكذا فتح الباب لإيجاد حل وسط ، فالفريق الذى كان من رأيه الموافقة على الخطبة وافق على ذكر لفظة « مصر » وفى مقابل ذلك الشرط أعلن الفريق الآخر موافقته على الخطبة وعدم الاعتراض عليها . وليس يخفى أن مسألة الحقوق السياسية فى السودان كانت وقتئذ موضع نزاع شديد فيما بين انجلترا ومصر . وتوجد فى وسط المجادلات العويصة سواء أكانت سياسية أم قضائية، حقيقة ثابتة ملموسة ألا وهى أن مصر ما كانت لتكون لها يد مطلقا فى ادارة السودان اليوم لولا النظام العسكرى البريطانى ولولا جهود بريطانيا وسياستها الحازمة .

وأبلغ إلىّ قرار الوزراء هذا بواسطة رسول خاص جاء إلى كوخى فى اقليم هامبشير حيث كنت ذهبت اليه فى عطلة نهاية الأسبوع لتشذيب أشجار الورد فى الحديقة . فلم أتردد فى ذكر اللفظة التى كنت قد عنيت باستعمالها . ولكن الحادث لم يخل من شىء من المضايقة بالنسبة إلىّ . فإنى أرى فى المذكرات اليومية التى كنت أسجل فيها الزيارات للكوخ ما كتبته خاصا بيومى ٣٠ و ٣١ مارس سنة ١٨٩٥ وهو كما يأتى (يوم الأحد — تشذيب الأشجار — رسول خاص — تدخل الشغل فى الراحة — ضرورة عودتى إلى لندن مساء يوم الأحد !) ولقد رأيت بعد مرور عدة سنوات - أى عند ما استولى اللورد كتشنر على الخرطوم والتقى بتجريدة مارشان والعلم الفرنسى -

ان خطبتى هذه قد وضعت كوثيقة من وثائق الدولة بين الوثائق المهمة التى نشرت فى إبان النزاع الذى قام بسبب تلك الحملة ، ويستدل من سير الحوادث أن الوزارة — وزارة لورد روزبرى — لا بد أن تكون قد استفادت أعظم فائدة من تلك الخطبة بعد خروجي من وزارة الخارجية . على أن نظرة إلى الحوادث الماضية تجعلنى أتساءل أ كانت تلك الخطبة سببا فى ارسال تجريدة مارشان ،وهل كان الفرنسيون يرسلون تجريدة ما لو لم تدر أى مناقشة فى مجلس العموم فى ذلك الصدد ؟ فان كان ذلك كذلك فليتنى لم الق تلك الخطبة مطلقا . أما إن كان الأمر بالعكس، وكانت تجريدة مارشان من الأمور التى بت فيها فى باريس من قبل فلا تعتبر الخطبة اذن فى محلها فقط بل وأنها كانت نافعة لا بل وضرورية لتعيين الموقف الذى تقفه الحكومة البريطانية سلفاً وتحتفظ به كائنا ما كانت العواقب إذا نازعها فيه منازع . إذ لا بد للمرء عند وقوع حادث أن يكون له رأى خاص ازاءه فيعمل ما يظنه صوابا، حتى إذا ما مر الحادث وانتهى دور المرء ازاءه صح للانسان أن يلتفت إلى الماضى ويتساءل هل أخطأ أم أصاب فى الدور الذى لعبه ، ويستعرضه وينتقده بين نفسه ونفسه لا أن يكتفى بمجرد الموافقة عليه كأنه لم يتعلم شيئا مما ترتب على ذلك الحادث من العواقب .

وثمة مسألة أخرى أدت وقتئذ إلى بعض المتاعب مع فرنسا ولكن لا أرانى بحاجة إلى الإسهاب فيها . ذلك أن بلجيكا استولت على بعض أراض كانت تدعيها لنفسها فى مناطق النيل الأعلى وكنا نرى أنها ليست تابعة لولاية الكونغو . فعقدنا اتفاقا لتنظيم ذلك الاحتلال، وليضمن لنا فيما بعد استعادة تلك الأراضى الغير التابعة للكونغو. وقد أصبح لنا بمقتضى ذلك الاتفاق الحق فى أن ننشىء سكة حديدية فيما وراء أفريقيا الشرقية الألمانية لوصل اوغندا بالسكة الحديدية الممتدة من جنوبي أفريقيا مما يجعل مد الخط الحديدى من القاهرة إلى الكاب ممكنا .

وما لبث أن رفع الألمان عقيرتهم بالاحتجاج على هذا العمل الذى عدوه منافيا لاتفاق سابق عقد بين حكومتى انجلترا وألمانيا وهو يقضى بصيانة المصالح الألمانية ضد مد أية سكة حديدية فى تلك المنطقة مما قد يضر بالسكك الحديدية التى تنشأ فى المستعمرات الألمانية . وقد دل البحث فى وزارة الخارجية على أن الحق كان فى جانب الألمان ، وأن هناك أتفاقا بهذا المعنى لم يلتفت اليه . فكانت النتيجة أن سحبنا فى الحال هذا الجزء من الاتفاق المعقود بيننا وبين الملك ليوبولد .

أما الحكومة الفرنسية فإنها أعلنت أن ذلك الاتفاق ملغى ولا قيمة له فيما يختص بها. وكان مما استندت اليه فى ذلك الادعاء أن لها مصالح فى الكونغو بمقتضى الاتفاق الفرنسى البلجيكى أو اتفاق الكونغو يخولها حق الشفعة فى ولاية الكونغو . على أننا رفضنا التسليم بهذه النظرية لأننا كنا نرى أن الأراضى الواقعة فى مناطق النيل الأعلى -وكانت موضع البحث فى ذلك الاتفاق لم تكن تابعة لولاية الكونغو أصلا . ولم يصادف حسن الطالع هذا الاتفاق- عند عقده ، ولكن ظل العمل جاريا بمقتضاه حتى إذا فارق الملك ليوبولد هذا العالم كان الاتفاق المذكور خير وسيلة لتسوية هذه المسائل المعقدة بدون حدوث تشاد مع بلجيكا وفرنسا التى كان عقد الاتفاق الودى معها فى سنة ١٩٠٤ من أكبر العوامل على إزالة كافة أسباب النزاع بين البلدين .

وهناك حادثان آخران حدثا فى نهاية هذه الفترة لابد من ذكرهما هنا نظراً لما تركاه من الأثر فى السياسة المقبلة .

فقد عقدنا مع اليابان اتفاقا تنازلنا بمقتضاه عن حقوقنا فى سلطة التقاضى فيما يتعلق بالرعايا البريطانيين الموجودين فى اليابان ، وهى حقوق كانت الحكومات الأوربية والأمريكية منزل تحتفظ بها فيما يختص برعاياها الموجودين فى البلاد الشرقية . ولقد قيل فى صدد المفاوضات التى دارت بهذا الشان أن اليابان خرجت منها ظافرة وأنها حصلت على أكثر مما كنا

نتوى أن نسلم لها به ، ولكن هذا يخالف الواقع . فلقد تراءى لنا أن الوقت قد حان لوضع معاملاتنا مع اليابان على قدم المساواة أسوة بالامم التى هى من عنصر أوربى . وبهذه الوسيلة وحدها — لابغيرها — يمكن الاحتفاظ بالعلاقات الودية الناجحة من سياسية وتجارية فيما بيننا وبين اليابان . وقد كنا أول دولة فاوضت اليابان فى عقد اتفاقية من هذا القبيل ، وكنا على استعداد لجعل الاتفاقية تامة من جميع الوجوه ولوضع علاقاتنا على قدم المساواة مع الدول الأخرى .

ثم خطونا خطوة أخرى فى سبيل توطيد العلاقات مع اليابان ، ولو أنها كانت خطوة نشأت عن ظروف لم يكن لنا يد فى إيجادها ولم يكن يمكن لنا توقعها أو وضع تدبير لها .

ذلك أن اليابان كانت قد خرجت ظافرة من الحرب القصيرة الأجل التى اشتبكت فيها مع الصين، وهى الحرب التى لم تتدخل فيها دولة ما أو تتحيز لأحد الفريقين . فلما أن وضعت الحرب أوزارها طلبت إلينا فرنسا وألمانيا وروسيا أن نشترك فى إفهام اليابان بأنه لا يسمح لها أن تجنى كافة ما تطلبه من ثمار النصر . ولكن لورد كمبرلى رفض الاشتراك فى التدخل فى الضغط على اليابان . على أن الدول الثلاث الأخرى واصلت خطتها بدوننا، فاضطرت اليابان أن تسلم لها بما أرادت طوعا لمقتضيات الأحوال السياسية .

وفى اعتقادى أن لورد كمبرلى لم يكن له باعث خفى عند ماقرر عدم التدخل . بل كل ما كان هنالك أننا لم نر أن المصالح البريطانية تستدعى الاشتراك فى التدخل فى الضغط على اليابان . ولما كان يلوح لنا أن التهديد الذى وجهته إليها الدول الأوربية صارم لاموجب له : تطاوعنا نفسنا على الاشتراك فيه . وهذا ماحدا بنا إلى الوقوف على الحياد . وفى الواقع لم يكن يدور بخلدنا وقتئذ أنه ستعقد محالفة بيننا وبين اليابان فى المستقبل . وإنما كنا نشعر فقط بضرورة التنحى عن الاشتراك فى عمل كان يلوح لنا أنه جاف ولا تقتضى المصالح البريطانية

الاشتراك فيه . وليس شك فى أن اليابان ساءها تدخل الدول الأوربية . وبخاصة لأن روسيابعد زمن قليل احتلت ثغربور ارثرنفسها ، واغتصبت ألمانيا شانتونغ بمثابة تعويض عن قتل أحد المرسلين الدينيين . فالدول التى قامت فى وجه اليابان دفاعا عن مبدأ وحدة الأراضى الصينية شرعت هى نفسها فى العبث بتلك الوحدة ! ولا يمكن أن تكون هذه الأعمال قد زادت فى اغتباط حكومة اليابان ، لاسيما عند ماظهرت انجلترا على المسرح واقتطعت بدورها من الصين ميناء « واى ـ هاى ـ واى » لإعادة التوازن الذى زعزعه وجود روسيا فى ثغر بور أثر ـ هذا بغض النظر عن أن الصين هى التى تنازلت من تلقاء نفسها عن هذا الثغر لانجلترا لأنها رأت انه فى مصلحتها بعد احتلال روسيابور آرثر . وهكذا أصبحت اليابان وجها لوجه ازاء ثلاث قواعد أوربية جديدة أمام شواطئها بعد أن حرمت بالقوة من الحصول على قاعدة واحدة منها لنفسها ! ومعنى ذلك أن سلامة الصين كانت مبدأ مقدساطولبت اليابان بمراعاته دون أن تراعيه الدول الأوربية التى زادت به بعد أن تم لليابان النصر على الصين !

وبالطبع كان ارتياح اليابان لعدم تدخل بريطانيا العظمى فى ذلك الضغط عظيما جداً . أما الضغط الذى وضعته فرنسا وألمانيا وروسيا على اليابان بعد الحرب اليابانية الصينية فقد كانت نتيجته المباشرة خروج اليابان من الميدان دون أن تحصل على الغنيمة التى كانت تطمع فيها وتمنى نفسها بها . ومن النتائج الغير المباشرة احتلال روسيا لثغر بور آرثر مما أدى إلى عقد المحالفة الإنجليزية اليابانية ونشوب الحرب بين روسيا واليابان . أما ماعسى كان أن يترتب من النتائج الغير المباشرة الأخرى على تلك الحرب وتلك المحالفة فنترك الخوض فى موضوعه لأرباب الخيال القادرين على التكهن والتنبؤ . وأنه ليهمنا أن نعرف إلى أى حد كان ساسة برلين وباريس وسان بطرسبرج يدركون ما عسى أن يترتب على اعمالهم من عواقب آجلة عند ما قرروا فى سنة ١٨٩٥

أن يتضافروا على استعمال الضغط على اليابان . وإنى لعلى يقين بأن الوزراء البريطانيين لم ينظروا إلى أبعد مما كانت تقتضيه ظروف الأحوال وقتذاك . والأرجح أن الرجال الذين يشتغلون بالشؤون العامة قلما يمدون انظارهم إلى ما وراء العواقب المباشرة . وحتى لو عدت الآن إلى الماضى — مع علمى التام بظروف الموضوع — فإنى أعتقد أنه كان من المستحيل تعقب مانشأ عن حادث مضى من النتائج الغير المباشرة إلا فى مراحلها الأولى ، وفيما بعد ذلك تندمج فى الحركة الكبرى الناشئة عن النتائج المباشرة للحوادث الأخرى . وليس شك فى أن العقل البشرى يضل حتما فى محاولة تعقب كل تلك العواقب كضلاله عندما يحاول إدراك اللانهاية . لا بل أن المؤرخين العارفين بالحوادث والذين لا تنقصهم المعلومات اللازمة لتكوين ما يريدون تكوينه من الآراء لا يستطيعون السير إلا إلى أمد قريب في سبيل استكشاف أسباب ونتائج الحوادث المهمة التى أحصاها التاريخ .



الفصل الثالث

بين الراحة وتكاليف العمل

المران فى أداء العمل — الحياة فى المدن — حياة المدن ومقارنتها بحياة الأقاليم — كوخ الصيد وفوائده — سفر مبكر — الراحة والرياضة — النعيم الحقيقى — مقارنة محزنة — وسائل العمل والخطابة العامة — مغادرة وزارة الخارجية — أمنية لم تتحقق .

قد استعرضت فيما مر عليك من هذا الكتاب صحيفة أعمالى فى وزارة الخارجية فى فترة السنتين والعشرة الأشهر من أغسطس سنة ١٨٩٢ إلى يونية سنة ١٨٩٥ التى كنت فيها وكيلا لتلك الوزارة . وليس شك فى أن لسنوات التوظف الأولى فى حياة كل شاب أهمية دونها كل أهمية . فهو دائب المران على النشاط مع السرعة . ثم إنه يروض نفسه على استظهار كل مايعرض له من مسائل جافة ، والإحاطة بكل ما هنالك من شؤون مملة، وتذليل مايعتور طريقه من مصاعب أيا كان نوعها . هذا إلى الترتيب الذى يقترن بعمله . فذهنه يصبح بمثابة « مخزن » ترتب فيه الأشياء بعناية تامة بحيث يسهل الوصول إليها عند الحاجة مع عدم اختلاطها بعضها ببعض . ثم إنه يعدل تدريجا عن عادة التسرع فى الحكم على الأشياء لأنه يجد نفسه أمام قيود ومصاعب يراها الموظف ولا يراها غيره . وفضلا عن ذلك فإنه يشعر بمزية ما أوتيه من المواهب والصفات الحميدة كما يحس بمضايقة شديدة. لا بل بالخطر الذى ينجم عما يكون فى تعليمه وأخلاقه من نقص أو تقصير . وفى الواقع فإن ما تنكشف عنه حياة الموظف من تجارب تعتبر جديدة بالنسبة له . ولذا فهى لا تترك أثرها فى حياته العامة فقط بل وحياته الخاصة أيضا .

وأحسب أن ليس من العبث أن أقول كلمة فى هذا الموضوع .

فقد انتخبت للبرلمان لأول مرة فى سنة ١٨٨٥ . فاستأجرت أنا وقرينتى منزلا مؤقتا صغيراً فى لندن لسكنتنا مدة الدورة البرلمانية فى سنة ١٨٨٦ ، ولم تكن لأحدنا من قبل سابقة معرفة بحياة المدينة . لهذا لم ينقض الربيع الأول حتى بدأنا نشعر بأن الحياة فى لندن كريهة جداً لا تتفق مع أذواقنا . هذا مع أنى لست أجادل فى ما للحياة فى المدن من المزايا من الوجهتين الفكرية والاجتماعية . فان كثيرين من الناس يرون أن الظروف الخارجية التى تحيط بتلك الحياة لاتصبح باعثة على السرور فحسب،بل وضرورية للانسان . ولقد حدثنى بعضهم عن أحد عشاق الحياة فى المدن وكيف أنه ذهب مرة إلى الريف طلبا للعزلة والابتعاد عن شؤون الحياة ولو لمدة قصيرة ، ولكنه ما عتم أن عجل بالعودة إلى المدينة لأنه لم يستطع صبراً على « السكون المصحوب بالطنين » الذى انقبضت له نفسه فى الريف . على أن المولع بالحياة الريفية يرى من الناحية الأخرى أن ما يشاهده فى الريف من مناظر ، وما يسمعه من أصوات ، هذا إلى السكون المخيم عليه — يصبح فى نظره أمراً أساسيا ويكون فى الواقع جزءاً من نفسه ، بقدر ما تصبح كذلك معيشة المدن من نفس المولعين بالحياة فيها . وكأنما يوجد ثمة جوان مختلفان . فهنالك بعض من الناس — أو كثير منهم — قد ركبت طبائعهم بشكل يخولهم التنعم بالمعيشة أو احتمالها فى الأرياف وفى المدن على السواء ، بينما يوجد آخرون يشعرون بأن فى استطاعتهم التنفس فى إحدى الحالتين فقط فى حين أنهم يشعرون بالاختناق فى الحالة الأخرى . ولا بد أن تصبح الحياة ثقيلة وغير مرضية متى أضفت إلى عدم ملاءمة الطبع والمزاج لهذه الحياة ، شعور الانسان بأنه « منفى » من منزله ، وحجراته المؤثثة المألوفة . وما يحيط بذلك كله من ذكريات وشجون ! كل هذ عرفته حق المعرفة فى سنة ١٨٩٢ . واذ كنت أدرك أن قيود الوظيفة تضاعف في نفسى الأحساس بالنفى ، فقد دخلتها وأنا كسير الفؤاد ، وأقبلت

عليها بدون اغتباط أو ابتهاج . وعلى أنه يعتبر إنكاراً للواقع أن يفهم من كلامي هذا أن المركز الجديد لم يجلب إليّ - فيما جلب - شيئا من اللذة أو المرح بل بالعكس إنه جلب إليّ كليهما دون أن ينسيني الإحساس الذى أسلفت القول عليه .

وهكذا أصبح استئجار منزل دائم فى لندن مما لا معدى عنه الآن . وقد كان ما يتقاضاه وكيل الوزارة من المرتب كافيا لاتخاذ منزل فى شارع جروفنار وتأثيثه كما نشاء ونختار مع الاحتفاظ فى الوقت نفسه بالمنزل الذى فى الأرياف لأوقات الفراغ التى قد يروق لنا ان نقضيها فيه . ولكن نور ثمبرلند — كما لا يخفى — كانت من بعد المسافة بحيث لا تتسع عطلة نهاية الأسبوع لزيارتها . وقد لاحظ القارىء أننا استأجرنا فعلا فى هامبشير كوخا فى سنة ١٨٩٠ يسهل إغلاقه فى أثناء الأسبوع واستعماله فى عطلة نهاية الأسبوع. وهناك لم يكن لدىّ إلا صنارة واحدة للصيد بهـا فى غدران « الإتشن » فى حين أن الكوخ — كما كنا نسميه — كان معدا فى بدىء الأمر ككوخ لصيد الأسماك فقط . ولا أكذب القارىء أن ذلك الكوخ أصبح الملجأ الذى ألجأ إليه كلما تاقت نفسى إلى الراحة من عناء الأعمال .

ولقد كانت الدورة البرلمانية فى سنة ١٨٩٣ دورة عصيبة وشاقة . فقد اجتمع البرلمان مبكرا كعادته فى أوائل العام . ولم تتجاوز عطلة عيد الفصح الخمسة الأيام - على ما أذكر - بما فى ذلك أيام الجمعة الحزينة وأحد القيامة واثنين الصعود . ولم يرفض مجلس العموم إلا بعد انقضاء الشطر الأكبر من شهر سبتمبر على أن يعود إلى الاجتماع فى شهر اكتوبر . ثم استمرت الدورة البرلمانية إلى ما بعد عيدى الميلاد ورأس السنة فى سنة ١٨٩٤ . ولم تكن أغلبية الحكومة تتجاوز ٤٠ صوتا على أكثر تقدير بما فى ذلك أكثر من ٨٠ صوتا للوطنيين الإرلنديين . لهذا كان فرضا محتوما على كافة أنصار الحكومة أن يحضروا جلسات المجلس بلا انقطاع . ولقد قام الإرلنديون بنصيبهم من العمل بالنظام والدقة اللذين عرف بهما أعضاء الحزب فى تنفيذ أية سياسة أو اتفاق يدخلون

المجلس على أساسه . ثم إنهم أحسنوا أداء مهمتهم سواء أكانت خاصة بالشؤون الإرلندية كمسألة الهوم رول، أم بالشؤون الأنجليزية كمسألة مشروع مجلس دوائر الكنائس الذى كان تحت البحث والذى لم يكن يعنيهم شيء ما من أمره . ثم إن أعضاء البرلمان الأحرار كان عليهم أن يقوموا هم أيضا بدورهم، هذا فى حين أن وكلاء الوزرات كانوا يحضرون كل جلسة من بدئها إلى ختامها دون أن يجرأوا — إلا فى القليل النادر — على مغادرة قاعة المجلس لتناول طعام العشاء . وقد كانت للأعضاء حجرات فى المناطق السفلى . أما الحجرة الخاصة بى فقد كانت فسيحة وقد توفرت فيها وسائل الراحة . ولكن كانت الإقامة فيها أشبه بالإقامة فى غار أو « كرار » ولم تترك لى الصناديق المكدسة فى وزارة الخارجية إلا اليسير من الوقت لاستماع المناقشات الدائرة فى قاعة المجلس . وكانت عادة مجلس العموم فى تلك الأيام أن يعقد جلسة قصيرة فى أيام الأربعاء على أن تكون جلسة الجمعة طويلة بحيث لا يسع العضو أن يغادر لندن إلى الأرياف إلا فى صبيحة يوم السبت .

وقد كان ربيع عام ١٨٩٣ وصيفه أشد حرارة وأكثر صحوا من المعتاد . وكانت عادتنا أن نغادر المنزل فى شارع جروفنار فى منتصف الساعة السادسة من صباح يوم السبت دون أن نثقل أنفسنا بشيء من الأمتعة . ونظراً لعدم وجود مركبات فى تلك الساعة المبكرة كنا نسير على الأقدام فنجتاز « جسر لامبيت » حيث السكينة مخيمة على نهر « التيمز » والمنازل المجاورة له كما كانت فى عهد الشاعر « وردسويرث » ومن ثم نمر بمستشفى القديس توما إلى الشارع المؤدى إلى مدخل محطة وتارلو . وكان هذا الشارع يسمى شارع وود . وكان خاليا من السابلة فى تلك الساعة المبكرة . وكانت المنازل مغلقة أبوابها ونافذها بحيث لا نسمع من الأصوات إلا تغريد طير الدّج فى داخل قفص معلق بإحدى تلك النوافذ . أما هذا الطريق فقد كان يؤدى إلى النفق القذر الموصل إلى محطة وتارلو القديمة . وفى الساعة السادسة تماما يتحرك

بنا القطار فيغادر ووتارلو فنصل الى كوخنا فى هامبشير حوالى الساعة الثامنة أى فى الوقت المناسب لتناول طعام الإفطار .

وكان السفر من لندن فى صبيحة كل سبت مزيجا من السرور العاجل والنعيم الآجل . كما كانت أيام السبت والأحد من كل أسبوع بمثابة فرصة لتحقيق ذلك السرور وهذا النعيم ولقد كنت أقضى يوم السبت فى صيد السمك إلى الساعة الثانية بعد الظهر غير حافل بحرارة الجو ، ثم أعود فاستانفه من الساعة السابعة إلى التاسعة مساء . ولما كان يوم الأحد ليس من الأيام المعدة لصيد الأسماك فى هذه الناحية من « الإنشن » فقد كنا نقضيه فى مطالعة الكتب المهمة أو المسلية ، ثم نخرج للتنزه مشيا على الأقدام إلى مسافات بعيدة فى جهات الريف الجميله فى جنوبى انجلترا وإمتاع النفس برؤية الطيور . أما الكوخ الذى كان معدا لصيد الأسماك فقط فقد عظم شأنه مع الزمن وأصبح أكبر من مجرد مكان للعزلة من حياة لندن يلجا إليه الانسان فى عطلة نهاية الاسبوع .

ولعمرى كانت هذه حياة سعيدة حقا ! ولقد سلخنا خمسا وعشرين ربيعا وليس من يعنى بأمر الكوخ ويسهر على تنظيفه سوى امرأة واحدة . فلما وافاها الأجل المحتوم فى سنة ١٩١٥ حلت اختها محلها وعهدنا إليها بالعناية بامر الكوخ . وكانت هاتان المرأتان تقيمان فى كوخ لهما على بعد بضعة مئات من الأمتار . وكانت لهما حديقة وأصدقاء . وفى الحق لم تنظر إلى العناية بامر كوخنا كأنها اغتراب عن دارها . وكانت كل أمنيتنا إذا هبطنا الكوخ هى الراحة ومطالعة الكتب والتمتع برؤية المناظر الطبيعية والحياة الخلوية . وهذا يقتضى الابتعاد عن الناس ، اللهم إلا تهيئة الطعام والخدمة اللازمين للراحة . أما العمل والواجبات والاختلاط الاجتماعى فكل ذلك من مقتضيات الحياة فى لندن . ولعمرى لقد كانت الحياة فى الكوخ نعيما جد نعيم ، فقد كان يوجد كل مايريده الإنسان ولا يوجد ما لا نريده . ولقد خيل إلينا أن إغفال الجزء الأخير من

التعريف كان سببا فى ضياع كثير من الأشياء كان يظنها الناس من مقتضيات النعيم. ولكنا قد عثرنا بطريق الصدفة على النعيم الحقيقى الشائق، وكانت عقدة العقد هى فى توخى الاعتدال فى الاغتراف من هذا النعيم. ولم تكن لنا مندوحة عن الاعتدال عند ما كنت فى الوظيفة. ذلك لأن مقتضياتها ومتاعبها كانت تحتم ذلك. أما الآن فبعد أن أصبحت طليقا من قيودها فقد كان لنا مطلق الحرية فى أن نحدد عدد الأيام التى نرغب فى قضائها فى الكوخ من آن إلى آخر مع ارتياح الضمير وهدوء البال[1] وقد كان يحدث احيانا ان أطالع هنالك بعض اوراق وزارة الخارجية، ولكن أعمال هذه الوزارة كانت تسير على نسق خاص وبلا انقطاع سواء أكان الوكيل البرلمانى موجوداً أم متغيبا، وهو ما خفف عنى عبء المسؤولية كثيراً. وكانت العادة أن نعود أدراجنا إلى لندن فى صبيحة الإثنين فأقضى صباح اليوم فى وزارة الخارجية، وبقية النهار فى الغار فى أسفل مجلس العموم حيث كان يمكن سماع الأصوات المنكرة فى قاعة المجلس إذا تجاوزت أعمال العرقلة والتشويش الحدود المعقولة، أو إذا حدث إخلال على بالنظام كما كان يحدث فى أغلب الأحايين فى ذلك العهد. وقد كانت النعرة الحزبية شديدة وقتذاك. وكنا معشر الأحرار نشعر بأننا على حق فى اعتقاد أن حكم المحافظين فى إرلندا قد انتهى بالفشل وسيبقى كذلك إلى ما شاء الله، وأنه لاسلام فى إرلندا إلا إذا منحناها الهوم رول، وأن أرلندا بدونه ستظل مصدر ضعف دائم لنا وتعاسة وشقاء لنفسها. ثم أن الأغلبية البرلمانية كانت فى جانبنا، ومعنى ذلك أن كل سياسة عدا سياسة الهوم رول تعتبر مستحيلة. لذلك كنا نرى أن لنا الحق فى اتباع هـذه السياسة. أما المحافظون الاتحاديون — وهم حزب المعارضة — فلم يؤمنوا بالهوم رول، بل كانوا يبغضونه من صميم أفئدتهم، وكانوا يرون أننا إنما نعبث بالدستور إذا حاولنا تنفيذ قانون خطر كهذا بمثل هذه الأغلبية الضئيلة التى ليست فى الواقع أغلبية بريطانية بل تستند إلى تأييد حزب إرلندى!

---

(١) التهمت النار الكوخ قضاء وقدراً فى يناير سنة ١٩٢٣ وفيما بعد سنة ١٩١٨ حال ضعف النظر إلى حد كبير دون التمتع بالمطالعة والحياة الحلوية.

وأخيراً أثر فى نفسى التباين بين الحياة التى أغرمت بها ، والحياة التى سلكت سبيلها خمسة أيام من كل أسبوع .

وعلى أننى أحسنت الاضطلاع بأعباء وظيفة الوكيل البرلماني. فلقد استظهرت كل نقطة رأيت أنها ستكون موضع مناقشة فى المجلس ، كما اخذت أطالع بإمعان كل المكاتبات الواردة إلى وزارة الخارجية بحيث أنه اصبح فى استطاعتى معالجة أية مسألة قد يتناولها البحث عرضا وبدون إشعار سابق عند النظر فى اعتمادات وزارة الخارجية . وفى الواقع كنت كلما عرض مجلس العموم للشؤون الخارجية أذهب وأنا أكثر استعداداً لاجتياز الامتحان مما كنت فى ايام التحصيل بالمدرسة ام بالجامعة ! ولكن هذا لايمنعنى من القول بأن اعمال مجلس العموم لم تكن مما ترغب فيها نفسى . فمثلا كان فى مقدورى أن أبين لأى إنسان ما استقر عليه رأيى فى أمر من الأمور ، ولكن لا أبعد من ذلك . لأننى لم أولد لأكون خطيبا ولم تمنحنى الطبيعة هبة براعة الاستهلال !

وفى اوائل سنة ١٨٩٤ اعتزل المستر جلادستون العمل . وكنت أنا شخصيا مخلصا لخلفه اللورد روزبرى . ثم إننى كنت على اتفاق تام معه فى الشؤون الإمبراطورية بصفة خاصة . لذلك قابلت بالارتياح العام تبوأه رئاسة الوزارة وشعرت أننى مطالب بصفة خاصة للعمل بوزارته .

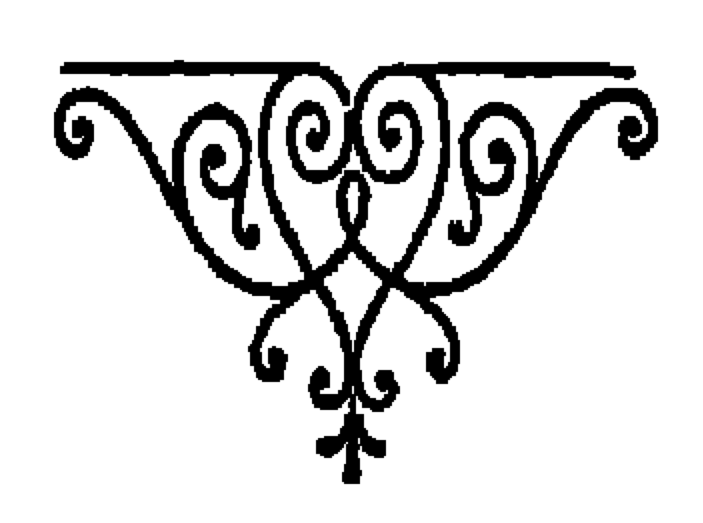
ولسوء الحظ أصيب اللورد روزبرى فى الفترة القليلة التى كان فيها رئيسا للوزارة بنوبة شديدة من الأنفلونزا . وهنا أدركت أن حزب الأحرار نظراً إلى تباين آراء أعضائه فى الشؤون الشخصية والسياسية ، لايصلح أداة فى الوقت الحاضر لتحقيق الأمانى العظيمة المنتظرة منه ، وخاصة بعد أن اعتزل المستر جلادستون العمل وذهب نفوذه وهيبته ، وهو نفوذ كان لاغنى عنه فى توحيد تلك الآراء المتباينة . ومما زاد الشعور بخيبة المسعى وعدم انتظار النجاح والفلاح ، انقباض نفسى الناشىء عن النزاع الحزبى من جهة ، وعن حياة المدينة والاغتراب من الجهة الأخرى . وفى يونية سنة ١٨٩٥ خذلت وزارة لورد

روزبرى عند ما جرى الاقتراع فى مجلس العموم على اعتمادات وزارة الحربية فقدمت استقالتها . ومن ثم غدوت طليقا ، فغادرت الوزارة وفى نيتي ألا أعود إليها أبداً .

ولقد وجدت الموظفين فى وزارة الخارجية على جانب عظيم من الرقة والبشاشة . لهذا اقول أننى غادرتها وأنا شاعر بما ابدوه نحوى من العطف واللطف ، وبما اكتسبته من التجارب والخبرة فيها . ولقد كان من رأيى بادىء بدء أن نستولى على أفريقيا الشرقية البريطانية وأوغندا ، وهو عين ما رأته الوزارة فيما بعد . أما فيما عدا ذلك فقد قنعت بمجاراة الحوادث وتفهمها دون أن أحاول التاثير فى اتجاه السياسة . ولم يكن الأثر العام الذى تركه موقفنا العالمى فى نفسى داعيا إلى الارتياح . ذلك أننا كنا نعتمد على تأييد الألمان فى مصر ـ وقد نلناه فعلا ـ ولكنا لم نكن ندرى متى تتخذه ألمانيا ذريعة لتغتصب منا ثمنا باهظا فى مقابله . ثم إننا قد نشتبك مع روسيا أو فرنسا فى نزاع خطير فى أية لحظة . وبديهى أن مثل تلك المنازعات لا يمكن أن تقابل بالامتعاض من برلين أو من السياسة الألمانية . ولكن لم يخطر لى على التحقيق أن أحدث اى تغيير فى السياسة ، هـذا مع العلم بأن رؤسائى لم يفكروا مطلقا فى شىء من هذا القبيل .

بيد أننا إذا نظرنا إلى السياسة التى اتبعتها انجلترا في خلال تلك السنوات من سنة ١٨٨٦ إلى سنة ١٩٠٤ فى ضوء ما وقع بعد ذلك من الحوادث ـــ لما رأينا مفراً من وصفها بأنها كانت سياسة تخدم مآرب ألمانيا ومطامعها . وليس من شأنى أن أخوض فى ذلك هنا . ولقد ظل حزب الأحرار مشرفا على وزارة الخارجية من أغسطس سنة ١٨٩٢ إلى يولية سنة ١٨٩٥ وهى فترة وجيزة كما لا يخفى . وقد واصلت وزارة المستر جلادستون سياسة لورد سلسبورى كما وجدتها . وعند ما عاد لورد سلسبورى إلى وزارة الخارجية فى سنة ١٨٩٥

لم يجد باعثا ما على إدخال تغيير فى تلك السياسة أكثر مما وجد لورد روزبرى أو لورد كمبرلى ، بل اكتفى بمواصلة تلك السياسة . وفى الواقع - كما سيتبين للقارىء - قد خطت وزارة لورد سلسبورى خطوات واسعات أكثر مما حدث من قبل ، فى سبيل ملاطفة ألمانيا والتودد إليها . أما موعد استعراض تلك السياسة فسيحين بعد تسع سنوات ، أى عندما نصل إلى الوقت الذى بدأت فيه الوزارة التى كان لورد لانسدون وزيراً للخارجية فيها بانتهاج سياسة جديدة .



الفصل الرابع

بعد اعتزال العمل

الاتجاهان السياسيان فى تلك السنوات ـــ التشاد مع فرنسا ـــ ازدياد المتاعب مع ألمانيا ـــ موقف جديد فى الشرق الأقصى ـــ احتلال الروس لبور آرثر ـــ خطبة تشمبرلن الجامعة ـــ حادث فاشودة ـــ مجاملة الفتنات مارشان ـــ ألمانيا ترفض الفرصة السانحة ـــ اتفاقية سرية ـــ الحرب فى جنوبى افريقيا ـــ عداء دول القارة الأوروبية ـــ بدء إنشاء الأسطول الألمانى الكبير ـــ المحالفة الانجليزية اليابانية ـــ الاتفاقية الانجليزية الفرنسية ـــ أسباب الترحيب بها ـــ وساوس ألمانيا ـــ رأى لورد روزبرى ـــ حادث دوجار بنك ـــ موقف روسيا المؤلم ـــ لذات المعارضة ـــ أعمال السكة الحديدية ـــ رئاسة شركة سكك حديد الشمال الشرقى .

انقضت عشر سنوات ونصف قبل أن تشاء الأقدار عودتى إلى وزارة الخارجية . ولقد سمعت بطريق الصدفة ممن حادثتهم من الموظفين بعد رجوعى آراء قيمة ومعلومات وافية عن بعض ما وقع من الشؤون الخارجية فى تلك الفترة . وكان انهماكى ـ وأنا وزير للخارجية ـ فى أعمال الوزارة بحيث لم يتسع لى الوقت للاطلاع على المستندات القديمة واستيعاب سجلات الوزارة للإلمام بما حدث فى أثناء وجودى خارج الحكم . وبما أننى كنت بعيداً عن شئون تلك الوزارة فى الفترة المذكورة فقد تحاشيت عمداً الاطلاع على الوثائق الخاصة بها عند وضع هذا الكتاب . فإذا كتبت عن تلك الحوادث فإنما أكتب كرجل لم يكن له ضلع فيها ولم يعلم عنها شيئاً عدا ماذكرته الصحف أو ما يمكن استقاؤه من مصادر الأنباء العامة . نعم أننا ندرى ما حدث ولكنا نجهل ـــ أولا نعرف إلا النزر اليسير ـــ كيفية الحدوث والبواعث على حدوث ماحدث . وليس يسع البعيدين عن دائرة الحكم إلا رؤية النتيجة فحسب ، أما

الأسباب الحقيقية والفكرة ذاتها ، فعلمها عند من وضعوا السياسة ونفذوها وحدهم ليس غير .

على انه لا معدى لنا عن الإشارة إلى ماوقع من الحوادث فى تلك الفترة، نظراً للاتجاه الجديد الذى أخذته السياسة الخارجية البريطانية خلالها . ويخيل إلى أن الاندفاع فى ذلك الاتجاه كان بحكم الظروف القاهرة لا بناء على خطة معينة وضعها لورد سلسبورى . على أن بوادر التغيير لم تظهر إلا بعد اعتزاله العمل فى سنة ١٩٠٢ . وفى الواقع لقد كانت ثمة محاولة — كما يؤخذ من خطبة المستر تشمبرلن فى نوفمبر سنة ١٨٩٩ التى سيأتى الكلام عنها — لدفع السياسة البريطانية فى طريق توثيق العلاقات مع ألمانيا — ولكن لم يكن ذلك هو الطريق التى شاءت المقادير أن تسلكه تلك السياسة نهائيا فيما بعد .

ونسأل ما الذي يلفت انظارنا بصفة خاصة فيما وقع من الحوادث منذ سنة ١٨٩٥ ؟ إننا نرى اتجاهين ظاهرين . أحدهما وهو ناشىء عن توتر العلائق بيننا وبين روسيا وفرنسا وازدياده بمرور الأيام . فاحتلال روسيا لبور آرثر، وعقد المحالفة الإنجليزية اليابانية. ونشوب الحرب اليابانية الروسية ، ووقوع الحوادث المترتبة على تلك الحروب — كل أولئك يفسر الحالة فى صدد روسيا. ومن جهة اخرى فان تقدم لورد كتشنر فى السودان ، والتقاءه بالكتيبة الفرنسية بقيادة الليفتنانت مارشان، وما قام فى هذا الصدد وقتئذ من النزاع — كل ذلك يبين الموقف فيما يختص بفرنسا . وبالجملة فقد كانت هناك حوادث متتالية تنذر بقرب قطع العلاقات فيما بيننا وبين روسيا وفرنسا .

أما الاتجاه الثانى فكان خاصا بالعلاقات الإنجليزية الألمانية وما طرأ عليها من الجفاء والفتور. ولقد صار ما سميته الجانب الخشن فى الصداقة الألمانية أشد خشونة عما كان قبلا ، وعندى أن سرد مجمل الحوادث الرئيسية يساعد القارىء على فهم هذين الاتجاهين .

فلقد شن جيمسون الغارة على الترنسفال فى الشهور الأولى لقيام وزارة

لوردسلسبورى التى كان مستر جوزيف تشمبرلن وزيراً للمستعمرات فيها . ولما عرفت الحقائق ثار سخط الشعب فى انجلترا وغضب غضبا عظيما لارتكاب مثل ذلك العدوان الشنيع على أيدى اشخاص انجليز ، وإعداد العدة لارتكابه فى اراض انجليزية . ومما زاد فى سخط الشعب أن الذين دافعوا عن ذلك العدوان تذرعوا بحجة سخيفة فقالوا أن الضرورة قضت بحماية النساء والأطفال الموجودين فى جو هانزبرج اوقد اقتنع كل انسان عند حبوط ذلك الاعتداء بأنه كان عملا ينطوى على النزق والخرق . لذلك لم ندهش لأن الرأى العام فى الخارج استهجنه . وطبعا لم يكن لنا اى حق فى التذمر من ذلك الاستهجان . ولكن لماذا انفرد الإمبراطور الألمانى بالتظاهر بأنه صديق كريجر ونصيره ؟ وليس شك فى أن البرقية التى أرسلها الامبراطور إلى كريجر أحدثت دهشة واستياء فى بريطانيا العظمى . على أنها انتهت دون وقوع حادث ما لأن العدوان المذكور وقف انجلترا موقف الخطأ والرئيس كريجر موقف الصواب . ولهذا انحصرت مهمتنا فى أن نزيل ما استطعنا ما تركه ذلك العدوان من الأثر السيء بالاقتصاص بالوسائل البرلمانية ممن اشتركوا فيه . وبعمل تحقيق برلمانى لمعرفة المسؤولين عنه والمحرضين عليه . ولا حاجة بنا إلى بحث هذه المسألة أكثر من ذلك ، وبحسبنا أن نقول فقط أن برقية الإمبراطور ، ولو أنها مرت دون أن يترتب عليها « حادث » سيء فانها قد تركت أثرها فى نفس الشعب البريطانى . فلقد ازدادت الوساوس فيما بعد بان المانيا تشجع الرئيس كريجر على خلق المشاكل لبريطانيا العظمى فى جنوبى أفريقيا . ومما ينبغى ملاحظته هنا ان هذه المظاهرة المسرحية التى صحبت برقية الأمبراطور الألمانى ولو أنها لم تسبب مباشرة هذه الوساوس وقتئذ إلا أن ذكرى تلك البرقية قوى هذه الوساوس وزادها رسوخا فى النفوس فى السنوات العصيبة التالية .

وثمة حادث آخر أسلفنا القول عليه وكان له صدى مباشر فى السياسة

الخارجية وهو احتلال روسيا لثغر بور آرثر . فقد أدى هذا الاحتلال إلى تغيير الموقف البحرى فى الشرق الأقصى تغييراً تاما . نعم لقد كان لروسيا ثغر أخرهو فلاديفوستك - ولكن هذا الثغر لم يكن يمكن الانتفاع به فى الشتاء بسبب تجمد المياه حوله .

بيد أن بور آرثر، فلأنها كانت أقل تعرضا للأنواء وأقرب إلى الجنوب من الثغر السالف الذكر بحيث لا تقف الحركة فيها طول فصول السنة وفى الاستطاعة الآن تحويلها إلى قاعدة بحرية خطيرة دائمة - لهذه الاعتبارات كلها كان احتلال روسيا لها من أكبر دواعى القلق بالنسبة لعلاقتها بموقف بريطانيا البحرى فى الشرق الأقصى . فشرعت الحكومة البريطانية فى مفاوضة الصين فى أن تؤجر لها «واى - هاى - واى» لإعادة التوازن الذى تزعزع بسبب عمل روسيا . وكانت غايتنا من هذه الحركة الحصول على قاعدة فى شمال الصين لترابط فيها قوة بحرية انجليزية لمراقبه أية قوة بحرية روسية يمكن أن ترتكز إلى بور آرثر. وحتى مع هذا قد شعرنا أن الموقف البحرى في الشرق الأقصى تغير نسبيا ضدنا مما أدى إلى توجيه النقد إلى وزارة اللورد سلسبورى . ثم أن منهج روسيا كان باعثا على الاستياء . ذلك أن السفن البريطانية كانت مرة تزور ثغر بور آرثر فنبهتنا الحكومة الروسية - بطريقة ودية - إلى أن وجود البوارج البريطانية فى تلك المنطقة يدعو إلى القلق . وإذ ذاك بادر اللورد سلسبورى - بطريقة ودية أيضا - بإصدار الأوامر بسحب السفن المذكورة . وهنالك ذهب الروس أنفسهم إلى بور آرثر لا لزيارتها بل للإقامة فيها إلى أجل غير مسمى ! !

وقد كانت هذه النتيجة مثيرة للنفوس ! ثم أن الانتقادات التى وجهت إلى الوزارة فى انجلترا كانت شديدة، اضف إلى ذلك كله أن الأساليب الروسية كانت بلا ريب داعية إلى السخط والاستياء. وسرعان ما وجد شعور الاستياء هذا منفذا فى خطبة شديدة اللهجة ألقاها المستر تشمبرلن . ولم

تكن بحال ما أول مرة وقف فيها موقفا حاسما ضد روسيا . فلقد سمعته يخطب في نادي الثمانين في أوائل سنة ١٨٨٥ حيث أشار إلى حادث «بنجده» وكان وقتئذ زعيم الحزب الراديكالى. أما الخطبة فكان موضوعها الشؤون الداخلية، وكان خصومه المحافظون يزعمون أنه من المحبذين لفكرة بقاء انجلترا على حالها الضئيل في الداخل مع إظهار الضعف والاستخذاء في الخارج . وكانت العلائق مع روسيا متوترة بسبب حادث بنجده على الحدود الأفغانية. فألقى المستر تشمبرلن خطبته المذكورة بلهجة هي نهاية الحزم بخلاف ما كان يتوقعه الناس .

وماهي أن انقضت سنوات عشر حتى تحول المستر تشمبرلن تحولا تاما، فلم يصبح فقط أحد كبار الوزراء في وزارة المحافظين الاتحاديين بل كان الناس يعدونه أعظم أنصار الاستعمار في الحياة السياسية الانجليزية . وكانت خطبته خلوا من التلويح بالحرب من أجل بور أرتر لأن احتلالها بالجيوش الروسية كان حقيقة واقعة. على أن المستر تشمبرلن لم يتحاش إظهار ما ينطوى عليه من الاستياء الشديد المثل المشهور « لابد لمن يتعشى مع الشيطان أن تكون له ملعقة طويلة » ! وهى خطوة واسعة على التحقيق فى سبيل الحرب مع روسيا .

أما فيما يختص بفرنسا فان العلاقات معها عادت فتوترت إلى درجة خطيرة بسبب حادث فاشودة . فلقد تقررت إعادة فتح السودان على أثر تربع وزارة المحافظين فى كراسى الحكم ، وتكللت أعمال الحملة التى أرسلت لهذا الغرض بالنجاح التام بسقوط مدينة الخرطوم فى أيدينا فى سنة ١٨٩٨ . ثم والى لورد كتشنر زحفه إلى أعالى النيل حتى التقى بكتيبة فرنسية كانت قد اخترقت أفريقيا من الغرب ونصبت العلم الفرنسى فى فاشودة بعد رحلة طويلة شاقة مملوءة بالأخطار . وفى الحال تحرج الموقف . ولم يكن فى استطاعة قومندان الكتيبة اليفتنانت مارشان لاهو ولا رجاله القلائل أن يبدوا مقاومة تذكر



الرئيس كريجر ووالدته

لجيش لورد كتشنر . وحسبك انه كان بعيد الاتصال بالمستعمرات الفرنسية ، لابل قد لانغالى إذا قلنا أن الحكومة الفرنسية كانت فى شك من مصير هذه الكتيبة إلى أن أتم اللورد كتشنر فتح السودان . أما وقد وصل الليفتنانت فعلا إلى فاشودة ونصب فيها العلم الفرنسى فلم يكن يستطيع الإذعان إلا للقوة. فاذا لجا إليها لورد كتشنر ، لعد ذلك عملا من أعمال الحرب بين انجلترا وفرنسا . ولقد أذيعت الحقائق فى العالم وظل الأشخاص الواقفون فى البقعة نفسها ينتظرون تعليمات حكومتيهم . ومن ثم بدأ الصراع السياسى وهاج

هائج الجمهور والصحافة فى كلا البلدين. وإذ كان يستحيل استحالة باتة على انجلترا ان تسلم لأية حكومة أجنبية كائنا من كانت بأى دعوى فى وادى النيل ، لم يبق أمامها إلا حل واحد هو المطالبة بسحب الكتيبة الفرنسية .

ولما كنا قد لفتنا نظر فرنسا من قبل وفى الوقت المناسب إلى حقيقة مطالبنا — وهنا استشهدت الوزارة بالخطبة التى ألقيتها فى مجلس العموم فى سنة ١٨٩٥ — إذن لم يكن لإرسال تلك الكتيبة إلا معنى واحد هو تحدى هذه المطالب والتحرش بنا بلا مسوغ ! لأن فرنسا فى الواقع لم تكن لها فى وادى النيل أية مصلحة خاصة يمكن القول بأنها فى حاجة إلى حمايتها . وعلى أنها من الجهة الأخرى لم تسلم بمطالبنا السابقة . وهكذا أصبحت المسألة تمس شرفها . وظاهر أن الموقف لم يكن بحيث يمكن معه تساهل أحد الفريقين . ولما كانت تسويته على الورق مستحيلة إذن لم يبق إلا أن يسلم أحدهما للآخر . وقد بقيت هذه الأزمة السياسية عدة أيام . على أن الموقف لحسن الحظ كان له فى الوقت نفسه



الكولونيل مارشان بطل فاشودة أمام الأهرام فى نوفمبر سنة ١٨٩٨

جانب ملطف وآخر يدعو إلى الفكاهة . وأحسب ان فى الحياة مواقف كثيرة يظهر فيها كل طرف من أطراف الخصام بمظهر الجد والخطر ، ولكن هذا لايمنع أنه يعلم حق العلم بينه وبين نفسه أنه لو لم يكن جاداً لاستغرق فى الضحك !

ففى حادث فاشودة كان الجانب الملطف هو أن الليفتنانت مارشان بقيامه تلك الرحلة الأفريقية المدهشة من حيث المهارة والجراة قد أدى باعتراف الجميع خدمة جليلة زادت فرنسا شرفا على شرفها . أما الجانب الآخر الذى كان يغرى بالضحك هو ان ما أظهرته هذه الكتيبة من الإقدام كان فى الوقت نفسه سببا فى إيقاعها فى الخطر والعزلة، بحيث أن زحف اللورد كتشنر كان فى الواقع بمثابة نجاة لها أكثر مما كان خطراً عليها . وقد كان لا مناص من انقراض تلك الكتيبة بعد التقائها بالخليفة لو لم يتغلب عليه لورد كتشنر فى الوقت الملائم . أما وقد انتهى امر هذا الخليفة فقد أصبح الطريق الذى شقه لورد كتشنر هو الطريق الأوحد الذى تستطيع الكتيبة الفرنسية أن تتصل بواسطته بفرنسا أو بالعالم المتمدين . فهل كان تشبث فرنسا بمطالبها فى مثل تلك الأحوال حقيقة ماسا بمصالحها أو بشرفها ؟ ولقد تدخل لوردروزبرى فى مناقشة المجلس فلاحظ : «ان العلم الفرنسى لم يخرج عن كونه أحد الأشياء الممكن نقلها من جهة إلى اخرى »! وفى النهاية عادت الكتيبة الفرنسية إلى العالم التمدين بالطريق الأوحد الذى اصبح بفضل زحف اللورد كتشنر وفتوحاته صالحا للسفر. وليس شك فى أن هذه البيانات قد لطفت كثيراً من حدة الحادث الذى ترك مع هذا اسوأ الأثر في النفوس واعتبر برهانا جديداً وانذاراً آخر على أن استمرار سوء التفاهم بين انجلترا وفرنسا سيؤدى حتما إلى مضاعفة عدد الحوادث المنطوية على التحرش والتحدى ثم إلى الحرب فى النهاية .

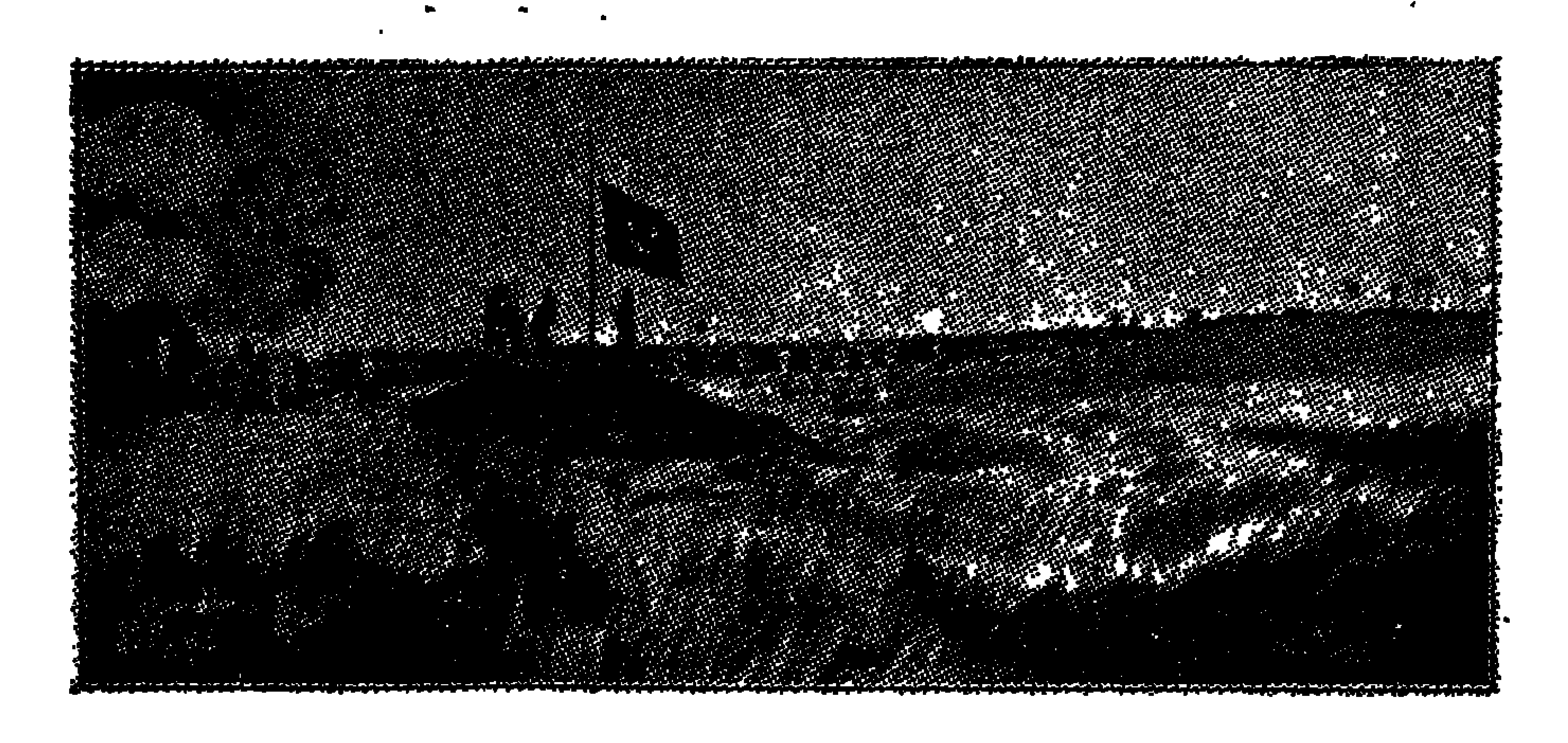
ولست أدرى ما ذا كان أثر هذه الحوادث فى نفس لورد سلسبورى أو مستر بلفور أو لورد لانسدون ممن كان لهم أكبر ضلع فى توجيه سياسة



المستر جوزيف تشمبرلن والد السير أوستن تشمبرلن

انجلترا الخارجية في خلال السنوات التالية فى اتجاه جديد . ولكن المستر تشمبرلن وصل إلى هذا الرأى وهو ان اتجاه السياسة الانجليزية فى أحد الطريقين لا بد من تعيينه تعيينا دقيقا . على أن الطريق التى اختارها هو لم تكن التى استقر عليها الرأى في النهاية . فلم تكن سياسته سياسة تفاهم مع فرنسا وروسيا على المسائل التى تزعزع السلام فيما بيننا وبينهما ، كلا بل سياسة تحالف مع ألمانيا . وهو ما أشار اليه فى خطبته التى ألقاها فى ليستر (يوم ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٩٩) وإليك الجزء الخاص بموضوعنا هذا . قال

« هناك أمر آخر يخيل إلىّ انه كان مطمح أنظار كل سياسى انجليزى بعيد النظر طمحت إليه نفسه منذ زمن بعيد ، ألا وهو أن لا تدوم عزلتنا هذه عن



الجنود البريطانية ترفع العلم المصرى فى فاشودة فى اكتوبر سنة ١٨٩٨

شؤون القارة الأوربية . وعندى أنه متى حان الوقت لتحقيق هذه الرغبة فبديهى أن يكون تحالفنا مع الإمبراطورية الألمانية العظيمة أمراً طبيعيا . نعم لقد حدث بيننا وبين ألمانيا خلاف فى الرأى ، وكثيراً ما قام بيننا وبينها سوء تفاهم ووقعت مخاصمات ومشاحنات . ولست أخفى أن أهالى هذه البلاد كثيراً ما ثارت نفوسهم ـ وبحق ـ لأمور يهمنا تناسيها الآن . ولكن كانت هناك قوة خفية على الرغم من كل هذا تدفعنا إلى التقرب والتفاهم . وإنى لأسأل هنا ما هى الروابط التى تربط الأمم بعضها ببعض ؟ أليست المصالح والعواطف؟ فهل ثمة لبريطانيا مصلحة تتعارض أو تتنافى مع مصلحة ألمانيا ؟

« ولست أستطيع ان أتصور أن تثور فى المستقبل القريب مسألة ما يمكن ان تؤدى إلى تعارض المصالح بيننا وبين الألمان ، بينما أرى على العكس من ذلك أموراً شتى تقلق بال ساسة أوربا . ولكن مصالحنا ومصالح الألمان متفقة تمام الاتفاق . وعندى أن ما تكلمت عنه من التفاهم مع أمريكا لو شمل ألمانيا أيضا لكان له اثر كبير فى تقرير سلام العالم أكثر من أى تحالف عسكرى كائنا ما كان نوعه .

« واذا كان اتحاد انجلترا وأمريكا وحدها يعتبر عاملا من عوامل السلام

القوية أفلا يكون كذلك تحالف الجنس التيوتونى مع شعبتى الجنس الأنجلوسكسونى من أقوى العوامل وأفعلها في مستقبل العالم؟ وقد يلاحظ أننى استعملت لفظة « تحالف » ولكنى أبين لكم أنه لا يهمنى مطلقا أن تكون ثمة محالفة مكتوبة على الورق أو تفاهم معنوى قائم فى أذهان ساسة البلاد المذكورة . وربما كان التفاهم خيراً من المحالفة التي قد تؤدى إلى تعديل ترتيبات لا يمكن اعتبارها دائمة نظراً لتغيير الأحوال وتطورها من يوم إلى آخر » .

والفكرة نفسها بسيطة وجلية فى حد ذاتها . فالأسطول البريطانى هو أشد أساطيل العالم بأسا كما أن الجيش الألمانى أقوى جيوش الدنيا . وبما ان الأسطول لا يستطيع محاربة الجيش ، فلو عقد بينهما تحالف لاستطاعا صيانة مصالحهما والاحتفاظ بالسلام فى أوربا . ولقد كانت هــذه الخطبة بمثابة دعوة صريحة لألمانيا ، فضلا عن أنها كانت كوصية من أحد كبار الساسة الإنجليز بالسياسة العامة التى ينبغى على ألمانيا والإمبراطورية البريطانية أن تسلكاها . وقد نشأت عن هذه الخطبة حالة خطيرة مفعمة باحتمالات مهمة . وليس فى استطاعتى أن أبين هنا إلى أى حد كان المستر تشمبرلن يعبر عن رأى لورد سلسبورى وأراء زملائه وهل استشارهم فى موضوع خطبته أم لا . على أننى لم أسمع شيئا عن هذه النقطة لا وقتئذ ولا فيما بعد . ولكن علمت من وزارة الخارجية في السنوات التالية ان هذه الخطبة إنما ألقاها المستر تشمبرلن بعد مقابلة الإمبراطور والكونت (فيما بعد البرنس) بيلوف وزير الخارجية الألمانية وقتئذ أثناء زيارتهما إلى انجلترا . وكانت المعلومات التي وقفت عليها من وزارة الخارجية واضحة تمام الوضوح . وهى تؤكد أن المستر تشمبرلن لم يلق تلك الخطبة إلا بعد أن استوثق من أنها ستقابل بالارتياح من جانب الحكومة الألمانية[١] وبالاختصار كان الاعتقاد السائد

(١) زيادة الايضاح فى هذا الموضوع راجع كتاب « منشأ الحرب » ص ٢٢ بقلم المستر سكوبث .

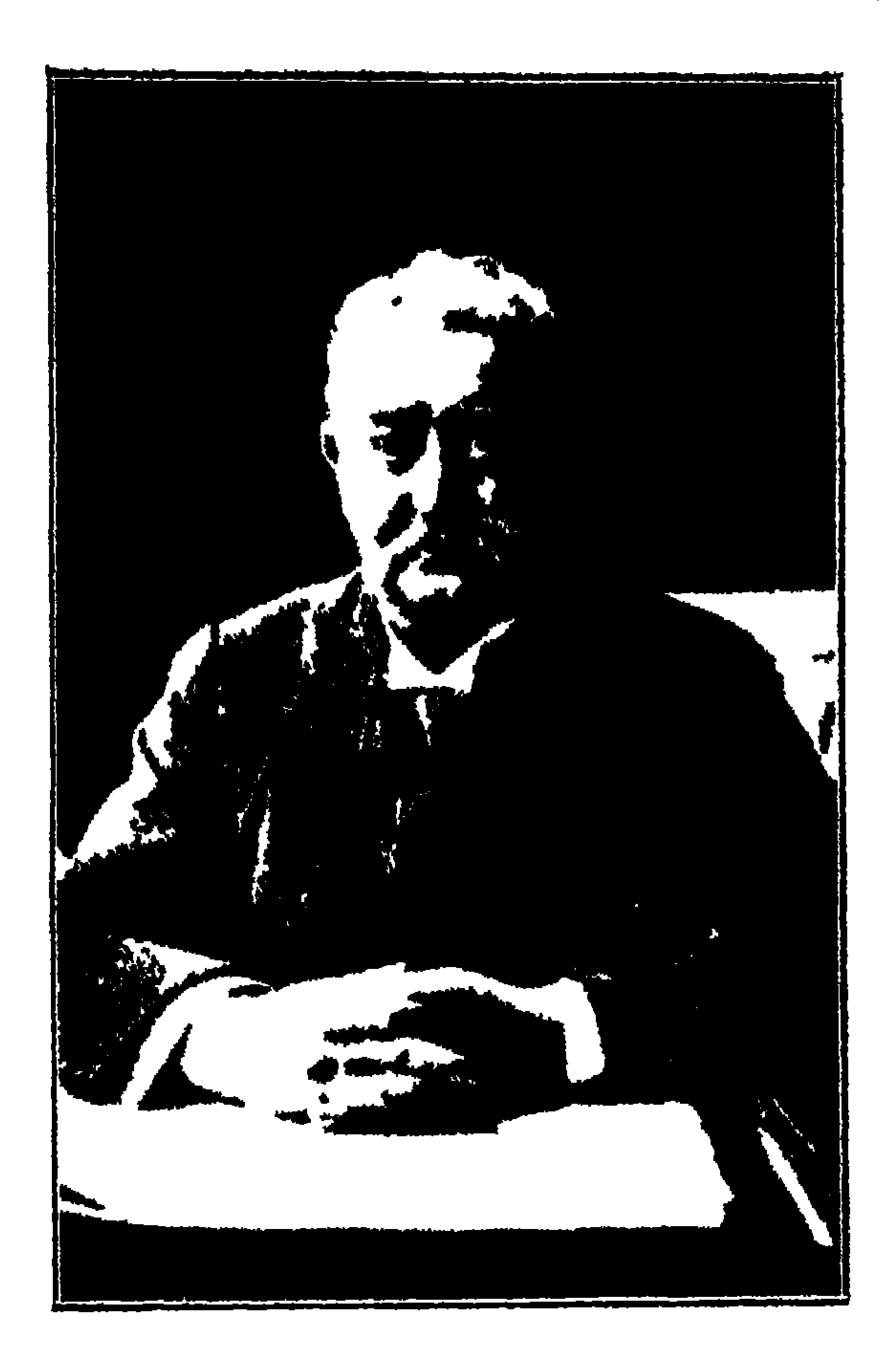
في وزارة الخارجية أن الإمبراطور أو الكونت بيلوف — أحدهما أو كلاهما — حبذا فكرة القاء بيان عام فى انجلترا باستحسان عقد معاهدة ألمانية انجليزية . ويؤخذ من معلومات وزارة الخارجية أن السياسة الألمانية قابلت فكرة عقد المحالفة بالفتور التام ، لا بل أنها استغلتها في باريس وسان بطرسبرج ،



البرنس بيلوف المستشار الألمانى سابقا

ووصفتها بانها عرض عرضته الحكومة الانجليزية راجية أن تقبله ألمانيا ولكن هذه رفضته بتاتا . ولو صح ذلك لكان دليلا على قصر نظر مندوبى الحكومة الألمانية. فليس أدعى إلى الفشل من فوز سياسي مؤقت يحرزه أحد وزراء الخارجية

أو تناله دولة على حساب أخرى . لا بل أنه لأسوأ من هذا بكثير . إذ لا بد من محاسبة هذا الوزير أو تلك الدولة عليه فيما بعد . هذا فضلا عن أنه هادم للثقة اللازمة لاستمرار العلاقات بين الدول بعضها وبعض لزومها للعلاقات بين الشركات التجارية الكبرى. وقد يقال أحيانا أن الاستعمار البريطاني



المستر سيسل رودس

هو الذى دفعنا إلى الحرب مع ألمانيا . ولكن ينبغى على من يظنون هذا — سواء أكانوا فى انجلترا أم فى خارجها — أن يلاحظوا هذه الحقيقة الملموسة وهى أن فكرة التحالف والتعاون مع ألمانيا كانت إلى وقت إلقاء خطبة المستر تشمبرلن تلقى تحبيذاً وتشجيعا كبيراً من رجلين هما بلا جدال أقوى أنصار

الاستعمار البريطانى وأوسعهم نفوذاً وأكبرهم نشاطا وأشدهم إيمانا بفوائده ، وهو ماتدلك عليه خطبه المستر تشمبران المذكورة ووصية المستر سيسل رودس .

فألمانيا إذن قد سنحت لها فرصة التحالف مع بريطانيا العظمى على أساس أن لأحداها جيشا عرمرما فى حين أن للأخرى أسطولا قويا ، وأن الجيش والأسطول لايمكن أن ينافس أحدهما الآخر بل يمكن أن يؤيد أحدهما الآخر ويشد ازره فى أوقات الشدة .

وعلى أننا نتساءل بعد ما مر بالعالم من الحوادث المهمة ، أيحق لنا أن نتمنى لو كانت عقدت تلك المحالفة فعلا ؟ ماذا عسى كان يكون مجرى التاريخ لو أنها تمت ؟ وأحسب أن دور البحث فى الرد على هذه الأسئلة يجىء عند ما نفرغ من استعراض ما وقع فيما بعد من الحوادث . وبحسبنا أن نقول هنا أن ألمانيا أشاحت بوجهها عن فكرة المحالفة . وهكذا أضاعت الفرصة السانحة . بيد أن لورد سلسبورى لم يفكر رغم هذا فى تغيير مجرى السياسة البريطانية . وما هو إلا قليل من الوقت حتى شرعت ألمانيا فى انتهاج سياسة إنشاء الأسطول الضخم ، وتلا ذلك وقوع حوادث عديدة حالت دون استئناف عرض فكرة عقد محالفة فيما بينها وبين انجلترا .

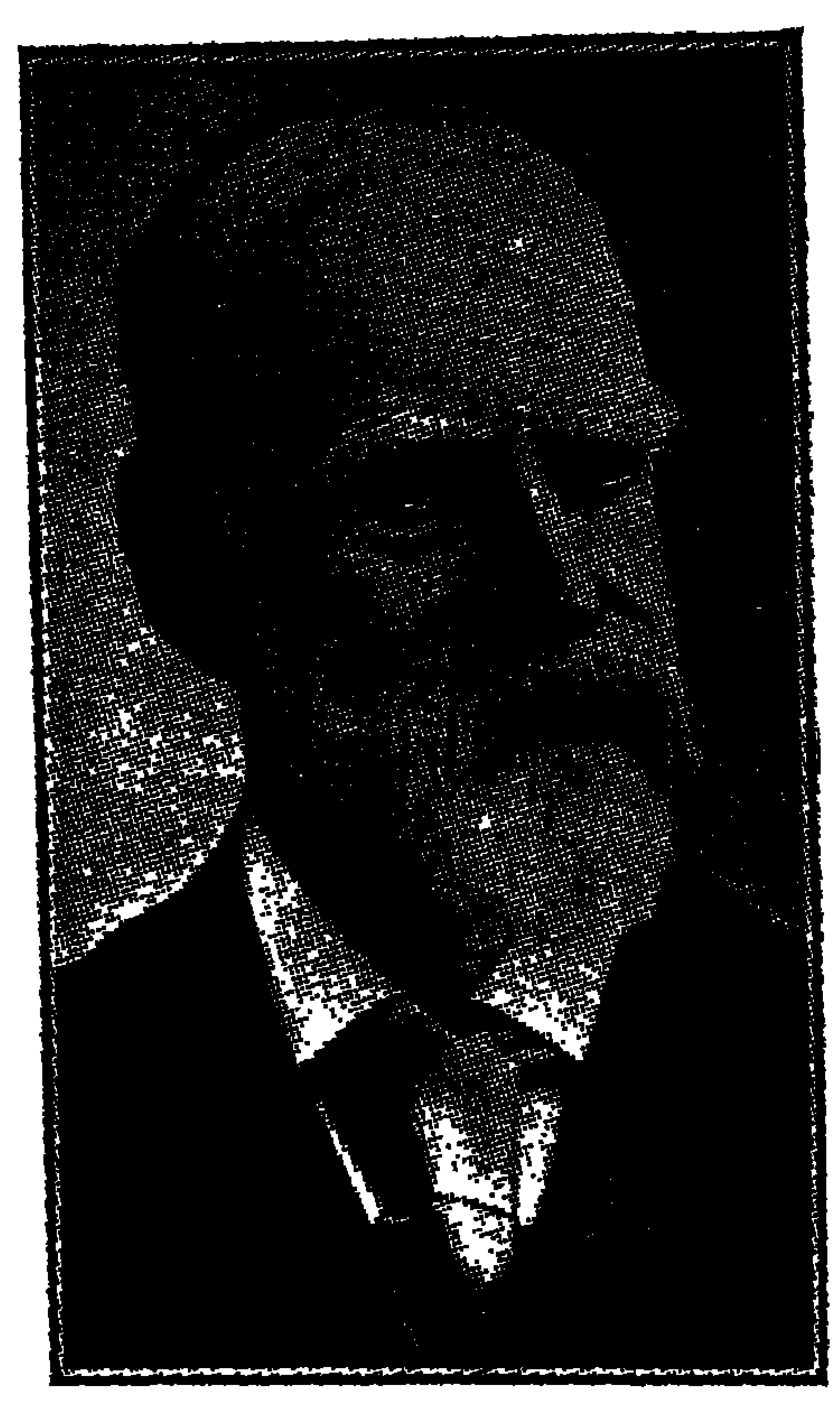
وظلت سياسة بريطانيا الخارجية كما كانت عليه أمداً غير قصير . ففى القطر المصرى لبثنا نعتمد على تعضيد ألمانيا والتسامح فيما بين آن وآخر فى مطالب حكومتها . وتحضرنى فى ذهنى الآن مسألة الاتفاق السرى مع ألمانيا بشأن المستعمرات البرتغالية فى أفريقيا . فهذا الاتفاق لايزال يعتبر سريا فى نظر الدوائر الرسمية ، ولكن بما أن ألمانيا أذاعت ماتضمنه من الشروط فى خلال الحرب العالمية لم يبق هناك سر يصح كتمانه . ولقد عالجت هذه المسألة فى أثناء وجودى في وزارة الخارجية وسأسرد للقارىء مرحلتها الختامية متى وصلنا إلى دور البحث فيها . ولقد أتيح لى الاطلاع وقتئذ على المستندات القديمة فى وزارة

الخارجية التثبت من الاتفاق المشار اليه . ويلوح لى منها أن وزارة اللورد سلسبورى أكرهت على عقد ذلك الاتفاق طوعا لإصرار ألمانيا ولا أقول « لضغطها » وإلا كان التعبير أشد مما يسمح به المقام . ويصح هنا إجمال النظرية التى أصرت عليها ألمانيا ، فإنها كانت تلخص فى « أن علاقات بريطانيا مع روسيا وفرنسا على أسوأ ما يكون ولذا فلا يسعها زيادة الطين بلة بالتشاد مع ألمانيا » . وبعد أن سلخت سنوات عديدة فى الوزارة جاءنى المركيز دى سوفيرال فحدثنى حديثا شائقا عن الاتفاق المذكور وكيف تم توقيعه . فلقد كان وقتئذ وزير البرتغال المفوض فى لندن وكان واقفا أولا باول على كافة ما دار من المفاوضات فى صدد ذلك الاتفاق « السرى » وعالما بتوقيعه . لا بل أنه أفشى ذلك إلى لورد سلسبورى نفسه ، وأحسب أن ذلك العمل كان داعيا إلى تفكير عميق من ناحية القائمين بأعمال وزارة الخارجية .

وفى سنة ١٨٩٩ نشبت الحرب فى أفريقيا الجنوبية ، فانقسم بسببها الرأى العام فى انجلترا . فقد رأى السواد الأعظم أن عبء المسؤولية يقع على السياسة التى سلكها الرئيس كريجر . وكان هذا هو أيضا رأى فريق كبير من الأحرار — وأنا ضمنهم — ورأى أنصار الوزارة .

ورأى فريق آخر أن الحرب لا مبرر لها — مع أن هذا الفريق اعترف كما فعل المستر (فيما بعد لورد برايس) فى كتابه عن جنوبى افريقيا — بأن سياسة الرئيس كريجر كانت اساس المتاعب كلها . وقد تبين لى أن هذا الفريق الأخير بنى رأيه هذا على اعتبار أن الرئيس كريجر كان رجلا مسنا وأن غير ذوى الأسنان من رجاله الحصفاء الذين سيخلفونه بعد وفاته يسلمون بمساوىء تلك السياسة وعيوبها ، وأن الحكومة البريطانية لو تذرعت بالأناة والتروى لاستطاعت فى وقت غير بعيد صيانة مصالحها وتوطيد السلام فى جنوبى أفريقيا على دعائم ثابتة من حسن النية بدون حاجة إلى الحرب مطلقا .

وكان ثمة فريق آخر لم يعن بدرس المسألة من كافة جوانبها ولذا اعتبر



لورد برايس أحد أقطاب البروباجندا الانجليزية فى إبان الحرب العالمية

الحرب عدوانا لا مبرر له من ناحية الاستعمار البريطانى المتحرش ضد شعب صغير.

وليس بنا من حاجة إلى البحث هنا فى أى هذه الآراء الثلاثة كان أقرب إلى الحقيقة أو ماذا كان مبلغ الصحة فى كل منها . وأنه ليجدر بنا أن لا نحيى الذكريات المؤلمة الماضية وألا نسمح لأصابعنا بان تلعب فى جروح لعب الزمن وحصافة الرأى والسياسة الرشيدة من الجانبين دوراً مهما فى التئامها ، وأن كانت آثار هذه الجروح ما تزال باقية فى اذهان من أصيبوا بها وعانوا الأمرين من أوجاعها .

على أن هذا الرأى الثالث هو الذى ذاع وانتشر فى جميع أنحاء القارة

الأوربية ، ففيها كانت الحرب تعتبر اعتداء لا مسوغ له على دولة صغيرة . ومن ثم أخذت المجامع السياسية تبدى عطفها على البوير وتعرب عن سخطها وكرهها لبريطانيا العظمى بعبارات شديدة اللهجة. وقد ظهر هذا الشعور فى ألمانيا كما ظهر فى غيرها من البلاد وان كان بلغ فيها درجة أشد منه فى الدول الأخرى . وهو ما استاءت له انجلترا بصفة خاصة. ولقد سمعت احد الألمان يشكو من تذمرنا من ألمانيا لا لشيء إلا لأنها استهجنت أمراً اجمعت كافة الدول على استهجانه وتقبيحه . وليس يخفى أن الأسباب التى تقوم عليها عواطف الجمهور تكون فى أغلب الأحايين مجهولة البواعث بحيث يصعب على الباحث تحليلها . أما في هذه الحالة فإن الجمهور كان موسوسا ــ مع أنه لم يكن يعلم علما قاطعا ــ بأن الرئيس كريجر كان يتلقى المساعدة والتشجيع من المانيا منذ زمن طويل لمناوأتنا واتباع سياسة معادية لنا . ومما زاد فى رسوخ هذا الوسواس فى انفس الجماهير ذكرى برقية الإمبراطور غليوم إلى الرئيس كريجر بمناسبة الغارة التى شنها جيمسون . أضف إلى هذا أن الرئيس كريجر عند ما حضر إلى أوربا اتجهت رغبته إلى زيارة إمبراطور ألمانيا وحده . نعم إن الإمبراطور رفض مقابلته ولكن وجود مراسلات سابقة فيما بينهما مضافا إليه عداء الصحافة الألمانية الشديد حالا دون اعتبار عدم المقابلة عملا وديا .

وقد ادى هذا التشاد مع المانيا إلى الصراع السياسى العلنى بين الكونت بيلوف المستشار الألمانى والمستر تشمبرلن ، ولكن ثبت المستر تشمبرلن فى موقفه ثباتا تاما ، وهب الجمهور فى انجلترا لشد أزره . وكان لهذا كله أثره فى الرأى العام البريطانى . وإذا كانت الدوائر الحكومية تعرف من بواطن الأمور أكثر مما كان يعرفه الجمهور فان هذه المعرفة كانت من الأسباب القوية الداعية للتفكير فى خطورة الموقف البريطانى مع التسليم باستهدافه لصروف الحدثان .

وما جاءت سنة ١٩٠٠ حتى [illegible]

انتهاج سياسة بحرية جديدة بان يكون لها أسطول ضخم . وكان برنامج بريطانيا العظمى البحرى قائما إلى ذلك الحين على قاعدة جعل الأسطول الإنجليزى مساويا لأسطولى دولتين . وكانت الأنظار متجهة إلى الأسطولين الروسى والفرنسى فحسب باعتبارهما الجهة التى يحتمل أن يأتى العدوان من ناحيتها . ولكن حرب البوير اظهرت عزلتنا التامة ودلت على أن كل أسطول قد ينقلب عدواً لنا . أفلم يكن اذن من الخطورة بمكان أن تترك الحكومة البريطانية حبل الأمور على غاربها وتدع السياسة الخارجية تسير فى طريق الغموض والإبهام الذى ظلت سائرة فيه عدة سنوات ؟ أكان فى وسعنا أن نترك أسباب النزاع المحتملة دون أن نعمل على إزالتها ؟ وأحسب أن هذه الأسئلة وأمثالها أصبحت الشغل الشاغل للوزراء البريطانيين فى ذلك العهد. وقد صحت عزيمتهم على أمرين اثنين لم يعرف عن الحكومة البريطانية منذ عهد بعيد أن عزيمتها صحت على مثلهما من حيث الدقة والمعنى الايجابى . الأمر الأول عقد المعاهدة الأنجليزية اليابانية فى سنة ١٩٠٢ . والثانى إبرام الاتفاق الودى مع فرنسا فى سنة ١٩٠٤ . ومن المهم ان نلاحظ هنا ان هذين الأمرين لم يكونا جزءاً من سياسة واحدة مقررة من قبل . بل كان كل منهما بمثابة خطوة تمهيدية فى سبيل سياسة مختلفة . فلقد كانت فرنسا وروسيا حليفتين . وكان مقياسنا البحرى يقضى بحماية انفسنا ضد اسطوليهما . وقد كان ثمة طريقان أو سياستان يمكن أن ندرأ بهما اخطار الحرب السياسية. فإما أن نتحالف مع دولة أخرى لصيانة أنفسنا ضد فرنسا او روسيا. وإما ان نحاول بالمفاوضات الودية مع هاتين الدولتين إزالة ما يمكن أن يكون هناك من أسباب الحرب . وقد كانت المحالفة الأنجليزية اليابانية خطوة تمهيدية فى سبيل السياسة الأولى، بينما كان الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا خطوة ابتدائية فى سبيل السياسة الثانية .

وأحسب أن تعليل المحالفة الأنجليزية اليابانية فى منتهى البساطة . فإن

احتلال روسيا لبور آرثر وما أحاط بالاحتلال من الظروف جعلنا نعتقد أن الأسباب التى ترجح وقوع الحرب مع روسيا هي فى الشرق الأقصى . فبعد ان كانت الأستانة والشرق الأدنى نقطة الخطر فى العقد الثامن من القرن الغابر عدلت روسيا ـ على مايظهر ـ عن سياسة مطاردة تركيا بعد أن الألمانية أصبحت هذه تستند إلى صداقة ألمانيا وإلى اتساع دائرة المصالح التجارية في الإمبراطورية العثمانية .

نعم استمر زحف روسيا فى خلال العقد التاسع فى اتجاه الحدود الهندية ، ولكن ما عتم أن خفتت الإشاعات المقلقة عن هذا الزحف فى مرتفعات الجبال الشاهقة أو فى صحارى آسيا . إذن لم يبق إلا الشرق الأقصى الذى أخذت روسيا توجه إليه عنايتها وتحشد فيه قواتها . ولقد كان هذا خطراً يعنى اليابان أكثر مما يعنينا. وقد مهدت ذكرى الضغط السياسي الذى اشتركت فيه ألمانيا وفرنسا وروسيا ضد اليابان ، وعدم اشتراك بريطانيا فيه، الطريق لعقد المحالفة بيننا وبين اليابان . وفى الحق أن عقد هذه المحالفة كان عملا سهلا لأنه كان أمراً طبيعيا .

وكانت فرنسا الدولة التى يرجح أن يشتد النزاع معها بسبب نقط جوهرية . أجل كان يخشى أن تهب العاصفة فجأة بين روسيا وبريطانيا وأن تكون من الشدة والعنف بحيث تقذف البلدين فى أتون الحرب . وليس يخفى أن تطبيق السياسة السالفة على فرنسا كان يقضى بتكميل المحالفة الانجليزية اليابانية بمحالفة بيننا وبين ألمانيا ، ولكن الفرصة فاتت عند ما عرض المستر تشمبرلن على ألمانيا عقد تلك المحالفة فرفضتها . ومن المهم أن يلاحظ القارىء حاجة المنقب فى شؤون تلك السنوات إلى الاستشهاد ببعض أقوال المستر تشمبرلن للتدليل على اتجاه السياسة البريطانية وقتئذ . فهو الذى نطق بالكلمة الحازمة ضد احتلال روسيا لثغر بور آرثر . وهو بعينه الذى تشيع لفكرة التحالف مع ألمانيا . ولم يظهر التشاد فيما بين انجلترا وألمانيا بخصوص الحرب

فى جنوبى أفريقيا إلا عند ما بدأ الصراع السياسى بينه وبين المستشار الألمانى.
وكأنما كان المستر تشمبرلن «بارومتر» حساسا يعرف الانسان منه اتجاه السياسة الخارجية. ولقد ولى الزمن الذى كان البارومتر يشير فيه إلى «تحسن الحالة» فى جو العلاقات الألمانية الانجليزية. فإن وزارة المستر بلفور التى خلفت وزارة لورد سلسبورى سلكت حيال فرنسا سياسة تفاهم لإزالة أسباب الخلاف عن طريق الاتفاق وحسن النية.



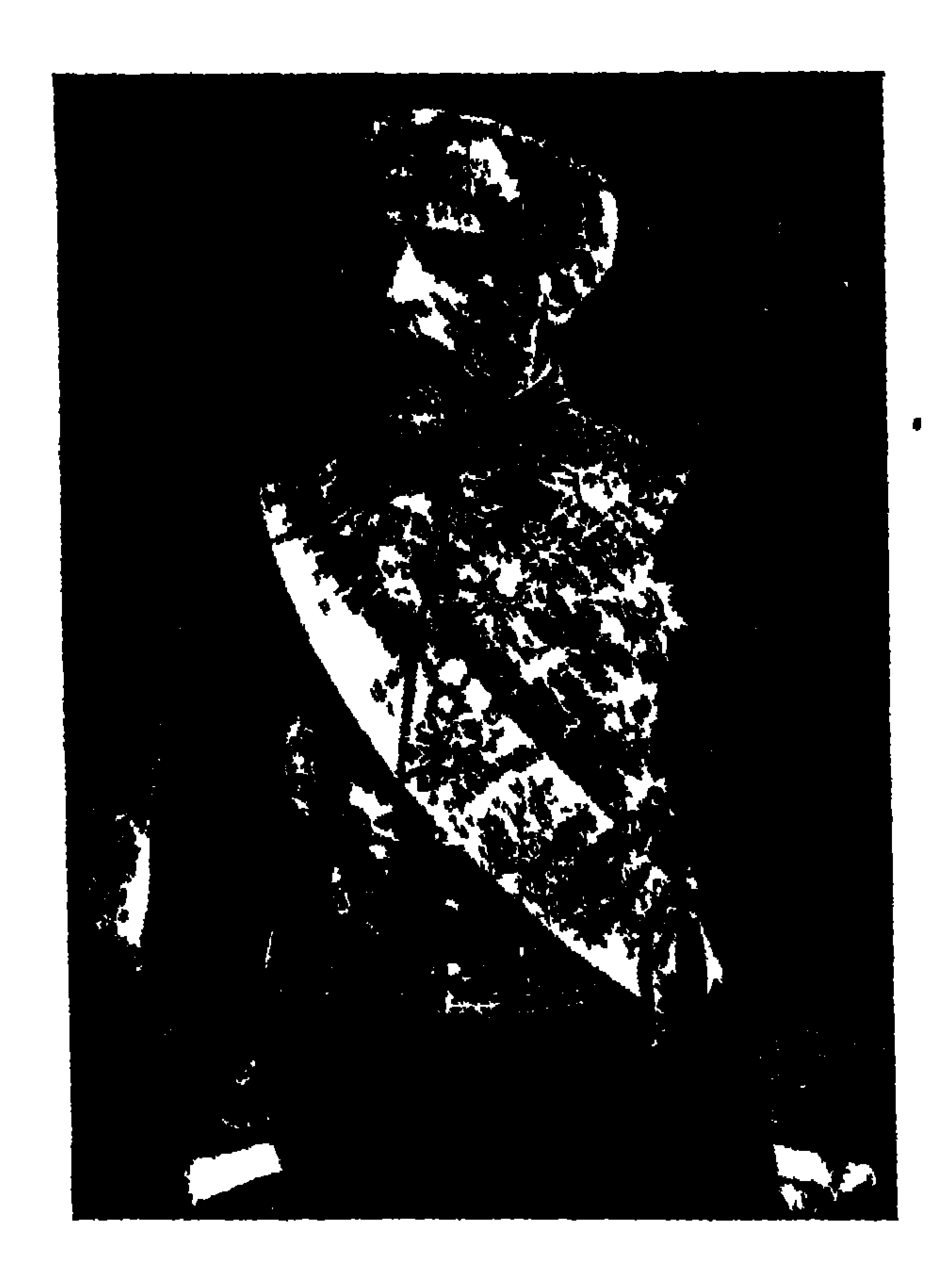
المستر بلفور الجالس إلى اليسار

وكان لورد لانسدون والمسيو ديلكاسية وزيرى خارجية انجلترا وفرنسا وقتئذ. وأحسب أن الطريق لا بد أن يكون قد تم تمهيدها بالعمل الشاق الطويل المنطوى على الأناة والحلم الذى لعب فيه المسيو كامبون-



المسيو ديلكاسيه أكبر مسؤول عن نشوب الحرب العالمية

السفير الفرنسي في لندن-دوراً مهما بلا جدال . ولما كانت مصر ماتزال النقطة الحساسة ، فقد ظل اعتراض فرنسا على احتلال انجلترا لها قطب الرحى في السياسة الفرنسية وعند الرأي العام الفرنسي سنوات عديدة . من أجل هكذا لم يكن من الهنات الهينات الوصول إلى اتفاق مقبول في نظر فرنسا في هذا الصدد. وليس يخفى أنه لا يكفي في بلد كمصر أن تكف الدول التي تتمتع بحقوق خارج حدود بلادها عن الاعتراض على وجودنا، بل لا بد من التأييد الإيجابي في الشؤون الجوهرية الخاصة بالحكومة كفرض الضرائب وإدارة دفة العدالة . فاذا أردنا ان يكون موقفنا في مصر داعيا إلى الارتياح فلا مندوحة لنا عن الحصول على تأييد فرنسا الإيجابي لا أن يكتفي بمجرد توكيد منها بعدم عرقلة سياستنا . وإلا فلا مفر من استمرار أسباب التشاد . فتكون النتيجة أننا نظل معتمدين كما كنا في الماضي

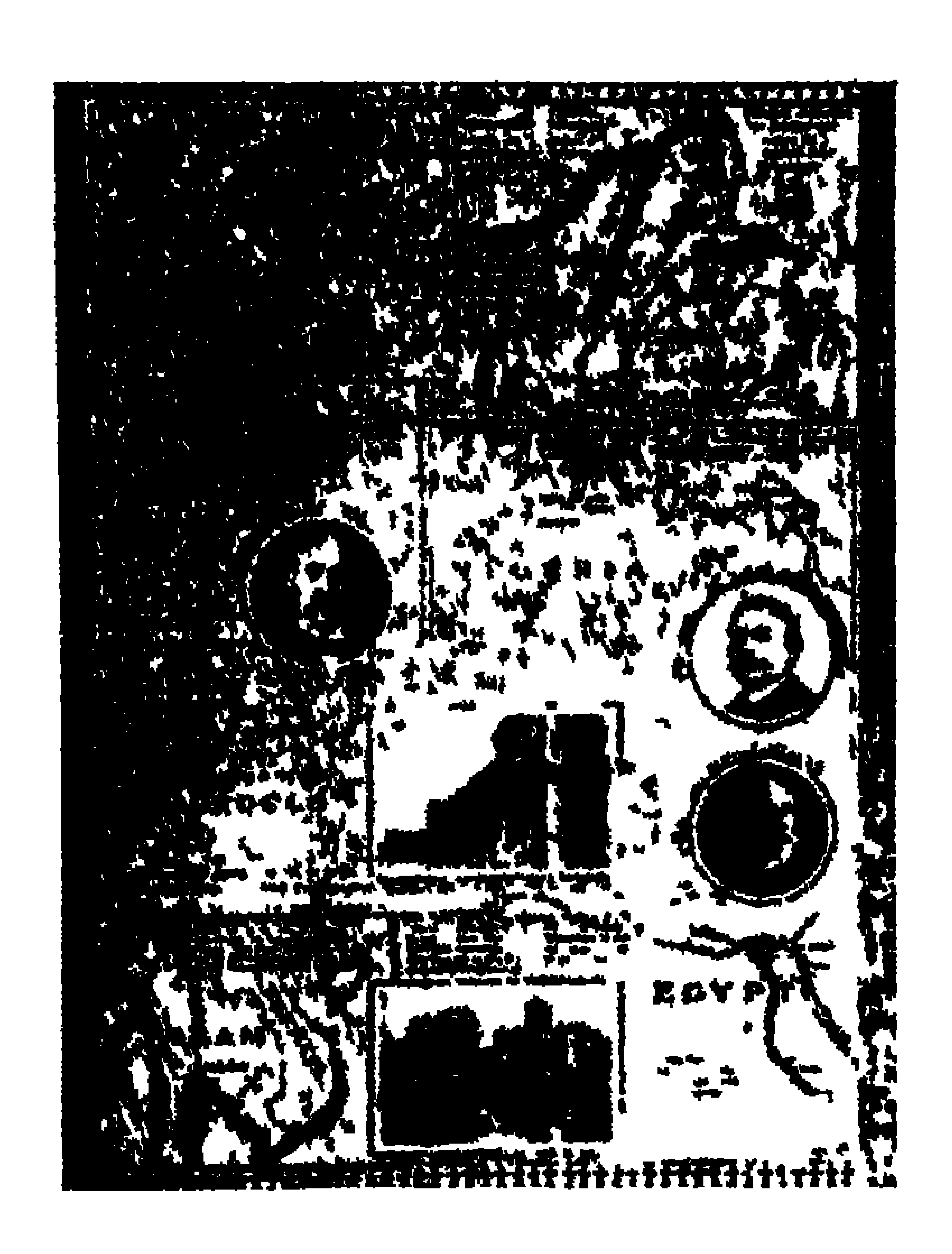


المسيو بول كامبون سفير فرنسا في لندن سابقا

على تاييد التحالف الثلاثى أو بالأحرى على ألمانيا . وفى النهاية عقد اتفاق كانت النقطة البارزة فيه أن تؤيدنا فرنسا فى مصر فى مقابل تأييدنا لها فى مراكش (كذا كذا) !!

ولم تكن نلوح على هـذا الاتفاق مع فرنسا أية رغبة أخرى عدا رغبة البلادين فى إزالة ما بينهما من أسباب النزاع وحل المخاصمات القديمة لتصبحا صديقتين . وقد أذيعت هذه الغايات كلها على رؤوس الأشهاد اللهم إلا مادة او إثنتين لا أهمية لهما لم تنشرا فى ذلك الوقت— مراعاة لإحساسات سلطان

مرا كش على ما أظن — و إن كانت نشرت فعلا فيما بعد. ونسال هل كان يدور بخلد واضعى ذلك الاتفاق البسيط الصريح لتسوية المنازعات الموجودة وقتئذ أنه سيتطور يوما ما فينقلب تحالفا سياسيا خاليا من أى تعهد جديد ماعدا التأهب والاستعداد للطوارىء فيما لو هاجمت ألمانيا فرنسا (كذا! كذا ؟!) أكان ذلك يجول فعلا فى



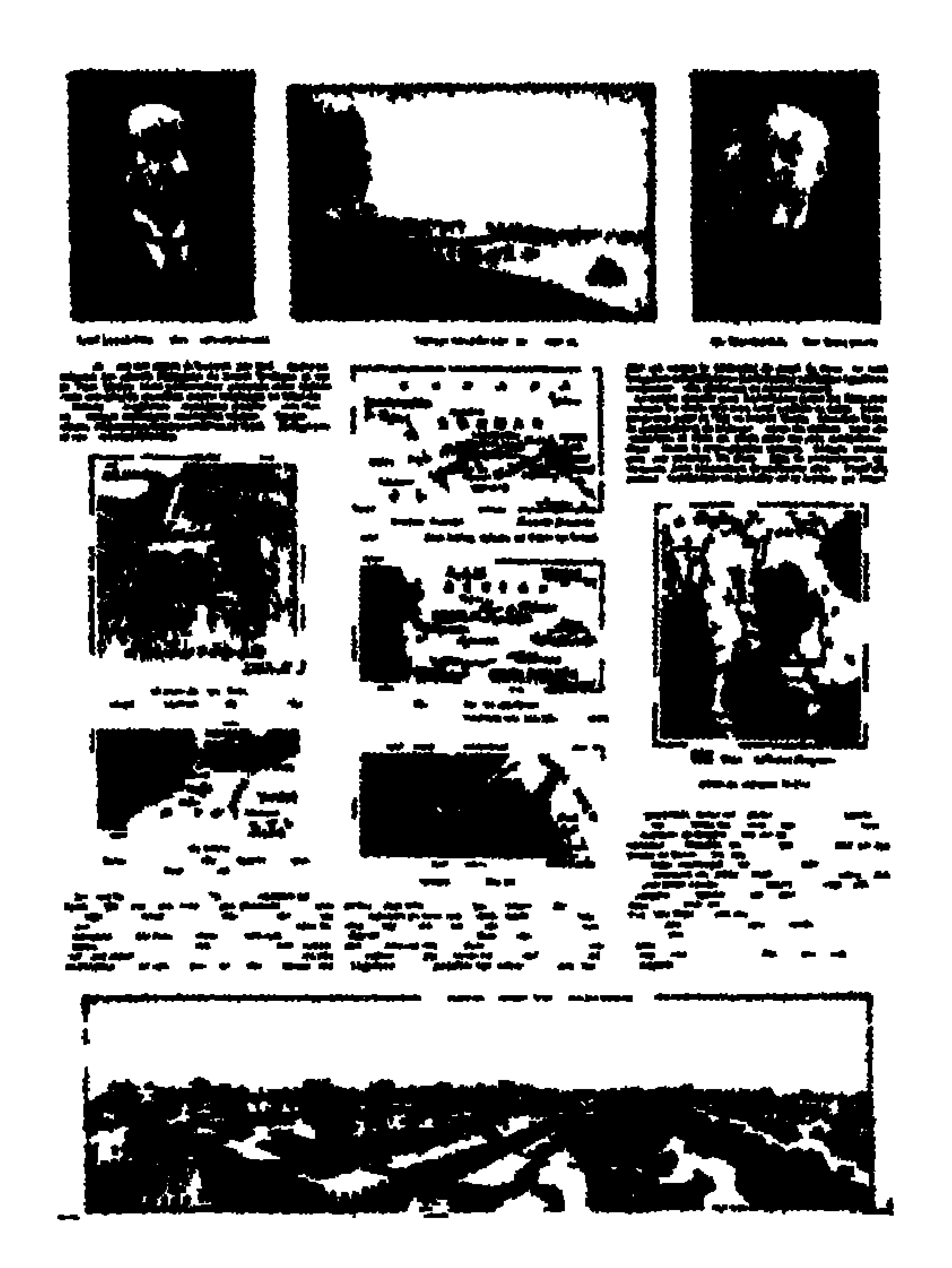
الاقصار التى اشتد حولها النزاع بين انجلترا وفرنسا
الى اليمين المسيو ديلكاسية وتحته المسيو كامبون والى اليسار لورد لانسدون

خواطر ساسة لندن وباريس عند ما وضعوا ذلك الاتفاق ؟ أم أن ذلك حدث فقط بسبب ما بذلته ألمانيا من الجهود والمساعى لهدم ذلك الاتفاق وتحطيمه بعد ان تم وضعه ؟

لست أستطيع ن أقطع بشىء فى هذا الصدد ، ولعلى لا أبالغ إذا قلت انه يوجد دائما فى خاطر الحوادث عند إنجاز شؤون عظيمة — إذا صح استعمال هذا التعبير — أكثر مما يجول فى خوطر من يقومون بلعب الأدوار المهمة . وأنى لأذكر

مجيداً ما ذا كان إحساسي الخاص عند ما قرأت أنباء الاتفاق المذكور . فلقد كان مجرد إحساس سرور وارتياح .

لأنني اعتبرته وسيلة للقضاء نهائيا على كل ما كان يدعو إلى التذمر والسخط في أثناء وجودي في وزارة الخارجية من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٨٩٥ . بمعنى أننا لن نكون من الآن فصاعدا معتمدين على تأييد ألمانيا الثاني في مصر بما ينطوي عليه ذلك التأييد من المضايقة والألم . نعم لم يكن من رأيي معاكسة المصالح الألمانية ، ولكنا بعد عقد الاتفاق المذكور أصبح في وسعنا مفاوضة ألمانيا دون أن تكون الربقة المصرية مشدودة إلى أعناقنا . لذلك قد تنفسنا الصعداء ورحبنا



جهات النزاع التي سواها الاتفاق الفرنسي الانجليزي سنة ١٩٠٤
الى اليمين المسيو كامون — وفي اليسار ورد لانسدون

بالاتفاق . وعلى أن هذه كانت مزية عرضية ليس غير . أي أنها كانت نتيجة ثانوية للاتفاق إذا قيست بغايته الأساسية .

أما السبب الحقيق لهذا الارتياح فهو أن الاتفاق المذكور قد وضع حداً نهائيا للتشاد الداعى إلى التغيظ فيما بيننا وبين فرنسا، أو بعبارة أخرى أن شبح الحرب بين الدولتين قد زال زوالا تاما. وهكذا انقشعت السحب المشؤومة وانجلى الجو وأضاءت الشمس الأفق. وليس شك فى أن سوء النية والبغض والحقد — كل هذه الصفات تبعث على القلق سواء أكان المقصود بها شخصا من الأشخاص أم امة من الأمم. فهى تقف حجر عثرة فيما بيننا وبين كل ماهو جميل وداع إلى السعادة. فهى تحجب ضوء الشمس. اما اذا كانت المقصودة بها أمة من الأمم التى تربطنا بها مصالح فسرعان ما تسمم جو الشؤون الدولية. وقد كان هذا هو الحال فيما بين فرنسا وبريطانيا العظمى. فقدكانت أقوال الصحف على جانبي خليج المانش سببا دائما للكدر والغيظ. أما الآن فقدتبدل كل هذا واصبحت الأمور تدعو إلى الاغتباط فعلا. ولعمرى أن الانسان لوقدر له أن يرى ما يشرح النفوس بدلا مما كان يصدها ويدعو إلى انقباضها وأن يفهم ويفهمه الغير بينما لم يكن هناك من قبل إلا التحريف والغش، وأن تحل الصداقة محل العداوة — لاريب فى أنه لو رأى تحقيق هذه الأمانى لعدها من نعم الحياة. وقد كان بحسبى كل هذا وقتئذ. فلقد أحسست كما لو كانت هناك عوامل شفقة فى الخارج. وبهذا الإحساس وقفت أرحب بالاتفاق في مجلس العموم (١)

وقد كان بديهيا أن لا ترتاح ألمانيا إلى هذا الاتفاق، وهى التى طالما استفادت على حساب الخلاف فيما بين بريطانيا وفرنسا. ألم تردد الألسنة أن بسمارك بعد الحرب السبعينية تعمد تشجيع التوسع الفرنسى فى افريقيا كأنما كان يتكهن بأن هذا التوسع لابد أن يؤدى حتما إلى استمرار التشاد بين فرنسا وانجلترا وانشغال الواحدة بالأخرى ؟ على أن وجود علاقات طيبة حقيقية بيننا وبين ألمانيا لا يتحتم معه أن يكون أساسها وجود علاقات سيئة فيما بيننا وبين فرنسا. ولم يكن ثمة

---

(١) راجع التذييل حرف (ب) المجلد الثانى ص ٢٨٢.

ما يدعو إلى ان ننظر بعين العداء إلى المصالح الألمانية حيثما كان التوسع الألمانى . وبالتالى لماذا ينبغى — إذا لم نفعل ذلك — أن يحمل الاتفاق مع فرنسا على محمل سوء العلاقات مع ألمانيا ؟ وفى الحقيقة أن الاتفاق الأنجليزى الفرنسى لم يكن له فى أذهان الساسة الأنجليز — وأنا ضمنهم — أى معنى عدائى يته آنفا . وقد كانت محاولات ألمانيا ومساعيها فيما بعد لهدم هذا الاتفاق هى السبب فى تحويله إلى محالفة . وسرعان ما بدأت المحاولات المذكورة . فقد زار الإمبراطور الألمانى مدينة طنجة زيارة كانت أشبه بمظاهرة . وفى سنة ١٩٠٥ أرغمت ألمانيا الحكومة



زيارة الامبراطور لطنجة
ويرى فى وسط الصورة على حصانه الأبيض

الفرنسية — بشكل ينطوى على التحدى — على طرد المسيو ديلكاسيه من وزارة الخارجية (المسؤول عن عقد الاتفاق الفرنسى الأنجليزى) ، وأن توافق على عقد مؤتمر دولى للنظر فى مسألة مراكش .

ولم يخالف الإجماع المطلق على تحبيذ الاتفاق إلا شخص واحد ذو مركز رفيع في الحياة العامة. ولست أعرف أنه جاهر بمخالفته هذه ولكنه لم يخف عني اقتناعه بخطأ الاتفاق المذكور وخالفني في تحبيذه ملاحظا أن الجيش الألماني هو أقوى جيوش الأرض. وقد قال لي بمناسبة طرد المسيو ديلكاسيه « إن أصدقاءك الفرنسيين قد ارتعدت فرائصهم » ! وأحسب أن طرد المسيو ديلكاسيه قد ضايق لورد لانسدون والحكومة البريطانية أشد المضايقة. فقد رأوا فرنسا تتعرض للمذلة لكونها عقدت معنا اتفاقا لا يربطنا إلا بمجرد التاييد السياسي فحسب بينما كان سلوك المانيا في الموقف الحاضر يتطلب ماهو أبعد من مجرد التاييد السياسي. فليت شعري ماذا عسى أن يكون موقفنا لو أن ألمانيا لجأت إلى القوة ورأت فرنسا نفسها أمام متاعب خطيرة ؟ نعم لم نقطع على أنفسنا أي عهد كائنا ما كان يمكن أن تستند إليه فرنسا لمطالبتنا بأبعد من التاييد السياسي، ولكن أكان في استطاعتنا الوقوف موقف المتفرج وهي تقاسي مرارة الذل من اجل شيء نحن شركاؤها فيه ؟

ذلك كان الموقف الذي واجه وزارة المستر بلفور في سنة ١٩٠٥ . ولم أقف وقتئذ على شيء مما فعلته تلك الوزارة، كما أني لم أعرف ماذا كان رأيها في المسألة. ولم يخطر لي مطلقا لا بل أني لم أتوقع وقتذاك أنه سيكون لي رأي في الموضوع أو أن يكون لي اتصال به إلى حد ما. وقد حلت فرنسا الأزمة في سنة ١٩٠٥ بإخراج المسيو ديلكاسيه من وزارة الخارجية. وكأنما أراد الإمبراطور أن يخلد ذكرى ذلك الفوز فرفع الكونت بيلوف إلى صفوف الأمراء. وقد كان فوز ألمانيا الشخصي فيما يختص بالمسيو ديلكاسيه فوزاً تاما في حين أن موافقة فرنسا على فكرة المؤتمر كانت سببا في إرجاء النظر في المشكلة المراكشية. وهكذا سويت الأزمة، مؤقتا على أن يثور ثائرها من جديد متى اجتمع المؤتمر. وقبل أن يحين الوقت لذلك حدث تبدل في الوزارة البريطانية فعدت إلى وزارة الخارجية. ومن هنا سأستأنف سرد القصة بعلم تام بكافة تفاصيلها.

ولا بد من ملاحظة حادث مهم آخر وقع فى نهاية تلك الفترة . ذلك أن المحالفة الإنجليزية اليابانية قد وضعت اليابان فى مركز تمكنها من الانتقام لنفسها عن الإهانة التى لحقتها ومن استردادها ما أضاعته من جراء تألب الدول الأوربية عليها فى سنة ١٨٩٥ . فقد أصبح فى وسعها الآن أن تبدأ بتصفية حسابها مع روسيا وعلى انفراد. فإن تدخلت دولة أوربية أخرى لمساعدتها فلا مناص من مبادرة انجلترا إلى مساعدة اليابان حيث كان فى وسع الأسطولين البريطانى والياباني منع أى تضافر أوربى ضد اليابان . ثم نشبت الحرب الروسية اليابانية التى لم تخل من وقوع حادث له مساس بنا . فإن الأسطول الروسى أطلق فى طريقه إلى مياه الشرق الأقصى قنابله على بعض سفن الصيد البريطانية فى بحر الشمال . ولم يكن ثمة باعث على هذا الاعتداء سوى شدة وساوس الأسطول الروسي وتوتر أعصاب قومندانه . وأحسب أن من الصعب أن يجزم الانسان بأن الروس كانوا يعلمون أنهم يطلقون القنابل عمدا على سفن صيد ، ولو أنه يتعذر تصديق دعواهم بأنهم توهموا أن سفن الطوربيد اليابانية كانت تطوف بحر الشمال فعلا ، لهذا عجز الناس عن إدراك تعليل ما يرمى إليه الروس من إطلاق قنابلهم على تلك السفن البريئة .

وقد أدى الحادث بطبيعة الحال إلى هياج الرأى العام ولكن الحكومة البريطانية ظلت قابضة على ناصية الحالة إلى أن سوى النزاع دون أن يؤدى إلى حوادث أخرى .

وواصل الأسطول الروسى السفر . حتى إذا قرب من جزيرة مدغسكر قابلته السلطات الفرنسية بالحفاوة العظيمة ونلقى منها من التسهيلات ما تجاوز الحد المسموح به فى القانون الدولى للسفن المحاربة الراسية فى الموانىء المحايدة . وقد خيل إلىّ وقتئذ أن اليابان قد تتذرع بتخطى فرنسا لحدود الحياد فتطالبنا بتنفيذ المعاهدة الإنجليزية اليابانية وحملنا على العمل . ولكنها ــ كما علمت ــ

لم تثر هذه المسألة لثقتها ـ بلا جدال ـ بقدرتها على التغلب على الأسطول الروسى عند وصوله من جهة، ولعدم رغبتها من جهة أخرى فى الالتجاء إلى نص المعاهدة الإنجليزية اليابانية لطلب مساعدة كانت هى فى غنى عنها. ثم ذهب الأسطول الروسى دون وقوع حادث آخر حيث دارت عليه الدوائر فى موقعة « تسوشمى » . وقد كسبت اليابان الحرب وأبرم الصلح بين مندوبى



المستر تيودور روزفلت

روسيا واليابان بعد اجتماعهم فى إحدى المدن الأمريكية برئاسة الرئيس روزفلت . وقد نصت إحدى مواد الصلح على تنازل روسيا عن بور آرثر

لليابان . ولعل الطريقة التى استولت بها روسيا على ذلك الثغر جعلت تنازلها عنه لليابان من مقتضيات العدل والإنصاف . ففى سنة ١٨٩٥ اشتركت روسيا وفرنسا وألمانيا فى اقصاء اليابان عنه بعد خروجها من حرب ظافرة ضد الصين بدعوى أن صيانة الأراضى الصينية مبدأ مقدس لا ينبغى انتهاك حرمته . ولكن ما لبثت أن احتلت روسيا نفسها ذلك المكان وقتئذ وارغمت الصين على الموافقة على تاجيره لها لأجل غير مسمى بدون مراعاة مبدا صيانة الأراضى الصينية الذى سبق أن لفتوا نظر اليابان إلى قداسته ووجوب احترامه . فاذا كان لم يمكن إعادة بور آرثر إلى الصين فلا جدال فى أن اليابان أحق وأولى بها من روسيا .

على أننى بقطع النظر عن مزايا بور آرثر كنت أدرك تمام الادراك حرج موقف روسيا . فقد كانت تلك الإمبراطورية الهائلة فى حاجة دائمة إلى منفذ بحرى لا تتجمد مياهه فى فصل الشتاء نظراً إلى نقل القسم الأكبر من تجارة العالم عن طريق البحر . فالمحيطات هى كما تعلم الطرق الرئيسية للتجارة العالمية . فلكل أمة صغرت أم كبرت — مع بعض مستثنيات قليلة — موانيها المطلة على المحيطات . أما روسيا تلك الدولة الشاسعة ذات الملايين العديدة فلم يكن لها — على العكس من ذلك — منفذ خاص بها تستطيع أن تبقى فيه أسطولا دون أن تخشى تجمد مياهه فى فصل الشتاء . ففى الشرق الأدنى قد أقفل دونها طريق البحر المتوسط بسبب معارضة انجلترا فى عهد لورد بيكونزفيلد . ثم أن لورد لانسدون وزير الخارجية البريطانية صرح أخيراً بما يشبه الإنذار بعدم مس الخليج الفارسى . وهكذا أرتج دونها المنفذ إلى أحد البحار الدافئة بواسطة الشرق الأدنى . وها هى المحالفة البريطانية التى عقدت مع اليابان أخيراً قد حرمتها من منفذ بور آرثر فى الشرق الأقصى . فهل كان يستطاع الاحتفاظ بالسلام والهدوء على أساس شروط كهذه ، أم كان الأرجح أن يتكرر التشاد ويعود التوتر مع روسيا ؟

على أنه كان يمكن تسوية بور آرثر تسوية عادلة فيمابين روسيا واليابان، ولكن علاقات بريطانيا مع روسيا ظلت على ما هي عليه . وليس يخفى ان اهم نقط الاحتكاك فيما بيننا وبين روسيا لم تكن فى الشرق الأقصى الذى اقتصرت المحالفة الإنجليزية اليابانية على صيانة مصالحنا فيه دون أن يسرى مفعولها إلى الجهات الأخرى . هذه الخواطر وغيرها جالت فى نفسى وقتذاك على ما أذكر .

وقد أصبحت اليابان محبوبة بعد أن وضعت الحرب أوزارها لتغلبها وهى أمة صغيرة على عدوتها الكبيرة مما ارتاحت له غريزة حب العدل والإنصاف المتغلغلة فى نفس الشعب البريطانى . ولقد أعجبنا بما وصلت إليه اليابان من الكفاية والسرعة التى حذقت بها ما تعلمته منا فيما يختص بالمنشئات والتجهيزات البحرية وادارة أدوات كثيرة التعقيد كسفن الحرب الحديثة وغيرها . وقد لاح لنا أن هذا احساس طبيعى معقول وعادل . وما هو إلا القليل حتى أبلغت حكاية صغيرة وضعت المسألة بجذافيرها فى ضوء آخر . وهاك هى القصة . فقد زعموا أن أحد اليابانيين المقيمين فى انجلترا — وقد رأى نفسه وامته موضع الإعجاب العام — علق على سير الحوادث بقوله « أجل لقد كنا أمة فنانين وكان ماحذقناه من الفنون جميلا جداً فى الواقع . ولكنكم عدد تمونا إذن أمة متوحشة ! والآن قد تعلمنا فنونا لاتعتبر شيئا فى جمالها بالنسبة للفنون السابقة . ولكنا تعلمنا القتل وسفك الدماء . ومع ذلك تقولون إننا اليوم امة متمدينة ! »

ولقد ظلت هذه الحكاية عالقة بذهنى أمداً طويلا قبل الحرب العالمية وإن كنت لم أستطع التثبت من صحتها . وعلى كل فقدكان فيهامن الحقيقة مايكفى للمضايقة وإنعام النظر . فماذا عسى أن يكون الجواب على مثل ذلك السؤال ؟ ! كان ثمة نقص أساسى فى مدنيتنا التى كنا نفاخر بفضائلها ؟ لعمرى

لقد أجابت الحرب العالمية الجواب المروع على هذا السؤال .

ولقد كانت سنوات المعارضة ـ فيما يخصنى شخصيا ـ أيام سعادة حقيقية لبعدها عن تحمل المسؤولية. فقد أطلقت لى الحرية فى الاشتراك فى الحياة العامة كما أشاء وإلى أى حد أشاء واباحت لى ابداء آراء شخصية مهما كان ذلك مخالفا لآراء أغلبية حزب الأحرار . ولقد كان جوابى دائما عند ماقوبلت آرائى بالسخط من رجال حزب الأحرار انى لارغبة لى فى التوظف، وانه إذا كان الناخبون فى دائرتى على غير رأيى فانى على استعداد ـ بل ويسرنى جداً ـ أن لا أطالب بإعادة ترشيحى للانتخاب . ولم يكن زعماء حزب الأحرار أنفسهم بعلى رأى واحد . وحسبك أنه حدث تغيير فى زعامة الحزب ثلاث مرات فى خلال هذه السنوات العشر . وما حلت سنة ١٩٠٢ حتى تلاشت أسباب الخلاف بينى وبين كثير من زعماء حزبى . فلقد انتهت الحرب في جنوبى افريقيا . كذلك تم فتح السودان وكان الاحتلال ناجحا وبمثابة نعمة لاشك فيها على البلاد وسكانها . لهذا رايت نفسى فى سنة ١٩٠٢ على أتم الاتفاق مع خطة الأحرار أزاء مشروع التعليم الابتدائى الذى وضعته وزارة المحافظين . وفى سنة ١٩٠٣ ثار النزاع الخاص بالنظام المالى فرأيت نفسى تتوق إلى الاشتراك فى مقاومة مغالطات سياسة حماية التجارة وما ينجم عنها من الأخطار كما كان يلوح لى وقتئذ، مما جعلنى أندمج تمام الاندماج فى صفوف الأحرار، لأنه كان يستحيل على المرء أن يكوّن رأيا صائبا فى مشكلة خطيرة كالنظام المالى مالم ينعكف على السياسة ويشترك فى كلياتها وجزئياتها بشكل أوسع مما كنت أرغب فيه، نظراً لأنه كانت قد بدت لى فى خلال تلك المدة حياة اخرى أكثر ملاءمة لى ولزوجى من حياة السياسة وحياة لندن .

وفى سنة ١٨٩٨ وقع علىّ الاختيار لأكون عضواً فى لجنة مديرى شركة سكة حديد الشمال الشرقى . وليس شك فى أن هذه الشركة تعد رابع اربعة بين

شركات السكك الحديدية البريطانية الكبرى من حيث بعد المسافات وضخامة الإيرادات ومتانة المركز المالى . ولقد كان هذا العمل ممتعا حقا . وكانت الظروف التى التحقت فيها بادارة تلك الشركة ظروفا مرضية وملائمة ، وكانت اللجنة مكونة من عشرين عضواً يجتمعون مرتين كل شهر فى يوم الخميس بمدينة يورك ويبقون بها إلى ما بعد ارفضاض اجتماع اللجنة فى يوم الجمعة ، أى أن اللجان كانت تقوم بالعمل يوم الخميس ويقضى الأعضاء مساء ذلك اليوم سويا . وبهذه الطريقة استطاعوا معرفة بعضهم بعضا . وكانوا طوال الوقت الذى قضوه فى يورك فى جو العمل الخاص بالشركة . وكان بين أعضاء اللجنة نفر من أقدر وأحصف رجالات العمل فى المملكة وأوسعهم خبرة . وكانت الاجتماعات ممتعة دائما كما أنها كانت سارة . وكانت السكة الحديدية إدارة عظيمة منفردة تقوم بلعب دور كبير وإنفاق مبالغ طائلة فى تحسين المنطقة الصناعية الغنية الواقعة فى شمالى شرق انجلترا فيما بين « همبار » ونهر « تويد » وهى المنطقة التى حصرنا فيها كل اهتمامنا وعنايتنا.

ولم أكن أذهب وقتئذ إلى لندن إلا مرتين كل عام لأشغال تتعلق بالشركة . أما الاجتماعات الأخرى فقد كانت تعقد كلها فى يورك أو نيوكاسل. أما الآن فلم تبق هناك سكة حديدية قائمة بذاتها تسمى بذلك الاسم . وقد طرأت عدة تغييرات منذ تلك الأيام الهنيئة التى تتمثل فيها حياة البساطة. وفى سنة ١٨٩٨ كان السير ماتيو ردلى وزيراً للداخلية ولكنه بالرغم من ذلك ظل محتفظا بكرسيه فى لجنة المديرين وكان مواظبا بالفعل على حضور اجتماعاتنا. وكان هو شخصيا آخر من ينتظر منه حدوث أمور تدعو إلى المضايقة او تعتبر خارجة عن حدود اللياقة . اما الآن فيستحيل بتاتا على وزير الداخلية أن يجمع بين الوزارة والعضوية فى لجنة مديرى إحدى شركات السكك الحديدية. وفى سنة ١٩٠٢ عين اللورد ردلى رئيسا لشركة سكة حديد الشمال الشرقى بعد اعتزال منصبه في الوزارة بقليل . وقد توفى فجأة فى سنة ١٩٠٤ . وكانت وفاته خسارة كبرى على منطقتنا نظراً إلى مقدرته وشدة ثقة الناس فيه . فوقع على

الاختيار لأن اخلفه . وكان عام ١٩٠٥ من أسعد أعوام حياتى . وقد كان عمل رئيس الشركة عملا ممتعا ومرضيا وبحسبى أننى كان لدى كثير من الوقت الفراغ. فكم من أيام قضيتها فى دارنا أو فى جهة الإنشن أو فى اسكتلندا . وليتنى استطيع التخلص نهائيا من السياسة فلدى من الأعمال الممتعة الدائمة ما يملأ وقتى هذا إلى ايراد كاف لسد حاجاتنا مع حياة منزلية خلوية أكثر ثباتا مما كان من نصيبنا فى الأيام الخالية ! فالحياة التى كانت ممتعة منذ سنة ١٨٩٥ كانت تبشر بأن تكون أكثر هناء وأدعى إلى الثبات . ولكن شاءت الأقدار عكس ذلك !



الفصل الخامس

عودتى الى وزارة الخارجية

استقالة مستر بلفور — وزارة السير هنرى كامبل بانرمان — المصاعب فى سبيل الالتحاق بها — حديث مع رئيس الوزراء — أسباب الالتحاق بها — عودتى إلى وزارة الخارجية — أهمية حرية التجارة — مميزات السير كامبل بانرمان — صفات الزميل الصالح.

فى ديسمبر سنة ١٩٠٥ استقالت وزارة المحافظين الاتحاديين . وكانت تستند فى تلك الأيام إلى حزب الاتحاديين الذى كانت كل غايته بقاء الاتحاد الذى يربط بريطانيا العظمى وإرلندا . وقد شاء القدر الساخر أن تنفصم عرا ذلك الاتحاد على يد وزارة كانت الأغلبية فيها من الحزب الاتحادى ! ولذلك أصبح الآن اسم هذا الحزب خطأ تاريخيا لا معنى له. ولقد ظلت كلمة الحزب فى سنة ١٩٠٥ متفقة فى صدد المسألة الإرلندية . ولكن همة المستر جوزيف تشمبرلن جعلت مسألة اصلاح التعريفة الكمركية مسألة المسائل فى نظر الجمهور. فلقد استقال من الحكومة فى سنة ١٩٠٣ ليكون على رأس الحملة التى شن غارتها حزب اصلاح التعريفة الكمركية ، وهى حملة كان المفهوم أن تقابل بالعطف والتأييد من المستر بلفور ووزرائه بعد أن تخلصت من أعضائها المتشيعين لحرية التجارة .

وفى ديسمبر سنة ١٩٠٥ جدت أمور تقتضى استطلاع رأى الناخبين . فقد مرت عشر سنوات بلا انتخابات عمومية اللهم إلا انتخابات سنة ١٩٠٠ التى اجريت فى أثناء حرب البوير، أى أنه لم تسنح للناخبين فرصة حقيقية للإعراب عن رأيهم عدا مسألة الحرب . وعليه كان اصلاح التعريفة الكمركية مبدا

جديداً دارت حوله رحى البحث في كافة أنحاء البلاد مدة عامين كاملين. لهذا كان معقولا وصحيحا ومما يقضي به العدل، أن يحل البرلمان الآن تمهيداً لاجراء انتخابات جديدة. على أنه لم يك ثمة سبب ظاهر يحتم على وزارة المستر بلفور التخلي عن كرسيها. لأنها كانت تتمتع بالأغلبية في البرلمان. ثم أنه انقضى أكثر من عامين على استقالة أعضاء الوزارة المشايعين لمبدأ حرية التجارة. فاذا كانت تلك الصدمة لم تؤثر في مركز الوزارة وقتئذ فلا يعقل ان تكون سببا لاستقالتها الآن. ولعل السبب الوحيد الذي يمكن تصوره هو اجهاد الوزارة لنفسها واستيلاء التعب والعناء عليها — مما لا ينتظر أن يحمل الناخبين على تأييدها في الانتخابات. وليس ثمة ريب في أن استقالة الوزارة كانت خسارة فنية عظيمة عليها.



السير هنري كامبل بانرمان رئيس وزارة الأحرار سابقاً

وإذ ذاك أرسل الملك في طلب السير هنري كامبل بانرمان رئيس حزب

المعارضين وكلفه بتشكيل الوزارة . ولما لم تكن لحزبى الأحرار والحزب الإرلندى مجتمعين أغلبية برلمانية فى المجلس أصبح مستحيلا على حزب الأحرار مواجهة البرلمان . ولذا قبل السير كامبل بانرمان أن يشكل الوزارة بشرط حل البرلمان فى الحال .

ولم يلق أية صعوبة فى تشكيل وزارته. ولكنى أوجدت له بعض مصاعب استمرت عدة أيام لعلاقتها بموضوع التحاقى بالوزارة : فلقد كنت على أشد ارتباط مع اسكويث وهلدين فى كل ما يتعلق بأعمال مجلس العموم. بمعنى أنه



لورد هلدين وزير الحربية البريطانية سابقاً

كان من رأينا أن يتولى اسكويث رئاسة المجلس بعد أن تبوأ كامبل بانرمان رئاسة الوزارة . نعم لم يكن هناك أى خلاف فيما يتعلق بالسياسة الخارجية ولكن كانت ثمة اختلافات فى الشؤون الإمبراطورية كحرب البوير والسودان. لذلك كان رأيى أن اسكويث هو أقوى الرئيسين مراسا وأكثرهما فى السياسة

وفي المناقشة فى مجلس العموم نشاطا . وقد أوضحت ذلك كله لـكامبل بانرمان الذى كنت أحبه لشخصه . وقد كنت أرجو أن يفهم موقفى تماما ويقدره حق قدره ويدرك أننى لا أخفى فى حضوره ما أصرح به فى غيابه . ولعل هذا التفاهم الصريح هو ماجعله يتقبل كل ما قلته بقبول حسن . ولقد كان اسكويث من بدء الأمر على استعداد لدخول الوزارة . وحادثت آرثر آكلند مليا فى الموضوع وهو الذى كان اعتزل الحياة العامة بعد أن سلخنا سنوات عديدة ونحن على أتم اتصال فى العمل . كذلك استقر رأى هلدين على دخول الوزارة . وإذ ذاك لم تبق ثمة أسباب وجيهة تقضى بوقوفى بمعزل عن باقى رفقائى . ولما كان كامبل بانرمان ما فتىء يعرض على منصب الخارجية فقد قبلته ودخلت الوزارة .

ولعل القارىء يدرك مما أسلفت الاشارة عليه فى الفصل السابق أن هذا التصميم لم يدخل السرور لا على قلبى ولا على قلب قرينتى . فلقد كان معناه الاغتراب مرة أخرى والعودة إلى حياة لندن والاشتراك فى بعض الحفلات الاجتماعية التى يظن أن السير جورج كورنوول لويس عناها بقوله « ان الحياة تكون محتملة لولا تسالبها » . وأغلب الظن أن رأى قرينتى كان له دخل كبير فى الموضوع فإنها قالت « أننا لو رفضنا الوزارة لما وجدنا ما يسوغه فى أعين الناخبين » الذين حملتنى مصالحهم على مواصلة الحياة العامة . فلقد انتخبونى للبرلمان وأنا فى ميعة الشباب ناعم الأظفار . وحسبك أن سنى وقتئذ لم تكن تجاوزت الثالثة والعشرين . ولقد ظلت ثقتهم بى ثابتة لا تتزعزع مدة عشرين عاما كاملة لا بل أنهم لم يضنوا على بحق ابداء آراء شخصية كانت فى بعض الأحايين مباينة لآراء أغلبية الحزب ! ولم تكن لدى أموال تكفى لعمل الترتيبات أو لنشر الدعاية . نعم اننى دفعت أتعاب الوكيل وما إلى ذلك من نفقات الانتخابات ، ولكن لم يكن لى وكيل مأجور فى السنوات التى

تخللت الانتخابات لغاية سنة ١٩٠٦ . أى أن الأعمال اللازمة لعملية الانتخاب إنما يرجع الفضل فى إتمامها إلى ما كان لدى جمعية الحزب المحلية من موارد ضئيلة وإلى تطوع عدد من الأشخاص للعمل بلا مقابل . وبينما كان معظم السراة فى منطقتنا فى صفوف المحافظين كما هي حال كثير من دوائر الانتخاب الريفية ، كان الأحرار يستمدون قوتهم من أنصارهم المخلصين الموزعين فى طول البلاد وعرضها . وهم الذين كانوا يدينون بمبادىء الأحرار وسياستهم كما لو كانت عقيدة . لهذا كانوا يعدون ما يبذلونه من جهود لانتخاب أحد مرشحى الأحرار مما ترتاح له ضمائرهم . وقد أحسنوا أداء هذا العمل وبذلوا كل ما فى جهدهم من طاقة فى مقابل مساعدة لا تذكر من جانبى . وكثيراً ما أحسست أنا وقرينتى ونحن نحصى عدد الأصوات أننا إن أسفنا الشىء — فى حالة الفشل — فأشد ما يكون أسفنا على خيبة آمال هؤلاء المتطوعين الذين أتعبوا أنفسهم كل هذا التعب لنجاح مرشح الأحرار . نعم كانت صدمة الفشل تسوؤنا أيضا — وذلك لأسباب عامة — ولكنى كنت أحس فى قرارة نفسى بأن الابتهاج بالتخلص من متاعب الحياة البرلمانية يكون عظيما لا تمكن للنفس مقاومته . فمن أجل الناخبين ومن أجلهم فقط كنا نخشى الفشل . ولشدما أجهدت قرينتى نفسها فى إنشاء جمعيات الأحرار وتشجيعها لا لخدمة أغراض حزبية بل لاعتقادها بفائدتها للنساء . لأنها كانت ترى أن الاهتمام المنظم بالشؤون العامة يوسع المدارك ويقوى الفطنة . وقد قوبلت آراؤها بالارتياح وأقبل الناس لمعاونتها مما كانت نتيجته أنها اصطحبت بالكثيرين من الناخبين . لذلك كنت أحس بما علىّ من المسئولية نحو عدد من الأشخاص الغيورين ممن كان لهم الحق فى أن يتوقعوا أن أؤدى مهمتي فى البرلمان أحسن أداء .

ويحسن أن أزيد هنا أن كافة من كانت تربطنى بهم روابط الصداقة فى هذه الجهة منذ الصغر كانوا إلى جانبي مما أكسب المسألة صبغة خاصة قائمة

على العاطفة والألفة . وأحسب أن لا عجب لوجود مثل هذه الروابط بين كل عضو برلمانى وبين الدائرة التى لا تتحول عن انتخابه للبرلمان مدة عشرين سنة متواصلة . وقد كانت هذه الروابط فى حالتى الحاضرة متينة وفعالة بصفة خاصة. والآن وقد رأيت نفسي يعهد إلىّ فجأة بأحد المناصب العامة الخطيرة ، فإن قرينتى عند ماصارحتنى بأن رفض هذا المنصب لا يمكن تسويغه فى أعين الناخبين شعرت فى نفسى أن قولها حق وفاصل فى الموضوع .

أما الاعتبارات الأخرى التى ظننتها وقتذاك مهمة فكانت قائمة على خطا فى تقدير الأمور . فقد خطر لى مثلا أن المصلحة العامة تتطلب من كل عضو ذى مكانة فى حزب الأحرار أن يؤيد وزارة الأحرار . وقد رأيت أن مسألة إصلاح التعريفة الكمركية أحدثت أزمة عظيمة . وكان اعتقادى أن حماية التجارة ضارة بتجارتنا بالرغم من أن الفريق الأكبر من الصحافة كان معارضا لنا ، ثم أن النظريات التى روجها أشياع حماية التجارة كانت أخلب للأنظار من النظريات المؤيدة لحريتها . وهذا ما جعل نتيجة هذه الأزمة غامضة مشكوكا فيها . وكانت الحالة عصيبة بحيث كان يتعين أن يشترك فى الوزارة كل مؤيد لحرية التجارة يشعر أن اشتراكه فيها يكسبها قوة . وكانت أمثال هذه الاعتبارات بمثابة تعزية لى على قبول عبء الوزارة الكريه . وقد دلت نتيجة الانتخابات التى أسفرت عن فوز الأحرار بأغلبية عظمى معدومة النظير أننى كنت واهما عند ما ظننت أن اشتراكى أو عدم اشتراكى فى الوزارة يؤثر فى قضية حرية التجارة . فإن نتيجة الانتخابات دلت على أن البلاد قد سئمت وزارة المحافظين وأنها معارضة فى حماية التجارة أشد المعارضة . فمسألة اشتراك أمثالى فى الوزارة وعدمه لم تكن لها أهمية فى الموضوع مطلقا .

ولقد أقمت عدة مصاعب فى سبيل قبول لوزارة — وهى مصاعب أعتقد الآن أنه لم يكن هناك موجب لها ، ولكن سرعان ما عدلت عن إقامتها بمجرد تربعى فى كرسى الوزارة . وقد قبل الأحرار على بكرة أبيهم رئاسة

كامبل بانرمان فى مجلس العموم وأظهروا له جميعا ولاءهم التام . وقد دلت التجارب على أنه لم يك ثمةمسوغ ما لإثارة مسألة خروجه من مجلس العموم من قبل . وسارت الأمور على أحسن منوال ، وتلاشى ما كان بين الأحرار من خلاف فى الراى عند ما كانوا فى موقف المعارضة .

وكان لشخصية كامبل بانرمان فضل كبير فى إدراك هذه النتيجة . فلم ينافسه أحد على الرئاسة ولا أثار فى نفوس الغير مطمعا فيها . نعم إنه بمجرد استلامه مقاليد زعامة الحزب أظهر عزما صادقا للاحتفاظ بها حتى لاتفلت من قبضة يده ، ولكنا نعرف جميعا أنه لم يسع للحصول عليها ولا رغب فيها لشخصه . بل بالعكس عمل مع كافة الزعماء السابقين بمنتهى الولاء ولم يشغل نفسه بدس الدسائس لمصلحته أو ضد مصلحة الآخرين . وهكذا كان ــ والحق أولى أن يقال ــ رجلا حزبيا قوى الشكيمة لم يعرف عنه أنه سخر هــذه القوة لتعزيز نفوذه كزعيم الحزب بل لمصلحة الحزب بصفة عامة .

ومنذ أن فرغ من تشكيل الوزارة لم يميز من حيث الألفة والعطف بين من ساعدوه وبين من أقاموا فى سبيله الصعوبات عند ما كان الحزب فى صف المعارضة . ولقد قيل انه كان يعد هلدين ممن استماتوا فى العمل لــكى لاتتم له الزعامة ، ومع ذلك فقد اختاره لوزارة الحربية . وقد تمكن كامبل بانرمان بفضل تجاربه الماضية وسعة اطلاعه من تقديم المساعدة لكل من شغل ذلك المنصب الخطير ، لهذا لم يتردد فى تقديمها له خالصة غير منقوصة . وقد توقع فى مقابل ذلك أن يعمل معه زملاؤه بغاية الولاء وهو ماحدث فعلا . ويحسن أن أحيل القارىء إلى ترجمة حياته بقلم سبندر فهناك قد حلل الكاتب شخصيته وأعطاها نصيبها من العناية اكثر مما كان فى استطاعتى هنا . ولكن كانت هناك صفة بارزة فى أخلاقه لا بد من الاشارة إليها هنا . فقد كان بوسعه ان يضع فى الحال أصبعه على مواطن الضعف فى الرجال . وهى صفة ممتازة على التحقيق . ومن الغريب أن اخلاص المخلصين له وإعجاب المعجبين به لم يعمه عن رؤية مواطن الضعف فيهم . فقد كان واقفا

على عيوب محبذيه بقدر وقوفه على نقائص منتقديه . وعندى أنه لو بذل مجهوداً خاصا للوقوف على هذه العيوب لاستطاع على الأرجح أن ينتقد نفسه بنفسه أحسن انتقاد .

ويلوح انه كان يكره المحسوبية حتى فيما يختص بنفسه . أما كونه كان قادراً أيضا على وضع أصبعه على مواطن الفضل والقوة فى الرجال فهذا أمر مشكوك فيه . ويظهر انه كان إلى تقدير الشخصيات الخالية مما كان يحتقره ويبغضه من مواطن الضعف أميل منه إلى الاعجاب بالصفات الإيجابية . وقد كان مستعداً على الدوام للاعتراف لزملائه بما يقدمونه من خير دون التفات إلى نفسه . لهذا كانت الوزارة فى السنتين اللتين قضاها في رئاستهما خالية خلواً تاما من شوائب الاختلافات والمتاعب الشخصية .

وكان أسكويث الشخص الوحيد الذى يمكن أن تطمح نفسه إلى رئاسة الوزارة. ولم يكن بعيداً فقط عن المطامع الشخصية ، بل كان مستعداً فى كل وقت — كما أظهرت الظروف فيما بعد — أن يسير بالولاء نحو زملائه إلى حدود الكرم والشهامة إذا اقتضى الحال ذلك . أما مطامع الوزراء الحديثى السن فقد وقفت فى الوقت الحاضر عند حد دخول الوزارة لأول مرة ، وقد أخذ الذين عهدت إليهم المناصب الخطيرة يتفرغون لدراسة وزاراتهم والإلمام بشؤونها .

وكانت خاتمة المطاف بعد طول إنعام الفكر أننى شعرت بشيء من الأسف لما أثرته من المصاعب عند قبول الوزارة . هذا من الجهة الواحدة ، أما من الجهة الأخرى فقد أصبحت بعد التحاقى بالوزارة أعتبر نفسى أهلا لأن أكون زميلا صالحا فى صفتين على الأقل من الصفات التى تؤهل الشخص لأن يعتبر كذلك .

الصفة الأولى التفرغ لخدمة المصلحة المشتركة والعمل بإخلاص فى المسائل التى يتعسر على الوزارة الوصول إلى قرار فيها بسبب اختلاف الآراء . ولا

يعنى هذا أنه يحق للوزير أن يتساهل فيما يعده أمراً جوهرياً خاصا بالمصلحة العامة ، فلخير له ان يستقيل فى الحال من أن يوافق على شىء من هذا القبيل . ولكن المراد أن يجتنب الوزير الإصرار على رأيه فى المسائل الثانوية وأن يكون اهتمامه باللباب لا بالقشور وأن يفكر فى طريقة للتوفيق بين رأيه ورأى زملائه دون التفات إلى مسألة الكرامة الشخصية . فطالما أنه لايضحى بما يعتبره مصلحة حيوية تهم الجمهور لاينبغى أن يكون اهتمامه منصرفا إلى الفوز على زملائه بل عليه أن يعمل لاستمرار التوفيق والاتفاق فى داخل الوزارة .

أما الصفة الأخرى فهى الاشتراك فى تحمل المسؤولية الشخصية عن كافة أعمال الوزارة متى قطع برأى فيها . ويحسن أن نشير إلى صفة ثالثة وهى أن لايهدد الوزير بالاستقالة من حين إلى آخر ، ولا يجرى لسانه بذكرها إلا إذا اقتضى الحال ذلك فى مسألة جوهرية . وعليه ان لايلوح بها إلا إذا كانت نيته قد صحت عليها .



الفصل السادس

الأزمة الأولى

أزمة الجزيرة والمحادثات العسكرية

مؤتمر الجزيرة — مخاوف فرنسا — اختبار متانة الاتفاق الانجليزى الفرنسى — سؤال الوزارة الجديدة — استحالة الرد عليه — أحاديث مع المسيو كامبون — المحادثات العسكرية وحدودها — حديث مع مترنيخ — رأى كامبل بانرمان — أكان ينبغى عقد مجلس الوزراء ؟ — الاستعدادات والاحتياطات — التسلح والحرب — عمل تكميلى — الخطابات التى تبودلت بين غراى وكامبون فى سنة ١٩١٢ — إقرار الوزارة لها .

إن أول واجب على الوزير أن يكون لشؤون وزارته المكان الأول من اهتمامه ووقته . ويظهر أن وزارة الخارجية لاتترك للوزير القائم بأعمالها مجالا للإفلات من أداء هذا الواجب لأن العمل يحيط به من كل جانب . فان تأخر فى أدائه فى وقته استحال عليه تداركه فيما بعد مع الالتفات إلى الأعمال اليوميه الجارية . فهو أشبه برجل مشرف على الغرق فإما أن يواصل السباحة وإما أن يغوص وتبتلعه المياه .

وقدتسلم الوزراء أختام الوزارة من الملك فى عصريوم الاثنين ١١ ديسمبر سنة ١٩٠٥ وكان يوم ضباب كثيف لم تشهد لندن مثله من قبل . ولست أذكر إذا كانت الصحف علقت على هذه المصادفة تعليقات تنطوى على التهكم أم التشاؤم . وقد استأجرت مركبة مفتوحة خصيصا لهذه المناسبة وذهبت فيها إلى قصر بكنجهام ثم عدت فيها بصحبة جون مورلى وهنرى فاولار بعداستلام الاختام . وما كدنا نبرح القصر حتى وقفت المركبة لأنها ضلت الطريق تماما

بسبب تكاثف الضباب . فلاح لى أن السير على الاقدام خير من الركوب . فتركت المركبة ، وما هى إلا بضع خطوات حتى ضللت الطريق وغمت علىّ المسالك . ثم أخذت أتحسس حتى رأيت نفسى أرتطم برأس جواد وهناك بدأت استعين به على معرفة الاتجاه الذى أسير فيه . فدرت حوله إلى أن شعرت أنه مشدود إلى مركبة عمومية . فسألت السائق إذا كان فى استطاعته أن يتميز الطريق المؤدى إلى ممشى بيرد كيدج فاخبرنى انه قدجاء من هناك من فوره وانه سيبذل جهده لتعرف الطريق . وقد نجح فعلا فى مهمته بعد عناء طويل . ومن ثم كان من السهل على أن أتتبع الرصيف على بعد قدم حتى وصلت إلى وزارة الخارجية وهناك تسلمت مقاليد الأعمال .

وكنا قاب قوسين أو أدنى من الانتخابات العمومية التى تقرر أن تجرى فى يناير ، وكانت المعركة الانتخابية والحملة الخطابية قد دارت رحاها .

وقد قصرت المدة التي قبل عيد الميلاد على أعمال وزارة الخارجية، فقضينا يوم الأحد ٢٤ ديسمبر ويوم عيد الميلاد فى جهة درداتز مع روزبرى الذى كثيراً ما صارحنا بعد اعتزاله زعامة الحزب في سنة ١٩٠٠ بأنه لن يشكل الوزارة فى المستقبل . لذلك كان المفهوم بين الجميع أنه سيستمر بعيداً عن السياسة ، وهو مالم يدهش له أحد . ولكن اعتزاله لها أحدث فراغا كبيراً لافى نظرى وحدى بل فى نظر قرينتى أيضا . فلقد كانت تشعر أن وجود روزبرى فى الحياة السياسية جعل للسياسة طعما وأكسبها لذة، هذا فضلا عن أنه رفعها فوق مستواها العادى الذى كانت فيه . وكنت منهمكا فى العمل فى وزارة الخارجية حيث آخذت أقف على كل ما استحدث أودق بعد تغيب عشر سنوات ونصف. ولا تنس إلى جانب هذا العمل الشاق مسألة الانتخابات وما تتطلبه من جهود .

وكانت الدائرة التى رشحت فيها دائرة ريفية لا تشتمل إلا على مدينتى بيرويك وآلنويك وما عداها من القرى العديدة صغيرة وكبيرة . وكان

مزاحمى مرشح المحافظين الذى والى القاء خطاباته فى الدائرة مما حملنى على بذل كل ما استطيع من جهود للتغلب عليه .

ونظراً إلى اعتمادى على سعة صدور الناخبين وثقتى بأن يراعوا مشقة عملى فى الوزارة اتفقت معهم على أن أقضى ثلاثة أيام من كل أسبوع فى وزارة الخارجية . وهكذا جعلت أغادر لندن مساء كل أربعاء فأصل إلى منزلى فى الوقت الملائم لتناول طعام الإفطار . وقد خصصت لإلقاء الخطب الانتخابية الأيام الثلاثة الأخيرة من كل أسبوع . ولذا كنت اعود إلى لندن فى مساء الأحد لأقضى الأيام الثلاثة الأولى فى الوزارة . وكانت هذه أيضا هى خطة الوزراء الآخرين . لذلك استحال باتة عقد مجلس الوزراء ففى هذه الظروف رأينا أنفسنا وجها لوجه أزاء حالة حرجة فيما يتعلق بالشؤون الخارجية .

وقد مر بك كيف أن ألمانيا أرغمت فرنسا قبل ذلك بعدة أشهر على طرد المسيو ديكاسيه من الوزارة انتقامامنه لإبرام الاتفاق البريطانى الفرنسى مع لورد لانسدون فى سنة ١٩٠٤ ، وقد وافقت فرنسا تحت تأثير هذا الضغط على عقد مؤتمر دولى يعقد فى الجزيرة للبحث فى مسألة مراكش ، وفى عهد وزارة المحافظين التى أبرمت ذلك الاتفاق ظلت نية ألمانيا متجهة إلى القضاء عليه نهائيا أو اختبار متانته ، فلم يكن يحتمل بعد أن تربعت وزارة الأحرار فى دست الحكم أن تخف مساعى ألمانيا فى ذلك السبيل وخاصة وأن الوزارة المذكورة لم تكن مسؤولة مباشرة عن عقد ذلك الاتفاق .

ومع أن كامبل بانرمان أعلن بعد تولى رئاسة الوزارة بقليل أنه على أتم اتفاق مع لورد لانسدون فى النقط الجوهرية التى تضمنتها سياسته . إلا أنه لم يكن ينتظر أن تكون وزارة الأحرار أشد صلابة من سالفتها . لهذا كان من المؤكد أن لا يؤدى تغيير الوزارة فى بريطانيا إلى انقشاع السحب التى كانت تتجمع وقد تؤدى إلى انفجار العاصفة فى مؤتمر الجزيرة. وقد تحدد يوم قريب لاجتماع

المؤتمر . وبالطبع اشتدت مخاوف الفرنسيين لأنه كان من الأمور الحيوية لهم أن يعرفوا بالضبط إلى أى حد كانت انجلترا مستعدة لتاييدهم .

وقد واجهني بهذا السؤال الخطير المسيو بول كامبون السفير الفرنسي فى لندن بعد عودته من باريس فى يوم الأربعاء ١٠ يناير وهو يحمل تعليمات حكومته فى هذا الصدد . ولقد جاء المستر سبندر فى كتابه المسمى « ترجمة حياة كامبل بانرمان » على ما كتبته عن المحادثة التى دارت بينى وبين السفير الفرنسى فى ذلك اليوم ، ولكنى أرى أن أثبتها هنا أيضا لأهميتها :

صورة خطاب من السير ادوارد غراى الى السير فرانسيس بيرتى السفير الإنجليزى فى باريس .

وزارة الخارجية

تحريراً فى يوم ١٠ يناير سنة ١٩٠٦

سيدى . . .

بعد أن أطلعنى السفير الفرنسى عصر اليوم عن فحوى التعليمات التى أرسلها المسيو روفييه ـ وزير الخارجية الفرنسية ـ إلى مندوب فرنسا المفوض فى المؤتمر الذى سيجتمع قريبا فى الجزيرة للنظر فى الشئون المراكشية كما ورد فى رسالتى الأخيرة ـ استرسل فقال أنه حادث المسيو روفييه في أهمية الوصول إلى تفاهم على الخطة التى تسلكها فرنسا وبريطانيا العظمى فيما لو حبطت المناقشات بين فرنسا وألمانيا ، وقد قال المسيو كامبون أنه يعتقد اعتقاداً جازما أن الإمبراطور الألمانى لارغبة له فى الحرب (كذا!) ولكن ذلك لايمنع من القول بأن جلالته ينتهج سياسة مفعمة بالخطر . فلقد تمكن من تهييج الرأى العام فى ألمانيا كما أنه أثار خواطر الدوائر العسكرية الألمانية وعليه يخشى من قيام صعوبات كثيرة فى سبيل الوصول إلى حل سلمى . ولقد رأى اللورد لاسدون فى خلال مادار فى صدد المسألة المراكشية من المناقشات السابقة أن



المسيو كايو رجل السلام فى فرنسا

تبحث الحكومتان البريطانية والفرنسية بكل صراحة فيما يمكن القيام به من الأعمال فى النهاية ، وبناء على تعليماته أرسلتم سعادتكم مذكرة بهذا المعنى إلى المسيو ديلكاسيه . ولم نر وقتذاك لزوما لأن يدور البحث على أساس افتراض وقوع الحرب . أما الآن فمن المرغوب فيه على ما يلوح لى أن يجرى البحث على أساس هذا الافتراض أيضا (كذا كذا) ! !

وقد أخبرنى المسيو كامبون أنه حادث المسيو روفييه بهذا المعنى وأن هذا انضم إلى رأيه ، نعم لم تكن هناك حاجة ، لا بل لم يكن من مقتضيات اللياقة أن يعقد تحالف رسمى بين انجلترا وفرنسا ، ولكن كان من الأهمية بمكان أن تعرف الحكومة الفرنسية سلفا ، هل تقدم انجلترا لفرنسا المساعدة المسلحة فيما إذا اعتدت عليها ألمانيا .

فكان جوابى أن رئيس الوزارة غير موجود فى لندن فى ذلك اليوم ، وأن الوزراء متفرقون فى أنحاء البلاد ، استعداداً للانتخابات ، وأن شعور البلاد كما ستبين نتيجة الانتخابات غير معلوم إلى الآن ، وأنه يستحيل علىّ فى هذه الظروف أن أجيب على سؤال سعادته . وكل ما كان فى استطاعتى ان اقوله

- كرأى شخصى - هو أن الرأى العام الانجليزى يقف حتماً إلى جانب فرنسا فيما لو هاجمتها ألمانيا بسبب أية مسألة تنشا عن الاتفاق الذى عقدته الوزارة البريطانية السالفة مع الحكومة الفرنسية (كذا!)

فقال المسيو كامبون أنه يفهم ذلك جيد الفهم وأنه سيكرر سؤاله من جديد بعد ظهور نتيجة الانتخابات.

ثم قلت له أن ما ترغبه بريطانيا العظمى من صميم فؤادها هى أن يسفر المؤتمر عن نتيجة سلمية مرضية لفرنسا.

فأجاب سعادته أن لاشىء يؤثر فى نفس الإمبراطور الألمانى ويدفعه فى طريق السلام كاقتناعه بأن انجلترا ستقف إلى جانب فرنسا فيما لو اعتدت عليها ألمانيا (كذا كذا !!)

فأخبرته بأننى مقتنع بأن الإمبراطور يعتقد ذلك. ولكن يوجد فارق كبير بين أن يكون رأيه هذا هو الرأى السائد فى ألمانيا وبين أن نعطى لفرنسا تأكيداً إيجابيا فى هذه المسألة. فليس أشد حمقا من أن ينبرى وزير من الوزراء لاعطاء تأكيدات مالم يكن واثقا من تنفيذها. ولست أعتقد أن فى استطاعة أحد من الوزراء — فى الظروف الحاضرة — أن يقول اكثر مما قلت. إذ مهما اشتد العطف الذى تظهره بريطانيا العظمى نحو فرنسا فيما لو قطعت العلاقات مع ألمانيا فإن طريقة إظهار ذلك العطف وما يترتب عليه من الأعمال يتوقف قبل كل شىء على الظروف التى تنقطع فيها العلاقات السياسية بين الدولتين.

وهنا قال المسيو كامبون أن ألمانيا يحتمل أن تعتدى على فرنسا بسبب ما قد تقوم به هذه من الأعمال التى لاغنى عنها لحماية حدودها الجزائرية أو لأسباب اخرى تسوغ القيام بهذه الأعمال.

فقلت له إذ كنت تشير إلى الحصول على وعد صريح فليس فى وسعى أن أتجاوز حدود الوعد بأن تلتزم انجلترا الحياد الودى فيما لو حدث هذا.

فأجاب المسيو كامبون بأنه غير مرتاح طبعا لوعدالتزام الحياد ، وأخبرنى أنه سيكرر سؤاله بعد انتهاء الانتخابات .

وفي الوقت نفسه راى المسيو كامبون أن تبدأ المباحثات بصفةغير رسمية بين وزارتى البحرية والحربيةالبريطانيةوبين ملحقى فرنسا العسكرى والبحرى فيما يستحسن عمله فى حالة تحالف فرنسا وانجلترا عند نشوب الحرب وذكر السفير انه يعتقد أنه حدثت مباحثات من هذا القبيل فعلا من قبل ، ومن رايه الاستمرار فيها وخاصة وهى لاتقيد إحدى الحكومتين .

فلم أعارض فى هذه الفكرة (كذا كذا !!)

هذا وتقبلوا الخ . .

ادوارد غراى

وقد كان طبيعيا أن تسأل فرنسا هذا السؤال ولكن كان من المستحيل أن نجيب عليه !

م أرسلت تفاصيل هذه المحادثة إلى السير هنرى كامبل بانرمان ولورد ريبون . وكان ثانيهما زعيم حزب الأحرار فى مجلس اللوردات وكان وزيراً محنكا واسع الخبرة وحسبك أنه كان من زملاء جدى السير جورج غراى فى وزارةبالمرستون الأخيرة فى أوائل العقد السابع من القرن الغابر . وقد انبانى على أثر تعيينى وزيرا أنه يعلم أنه توجد على الدوام اوراق خاصةبوزارةالخارجية تبلغ إلى رئيس الوزراء ولكنها لاتوزع على الوزراء الآخرين فى بدء الأمر . ثم طلب إرسال هذه الاوراق إليه لأنه ينوى إلقاء بيان عن السياسةالخارجية فى مجلس اللوردات قريبا . فصدعت بالأمر واخذت أرسل إليه هذه الأوراق باستمرار .

وقد علمت بعد ذهابى إلى وزارة الخارجية بزمن طويل أنه قد اتخذت تحت تأثير الضغط الألمانى على فرنسا فى سنة ١٩٠٥ اجراءات لتوحيد الخطط العسكرية الانجليزية الفرنسية فيما لو سيقت فرنسا إلى الحرب رغم أنفها .



المسيو بوانكاريه رجل الحرب في فرنسا

وقد تم هذا دون أن نرتبط بأى عهد اللهم إلا ماتضمنه الاتفاق الانجليزى الفرنسي أى التعهد بعدم الذهاب إلى أبعد من التأييد السياسى . وقد كنت عارفا بأنه لايمكن لأية وزارة انجليزية أن تعطى على نفسها عهداً بالاشتباك فى الحرب هذا برغم ارتياح الجمهور فى انجلترا إلى الاتفاق الانجليزى الفرنسى، ولكن كان من الأمور المسلم بها أن ألمانيا لو هاجمت فرنسا بسبب الاتفاق المذكور فإن العطف على فرنسا يكون قويا بحيث يسوغ للحكومة البريطانية أن تتدخل إلى جانبها. وعلى ذلك ينبغى أن تطلق لنا الحرية التامة إما فى مساعدتها أم فى التزام الحياد . ولكن الحروب الحديثة قد تندلع ألسنتها بغتة ، وقد تضع الحرب أوزارها فى أيام قلائل ، فان لم توحد الخطط العسكرية سلفا فقد لانتمكن من مساعدة فرنسا فى الوقت الملائم مهما كانت رغبة الشعب الانجليزى فى المساعدة قوية . فان لم نسمح لهيئتى أركان الحرب الانجليزية الفرنسية أن توحدا الخطط سلفا للعمل المشترك فلا نكون فى الواقع قد فقدنا الاحتفاظ بحريتنا فى مساعدة فرنسا فحسب بل نكون قد أوصدنا أمامنا كل أبواب الأمل فى تسليم تلك المساعدة .



المسيو ملليران رئيس الجمهورية الفرنسية السابق

والذى اذكره هو أن المسيو كامبون لفت نظرى إلى أمثال تلك الاعتبارات التى جالت فى خاطرى على كل حال . ولم يكن فى استطاعة أحد أن يجادل فى قوتها وعليه فإنى فضلا عن إرسال تفصيل المحادثة إلى كامبل بانرمان ولورد ريبون – حسب الاتفاق – باحثت فى موضوعها هلدين وزير الحربية . وكان يجاهد مثلى للفوز فى الانتخاب عن دائرة إيست لوثيان . وقد اجتمعت به فى إحدى حفلاتى الانتخابية فى بيرويك فانتهزت الفرصة لإطلاعه على طلب السفير الفرنسى الخاص باجراء محادثات عسكرية بين ولاة الأمور الانجليز والفرنسيين ، وترى فى الرسالة التى بعثت بها إلى لورد بيرتى نتيجة ما تم عليه الرأى ، وهى كما يلى :

صورة خطاب من السير ادوارد غرى الى السير فرانسيس بيرتى

وزارة الخارجية

تحريرا في يوم ١٥ يناير سنة ١٩٠٦

سيدى :

لقد أبلغت المسيو كامبون اليوم أننى أخطرت رئيس الوزراء بملخص

المحادثة التى دارت بينى وبينه فى يوم ١٠ الجارى ، وقد علمت من رئيس الوزارة أنه لايستطيع العودة إلى لندن قبل ٢٥ يناير وعليه فليس فى الاستطاعة مباحثته فى الموضوع قبل ذلك التاريخ كذلك لا ينتظر أن يحضر باقى الوزراء إلى لندن قبل يوم ٢٩ الجارى ولهذا لم يكن فى وسعى أن أجيب اليوم على السؤال الذى وجهه السفير إلىّ . وقد أخبرنى فى يوم ١٠ الجارى بحدوث مخابرات بين الملحق البحرى الفرنسى ووزارة البحرية .

وقد علمت ان هذه المخابرات كانت مع السير جون فيشر . فان كان الأمر كذلك فلا أرى ثمة حاجة لعمل ماهو أكثر من ذلك . اما فيما يختص بالمخابرات بين الملحق العسكرى الفرنسى ووزارة الحربية فقد فهمت أنها دارت بواسطة شخص ثالث . ولذلك انتهزت الفرصة للمحادثة فى الموضوع مع المستر هلدين وزير الحربية الذى اشترك يوم الجمعة فى حفلاتى الانتخابية فى نور ثمبرلند . وقد أذن لى أن أقول أن من الممكن أن تدور هذه المخابرات بين الملحق العسكرى الفرنسى والجنرال جريرسون رأسا (كذا ...) ولكن ينبغى أن يفهم أن هذه المخابرات لا تقيد إحدى الحكومتين . وقد قال المسيو كامبون أن الوسيط المشار إليه هو كولونيل متقاعد – مراسل التيمس العسكرى – الذى فهم المسيو كامبون أنه أوفد من قبل وزارة الحربية هذا وتقبلوا الخ

ادوارد غراى

وقد تبين لى أن الخطط التى ترمى إلى التعاون البحرى والعسكرى بدىء بوضعها فى عهد اللورد لانسدون عند ما كان الضغط الألمانى ينذر بالخطر . ولكن بينما كانت المحادثات البحرية تدور بطريقة مباشرة فإن المحادثات العسكرية دارت إلى الآن عن طريق شخص ثالث . ثم تقرر أن تجرى هذه المحادثات أيضا من الآن فصاعدا بطريقة مباشرة . ولكن كان لابد أن يفهم بصفة جلية أن هذه المحادثات أو الخطط بين ولاة الأمور العسكريين

أو البحريين لم يكن من شأنها أن تقيد إحدى الحكومتين ولا أن تنطوى على وعد بالمساعدة فى حالة نشوب الحرب ؟ على أن المسألة التى كانت تشغل بالى هى بماذا عسى أن أجيب على طلب المسيو كامبون المساعدة العسكرية أو البحرية فيما إذا دفعت ألمانيا فرنسا إلى الحرب . وبينما كنت أعلم علم اليقين انه ليس فى وسعنا إعطاء وعد كهذا إلا أنى سألت نفسى ماذا عسى أن يكون تأثير هذا الرفض فى فرنسا ؟ أيمكنها أن تدعى أن ما تضمنه الاتفاق الفرنسى الانجليزى من الوعد بتأييدها سياسيا قد صار عديم الفائدة إن لم يصحب بوعدها بالمساعدة فى حالة نشوب الحرب ؟ أكان فى استطاعة الحكومة الفرنسية أن تذهب إلى أبعد من هذا الحد فتزعم أن فرنسا لم تفد من الاتفاق الفرنسى الانجليزى سوى تسوئة مركزها عما كان عليه قبل، وتركها فى الورطة بعد تعريضها للخطر الألمانى الذى لا يكفى لإزالته التأييد السياسى وحده ؟

وكان رأيى الخاص أو بالأحرى إحساسى الغريزى ، هو أنه إذا دفعت ألمانيا فرنسا إلى الحرب بقصد تمزيق الاتفاق الانجليزى الفرنسي فينبغى أن نهب إلى مساعدة الأخيرة وإلا اصبحنا فى عزلة ، وأسأنا إلى سمعتنا ، وجعلنا أنفسنا مبغوضين فى نظر أولئك الذين رفضنا مساعدتهم، محتقرين فى أعين الأمم الأخرى (كذا كذا !!) وكنت أعتقد من جهة أخرى أنه متى حان الوقت الذى تهاجم فيه ألمانيا فرنسا — إذا حدث هذا مطلقا — فإن الرأى العام هنا تثور ثائرته إلى حد لا ترى معه بريطانيا العظمى مندوحة عن خوض غمار القتال إلى جانب فرنسا . ولكننى كنت متيقنا بأن للظروف التى تنشب فيها الحرب دخلا عظيما فى تقرير خطتنا (كذا !) . فمثلا إذا ظهرت فرنسا بمظهر الفريق المعتدى فلا يسع بريطانيا طبعا وقتئذ تقديم المساعدة . هذا كان اعتقادى، كذلك لا يسع الوزارة ولا البرلمان أن يقيدا أنفسهما سلفا بوعد ما . لهذا تراءى لى أن من العبث أن أنتظر من الوزارة — ومن الحمق أن أطلب إليها — أن تأذن باعطاء وعد ما . فاذا كرر المسيو كامبون سؤاله فينبغى أن أجيبه بأننا

لانستطيع إعطاء أى وعد، كما لاينبغى لى ان أفوه بما عسى أن يترك للحكومة الفرنسوية شبه حق فى تاويله بأنه يتضمن وعداً بأكثر من مجرد التأييد السياسى . ومن جهة أخرى فإن القول بأن فرنسا لاحق لها بحال من الاحوال فى أن تطمع فى تدخلنا المسلح لايتفق مع شعور الجمهور الانجليزى ولا ينطبق على الواقع . تلك كانت المسالة التى لابد من معالجتها متى استؤنفت المحادثة وعاد المسيو كامبون إلى سؤاله بعد انتهاء الانتخابات .

وفى الوقت نفسه كانت رحى المعركة الانتخابية دائرة . ولقد أعلنت النتيجة فى دائرتى الانتخابية فى يوم الخميس ٢٥ يناير . وفى اليوم التالى ذهبت أنا وقرينتى إلى لندن. ومن ثم ذهبت يوم السبت إلى قصر وندسور حيث لبثنا فيه إلى يوم الاثنين ، وفى يوم الثلاثاء عادت قرينتى إلى فاللودن، وفى يوم الأربعاء ٣١ يناير دارت المحادثات الخطيرة مع المسيو كامبون . وهى مسجلة فى الرسالة التى بعثت بها إلى لورد بيرتى وهى كما يأتى :

صورة خطاب

من السير أدوارد غراى إلى السير فرانسيس بيرتى

وزارة الخارجية

تحريراً فى يوم ٣١ يناير سنة ١٩٠٦

سيدى :

لقد عاد السفير الفرنسى اليوم إلى الاستفهام منى عما إذا كان يمكن فرنسا أن تعتمد على مساعدة انجلترا فى حالة مهاجمة ألمانيا لها ؟

فأجبته بأننى عرضت المسألة على رئيس الوزارة وناقشته فيها وان لى ملاحظات ثلاث فى الموضوع .

أولا — ان الموضوع قد تقدم كثيراً منذ أن حادثنى السفير فيه . فإن ولاة الأمور العسكريين والبحريين البريطانيين باحثوا ولاة الأمور الفرنسيين فى الخطط . ويمكنني أن أقول أنه قد أعدت كافة المعدات لكى لايضيع الوقت

جدى — عندحدوث الأزمة — بسبب عدم وجود تعهد رسمى من قبل .

ثانيا — قبل أن يحادثنى المسيو كامبون فى الموضوع بأسبوع أو اكثر انتهزت الفرصة لإبداء رأيى الشخصى للكونت مترنيخ وهو رأى علمت أن لورد لانسدون سبق أن ابداه للكونت باعتباره رأيا شخصيا وهو أن العطف على فرنسا يكون شديداً بحيث لايسع أية وزارة انجليزية التزام الحياد فيما لو هاجمت ألمانيا فرنسا بسبب الاتفاقية الخاصة بمراكش . وقد لفت نظر المسيو كامبون أكثر من مرة إلى ان ذلك الرأى الذى روى فى برلين على حقيقته — قد أدى فى العاصمة الألمانية إلى النتيجة الأدبية التى طالما أخبرنى المسيو كامبون انها إحدى الضمانات الكبرى لحفظ السلام والغاية الأساسية من عقد اتفاق رسمى فيمابين انجلترا وفرنسا بخصوص التعاون المسلح.

ثالثا — قد بينت أن فرنسا قد غدت يدها طليقة تماما فى السياسة التى تتبعها فى مراكش فى الوقت الحاضر داخل حدود التصريح المتبادل فيما بيننا وبينها، وأننا لاناقشها فى تلك السياسة ، ولا نقترح إبداء تساهل فى اتباعها أو إدخال تعديل عليها، واناقد أرخينا لها العنان واننا نقدم لها تأييدنا السياسى بحيث يمكنها الاعتماد عليه. أما اذا أريد أن يتجاوز وعدنا حدود التأييد السياسى أو اذا طلب إلينا قطع عهد قد نصبح بموجبه مرتبطين باتباع خطة معينة فى حالة الحرب — أقول اذا طلب الينا ذلك فلا شك فى أن زملائى يصرون وقتئذ على وجوب استشارتهم من آن الى آخر فى تطورات السياسة الفرنسية فى مراكش، وأن تكون لهم الحرية — اذا اقتضى الحال ذلك — فى أن يحثوا الحكومة الفرنسية على إبداء التساهل فى تلك السياسة أو إدخال تعديل عليها كما يتراءى لهم تفاديا من وقوع الحرب .

وقد طلبت إلى المسيو كامبون أن يزن هذه الاعتبارات وأن ينعم النظر طويلا فيما اذا كان الموقف الحاضر من حيث علاقاتنا بفرنسا لايدعو فى رأيه إلى الارتياح بحيث لايحتاج الأمر إلى تغييره بتصريح رسمى كما يرغب هو ذلك

فقال المسيو كامبون ان ألمانيا فى حالة حبوط المؤتمر قد تستتر وراء سلطان مراكش ثم تحاول توسيع دائرة نفوذها ، ومن ثم قد تهب عاصفة المتاعب على الحدود الجزائرية فلا ترى فرنسا وقتئذ مندوحة عن اتخاذ الاجراءات اللازمة أسوة بما فعلته فى الماضى ، وأن المانيا قد تخطر فرنسا ـ كما فعلت من قبل ـ بأنها تعتبر الاعتداء على مراكش بمثابة اعتداء عليها وإذن لا بد من مقابلة الاعتداء بمثله . وهنالك قد تباغت بإعلان الحرب وتصبح الحاجة الى العمل مسألة جوهرية لاينبغى البت فيها فى خلال بضعة أيام بل فى بضع دقائق . وهنالك قد تصبح مساعدة الحكومة البريطانية لاقيمة لها إذا لاح لتلك الحكومة إضاعة الوقت سدى فى الاستشارة إن احتاج الأمر ذلك أو فى انتظار ظهور أدلة كافية على اتجاه ميول الرأى العام البريطانى . وفى النهاية كرر السفير المطالبة بأن يعطى لولاة الأمور الفرنسيين نوع من التوكيد فى خلال المحادثات . فبينت له أن كل توكيد من هذا القبيل يكون بمثابة عهد مقدس لا أقل ولا أكثر . ولذا لايسعنى اعطاء مثل ذلك التعهد قبل عرض الأمر على الوزارة واستئذانها وإننى لعلى يقين أننى إن عرضت الأمر عليها لقال زملائى إن المسألة أخطر من أن يبت فيها بمجرد إعطاء وعد شفهى بل لابد من تسجيله كتابة . وأحسب أن لاخوف من عرض المسألة على الوزارة الحاضرة وبخاصة متى راعينا ميولها الشديدة نحو فرنسا إذ أن أشد اعضائها تعلقا بأهداب السلام هم فى نفس الوقت أكثرهم عطفا على فرنسا. ولكنى بالرغم من ثقتى بحسن نية الوزارة نحو فرنسا فإنى أرى من الصعب اعطاء مثل ذلك التعهد كتابة إذ لاسبيل إلى إعطائه بلا شرط ولا قيد . وليس يخفاك أن تحديد هذه الشروط أمر من الصعوبة بمكان .

إذن فالموقف كما أراه هو أن يتحول « الاتفاق » فى حالة حدوث تغيير إلى محالفة دفاعية . وهو كما لا يخفى تغيير رسمى واسع المدى . وقد سألت

المسيو كامبون مرة أخرى اذا كان لايرى معى أنه قد تكون الظروف التى تجعل انجلترا وفرنسا تتفقان جنبا إلى جنب قوة تفوق قوة أى تعهد لفظى يمكن اعطاؤه فى الوقت الحاضر . ثم قلت له إن قوة الظروف — كنشاط ألمانيا مثلا — قد يؤدى فى النهاية الى تحويل « الاتفاق » إلى محالفة دفاعية فيما بيننا وبين فرنسا ـ ولكن الظروف ـ كما أخبرته ـ لم تكن قاهرة فى الوقت الحاضر بحيث تجعل هذا التغيير أمراً مرغوبا فيه . كذلك أفهمته أن مثل تلك المحالفة اذا عقدت تكون من الخطورة بحيث لايتسنى إخفاؤها عن البرلمان . نعم تستطيع الحكومة عقدها دون موافقته ولكن لابد من نشرها فيما بعد . وليس فى وسع أية وزارة بريطانية أن تقيد البلاد بمحالفة خطيرة كهذه وتبقيها سراً مكتوما إلى الابد .

وأشار المسيو كامبون وهو يلخص أقوالى إلى أنني إنما عبرت عن رأيي الشخصي عند ما ذكرت أنه لايسع أية وزارة بريطانية التزم الحياد فيما لو هاجمت ألمانيا فرنسا . فأخبرته بأنني استعملت هذه العبارة لأول مرة فى أثناء حديثي مع الكونت مترنيخ لأنه لايحتمل أن ينشأ ضرر ما فى ألمانيا فيما لو تبين مثلا أنني كنت مبالغا فى وصف قوة شعور أهل بلادى . ولكنى لا أستطيع أن أبدى لفرنسا رأيى الخاص بمثل هذا التوكيد إذ لايصح اتخاذ الرأى الخاص فى مسألة خطيرة كهذه قاعدة لبناء سياسة عليها . لهذا رأيت اتخاذ الحيطة عند الكلام معه . وليس يخفى أن الأمر يترتب على كيفية نشوب الحرب بين ألمانيا وفرنسا وما يحيط بنشوبها من الظروف . ولم يكن يخطر لى طبعا أن يخوض الشعب الانجليزى غمار القتال لمجرد توطيد قدم فرنسا فى مراكش، لا بل أنه يستصوب أن تتحين فرنسا الفرص وتتذرع بالأناة والصبر وألا تستعجل الأمور إلى حد الاشتباك فى الحرب . أما لو تبين من الجهة الأخرى أن ألمانيا هى التى دفعت فرنسا إلى الحرب لا لسبب آخر سوى

تمزيق « الاتفاق » الانجليزى الفرنسى فإن الرأى العام البريطانى فى هذه الحالة يؤيد فرنسا حتما كل التأييد . وفى الوقت نفسه ينبغى أن يذكر المسيو كامبون أن انجلترا — بقدر طاقتها — تتحاشى الاشتباك فى اى حرب عظمى . وقد ترددت فى إبداء رأى قاطع فى صدد الإحساس القوى البادى فى الصحف الفرنسية وفى الجمهور الفرنسى وهل هو فعلا من القوة بحيث يتغلب على نفورنا الحاضر من الاشتباك فى الحرب ؟ على أننى أفهمت المسيو كامبون بأن يذكر أن فى الاستطاعة استئناف المحادثات فى أى وقت أرادت الحكومة الفرنسية . ومهما يكن من أمر فإن الظروف قد تتغير ولكن ليس من رأيى — فى الأحوال الحاضرة — أن يستمر الإلحاف لعقد محالفة دفاعية .

إن المسيو كامبون يقول إن المسألة جدية وفى منتهى الخطورة لأن الإمبراطور حمل الحكومة الفرنسية على أن تفهم أنها لا تستطيع الاعتماد علينا ، فمن المهم فى نظر تلك الحكومة إذن أن تشعر بأنها تستطيع بالعكس أن تعتمد علينا .

هذا وإنى على التحقيق ومع عظيم الاحترام   عبد سعادتكم المطيع

ادوارد غراى

ويلوح لى الآن — كما لاح لى وقتئذ — أن سلوكى فى تلك الحادثة كان السلوك الصحيح الوحيد الذى ما كان يسع أى وزير بريطانى أن يسلك وقتئذ سواه ، فلم يك يمكن لأى إنسان أن يقيد هذه البلاد سلفا بوعد يحتم عليها الوقوف إلى جانب فرنسا فى حالة وقوع الحرب . ومن جهة أخرى فان القول بأننا لن نفعل ذلك فى حال من الأحوال يتنافى مع الحقيقة ، بل قد يكون طيشا وسوء تدبير . أما أن المسألة كان يمكن وضعها فى شكل أوضح أو أن الموقف كان يمكن معالجته بمهارة أكثر ، فهذا أمر ثانوى يحسن تركه لحكم الغير إذ لست متيقنا من ذلك . أما إحساسى فى ذلك الوقت فيدل عليه الخطاب الذى أرسلته إلى قرينتى فى اليوم التالى . وإليك الفقرة الخاصة بهذه الحادثة . فقد جاء فيه : « اشتركت بالأمس فى محادثة خطيرة وكانت لدى أعمال على أعظم

جانب من الأهمية ، ولست أدرى ما إذا كنت قد أحسنت أداء المهمة ولكني أظن أنني أديتها بأمانة ونزاهة » . ولقد اقتضى الأمر أن أشير بشيء من الاسهاب إلى هذه المحادثة لأنها تحدد الموقف الذى ظللنا نتمسك به إلى يوم إعلان الحرب . نعم عرضت تلك المسألة نفسها على بساط البحث عدة مرات ولكنا لم نتحول قيد شعرة عن الموقف الذى وقفنا عنده فى المحادثات التى دارت مع المسيو كامبون فى يوم ٣١ يناير سنة ١٩٠٦ . ثم تم الاتفاق – اجابة لرغبة الحكومة الفرنسية – على أن تدور المحادثات فى ابريل سنة ١٩١٤ بين ولاة الأمور البحريين الانجليز والروس كما سنبينه فيما يلى ، ولكن مع العلم – وقد سجل ذلك كتابة فى هذه المرة فى الخطابات التى تبودلت بينى وبين السفير الفرنسى فى سنة ١٩١٤ – بأن المحادثات لا تتضمن عهوداً ما .

وان المحادثات الآتية التى دارت مع السفير الألمانى لتسجل ما قلته له فى ذلك الوقت العصيب . فهى تنطوى على بيان حالة الشعور العام فى بريطانيا كما كان وقتئذ يتراءى لى . وهو يتفق مع ما قلته للسفير الفرنسى عن احتمال وقوفنا إلى جانب فرنسا فى حالة نشوب الحرب .

صورة خطاب

من السير ادوارد غراى إلى السير فرانك لاسلز

وزارة الخارجية

تحريراً فى يوم ٩ يناير سنة ١٩٠٦

سيدى

لقد أبلغت السفير الألمانى فى يوم ١٣ الجارى أننى متجه بكليتى منذ محادثتنا الأخيرة فى الموضوع إلى درس مسألة مراكش وانني لا أشعر بشيء من القلق بسبب الموقف .

ولقد لاحظت أن البرنس بيلوف وصف المسألة المذكورة منذ وقت قريب « بأنها مسألة سيئة جداً » . كما أننى سمعت أيضاً بأن لورد لانسدون

أبلغ الكونت مترنيخ اعتقاده بهياج الرأى العام فى انجلترا فى حالة اعتداء ألمانيا على فرنسا إلى حد يستحيل معه على بريطانيا ملازمة الحياد . وقد ذكر الكونت مترنيخ أن لورد لانسدون أجابه بان ذلك هو ما ينتظر حدوثه فى حالة مهاجمة ألمانيا لفرنسا بلا مسوغ . وبالطبع فان ما يسمى اعتداء بلا مسوغ، مسألة تقديرية بحتة تحتاج إلى تفسير وتأويل .

وقد قلت أن ليس فى نيتنا إيجاد مشاكل فى المؤتمر الخاص بمراكش ، بل نرغب بالعكس تجنب النزاع فيما بين فرنسا وألمانيا، لأننى كنت متيقنا تماما بأن لاأمل فى التزامنا الحياد فيما لوحدث نزاع (كذا !) بل ليهيجن" الرأى العام الانجليزى إلى حد بعيد ـ لا تحاملا على ألمانيا وبغضا فيها ـ وإنما لأنه قد تنفس الصعداء حقيقة واغتبط بتلاشى أسباب النزاع فيما بين انجلترا وفرنسا ، حتى ان عطفه عليها ليكونن" شديداً فيما لو رآها وقعت فى مشاكل بسبب الوثيقة التى هى أساس ما بين البلادين الآن من حسن تفاهم وعلاقات ودية .

ولقد عاد الكونت مترنيخ إلى بسط وجهة النظر الألمانية بلهجة التوكيد فقال إنه ليس من حقنا ولا من حق فرنسا التصرف فى مصالح فريق ثالث فى مراكش مهما كان تصرفنا فى مصالحنا . فقلت له إننا قطعنا على أنفسنا عهوداً صريحة بتاييد فرنسا تأييداً سياسيا فيما يرمى إليه الاتفاق الودى من الغايات (كذا!) ، وأن هذه العهود قد نشرت فى المادة التاسعة من ذلك الاتفاق . وهنا لاحظ الكونت مترنيخ أن كل ما وعدنا به فرنسا هو التأييد السياسى ليس غير ، ولكن الأمر الذى أغضب ألمانيا هو أن الناس يتكلمون فى انجلترا كما لو كان هناك وعد بالتأييد المسلح . فقلت إننى لا أملك إلا أن أتكلم فى الموضوع كفرد من الأفراد وليس لرأيى قيمة أكثر مما لرأى لورد لانسدون وإن كنت متفقا معه فى الفكرة. فليست المسألة مسألة سياسة خاصة تتبعها الحكومة . إذ ليس يخفى أن الباعث للأمم على الاشتراك فى الحرب

ليست السياسة ولا المصلحة بل العواطف (كذا!) . فاذا حدثت ظروف كالتي أشرت اليها فإن قوة الشعور العام ستجعل التزام الحياد ضربا من المستحيلات .

وهنا قال الكونت مترنيخ إن ألمانيا تشعر بأنها من القوة بحيث لا يمكن لدولتين عظيمتين متحدتين أن ترهباها أو توقعا الرعب فى قلبها . فقلت إنى أعرف ذلك ولكنى إن توخيت الصراحة فيما أقوله حالا فلأن الظروف التي أشرت اليها لم تقع بعد وهو ما يبرر استعمال الصراحة فى الحديث ،لأنه قد يحتمل فيما لو تعقدت الأمور فيما بعد ، أن يضيق ذرعا بسماع هذه الكلمات الصريحة او قد لا يكون وقتئذ فى استطاعتى التكلم بمثل هذه الحرية . ثم قلت « أما إذا سارت الأمور سيراً مرضيا فى مؤتمر مراكش فيمكنك أن تثق بأن « الاتفاق الودى » فيما بين فرنسا وانجلترا لن يستخدم فيما بعد للإضرار بمصالح ألمانيا العامة أو بسياستها،لأن جل أمانينا أن نرى الوئام سائدا فيما بينها وبين فرنسا . وهو ما لا غنى عنه لإتمام ارتياحنا للصداقة التى نمت بيننا وبين هذه الأخيرة . ولذلك فمن المحقق أن لا تندفع بفرنسا فى المؤتمر إلى التهور أو إلى أبعد من الحد الذى تريد هى من تلقاء نفسها أن تذهب إليه» .

وأحسب ان ما جعلنى أتفوه بهذه العبارة أن الكونت مترنيخ أخبرنى منذ أيام انه يلوح له « أن الحكومة البريطانية قد أصبحت أكثر فرنسية من الحكومة الفرنسية نفسها ! » ولكنه عاد الآن فأخبرنى باقتناعه بأن الوزارة البريطانية ليست أكثر فرنسية كما توهم وأن ماقلته له يعبر عن رأينا الحقيقى . فأكدت له أن هذا هو الواقع وأن سياستنا صريحة لا غبار عليها . فلقد ذهبنا فيما قطعناه لفرنسا من التعهدات إلى حد معين ولذا لا يسعنا التفكير فى الرجوع فيها . فلا محيص إذن من مراعاة هذه التعهدات . أما إن تبين فى المؤتمر أن مراعاتها تتفق مع وجهة نظر ألمانيا حيال مصالحها فأغلب الظن أن يتحول الرأى العام الانجليزى تحولا كبيراً عن موقف التذمر السابق .

ثم دار الحديث حول نغمة الصحافة فى كل من انجلترا وألمانيا . وهنا أخذ الكونت مترنيخ يبدى تذمره من عودة الصحف الإنجليزية إلى لهجة العنف ومسخ الحقائق . فأجبته بأن ليس فى استطاعتنا مراقبة الصحافة وأنها لا تتلقى الوحى منا . ولو أننى شرعت الآن فى إلقاء خطبة عامة تمهيدا لحمل الصحف على تغيير لهجتها والضرب على نغمة ودية لكان جوابها بما لى « نعم ما تقول ! ولكن لابد لنا قبل الاقتناع بأقوالك من أن ننتظر ريثما تعرف نتيجة مؤتمر مراكش ! » ومن الجهة الأخرى إذا سارت الأمور سيراً مرضيا فى المؤتمر لاستطاع أى شخص يخلفنى فى منصبى أن يضرب على النغمة الودية وأن يكون لكلامه تأثير فعلى .

ثم طوح بنا الحديث إلى الخوض فى بعض تفاصيل المؤتمر . وهنا قال الكونت مترنيخ إن ألمانيا لا تستطيع الاكتفاء بمجرد حصولها على ضمانات لصيانة مصالحها الاقتصادية لأن تلك الضمانات تصبح فى الواقع عديمة الجدوى فيما لو تم لفرنسا الاشراف الفعلى على شؤون مراكش . وإذ ذاك تصاب التجارة الألمانية بالخسارة كما أصيبت التجارة الأجنبية في تونس ومدغشقر . فبينت له أن هنالك ضمانات على اتباع سياسة الباب المفتوح فى مراكش وهو مالم يكن موجوداً فى تونس ومدغشقر . ولكن الكونت مترنيخ أجاب بأن هذه الضمانات غير كافية على كل حال . لأن فرنسا إذا أصبحت لها الكلمة العليا فى مراكش فإن منح الامتيازات وما أشبه ذلك يكون موكولا أمره إلى السلطات الفرنسية ليس غير . فقلت إننى فهمت أنه سينشأ فى مراكش مصرف يسمى مصرف الدولة وأن فرنسا قد وافقت فعلا على أن تكون لألمانيا حصة فيه ولذلك يعتبر هذا فى الواقع ضمانا أكيداً .

وفيما عدا بعض ملاحظات عامة تتلخص فى أن ألمانيا لا يمكنها السماح لفرنسا بالحصول على مركز ممتاز فى مراكش ، لم يشأ الكونت مترنيخ أن يبحث لى مضافا بماهية الاقتراحات التى يحتمل أن تعرضها ألمانيا على

بساط البحث ولا ماذا عسى أن تكون خطتها فى المؤتمر .

هذا وإنى على التحقيق ومع عظيم الاحترام عبد سعادتكم المطيع

اوارد غراى

وكانت كل غايتى من هذه المحادثات لفت نظر الألمان إلى حرج الموقف وإشعار الفرنسيين بعطفنا عليهم مع اجتناب كل ما عسى أن يولد فى نفوسهم من أمان وآمال قد لا تستطيع هذه البلاد تحقيقها . لهذا كان يتعين لادراك هذه الغاية اجتناب « البلف » فى الحالة الأولى أو إعطاء الوعود فى الحالة الثانية.

وكان كامبل بانرمان متخوفا من أن تؤدى المحادثات العسكرية إلى تعهد أو على الأقل إلى « تفاهم شريف » . ومما يدل على وجهة نظره الخطاب الذى أرسله إلى لورد ريبون ونشر فى كتاب « ترجمة حياة السير هنرى كامبل بانرمان » المجلد الثانى ص ٢٥٧ . ولعمرى أننى ما كنت لأستخف لحظة واحدة بمخاوفه تلك لو كنت أوتيت من الحنكة والخبرة أضعاف ما كان من نصيبى وقتذاك ، ولكن كان التفاهم الشريف فيما بينى وبين المسيو كامبون جليا وبينا وهو أنه لا يوجد مطلقا فى كل ما دار بين ولاة الأمور العسكريين الانجليز والفرنسيين ما يمكن — ولو ضمنا — أن يقيد إحدى الحكومتين . وهو تفاهم راعيناه بكل شرف حتى فى غضون أسبوع الهم والقلق الذى سبق إعلان الحرب العالمية فى سنة ١٩١٤ . ففى ذلك الأسبوع ألحفت فرنسا بمطالبتنا بوعدها بالمساعدة ولكنها لم تدع — لا هى ولا روسيا مرة واحدة فى سائر ما دار بيننا وقتئذ من المجادلات — ولا لمح سفيراها فى لندن إلى أننا كنا مرتبطين بوعد ما . وقد اهابت بنا هاتان الحكومتان وطالبتانا بمراعاة مصالحنا ! ولكن أحدا لم يزعم أن نداء الاستغاثة كان له أى مساس بتشرفنا أو بحسن نيتنا (كذا) !

نعم وجهت انتقادات شديدة إلى الخطة التى سلكناها هنا ، فقال البعض انه كان ينبغى علينا إعطاء فرنسا وعد صريحا بالمساعدة فان لم يكن فى سنة ١٩٠٦ فلا أقل من أن يكون فى أى وقت قبل نشوب الحرب ، ثم كان

يتعين علينا مضاعفة استعداداتنا للحرب ، ولكن وجد فريق آخر كان من رأيه أن لا محل مطلقا لما قمنا به من الاستعدادات البريئة هذا فضلا عن أنه كان بعيداً عن التبصر والحكمة . وسأتناول هذه الانتقادات فى الفصول التالية . وكل ما يهمنى هنا هو أن أسرد الحقائق وأن أبين الموقف كما كان وقتئذ.

وثمة انتقاد آخر ولكن لا على السياسة بل على الاجراءات . ولا بد لى من تناول هذا الانتقاد هنا . فقد قال بعضهم إنه كان يجب عقد مجلس الوزراء لبسط المسألة بحذافيرها عليه قبل بدء المناقشة مع السفير كامبون فى يوم ٣١ يناير . وقد كتب إلىّ كامبل بانرمان فى يوم ٣١ يناير بينما كانت رحى الانتخابات دائرة بمنتهى الشدة يسألنى « متى تريد عقد مجلس الوزراء ؟ هل يلائمك عقده فى يوم ٣٠ يناير أو ٣١ أو أول فبراير ؟ اتريد أن تقر الوزارة جوابك لفرنسا قبل أن تعطيه للسفير ؟ » ولست أذكر ما ذا كان وقتئذ جوابى على هذا السؤال.(كذا !) كما لا يوجد ما يدل عليه فى محفوظاتى أيضا. أما ما كنت أجيب به الآن على ذلك السؤال، فهو أنه كان يتعين المطالبة بعقد مجلس الوزراء. وهو ما اقتنعت بصوابه بعد مرور السنين واتساع دائرة التجارب والخبرة . على أننى أستطيع الآن تعليل السر فى عدم عقد المجلس المذكور . فقد كان المفهوم أن الجواب المعطى لكامبون لا يقيدنا بأبعد من حدود التأييد السياسى الذى قيدنا به الاتفاق الفرنسى الانجليزى المعلن للملأ . وكان يوم ٣٠ يناير هو أقرب يوم اقترح عقد مجلس الوزراء فيه . وأغلب الظن أنه لم يكن فى الاستطاعة تحديد يوم أقرب من هذا لأن اعلان نتيجة فوزى فى الانتخاب فى يوم ٢٥ يناير لم يكن آخر ما أعلن من نتائج الدوائر الريفية ، وعليه تكون فرنسا قد لبثت فى انتظار الجواب وقتا كافيا . ومما تنبغى ملاحظته أيضا أن كامبل بانرمان وريبون لم يقترحا عقد مجلس الوزراء بعد أن أحطتهما علما بتفاصيل ما دار بينى وبين كامبون من المحادثات . وقد كانا كما لا يخفى الرجلين الوحيدين اللذين لهما خبرة واسعة بالشؤون الوزارية. أما بقية أعضاء

الوزارة ـ ما عدا اسكويث ـ فلم يسبق لهم الالتحاق بالوزارة ولذا لم يكونوا يعلمون شيئاً عنها . ومما يدلك على أن كامبل بانرمان وريبون اطلعا فعلا على ما دار من المحادثات مع كامبون الخطاب الذي أرسله أولهما إلى الثاني بتاريخ ٢ فبراير وأسلفنا القول عليه . وأما أنه كان ينبغي بسط المسألة برمتها على مجلس الوزراء بعد اعطاء الجواب للسفير فهو ما سنعرض له فيما بعد متى حان الوقت لسرد المناقشات التي دارت في مجلس الوزراء في سنة ١٩١٢ عند ما كانت مسألة المحادثات العسكرية معروضة على بساط البحث أمامه .



السير لويس ماليت سكرتير اللورد عراى

ومع كل فماذا كان أثر الجواب في أنفس الفرنسيين ؟ لقد كان القلق يساورني في هذا الصدد عند اعطاء الجواب . ولكني ـ كما سأبين بعد ـ استدعيت إلى داري في يوم أول فبراير . ولذا لم أتمكن من رؤية كامبون مرة اخرى لعدة أيام . وفي خلال غيبتي قابل كامبل بانرمان سكرتيري الخاص ـ لويس ماليت . وإلى هذه المقابلة أشار كامبل في نفس خطابه لريبون بتاريخ

٢ فبراير بقوله: إن السكرتير الخاص يقول إن كامبون كانت تلوح عليه سيما الارتياح والرضا ». وإني لأذكر بكل جلاء ما تركه من الأثر في نفسي مسلك كامبون من حيث رأيه الخاص فيما دار بيننا من المحادثات فى يومى ١٠ و ٣١ يناير . ويؤخذ من هذا المسلك أنه كان شخصيا يعلم أن ليس فى وسعنا اعطاءه الوعد الذى كلف بالمطالبة به وأنه مهد للحكومة الفرنسية الطريق لسماع جواب سلبي ولكنها أصرت على أن يكرر السؤال ، وأن أقصى ما كان يتوقعه هو شخصيا أن نوافق على استمرار المحادثات العسكرية والبحرية وهى التي كانت دائرة من قبل عند ما كان لورد لانسدون فى وزارة الخارجية ، ولكن مع هذا الفارق هو أن تجرى المحادثات العسكرية بين هيئتي أركان الحرب بطريقة مباشرة كما جرت المفاوضات البحرية مع السير جون فيشر بدلا من اجرائها عن طريق وسيط .

لهذا كان يرجح أن يكون كامبون مرتاحا وراضيا . وأغلب الظن أنه الحكومة الفرنسية لم تكن راضية كل الرضا . ولكن كان من المستحيل بتاتا اعطاؤها أكثر من ذلك . ومن ثم أصبح ما يحتمل أن يسفر عنه مؤتمر الجزيرة من النتائج أقل خطورة مما كانت تشير الأحوال إليه من قبل، هذا إلى أن الحكومة الفرنسية عدلت مؤقتا عن الإلحاف فى المطالبة بما يتجاوز حدود التأييد السياسى.

وفى غضون ذلك الوقت طرأ تغيير على وزارة الخارجية . فإن لورد ساندرسون وكيل الوزارة الدائم لعدة سنوات اعتزل منصبه فخلفه السير تشارلس هاردنج السفير البريطانى فى سان بطرسبرج . وقد عين ساندرسون وكيلا فى أثناء وجودى بوزارة الخارجية بين سنة ١٨٩٢ وسنة ١٨٩٥ . وقد رحب بعودتى إلى الوزارة في سنة ١٩٠٥ بما يشبه الشفقة الأبوية . ولم يكن معروفا بحب تشجيع الغير ولا تأييده لأنه كان شديد التواضع. ولكن طول التجارب وسعة الاطلاع جعلت لرأيه قيمة . وقد كان شديد الإخلاص لأعمال وزارة الخارجية ، وكان يعيش لأجل هذه الأعمال وينهمك

فيهاومع انهلم يكن حاضر الذهن إلى حد أن يرسم سياسةمن نفسهلكنه كان حكيم الرأى والنصح لايعتريه الوهن أو الملل فى تنفيذ هذاالرأى . وكان رساما ماهراً . وبالاختصار كانمن الموظفين النافعين .

ولقد طلبت إلى ساندرسون فى إحدى المحادثات المهمة مع كامبون — وأظنها المحادثة الأولى التى دارت فى ١٠ يناير — أن يحضرنا ليساعدنى على فهم اللغة الفرنسية إذا اقتضى الحال ذلك . وقد جلس إلى جانبى على «المقعد» الجلدالذى فى حجرة الوزير بينما جلس كامبون أمامنا على كرسى ذى مساند.ولا



حجرة الوزير فى وزارة الخارجية

نزال ذكرى المنظر حاضرة فى ذهنى إلى هذه الساعة ثم شرع كامبون يشرح نظرية حكومته ويسألنى أن أعده بالمساعدة المسلحة فى حالة اعتداء ألمانيا على فرنسا . وقد أحس ساندرسون بارتباك الموقف . فقد كان يعلم ماذ يترتب على إعطاء جواب غير مرض من العواقب المقلقة . ثم أنه كان يعلم من الناحية الأخرى أنه يستحيل علىّ استحالة باتة أن أجيب على ذاك السؤال . وكان قد

موضع راحته على ركبته ، فظل يرفعها ويخفضها بحالة عصبية طيلة الوقت الذى كان يشرح فيه كامبون نظرية حكومته ، وهى حركة لا ريب فى أن ساندرسون لم يكن داريا بها ، ولكنها كانت بلا جدال أبلغ ما يقال عن تعقد الموقف ودقته .

ولحسن الحظ لم يكن عجزى عن التكلم بالفرنسية يعتبر نقصا فى المحادثات مع كامبون . فانى وإن كنت أقرأها بسهولة إلا أنى لم أكن استطيع الاعراب بها عن آرائى بسبب قلة المران . وكان هذا هو أيضا موقف كامبون أزاء اللغة الأنجليزية . فقد كان يفهمها ولكن لا يستطيع التكلم بها . بيد أن لهجته الفرنسية كانت من الجلاء والوضوح بحيث كان فى وسع السامع أن يدرك كل كلمة ينطقها . فكأنما كان الإصغاء إليه إذن شبيها بقراءة اللغة الفرنسية . وعليه قد كان كل منا يتكلم بلغته التى يفهمها الثانى ، حتى إذا شئنا التثبت من أنا فهمنا أحدنا الآخر تبادلنا فيما بعد « الصورة » التى دون فيها ــ كل منا على حدة ــ ما فهمه من هذه المحادثات الأولية . وبمقابلة الصورتين إحداهما بالأخرى اقتنعنا تمام الاقتناع بان كلا منا كان يفهم كل كلمة نطق بها الآخر حق الفهم . وهكذا حلت من ذلك الحين بيننا الثقة التامة وأصبحنا فى غنى عن مقابلة صور المحادثات وعن حضور شخص ثالث معنا فى الحجرة . أما سفراء الدول العظمى الأخرى فقد كانوا يتكلمون الأنجليزية ــ وباتقان ــ لذلك كان النقص فى عدم قدرتى على التعبير بالفرنسية أقل مما كنت أخشى .

ولا ينبغى أن يغرب عن البال عند استعراض قلق فرنسا ورغبتها فى إعداد الترتيبات العسكرية بين هيئتى أركان الحرب الفرنسية والبريطانية وموافقتنا على ذلك ، أن المانيا لم تكن من ناحيتها واقفة مكتوفة اليدين ... فقد لاكت الألسن أنباء تتعلق بنشاطها قبل محادثاتى مع كامبون .

وفى يوم ٣١ يناير أى فى نفس اليوم الذى تحادثت فيه مع كامبون تلك المحادثة المهمة ــ تحادثت أيضا مع الكونت مترنيخ محادثة أرسلت ملخصها إلى لاسلز سفيرنا في برلين فيما يلى :

صورة خطاب

من السير ادوارد غراى إلى السير فرانك لاسلز

وزارة الخارجية

تحريراً فى يوم ٣١ يناير سنة ١٩٠٦

سيدى

منذ اسبوع مضى اخبرنى السفير الألمانى بحديث دار مع السير فردريك موريس ونشرته الصحف الفرنسية . وقد أبلغت سعادته اليوم أننى قد اطلعت على الحديث بناء على اشارته وأننى غير موافق عليه مطلقا . وأغلب الظن أن يكون قد اطلع الآن على الايضاح المنشور فى جريدة التيمس . وق



وزارة الخارجية فى دونج ستريت

قلت انه خطر إلىّ أن بعض ما كان يبلغنى هنا باستمرار بصدد الجيش الألمانى وابتياعه مقادير هائلة من مهمات الحرب بشكل لا نظير له فى الماضى الخ الخ

قد يملل السر فى أن السير فردريك موريس وآخرين بحثوا فى احتمال وقوع الحرب ، ولكنى قلت ان رأيى هو أن كل المعلومات التى من هذا القبيل تدل على أن ألمانيا لا تتاهب للحرب بل تتخذ احتياطات لا غبار عليها فى اتخاذها نظراً للشعور الذى كان سائداً منذ ستة أشهر، وتتفق تمام الاتفاق مع نيات ألمانيا السلمية التى اكدها لى الكونت مترنيخ . وقد استعملت لفظة « تأهب » وهي تنطوى على معنى الهجوم فى حين أن « احتياطات » كانت تعنى نية الدفاع .

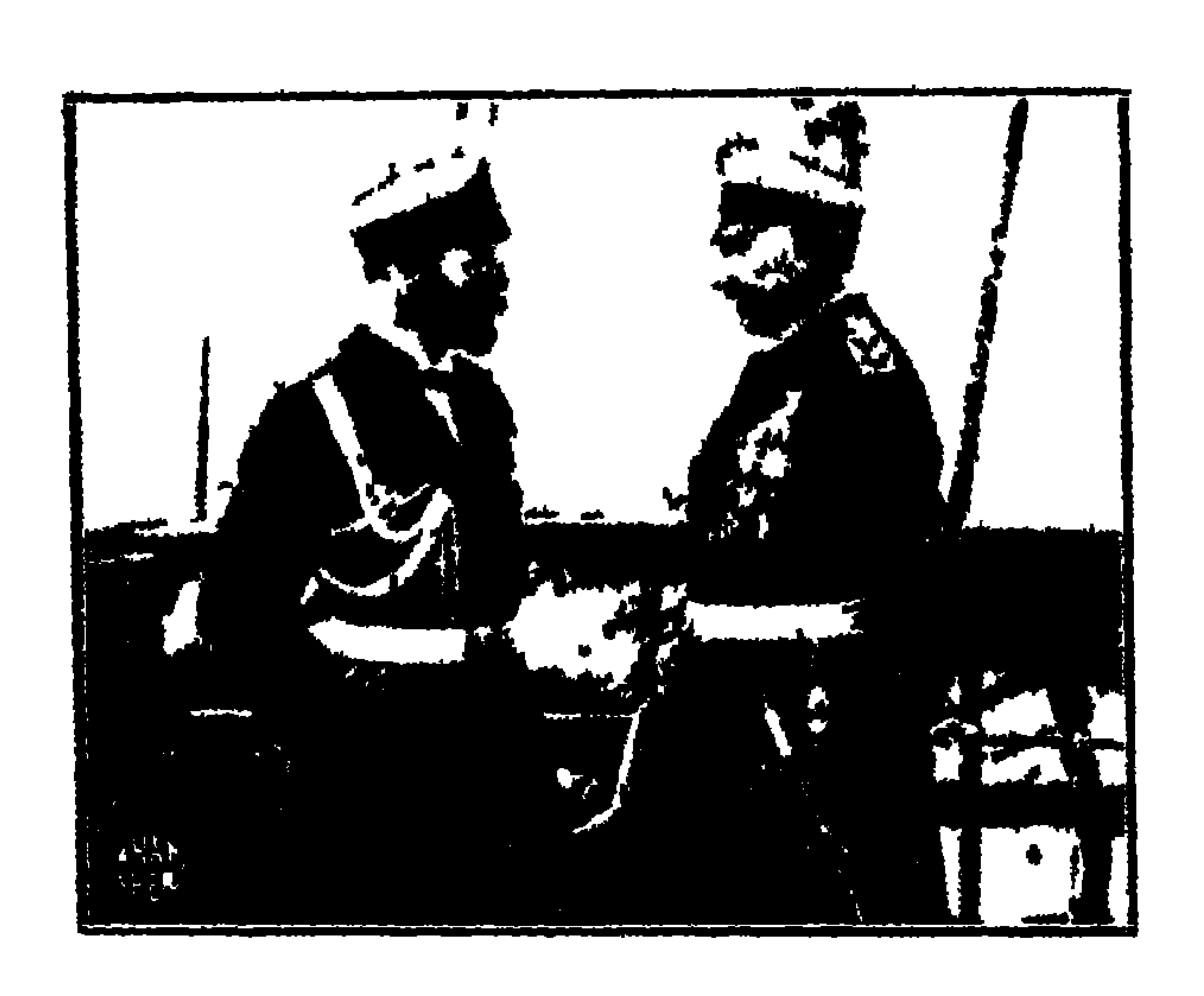
وذكر الكونت مترنيخ أن فرنسا كما يؤخذ من أقوال السير تشارلس دايلك وآخرين كانت بدورها منهمكة فى تقوية مركزها إلى حد بعيد فأجبته بأن هذا صحيح ، وأننا متى ذكرنا ما كانت عليه الحالة منذ بضعة أشهر لسلمنا بان عملها كان بمثابة احتياط طبيعى يحق لفرنسا اتخاذه . على أننى أمكنني أن أؤكد له أنه طالما بقيت وزارة الخارجية فى أيدى الوزارة الحاضرة فلن توافق انجلترا إلا على مجرد اتخاذ احتياطات كما يفهم من تلك اللفظة ، لا القيام بتاهبات تنطوى على نية العدوان .

هذا وإنى فى الختام الخ

ادوارد غراى

وعندى أن هذه المحادثة جديرة بانعام النظر . فالفرق بين القيام بالاستعدادات تمهيداً لدخول الحرب ، واتخاذ ما يلزم من الاحتياطات لدفع العدوان هو فرق حقيق صريح له معناه المعين فى أذهان المشتغلين بمهام التسليح . أما عند غيرهم فالفرق بين الأمرين طفيف غير واضح . ولقد حكوا عن بسمارك أنه قال فى سنى عزلته أنه دبر ثلاث حروب . وقد قصد بذلك طبعا الحرب مع الدانيمارك فى سنة ١٨٦٢ ثم مع النمسا فى سنة ١٨٦٦ ثم مع فرنسا فى سنة ١٨٧٠ . وقد أدرك العالم من الافشاءات الخاصة ببرقية إمز أن العسكريين

الألمان أرادوا الحرب مع فرنسا (كذا!) فالتسليحات الألمانية كانت فى تلك الأحوال بمثابة استعداد لاعلان الحرب على فرنسا لا مجرد احتياط لدفع عدوانها. وقد أصبح يحق للدول الأخرى بعد افشاءات بسمارك هذه أن تنظر إلى التسليحات الألمانية بعين الخوف والقلق. ويتبع هذا أن تكون ألمانيا موسوسة بصفة خاصة لمثابرة الدول الأخرى على تسليحاتها. لأننا فطرنا على أن نقيس الغير بما يجول فى نفوسنا من بواعث وآراء لذلك نرى أنه ما من حكومة تتذمر من قول الناس لها أن وسائلها الاحتياطية ليست لدفع العدوان بل استعدادا للحرب - إلا وأيقنت ان ماتتخذه الحكومات الأخرى من الاجراءات المشابهة لاجراءاتها دليل على الاستعدادات للبدء بالعدوان.



امبراطور ألمانيا - إلى اليمين - يزور قيصر روسيا

ومغزى هذا بديهى. وهو أن التسليحات إذا تجاوزت حد الاعتدال تؤدى إلى الحرب حتما. فإذا قام فريق بتسليح نفسه. فلا مفر للفريق الآخر من احتذاء حذوه وهكذا دواليك. فإن تهمكت أمة فى التسليح فليس يسع الأمم الأخرى اغراء الأمة المسلحة بالاعتداء عليهن بوقوفهن مكتوفات الأيدى -

وليس يخفى أن التسليحات تحتاج إلى المعدات كما أن الجيوش لا فائدة لها بدون السكك الحديدية . فالأمم رقيبة بعضها على بعض فما تفعله إحداهن تلاحظه الدول الأخرى وتعمل على ابتكار ما يلاشى مفعوله وهكذا .

وليس يخفى أن الإمعان فى التسليح لتستشعر الدولة بقوتها وتزداد طمأنينتها على سلامتها لا يؤدى إلى هذه النتائج بل أنه على العكس من ذلك يؤدى إلى استشعار قوة الدول الأخرى و إيجاد جو مفعم بالخوف وعدم الطمأنينة . ومتى وجد الخوف تولد الوسواس وعدم الثقة والتخيلات السيئة المختلفة إلى أن تستشعر كل حكومة أنها تجنى على الوطن وتعبث بمصالح البلاد إن هي توانت فى اتخاذ ما يلزم من الاحتياطات . ثم انها تعتبر ما تتخذه كل حكومة أخرى من الاحتياطات التى من هذا القبيل كدليل على سوء النية . وأحسب أن رؤية الحالة بهذه العين فى اليوم الذى دارت فيه المحادثة مع مترنيخ كان داعيا إلى اليأس لأنه كان تشاؤما مروعا لا مسوغ له قد يعجل بوقوع كارثة يمكن اجتنابها .

وسأتناول — فى فصل تال — ماذا كان فى استطاعتنا القيام به من الجهود الأخرى لمنع الحرب فى سنة ١٩١٤ . وسأبين كيف كان يلوح لى وقتئذ — وهو ما لا أزال أعتقده إلى الآن — أن السلطات العسكرية فى ألمانيا اختارت الوقت المناسب وعجلت بوقوع الحرب ، وأن ألمانيا لو كانت تريد السلام حقيقة لما نشبت حرب أوربية عظمى بسبب النزاع الصربى النمساوى (كذا !) ومع أن هذا هو الواقع فلا أريد أن يتخذ الناس كلامى القول الفصل الذى لا يقبل الجدل عن منشأ الحرب العظمى ، بل أعتقد أن ازدياد التسليحات فى أوربا وما ترتب عليها من عدم طمأنينة وخوف ، هذه كانت فى رأيى هى الأسباب التى جعلت الحرب لامناص من وقوعها . وعندى أن هذا هو أصدق استقراء لوقائع التاريخ بل هو الدرس الذى ينبغى أن يتعلمه الحاضر من الماضى لمصلحة السلام فى المستقبل والعبرة التى ينبغى أن يتلقاها الخلف عنا .

وحسبك دليلا على وقع التسليحات ومضاعفة الاحتياطات فى نفس الأمة الأخرى الواقعة وراء الحدود ما أبداه الإمبراطور الألمانى من الاستياء والتذمر فى أثناء محادثته مع الكابتن اللنبى فى ١٦ يناير سنة ١٩٠٦ . وإليك الفقرة التى أشار فيها الكابتن اللنبى إلى ألفاظ الامبراطور فى خلال المحادثة . قال :

« انظر إلى فرنسا كيف أنها انفقت فى أثناء الستة الأشهر الماضية نيفا و ٢٠٠ مليون فرنك لتعزيز معدات الدفاع على حدودها فملأت مخازنها بالذخيرة وأصلحت القلاع كل ذلك تأهبا للغارة المنتظرة التى سيقوم بها جنودى فى حين أنى لم أحرك مركبة ذخيرة واحدة ».

وقد كان فى أوائل سنة ١٩٠٥ أن أذعنت فرنسا تحت الضغط الألمانى — لما تضمنه طرد المسيو ديلكاسيه من الوزارة من الإذلال : لأنها أحست بأنها مرغمة على الإذعان بسبب المنشئات العسكرية الألمانية التى كانت أكثر تأهبا للحرب من المنشئات الفرنسية . وبديهى أن الضغط الألمانى لم يترك لفرنسا ملجا آخر سوى أن تحسن قواتها ومعداتها بوضعها على نمط القوات والمعدات العصرية . ومع ذلك كان لعملها هذا وقع سىء فى نفس الإمبراطور فى سنة ١٩٠٦ مثل ما كان للمنشئات الألمانية من وقع سىء فى نفوس الفرنسيين .

وعلى أنه مهما قد يعتبر سابقا لأوانه فإنى استصوب اتمام حكاية المحادثات العسكرية بأن أذكر بالاجمال ما حدث فى السنوات التالية

فقد مرت أزمة مؤتمر الجزيرة بسلام . نعم لم يقف أعضاء الوزارة جميعا وقتئذ على ما دار من المحادثات العسكرية ولكن لابد أن يكون الوزراء الذين حضروا اجتماعات لجنة الدفاع الامبراطورى قد علموا بها حق العلم .

ولست أجد فيما عدا ذلك فى محفوظاتى ما يختص بتلك المحادثات إلى سنة ١٩١١ . ففى يناير من تلك السنة عقد اجتماع اللجنة الوزارية الخاصة بالشؤون الخارجية . وكانت هذه اللجنة مكونة من الكاتب ومن اسكويت ومورلى

ولويد جورج وكرو وهلدين، ولست أذكر اذا كانت مسألة المحادثات العسكرية قد عرضت على بساط البحث أمام هذه اللجنة ؟ (كذا ! وكذا !)

وفى ٦ ابريل سنة ١٩١١ لفت الأنظار إلى أمر هذه المحادثات فى الخطاب التالى الذى أرسلته إلى اسكويث . أما الرسالة التى يشير الخطاب إلى ورودها من بيرتى فلابد أن تكون موجودة فى المحفوظات الرسمية بوزارة الخارجية ولو أن البحث عنها لم يؤد إلى نتيجة ! وهذا الخطاب منقول عن صورة محفوظة ضمن أوراقى الخاصة وهو كما يأتى : —

تحريراً فى ١٦ ابريل سنة ١٩١١

عزيزى اسكويث

ارجو أن تلق نظرة على الرسالة الواردة من بيرتى بتاريخ ١٣ ابريل وقد أشرت على الجزء المهم فيها لتطلع عليها أنت أو مورلى أو هلدين وأرى ان نتحادث أنا وأنت ومورلى في الموضوع بمجرد عودة هلدين .

ففى أوائل سنة ١٩٠٦ سألتنا فرنسا هل نستطيع مساعدتها فيما إذا وقعت الحرب بينها وبين ألمانيا ؟

فكان جوابنا « أننا لانستطيع اعطاء وعد صريح فى هذا الصدد . وينبغى أن تظل أيدينا مطلقة » .

وإذ ذاك ألح الفرنسيون فى السماح للسلطات العسكرية فى البلادين بتبادل الآراء حيث يبين خبراؤنا ما فى استطاعتهم عمله بينما يبين الخبراء الفرنسيون كيف يمكن فى حالة وقوفنا إلى جانب فرنسا — تطبيق ما يراه خبراؤنا على الطريقة التى يستحسنها الفرنسيون . وقد لفت الأخيرون نظرنا إلى وجوب تبادل الآراء فوراً خيفة أن لا يتسع الوقت لتقديم المساعدة الفعالة عند إعلان الحرب فيما لو قر رأينا على الوقوف إلى جانبهم . فوافقنا على ذلك . وإلى هنا كنت أنا وكامبل بانرمان وريبون وهلدين على علم بما كان يجرى فى حين كنت انت وبقية الزملاء منهمكين فى شئون الانتخابات .

ثم دارت المحادثات بين الخبراء العسكريين ولكني لم أقف بعد على ماقر عليه رأيهم . وقد كان الموقف يتلخص فى أن الحكومة ظلت يدها مطلقة بينما كانت السلطات العسكرية على علم بما ينبغي عليها عمله عند صدور الأمر إليها .

فإن لم يكن قد طرأ تغيير على الخطط التى وضعتها فرنسا فيما لو نشبت الحرب فلا حاجة إلى عمل شىء آخر . ولكن من الواضح أننا سيطلب إلينا عمل شىء .

المخلص

اووارد غراى

وفى ربيع سنة ١٩١١ حدثت أزمة أجادير خيف أن تؤدى إلى نشوب الحرب بين ألمانيا وفرنسا : وعم القلق فرنسا وتاقت حكومتها إلى معرفة نية الحكومة البريطانية وهل تقدم إليها مساعدة جدية فيما إذا نشبت الحرب وكان هذا أشبه بالموقف وقت عقد مؤتمر الجزيرة سواء بسواء . فلم يكن فى وسعنا اعطاء أى تعهد هذا مع أن المحادثات العسكرية[1] كانت طبعا دائرة بهمة ونشاط .

وفى شهر سبتمبر من تلك السنة كتب إلى اسكويث ما يأتى :

ارتشرفيلد

تحريراً فى ٥ سبتمبر سنة ١٩١١

عزيزى غراى

يلوح لى أن المحادثات التى تجرى بين الجنرال جوفر والكولونيل فيرهولم على جانب عظيم من الخطورة وخاصة ما كان متعلقا باحتمال تقديم المساعدة من ناحية انجلترا . وعندى انه لا ينبغى تشجيع الفرنسيين فى الظروف الحاضرة على أن يبنوا خططهم على أساس احتمالات من هذا القبيل (كذا !)

المخلص دائما

هارى اسكويث

---

(١) هذه المحادثات كانت تدور حول احتمال اختراق الألمان للأراضى البلجيكية وما تستطيع التجريدة الانجليزية أن تسديه من المعونة .

فاجبت على ذلك بما يأتى

وزارة الخارجية

تحريراً فى ٨ سبتمبر سنة ١٩١١

عزيزى اسكويث

اذا نحن أصدرنا الأمر إلى خبرائنا العسكريين بعدم محادثة ولاة الأمور الفرنسيين لأحدث ذلك دهشة مصحوبة بخيبة الأمل (كذا !). وليس ريب فى أن هذه المحادثات مضافا إليها ما ألقيناه من الخطب قد أوجد فى أنفس الفرنسيين شيئا من الأمل وجعلهم يتوقعون المساعدة منا . ولست أرى كيف نستطيع منع ذلك (كذا ! كذا !)

وتدل الأنباء اليوم على أن الألمان يسيرون فى المفاوضات بلا التفات إلى ضياع الوقت، ثم أنهم قد حولوا موضوعها من الكونغو إلى الامتيازات الاقتصادية فى مراكش. وقد جاء كامبون لزيارتى فى هذه الساعة، وعلى العموم فانه متفائل. ويخيل إلىّ أن المفاوضات توشك أن تدخل فى دور ممل للغاية وإن كان لا ينذر بالخطر.

المخلص

ادوارد غراى

وينبغى أن يلاحظ هنا أن هذه الخطابات لا تشير إلى رجاء فرنسا على وجه العموم بأن نعدها بالمساعدة العسكرية فى كافة الاحوال، كلا بل كان رجاؤها ذلك خاصا بأزمة أجادير فحسب . أما مصدر ذلك الرجاء فهو ما ألقيناه وقتئذ من الخطب العامة فى صدد الأزمة المذكورة.

وعليه تكون أزمة أجادير قد وضعت المحادثات العسكرية فى الصف الأول من الأهمية ولا بد أن يكون بعض الوزراء قد اطلع على ما دار فى خلالها فى سياق المناقشة فى لجنة الدفاع الامبراطورى . ولم تأت سنة ١٩١٢ حتى كان سائر الوزراء عالمين بامرها . على أنه كان من حق أولئك الوزراء الذين لم يعلموا بامرها من

قبل أن يعرفوا بالضبط ما هو موقفنا أزاء فرنسا .

ولم يك ثمة أي تردد في وضع المسالة بحذافيرها على بساط البحث أمام مجلس الوزراء . لأن الاعتراض لم يكن إلا على السماح بذهاب هذه المحادثات الى حد بعيد بدون علم الوزراء جميعا . وكان بعض الوزراء الذين سمعوا بهذه المحادثات الآن لأول مرة قد خامرهم الشك وظنوها تنطوى على أمور كتم أمرها. ولهذا تساءلوا لماذا أخفيتها عنهم اذا كانت حقيقة لا تقيد البلاد بوعد ما كما أقول ؟! وقد طلبوا مني اعترافا كتابيا بان هذه المحادثات بريئة لا تقيد البلاد بوعد . وأحسب أن بعض الوزراء ممن لم يكونوا اعضاء في لجنة الدفاع الإمبراطورى قد توقعوا أن أمانع في كتابة ذلك الاعتراف . ولكن ما أشد ما كانت دهشتهم المصحوبة بالوسواس عند ما أبديت أنا واسكويث الموافقة على كتابة ذلك الاعتراف . ولما كنت قد أوضحت لكامبون أن الحكومة البريطانية يجب ان تبقى يدها مطلقة تماما وغير مقيدة ، لم أتوقع طبعا أية صعوبة في الحصول منه على جواب مرض متى كتبت اليه بشان موقفنا ازاء فرنسا . كذلك كنت اعلم انه أدرك موقفنا تماما وانه قبله على علاته ولذا لاينتظر أن يقيم العراقيل ، وأنه إن فعل أو تردد أو ابدى أى شك لأشرت بوقف المحادثات في الحال على ان لا تستانف حتى تستوفى الشروط الخاصة بها وإيضاحها بشكل خال من الغموض والايهام . لذلك وافقت في الحال على اقتراح زملائي الوزراء بان يكون الاعتراف كتابيا .

ثم شرعنا في تحرير صورة الخطاب في مجلس الوزراء . فلما أقره الوزراء وقعته بنفسي وأرسلته إلى المسيو كامبون . فجاءني الرد وهو مكتوب بنفس الصراحة التي توخيتها في خطابي اليه . ومنذ ذلك اليوم فصاعدا أصبح كل وزير عالما بموقفنا بالضبط ازاء فرنسا . وقد نشرت هذه الخطابات في سنة ١٩١٤ ولكن يحسن إثباتها هنا نظراً لأهميتها .

صورة خطاب

من السير ادوارد غراى إلى المسيو كامبون السفير الفرنسى فى لندن

وزارة الخارجية

تحريراً فى يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٩١٢

عزيزى السفير:

لقد دارت المحادثات فى السنوات الأخيرة من آن إلى آخر بين الخبراء العسكريين والبحريين من انجليز وفرنسيين ، وكان المفهوم دائماً أن هذه الاستشارات لاتقيد إحدى الحكومتين بأن تقرر فى المستقبل هل تساعد أم لاتساعد الحكومة الأخرى بالقوة المسلحة ، ولقد اتفقنا على أن لايعتبر التشاور بين الخبراء ـ ولا ينبغى أن يعتبر ـ بمثابة تعهد يقيد إحدى الحكومتين. بالعمل فى ظروف لم تحدث ـ وقد لا تحدث مطلقا . فتوزيع الأساطيل البريطانية والفرنسية فى الوقت الحاضر مثلا لم يحدث بناء على تعهد بالتعاون فى أثناء الحرب .

ثم أنك بينت أنه إذا طرأت أسباب جدية تحمل إحدى الحكومتين على توقع الاعتداء عليها بلا مسوغ من دولة ثالثة فمن الضرورى أن تعرف — فى تلك الحالة — هل يمكنها الاعتماد على المساعدة المسلحة من الحكومة الاخرى.

وأنى وافقت بأنه إن طرأت أسباب جدية تحمل إحدى الحكومتين على توقع الاعتداء عليها بلا مسوغ من دولة ثالثة أو حدث ما يتهدد السلام العام فعليها أن تبادر بمباحثة الدولة الأخرى في هل ينبغى أن تتعاونا سويا لمنع وقوع الاعتداء وصيانة السلام ، حتى إذا قررتا التعاون بحثتا في ما ينبغى اتخاذه من الاجراءات بالاشتراك فيما بينهما . فإن تضمنت هذه الإجراءات القيام بعمل مشترك فينبغى النظر فى الحال فى الخطط التى وضعتها هيأتا أركان الحرب فى البلدين ومن ثم تقرر الحكومتان الاتجاه الذى ينبغى أن تسير فيه خططهما.

المخلص

ادوارد غراى

فورد منه الرد الآتى :

صورة خطاب

من المسيو كامبون الى السير ادوارد غراى

ترجمة

السفارة الفرنسية بلندن

تحريرا فى يوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٩١٢

عزيزى السير ادوارد :

ذكرتنى فى خطابك بالأمس بتاريخ ٢٢ نوفمبر بان ولاة الأمور العسكريين والبحريين فى فرنسا وبريطانيا العظمى قد استشاروا بعضهم بعضا بين آن وآخر فى خلال السنوات الاخيرة ، وأنه كان مفهوما دائما أن هذه الاستشارات لاتقيد حرية إحدى الحكومتين فى أن تقرر فى المستقبل هل تمد الحكومة الأخرى بمساعدة قواتها المسلحة ، وأن هذه الاستشارات بين الخبراء لا تعتبر فى نظر أحد الفريقين — ولا ينبغى أن تعتبر — بمثابة تعهدات تقيد حكومتينا بالقيام بالعمل فى ظروف معينة ، وأننى قد لاحظت لك أنه إذا طرأت اسباب قوية تجعل إحدى الحكومتين تخشى وقوع اعتداء بلا مسوغ عليها من دولة ثالثة فمن الضرورى أن تعرف الحكومة التى تتوقع الاعتداء هل يمكنها الاعتماد على التأييد المسلح من الحكومة الأخرى .

وقد لاحظت أن خطابك يتضمن الرد على هذه النقطة . على أننى قد اذن لى بأن أقول أنه فيما لو طرأت أسباب قوية تجعل إحدى الحكومتين تخشى وقوع اعتداء من دولة ثالثة عليها أو حدوث ما يهدد السلام العام فان تلك الحكومة تبادر فى الحال إلى مباحثة الحكومة الأخرى فيما إذا كان ينبغى عليهما العمل سويا لمنع وقوع الاعتداء وصيانة السلام . وفى هذه الحالة تتباحث الحكومتان فى الاجراءات التى يمكنهما اتخاذها بالاشتراك فيما بينهما . فإن

تضمنت هذه الإجراءات القيام بعمل ما وجب أن تنظر الحكومتان فى الحال بعين الاعتبار إلى ما وضعته هيأتا أركان الحرب من الخطط ثم تقرر ان السير الذى ينبغى اعطاؤه لهاته الخطط .

المخلص

بول كامبون

ولا أذكر أنه خفيت على الوزارة أية مسألة أخرى لها شىء من الأهمية فيما يتعلق بالشؤون الخارجية .

ولقد طالما أسفت لعدم اطلاع الوزارة على المحادثات العسكرية لأول وهلة لأن ذلك كان يقطع الطريق حتما على كل شك أو وسواس . وعلى كل فإنه لما يبعث على الارتياح حقا أن هذه المحادثات قد عرض أمرها فعلا على الوزارة قبل نشوب الحرب بعامين . ولقد كانت الوزارة حكيمة بعيدة النظر عند ما أصرت على أن يكون التفاهم كتابيا . نعم انه لم يكن لا فى وسع كامبون ولا فى وسع حكومته أن يجادلا فى الواقع وأمامهما السجل الذى قيدت فيه المحادثات ولكن تسجيل هذا التفاهم كتابيا وتوقيعه من الطرفين جعل الأمر بينا واضحا لا فى نظر الرأى العام البريطانى فحسب بل وفى نظر العالم أجمع عند ما تحرجت الأزمة فى سنة ١٩١٤ .

